شذرات من وهوامش على سيرة ذاتية

منصور خالد

سنوات التكوين وبدايات الحياة العامة

الجزء الأول





شـــذرات

من، وهوامش على، سيرة ذاتية

(الجزء الأول)

منصور خالد

شذرات

من، وهوامش على، سيرة ذاتية

الجزء الأول

سنوات التكوين وبدايات الحياة العامة



للنشر والتوزيع

2018

الكتاب : **شذرات من، وهوامش على، سيرة ذاتية**
سنوات التكوين وبدايات الحياة العامة (الجزء الأول)
تأليف : **منصور خالد**
المدير المسؤول : **رضا عوض**
رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة : 0122/3529628
8 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين
تقاطع ش شريف مع رشدي
Email: Roueyapublishing@gmail.com
فاكس : 25754123 (202) +
هاتف : 23953150 (202) +
الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**
الغلاف والإشراف الفني : **عصام عبد الحفيظ**
جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**
الطبعة الأولى : 2018
رقم الإيداع : 2018/4120
الترقيم الدولي : 978-977-499-300-8

المحتويات

الصفحة	الموضوع

في ذكرهم

- في ذكر جد الأسرة الأكبر الفكي عبد الماجد الذي كان من دعائه لأبنائه: "إن شا الله أولادي لا يغنوا ولا يفقروا". فالفقر تتبعه المذلة والغنى يقود إلى البطر بالنعمة. وفي الكتاب ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾.

- في ذكر الراحلين من أسرتي النوبية: عبد الله بيه خليل، جمال محمد أحمد، داؤود عبد اللطيف، محمد توفيق أحمد، الذين تعلمت عنهم منذ ميعة الصبا الثبات في الرأي، والشجاعة في التعبير عنه، والإنصات للآخر رغم اختلاف الرؤى وتباين المذاهب.

- في ذكر الخال أمير الصاوي عميد الأسرة أبقاه الله، إذ عرفناه بعيد الغور في الفهم والاستنباط، وعليمًا حفيظًا بأسرار وطنه مما أهله لأن يكون سيد القوم. وفي قول أبي تمام:

لَيْسَ الغَبي بِسَيد في قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيد قَوْمِهِ المتغابي

- في ذكر معلميَّ الأوائل الذين أشرعوا أمامي أبواب العلم، وأهَّلوني للارتواء من مناهله، كما محضوني النصح حول ما ينبغي أن أفعل وما يجب أن أكف عن فعله: الشيخ النصري حمزة، الأستاذ عبد الرحيم الأمين، المستر فاركهارسون لانق، الأستاذ بشير محمد سعيد، الأستاذ محمد عبد العزيز إسحاق، الأستاذ إحسان عباس، فلكل واحد من هؤلاء الفحول بصمة في تكويني.
- في ذكر النابهين من شباب وشيب دار الثقافة بالخرطوم: محمد صالح الشنقيطي، مكي شبيكة، إبراهيم عثمان إسحاق، سعد الدين فوزي، الذين ثابروا على هدايتي إلى طريق الفلاح وسكك النجاح.
- في ذكر رجال القانون الذين زودوني في بداية عملي المهني بالمعارف القانونية، وأهم من ذلك بصروني بالالتزام بأخلاقيات المهنة: مولانا محمد أحمد أبو رنات، الأستاذ أحمد متولي العتباني، الأستاذ أحمد خير، والأستاذ إميل قرنفلي.

الفصل الأول

1

استهلال

مَنْ سَاءَهُ سَبَبٌ أَوْ هَالَهُ عَجَبٌ
فَلِي ثَمَانُونَ عَامًا لَا أَرَى عَجَبًا
فَالدَّهْرُ كَالدَّهْرِ وَالأَيَّامُ وَاحِدَةٌ
وَالنَّاسُ كَالنَّاسِ وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

«المعري»

الكاتب والكتاب

في أخريات الأيام أوقفت جُلَّ وقتي على الحياة مع النبات والكتاب بعد أن عَلمتنِي العُلقى الممتدة بالأناسي أنهم - إلا من عصم ربي - أكثر مخلوقات الله خباثية. النبات هو الكائن الحي الوحيد الذي لا يفارق منشأه، كما هو أكثر مخلوقات الله وفاءً لصاحبه. فالنبات لا يعض اليد التي تطعمه كما تفعل الكلاب، ولا يغدر بمن ائتوى إليه ولاذ به كما يفعل أغلب الناس. في النبات أيضًا كانفة تحمي الإنسان عَمَّنْ يتربصون به، وثمر يكون به قوام جسمه ونماؤه، وزهر بهيج تتفاوح رائحته فتنعش النفوس. ومتى ما رويت النبات، ولو قليلًا، تَفَرعن ساقهُ وأورقت أغصانه وفاح زهره. ما أبلغ رب العالمين حين قال: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: 5].

أما الكتاب، كما وصفه الجاحظ في "الحيوان"، فهو "الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يقليك، والرفيق الذي لا يَملُّك، والجار الذي لا يستبطئك". ومن إحسان الكتاب بك، كما قال الجاحظ أيضًا: "منعه إياك

من الجلوس على بابك، ونظرك إلى المارة بك على ما في ذلك من فضول النظر، وملابسة صغار الناس، وحضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة". في كلٍّ ما حكى الجاحظ عن الكتاب نجاة وسلامة من شرور أبغض خلق الله إلى نفسي: الفضولي والمتحذلق. ولئن كان الفضول هو تدخل المرء فيما لا يعنيه أو انشغاله بما لا فائدة منه، فالتحذلق هو تكاثر الإنسان بما ليس عنده.

النبات والكتاب لا يعزلان المرء عمن يحب، فبين الناس مَن يشاركك حب الزرع، وفلاحة الأرض، ورعاية كل نتوج ينبته الله نباتًا حسنًا. أما الكتاب فلا يخفي المرء عن الناس؛ لأن دنيا الكتب هي دنيا الناس. وعلني في هذا أتساءل، كما تساءل عباس محمود العقاد: "لست أدري كيف نشأ في أوهام الناس أن دنيا الكتب غير دنيا الحياة، أو أن الكاتب طراز من الخلق غير طراز الآدميين الذين يسيئون ويحسنون ويأخذون من عالمهم بنصيب قليل أو كثير" (ساعات بين الكتب). لهذا أضحت مكتبتي هي الصومعة التي لا تصيبني فيها خفقة من النوم حتى أضحيت مِسهارًا لا يخشى غوائل السهر، كما تحولت إلى ساحة مغلقة للتفكير فيما قرأت لفترات تطول أو تقصر.

القراءة محيط بلا ساحل؛ ولهذا صدق عباس العقاد مرة ثانية عندما قال: "نحن نقرأ لنبعد عن نقطة الجهل لا لنصل إلى مرحلة العلم"، فالإنسان والمعرفة الكاملة خطان متوازيان لا يلتقيان إلّا في اللانهاية. وبما أن الإنسان قد خلق مرة واحدة وسيموت ميتة واحدة، فكيف يمكن للإنسان أن يعيش أكثر من حياة في حياته الواحدة. أهم ما تعلمت من قراءاتي لعباس العقاد قوله: "لست أقرأ لأكتب وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة. القراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد؛ لأنها تزيد هذه الحياة من العمق، وإن كانت لا تطيلها بمعيار الحساب". لهذا السبب أخذت أقرأ كل ما يقع في يدي.

بين مصاحبة الكتب أغذي العقل بما بين دفاتها من معارف، وتحت ظل النبات أبهج النفس بأريجه الفواح، لم تفتأ الأحداث تدفعني للكتابة لأزيل عن النفس كربًا اشتد بها وثقل بسبب تلك الأحداث علّني أسهم برأي يفيد. فكثيرًا ما قلت لنفسي آن لي أن أطرح على الناس رأيًا قد ينفع؛ ولكن كثيرًا ما ردني عن ذلك الرأي وعدلني أمران. الأول هو احتشاد مجتمع الرأي، أو ما ينبغي أن يكون مجتمعًا للرأي، بصنفين من البشر أسترذلهما؛ أولهما صنف لا يميز بين النقد والتسافه، ولا ينحو إلى التسافه إلا متمرغ في الجهل. أما الصنف الثاني فهو الخبراء الذين تستنسخ منهم صحافتنا الغراء كل يوم عالمًا فذًا في ضرب من ضروب المعرفة. من هؤلاء الخبير الأمني الذي لا يؤتمن حتى على نفسه، والخبير الاستراتيجي الذي لم يَخُض - ناهيك عن أن ينتصر في - معركة؛ والخبير الاقتصادي الذي قلما يورد رقمًا في تحليله رغم أن الاقتصاد علم حساب. الخبير بكل شيء هو رب العباد؛ ولهذا من أسمائه الحسنى "الخبير"؛ لأنه عليم بما وقع وما سيقع. في بلاد الله الأخرى تلجأ الصحافة دومًا إلى مَن بلغوا شأوًا في العلم رفيعًا يؤهلهم ليُنعتوا بالخبراء. أما في السودان فرغم وجود كثر من الخبراء العالمين في مجالات الاقتصاد والاجتماع واللغة والقانون من ذوي التجارب الثرة على

المستويات الوطنية والإقليمية والدولية لا تلجأ صحافتنا الغراء ووسائل إعلامنا المتنوعة إلا إلى أشباه العلماء الذين يحاجّون حتى إبراهيم في ربه. ابتلاء السودان بهؤلاء كان عظيمًا؛ لأنهم - في حقيقة الأمر - يتربصون بالحاضر، ويلغمون المستقبل، من بعد أن طعنوا الماضي في خاصرته.

إلى جانب المعلقين المتسافهين والخبراء الواهمين برزت في السودان جمهرة أطلقت على نفسها **"علماء السودان"** وظلت الصحافة تولي الفتاوى التي تصدر عن تلك الفئة مكانًا مرموقًا علي صفحاتها. تعبير "علماء الدين" هذا لم يرد له ذكر في عهود مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد والأوزاعي، وإن كان لكل واحد من هؤلاء الأئمة الثقاة رأي في القضايا التي ينشد فيها الناس الفتوى واتفقت أو اختلفت معهم، كانوا يقولون: "علمنا هذا رأي". كما كانوا يختمون كل رأي أفضوا به بكلمتين: "والله أعلم". فقهاء اليوم أخنعتهم المصلحة للتقرفص عند باب السلطان يقولون ما يريد منهم قوله ويمتنعون عن قول ما لا يسره بازدراء بغيض لقول نبينا الكريم: **"مَا نَوْلُ امرئٍ مسلم أن يقول غير الصواب"**. يخيل إليّ أننا نعيش في وادي عبقر، ووادي عبقر عند العرب هو موطن الجن الحاذقين الذين نسب إليهم القدامى كل ما تعجبوا من جودة صناعته. غير أن ما يسجله هؤلاء العبقريون ويجلونه على الناس يبين أن كثيرًا منهم ثرثارون، وأغلبهم متفيهقون. تلك فئة من البشر استبشعها حتى رسول الله ﷺ الذي وهبه الله قدرة فائقة على احتمال الأذى، إذ قال: **"أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون"**.

السيرة الذاتية والحوار

في أخريات الأيام أخذ بعض يُلح عليّ بالسؤال: "لماذا لا تنشر مذكراتك أو على الأقل يومياتك (Journals)؟". وكأن هؤلاء ظنوا بأنني قد قاربت الرحيل دون أن يتذكروا أن بيد الله وحده المنايا والحتوم. بين هؤلاء أصدقاء أقربون هم مني في سويداء القلب وحدقات العيون، وحياتي بالنسبة لهؤلاء كتاب مفتوح

ليس فيه ما أخفيه عليهم أو أكتمه عنهم رغم أن في حياة كل إنسان ظاهرًا مرئيًّا وباطنًا مخفيًّا حتى على بعض الأصدقاء والأقربين. بيد أن الأصدقاء صنوف، وَهُمْ في قول لطه حسين، ثلاث طبقات: "طبقة كالغذاء لا تستغني عنه، وطبقة كالدواء لا تحتاج إليه إلا أحيانًا، وطبقة كالداء لا تحتاج إليه أبدًا ". ولعلني إن عزمت أن أسجل هذه المذكرات، فلا أفعلنَّ هذا إلا لسببين: الأول هو حث أبناء جيلي ومن تلاهم من أجيال على نقد تجاربهم نقدًا عميقًا لا اعتذاريًّا؛ فما مآسي الحاضر إلا نتيجة لتراكم أخطاء الماضي. هذه الأخطاء المتراكمة ولدت دمامل في جسد الأمة، إن تركت على حالها أدت إلى تسمم الجسد كله؛ ولهذا يصبح أول العلاج هو الاعتراف بالداء. أما السبب الثاني فهو اهتمامي بجيل بازغ من البنين والبنات، وبزوغ الصبي هو صيرورته جريئًا على الكلام. افتطنتُ إلى جرأة هؤلاء على الكلام عند لقائي بهم في الأسفار لقاءً يبعث على الإعجاب. مصدر الإعجاب هو: أولًا رغبتهم الجادة في التعرف على الأسباب التي قادت خلال نصف قرن بعد الاستقلال إلى تدهور البناء الوطني، وأيّ تدهور أكثر من تمزق الوطن. وثانيًا رفضهم للأحكام المسبقة على الشخوص والجماعات في مجتمع أضحى فيه بعض الناس أقرب إلى الوحوش التي تقتات بلحم البشر قبل لحم الخراف. وثالثًا اندهاشهم من تمنع قادتهم أَنَفة عن الاعتراف بأخطائهم علمًا بأن كل أخطاء البشر ناجمة عن العجز عن مواجهة النفس بالحقائق، فالنقد الذاتي حوار مع النفس، والذي لا يحاور نفسه وهو ينظر للحقيقة في وجهها حري به أن يصمت.

أيًّا كانت الدوافع التي تحملني على مخاطبة هذا الجيل، فمن حق ذلك الجيل استكناه حقيقة أيّ شخص عام يتصدى للقيادة سياسيًّا، أو يسعى لتكييف الرأي العام إعلاميًّا أو يدعو لحرية الفكر وهو لا يطيق من الأفكار إلا ما يدعو إليه، أو يؤم الناس في الصلوات ويقف أمامهم واعظًا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو قائم على كل عمل يقضي الدين بخبثه وقبحه. أجل، من حق هؤلاء وغيرهم أن يلموا بكل دقائق حياة أي شخص يعمل في المحيط العام، أو المحيط الخاص

الذي يرتبط عضويًا بالعام، ما دامت الإفادات قد صحبتا أدلتها. هذا سؤال لم يدر بخلد الكثيرين من قبل، ولكن لا يملك أحد تجاهله اليوم بعد أن خَمُصَتْ بطون أهل السودان، وأخذت شفاههم ترضب ريقها لتروي الجسم من العطش في بلد تشقه ثلاثة أنهار، ويحمل جوفه ثروة ضخمة من المياه الجوفية. هذا هو الوطن الذي أردنا له كما أراد له إخوتنا العرب أن يكون سلة لغذاء العالم. وهذا هو الوطن الذي كان عند استقلاله أكبر أقطار أفريقيا مساحةً وأقدمها سبقًا للاستقلال وأغناها مواردَ. هذا أيضًا هو الوطن الذي أصبح أهله في هذا الزمان يهرولون جمعًا وأفذاذًا في طرقات مدنه مشدوهين وكأنهم يهربون من الحياة، أو ضلوا الطريق في فلاة سهب لا نهاية لها. تلك الغيبوبة الجماعية التي لحقت بالناس وهم يجوسون في طرقات كادت أن تصبح استكانة مَرَضيّة لمآسي الماضي وبؤس الحاضر وضَيمه، وتلك حالة لم يحسن وصفها شاعر مثل أحمد شوقي في مديحه للسلطان عبد الحميد:

قَدْ تَعِيْشُ النُّفُوْسُ في الضَّيْمِ حَتَّى ... لترى الضَّيْمَ أنها لا تضام

طرح ذلك السؤال والإجابة عليه واجب يثاب فاعله ويعاقب تاركه.

فيما مضى من زمان لم أكف عن تناول قضايا الوطن في الكتب والمقالات والبحوث ناعتًا ما أكتب بالحوار، لظني أن الحوار يهز الثوابت المستقرة، ويوقظ العقول الخدِرة. انعدام الحوار الذكي، ليس فقط بيني وبين قرائي، بل بين الحاكم والمعارِض، أو المعارِض والمعارِض الآخر، انتهى بنا إلى انشقاق العصا، وتشتت الآراء، وانحلال العقدة حتى كاد السودان أن يصبح حصانًا معطوبًا ينتظر رصاصة الرحمة من أي جهة جاءت. هدفي من ذلك الحوار كان هو الإسهام بقدر ما أستطيع في تمكين السودان من الارتفاع إلى أعلى عليين، وذلك موقع تؤهله له إمكانات ذاخرة وتاريخ قديم يُعْنَى به العالم أكثر مما تُعْنَي به أكثر نخبه. أهم من ذلك الحيلولة دون أن تشد السودان إلى أسفل سافلين قوى رسوبية في كل مرحلة من مراحل تطورنا السياسي، لو كان في الرسوب ارتقاء أو في الانتقال من قاع إلى قاعٍ أعمق تطور.

فيما مضى من زمان كنت أيضًا قليل الحَفل بتسجيل أيّة سيرة ذاتية لأسباب أربعة. السبب الأول هو أن ما يُفتَرض أن يتطلع إليه القارئ في سيرة أي شخص في مجتمع إنساني يزعم، أو يحسب الآخرون، أن له دورًا قياديًّا فيه ينبغي ألّا يجاوز نشاط الشخص في الفضاء العام، في حين يتطلع أغلب مَن يقرأ السير الذاتية إلى التعرف على سرائر الكاتب، والله وحده الأعلم بالسرائر. السبب الثاني هو أنني ربما كنت من القلة من أبناء جيلي التي حرصت على الإبانة عن رؤاها وأفكارها في القضايا العامة بلا مواربة ودون استكبار أو استحسار. وإن كان الاستكبار هو العناد في قول الحق فالاستحسار هو الملل والضيق من إجلاء الرؤى على الناس. السبب الثالث هو أن كتابة السيرة الذاتية تعبر عن أنوية (مِن أنا) مفرطة وذلك أمر لا محيص عنه ما دام المرء يروي قصة هذا الأنا. ذلك أمر تحجم عنه نفسي كثيرًا لما فيه من تعاظم وتكبر وفي الكتاب: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: 13]. أما السبب الرابع فهو عزوفي عن الإفضاء عن خاصة أمري إلا لمن هم بذلك حقيقون، لا لطفيليي الأعراس. طفيلي الأعراس نعت تطلقه العرب على الشخص الذي لا ينأى عن وليمة، أو يتخلف عن حفل، لم يُدع إليهما. وفي أكثر من لقاء صحفي رددت على مَن طلب مني الإفضاء بأمور ذات خصوصية في حياتي بقول لأب الطب النفسي الحديث، سيجموند فرويد. سئل فرويد عن الأسباب التي حدت به لأن لا يسجل سيرته الذاتية مثل غيره من معاصريه، فقال: "**لم أسجلها لأن الناس لا يستحقون أن تُقال لهم كل الحقائق**". وأقدر أن ما أراد العالم النفساني قوله هو أن بين الناس أشرافًا وسِفلة، وأخيارًا وأشرارًا، كما بينهم من يدرك قدر نفسه فيرحمه الله، ومَن هم غافلون عن قدرة رب العالمين لأن يريهم ورهطهم "آياته في الآفاق وفي أنفسهم". فمن ذا الذي يكشف عن ذات نفسه لأناس مخاليط فيهم الصالحون، وأكثرهم دون ذلك. ولعلني كنت لأصبح من أشقى الناس لو انشغلت بهؤلاء المتقحمين في خصوصيات غيرهم. فمن بين ما يروى عن الموسيقار السويسري – الأمريكي إرنست بلوخ قوله: "من فرط ما لقيت من إيذاء دون مبرر صرت أشك حتى في بعض صحبي لأنهم بشر". هذا قول سبق بلوخ إليه أبو الطيب:

وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيْهِ   لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ

ولكن بعون منه تعالى أغفلت هؤلاء حتى أصبح لا يعنيني من أمرهم شيءٌ في قُبال أو دبار بِمَنْ في ذلك نَزِقو الحقاق الذين استمرأوا الإقذاع لنا بالقلم واللسان. نَزِق الحقاق هو مَن يسيء إليك وليس بينك وبينه خصومة، وذلك وأيم الحق لؤم وشراسة لا نعرف لهما مبعثًا إلا الغيرة مما حقق المرء من كسب، أو الحسد على ما أسبغه الله عليك من فضل: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 54]. على أولئك عقدت العزم على الصبر، والصبر قوة احتمال. وفي قول أبي الطيب:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أغْرَاضٌ لَدَى الزَّمَنِ   يخلُو مِنَ الهمِّ أَخْلاهُم مِنَ الفِطَنِ
يَسْتَخْبِرُوْنَ فَلا أُعْطِيْهِمَ خَبَرِي   وَمَا يَطِيْشُ لهم سَهْمٌ مِنَ الظَّنَنِ
قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كلَّ نازلة   وَلَيَّنَ العَزْمُ حَدَّ المَرْكَبِ الخشِنِ

هناك مَن ظلوا يجادلوننا كيدًا أو "مكاواة" والمكاواة في عربية السودان العامية هي المغايظة. وقد درجنا على تجاهل سخافة العقل هذه. وإن كنا قد ضننا بالرد على هؤلاء ووطدنا العزم على أن نفعل بهم ما كان القاص الروسي تشيخوف يفعل بالمتربصين به. ففي وصفٍ للأسلوب الذي كان تشيخوف يتعامل به مع ناقديه المتربصين به قال ماكسيم جوركي: "عندما تحرث الخيل الأرض تبقى عضلاتها مشدودة كأوتار الكمان. وفجأة تنقض على كفل الحصان ذبابة تطن، ثم تلسع لأنها تريد أن تشعر من حولها بوجودها. بيد أن الحصان كان لا يحفل بطنينها أو لسعها، بل يحرك ذيله يضربها به فتفر إلى حيث أتت". ولكن من الذباب ما لا ييأس من الطنين ومحاولة اللسع، وذلك جنس من الهوام عزمت على إهمال ما ورد عنهم حول ما كتبت، خاصة وأنا ما فتئت أكتب إلا لنوعين من القراء: القارئ الذي أحسبه من أهل المعارف، وذلك الذي يسعى للحوار الذكي مع الكاتب.

بعيدًا عن قصة ذيل الحصان مع الذبابة الطنانة نقول إن أكثر ما دفعنا لإعادة النظر في الإمساك عن تسجيل المذكرات عاملان: الأول - كما قلنا - هو حرص الجيل البازغ الذي أدرك بحسه أن ثمة عفونة تشوب مملكة الدنمارك (something is rotten in the Kingdom of Denmark) حسب وصف وليام شكسبير لتلك المملكة في رواية هاملت. مملكة السودان اعتراها - هي الأخرى - فساد مزمن حتى تثقب أديمها وتمزق كيانها. فمن حق ذلك الجيل، إذن، أن يعرف مواطن العفن، كما من حقه أيضًا أن يعرف لماذا أصبحت أغلب نخبته السياسية تألف مضاجع الهون والخزي، وتنزل بنفسها إلى منازل الدناءة. لقد أتيح لهذا الجيل البازغ، كما أتيح للأجيال التي سبقت، الاستماع لشعر الحماس في السودان الشمالي النيلي، وكله أماديح لأبطال صُوروا للناس شجعانًا غلابين. ومثل كثير من أبناء جيلي أصبحت من هواة شعر الحماس أقرؤه وأستمع إليه وأهتز له، دون أن أكون قد قرأت أو سمعت عن أشباه له في آداب الشعوب غير العربية، وبخاصة لما فيه من مبالغات في تضخيم الذات والتفاخر بالقبيل. من أولئك الجحاجيح الشجعان مجد الشعراء في دار الجعليين الحسن ود ضبعة عمدة الجوير: "صنديد الولايا" الذي ينمونه لحمزة وعباس ويقولون عنه: "سيد أصلًا قديم من الحمزة والعباس". وتباهوا بصهيل خيل "نمر الشمال الحاضن فروعو مقيّل وكفو بيخجل العينة السحابا منيل". وفاخروا بفارس الكواهلة "دقر الحرايق" و"كسار قلم مكميك". وأشادوا بود حبوبة "أسد الكداد الزام الهز البلد من اليمن للشام". هل كانت هذه الأماديح وصفًا لأفعال حقيقية، أم هي من أساطير الأولين؟ وإن لم يكن الأمر كذلك فأين ذهب هذا الترفع عن الإذلال والرفض للانقياد الذي عبرت عنه الشخصيات الأسطورية التي استفزتها حتى غطرسة المفتش الانجليزي وتكبر المأمور المصري؟ أوَلا يجدر بنا أن نتساءل -نحن أحفاد أولئك الصناديد- لماذا أخذنا نمسك على هون الظلم الفاحش الذي يمارسه علينا مَن وَلي أمرنا من ذوي القربى، وفي قول طرفة بن العبد:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

رغم ظلم ذوي القربى ما فتئ أحفاد أولئك الجحاجح يغشون حفلات الغناء الحماسي ولا عوج في ذلك، ولكن العوج في انتصابهم وسط الحلقة يهزون عصيهم وأردافهم طربًا كلما تغنى الشادي ببطولات الأقدمين. فما هو مبعث الفرح بتلك البطولات في زمان قل خيره، وتفاقم شره، وذُل أهله. هذا النوع من التفاخر ينبي عن عدم الرشاد، ويعيد إلى الذهن أبياتًا للمعري هي:

وَكَيْفَ يُؤَمِّلُ الإِنْسَانُ رُشْدًا وَمَا يَنْفَكُّ متبعًا هَوَاهُ
يَظُنُّ بِنَفْسِهِ شَرَفًا وَقَدْرًا كَأَنَّ اللهَ لم يخلقْ سِوَاهُ

ترى هل نصدق ما قاله أديبنا الكبير الطيب صالح: إن "السودان أرض لا تنبت إلا الأنبياء"؟ أو يصدق مقال الكاتب محجوب باشري: "السودان بلد غاب عن سمائه الإله"؟ أم هو مثل أورشليم التي قال فيها: المسيح عن الفريسيين اليهود: "يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء والمرسلين"؟ أم أن الإنسان هو الإنسان حيثما كان كما صوره جان بول ساتر: " أكثر الحيوانات فحشًا وضراوة وجبنًا". وفي كتاب الله أوصاف تبين فحش الإنسان، وتكشف عن ضراوته، وتميط اللثام عن جبنه. لم يدفعني لهذه المقاربات غير تضخيم الذات عندنا في السودان، فنحن - فيما نحسب، أشجع أهل الأرض جميعًا، "وأرجلهم" جميعًا، وأكثرهم عروبة من كل العاربة والمستعربة. كما نحن " من نفر عمروا الأرض حيثما قطنوا". وليس ببعيد عنا أقوام شتى يصنعون الحاضر، ويمهدون لبناء المستقبل، وقلما يتحدثون عن مآثر الماضي إلا حيثما يجب الحديث في صالات الدراسة ومباحث التاريخ.

العامل الثاني الذي حملني على تسجيل هذه الشذرات من السيرة الذاتية، وما يتبعها من هوامش على المتن، هو أنني رغم كل ما أوردت حول الكوابح التي صدتني عن كتابة السيرة الذاتية، ظللت من المستهامين بأدب السيرة. وكثيرًا ما يخلط الناس بين نوعين من هذا الجنس من الأدب: الترجمة الذاتية (autobiography) وهي ترجمة الكاتب لحياته يروي فيها ما يريد روايته عن

الخاص أو العام في تلك الحياة، والسيرة الغيرية (biography) أي سيرة الشخص يرويها المعنيون بحياته، يبينون فيها المؤثرات النفسية والفكرية التي أسهمت في صنع شخصيته (his persona) كما عرفوها، أو ظنوا أنهم قد عرفوها. هناك أيضًا نوع من السير يسطرها كاتبوها بناء على ما يتوافر لهم من معلومات عن الكاتب، إما بهدف تمجيد أو تهجين سيرته. وهذا نوع من أدب السير يندرج في باب ما يُسَمَّى بالسير القصصية (fictional biographies).

المكتبة الغربية تحفل بالعديد من التراجم الذاتية أو السير بالغة الجرأة في محتواها. من ذلك اعترافات جان جاك روسو صاحب العقد الاجتماعي التي دَوَّنَهَا في عام (1769) ولم تنشر إلا بعد وفاته في عام (1782). في تلك الاعترافات أبان روسو عن الظروف التي كَيَّفت حياته وأملت عليه أفكاره، ومع ذلك لم يَتَوَرَّعْ عن سرد بعض خصوصيات حياته، مثل علاقاته الجنسية غير المشروعة. ولعل روسو لم يُرِدْ بنشر ما حسبه البعض أدبًا فضائحيًا غير تحليل استبطاني لنفسه. ذلك النوع من الإجلاء عن خصوصيات الحياة، سبق روسو إليه القديس سان أوغسطين الذي عَرَّي نفسه في مذكراته، وكشف عما ارتكب من آثام. كتب أيضًا الشاعر الانجليزي وليام هازلت كتابًا من أجزاء ثلاثة سماه "كتاب الحب" (Libber Amoris) عن حياته الزوجية، وقد حسبه البعض ضربًا من الأدب الفضائحي. ومن الذين سجلوا سيرتهم الذاتية نظمًا الشاعر وليام ويرذ ويرث تحت عنوان "استهلال" (Prelude). تلك السيرة القصيرة نشرت بعد رحيل الشاعر من إنجلترا إلى فرنسا التي حمله إلى النزوح إليها والاستقرار فيها إلى حين إيمانه بالأفكار الجمهورية. وعلى أي حال، أضحى أدب السير رائجًا في الغرب، وأولي تقديرًا كبيرًا وَرُصِدَتْ له جوائز مثل جائزة قونكور (Goncourt) لأدب السيرة في فرنسا، وجائزة بلتزر (Pulitzer) للجنس نفسه من الأدب في الولايات المتحدة.

مع ذلك لابد من الإشارة والتنبيه إلى أن هذا الجنس الأدبي قد طرقه العرب منذ زمان. مثال ذلك "السيرة النبوية" لابن هشام، "مناقب عمر بن الخطاب"

لابن الجوزي، "سيرة عمر بن عبد العزيز" لابن عبد الحكم، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد، التي تضمنت خمسة عشر جزءًا خص بها ابن سعد سيرة النبي وصحبه ومَن أدركهم من تابعيه، كما ترجم للنساء في الجزء الأخير. من تلك السير أيضًا سيرة الشيخ الحكيم ابن سينا التي روي فيها قصة نشأته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم، والبلاد التي زارها وألفتها نفسه. و"وفيات الأعيان" لابن خلكان. و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي. وبطبيعة الحال لم تذهب تلك السير إلى الغوص في الحياة الخاصة لمن وردت سيرتهم كما ذهب بعض المؤرخين التابعين، ربما مع بعض الاستثناءات. من تلك الاستثناءات ما كشف عنه الإمام اللوذعي ابن حزم -وهو فقيه صاحب مذهب- عن علاقاته بالمحبوب. قال الإمام في "طوق الحمامة" "دعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل إلا زادني ظمأ....... ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستزيدًا، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة، ولا رهقتني فترة. ولقد ضمني مجلس مع بعض مَن كنت أحب، فلم أجِلُ خاطري عن فنٍّ من فنون الوصل إلا وجدته مقصرًا عن مرادي، وغير شافٍ وجدي، ولا قاضٍ أقل لبانة من لباناتي، ووجدتني كلما ازددت دنوًّا ازددت ولوعًا".

في الوقت نفسه لم يَجسُر كبار الكتاب العرب المعاصرين الذين ترجموا سيرهم إلى الكشف عن حيواتهم الخاصة إلا بالترميز. من أولئك محمد حسين هيكل "زينب". إبراهيم عبد القادر المازني "إبراهيم الكاتب" طه حسين "الأيام". توفيق الحكيم "عصفور من الشرق". بعض هؤلاء الفطاحل تأثروا في إيراد سيرهم الذاتية بكاتب فرنسي فتن به المشارقة لنزعته الإنسانية ولأسلوبه في الرواية عن نفسه باستخدام ضمير الغائب في "كتاب صديقي" (Le Livre de Mon Ami). ذلكم الكاتب هو أناتول فرانس الذي تقفى أسلوبه طه حسين في الجزء الأول من "الأيام"، والمازني في "إبراهيم الكاتب"، وزكي نجيب محمود في "قصة عقل". ومن بين جميع هؤلاء نقدر أن سيرة طه حسين في "الأيام" هي النص التأسيسي في الأدب العربي الحديث للسيرة الذاتية، بل أخطرها على

الإطلاق؛ لأن الدكتور العميد لم يكتفِ فيها بالكشف عن ذات نفسه بل عرَّى فيها المجتمع الذي كان يعيش فيه.

أما في حالة أحمد أمين فقد كشف مؤخرًا ابنه جلال أحمد أمين عن الكثير مما أورد الوالد في سيرته الذاتية "حياتي" من أشياء تجافي الواقع. ففي كتابيه اللذين تضمنا سيرته الذاتية: أيْ سيرة الابن، "ماذا علمتني الحياة؟" و"رحيق العمر" كشف جلال عن بعض ما أخفاه الأب في سيرته الذاتية مثل النعوت السيئة التي كان الوالد أحمد أمين يطلقها على زوجته (أم جلال). كتابا جلال أمين من أروع ما قرأت من كتب السيرة الذاتية في السنوات العشر الأخيرة. وقد شدني إلى الكتابين، أولًا موسوعية الكاتب التي مكنته من التنقل كالنحلة بين مغاني الأدب، ومجال الاقتصاد، وصروح الفكر؛ وثانيًا اجتراء الكاتب وإقدامه على الحديث فيما لا يجترئ على الحديث عنه إلا كاتب مقدام. ولا ريب لديّ في أن من بين ما أعان جلالًا على تلك الجرأة الفائقة تعليمه الأوروبي (مدرسة لندن للاقتصاد) وكسبه المعرفي من الحياة في البيئة الأوروبية. ولاشك في أن أحمد أمين كان مدركًا لهذا النقص؛ ولهذا - كما روى جلال - طلب من تلميذه النجيب إحسان عباس الذي كان يسجل عن شيخه فصول كتابه "حياتي" أن يحملها إلى زكي نجيب محمود لمراجعتها بحكم إلمامه بعلم السير في الغرب. على خلاف أولئك الفطاحل: طه حسين، احمد أمين، إبراهيم عبد القادر المازني، محمد حسين (لا حسنين) هيكل، توفيق الحكيم، كان عباس محمود العقاد متفردًا. العقاد آثر ألّا يُظهر من حياته الخاصة للناس ما ليس يعنيهم، ولكنه دَوَّن في الكثير مما كتب فصولًا عن سيرته: "في بيتي"، حياة قلم"، "رجال عرفتهم" تُبين للناس أوجهًا من حياة العقاد لا يضير أن يعرفوها. هذه الفصول قام بنشرها الأستاذ طاهر الطناحي، مدير "الأهرام"، بعد رحيل العقاد باعتبارها السِّفر الوحيد الذي تحدث فيها الكاتب العملاق عن نفسه.

جميع هذه السير قد سجلها أدباء عرب، فما بال السياسيين العرب؟

أول اسم يتبادر إلى الذهن هو اسم الزعيم المصري سعد زغلول الذي أودع في غرفته الخاصة في منزله (بيت الأمة) مذكرات كان يدوِّنها يوميًّا في كراسات مدرسية بعد تناوله كأسًا من الخمر. وفي واحدة من تلك الكراسات سجل الزعيم "ويل لي من الذين يطالعون من بعدي هذه المذكرات". ما الذي كان يخشاه الزعيم؟

في تلك المذكرات لم يجفل سعد من الحديث عن ولعه بالخمر والميسر. ففي واحدة من مخطوطاته قال "كنت أتردد بعد عودتي من أوروبا على الكلوب، فَمِلْتُ، إلى لعب الورق". قال أيضًا "رأيت نفسي لعبت وتهورت في اللعب وأتى عليّ زمان لم أشتغل إلا به، ولم أفكر إلا فيه، ولم أعاشر إلا أهله حتى خسرت فيه صحة وقوة وثروة". كثيرون أعادوا النظر في تقديرهم لسعد بعد نشر مذكراته في أحد عشر جزءًا أشرف على تحقيقها المؤرخ عبد العظيم رمضان. ولكن ربما شفعت لسعد أولًا جرأته في الحديث عن سلوكه الخاص، وثانيًا ندمه على بعض ما كان يفعل "وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه".

ما حال أدب السير في سوداننا المعاصر؟ نقول باستثناء كاتب فرد لم تسجل الشخصيات العامة - أدباء كانوا أم سياسيين - سيرًا تتجاوز السياسة السياسوية. من تلك السير السياسوية "مذكرات خضر حمد"؛ "ذكريات ومواقف في طريق الحركة الوطنية السودانية " لأمين التوم؛ " مذكرات أحمد محمد يس"؛ "صفحات من تاريخ الحركة الوطنية" لعلي حامد؛ "الديمقراطية في الميزان" لمحمد أحمد محجوب، في حين آثر الصمت آخرون كان الناس يترجون أن يقرؤوا عنهم شيئًا بأقلامهم. الاهتمام بهؤلاء كان إما لدورهم التاريخي في الحركة الوطنية والحكم مثل إسماعيل الأزهري وإبراهيم أحمد الذي ارتبط اسمه بمذكرة المؤتمر، أو لحذقهم في أداء المهام التي أوكلت لهم مثل ميرغني حمزة وعبد الرحمن علي طه. فإسماعيل الأزهري، مثلًا، لم يدون إلا كتابًا واحدًا هو "الطريق إلى البرلمان"، وهو كتاب لا يصلح إلا لتأهيل الطلاب لإدارة الجمعيات فيما كان يعرف بدروس التربية الوطنية، ومنها إدارة الجمعيات. ويظلم الكثير من المعلقين الزعيم إسماعيل

الأزهري حين يزعمون أنه أراد بنشر ذلك الكتاب المدرسي الإجرائي التمهيد لعبور السودان للديمقراطية. تلك النظرة المبسطة للبرلمانية والديمقراطية التي وسم بها بعض المعلقين كتاب "الطريق إلى البرلمان" تُشين الأزهري لما توحي به من جهل الزعيم بما هو من المفترض أن يكون به عليمًا. نُسبت إلى الأزهري أيضًا حصيلة لقاءات سجلها عنه الأستاذ بشير محمد سعد، وأقدمت صحيفة "الاتحاد" الظبيانية بعد رحيل الأزهري على نشرها كمذكرات. هذا النشر أوقف عقب تهديد بشير بمقاضاة الصحيفة إن استمرت في النشر؛ مما مكن بشير من نشرها تحت عنوان "الأزهري وعصره". من جانب آخر سجل ميرغني حمزة يوميات دقيقة عن حياته السياسية وتاريخ عصره تناول فيها العديدين بالنقد. هذه اليوميات التي أتاح لي ابنه حمزة الاطلاع عليها لم تنشر لإصرار والده على عدم نشرها لأن الكثير من الشخصيات التي ورد ذكرها في المذكرات ذهبوا إلى رحاب ربهم. احترام الابن لرغبة أبيه حمل حمزة أيضًا على أن لا يودع تلك المذكرات لدى دار الوثائق السودانية. ولئن كان إصرار هؤلاء الرجال على عدم تسجيل مذكرات عن حياتهم وتجاربهم مع غيرهم طاعة وامتثالًا لقول الرسول: "اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم" أورده أبو داود في كتاب الأدب، باب النهي وأخذ به الترمذي ورفعه كلاهما إلى عبد الله بن عمر، فذلك فهم تكذبه الوقائع. فكيف نفسر ما أجلاه محمد بن جرير الطبري على الملأ في القرن الثالث الهجري في كتابه "تاريخ الأمم والملوك" من أخبار فيها ما يشين البعض، والطبري هو صاحب "جامع البيان في تأويل القرآن". ثم كيف نفسر ما كتبه إسماعيل بن كثير صاحب أصح التفاسير بإجماع الجمهور من روايات في كتابه "البداية والنهاية" الذي روى فيه تاريخ العالم منذ بدء الخلق إلى القرن الثامن الهجري الذي قُبض فيه بكل ما في ذلك من كشف للأغطية عن الكثيرين من أصحاب وتابعي الرسول.

تأبى أيضًا الأستاذ عبد الرحمن علي طه، كما حدثني مَن هو به ألصق، عن تسجيل أيّ مذكرات؛ لأنه إن فعل فلن يُبقي له نشر تلك المذكرات صديقًا. ذلك قول ما كنا لنتوقعه من أب التعليم الذي عرف عنه كل مَن عاشره قولة الحق بلا

مراء؛ ولهذا كان من حق الناس عليه أن يقتدي بحديث نبوي آخر هو: "ألا يمنعن رجلًا مخافة الناس ألا يقول الحق إذا علمه". إلى جانب هؤلاء الجهابذ هناك رجل ثالث كم تمنيت أن يدوِّن مذكراته لأنه واحد ممن تعلقت سيرته بأحداث جسام في تاريخ السودان، كما كان من أكثر الفاعلين السياسيين اتزانًا، وأعمقهم رأيًا، وأصدقهم قولًا ونشير هنا إلى الأستاذ إبراهيم أحمد. هذه الفجوة التاريخية سدها باحث مقتدر هو الأستاذ عثمان حسن أحمد في كتابه "بين الأصالة والتجديد: إبراهيم أحمد حياة إنسان" (صدر في أبريل 1996). في إعداده لسيرة إبراهيم أحمد لجأ عثمان إلى بعض مَن كانوا لصيقين به أو عُرفوا بالتحقيق الجيد في البحوث. من هؤلاء نذكر الدكتور عبد الحليم محمد، وأحمد محمد يس تلميذه في مدرسة الهندسة، والمهندس كامل أبوسيف، والعالم المدقق محمد إبراهيم أبو سليم. ولعل مما لم يورده عثمان حسن أحمد في كتابه أيّ إشارة للظروف التي جعلت من إبراهيم أحمد وزيرًا للمالية دون أن يكون عضوًا منتخبًا في البرلمان. فعندما أبلغ حزب الأمة إبراهيم أحمد قراره بأن يصبح وزيرًا للمالية في الحكومة الائتلافية (حزب الأمة وحزب الشعب) على أن يكون أيضًا مرشحًا لحزبه في دائرة مقفولة (نيالا) فاجأ إبراهيم رئيس الوزراء المرشح (عبد الله خليل) بقوله إن ذلك الوضع سيوقعه في حرج. فإن أصبح نائبًا لدائرة نيالا؛ فسيكون واجبه الأساسي هو العناية بأهل الدائرة وتحقيق مصالحهم حتى وإن تعارضت مع المصلحة العامة، وإن قدم المصلحة الخاصة (مصلحة أهل الدائرة) على المصلحة العامة؛ فسيصبح وزير مالية يجهل أو يتجاهل أولويات الإنفاق العام. وباعتذاره عن الترشيح للبرلمان صار إبراهيم أول وزير بعد الاستقلال جاء من خارج البرلمان.

أيًّا كان الأمر، فثمة رجلان كانت مكتبة السودان السياسية والاجتماعية لتصبح أكثر فقرًا مما هي عليه لولا إسهاميهما: أحمد خير حول التطور السياسي للحركة الوطنية وبابكر بدري حول التاريخ الاجتماعي للسودان. فأحمد خير أمدنا قبل رحيله بـ"كفاح جيل" وهو كتاب لا غنى عنه لأي باحث جاد في تاريخ الحركة الوطنية السودانية. كان خير أكثر رفاقه في الحركة الوطنية إيمانًا بتوحد تلك

القوى في مؤتمر الخريجين حتى يصبح رأس الرمح في العمل الوطني؛ ولعل مبتغاه كان أن يصبح المؤتمر جهازًا مركزيًا للتحكم العصبي (central nervous system) في الجسم السياسي السوداني. ولإيمانه بما يرى كان خير عنيد الرأي، حاد القلم، سليط اللسان، من جاءه مُخِلًّا لاقى حَمَضًا. ولعل ذلك يفسر مواقفه الأخيرة ضد الحزبية (الانضمام لنظام عبود) مما سنبين في الفصول القادمات.

أما بابكر بدري فقد كان رجلًا فذًّا، والفذ هو المتفرد. ففي الأجزاء الثلاثة من مذكراته تناول الشيخ بابكر ثلاث مراحل من التاريخ الذي عاشه: فترة المهدية (1861 - 1899)، فترة الحكم الثنائي (1899-1951)، فترة الحكم الذاتي (1954) حتى رحيله. تلك المذكرات ما كانت لترى النور لولا اجتراء ابنه العميد يوسف على نشرها وسعيه لترجمة الجزء الأول منها للغة الانجليزية وقد قام بالترجمة المستر سكوت مدير المعارف البريطاني. أضاف إلى المذكرات بالشرح دون تعديل أو تبديل حفيد الشيخ: بابكر علي بدري. ولعلني لا أبالغ إن قلت إن ليس في كل التراجم الذاتية التي نشرت باللغة العربية ترجمة واحدة ذهب كاتبها مذهب الشيخ بابكر بدري في رواية كل ما خبره وأحاط به حتى في خصوصيات أسرته، وبصورة تُذهل العقل. كان الشيخ بابكر صادقًا في وصف الظروف الحياتية التي نشأ فيها، وفي العلاقات بين أفراد أسرته، وفي وصف الظلم الذي حاق بالناس في عهد المهدية التي انتسب إليها وحارب في صفوفها مما دفعه إلى المشاركة في معركة كرري دون حماس، بل في وصفه لهزيمة جيش الخليفة في إحدى أهازيجه التعليمية بـ"زوال الغمة". تلك الغمة لم ينجُ منها الشيخ بابكر نفسه عندما تعرض لمحاولة لإذلاله من جانب السنوسي الأخ غير الشقيق للخليفة عندما أمر بإنزاله من دابته وخلع عمامته ونزع سيفه وتركه ملقيًّا على الأرض يتلظى في الهاجرة. وعند محاولته إصلاح ذات البين غير المبرر مع السنوسي دعاه لتناول الشاي في داره. وما إن فرغ الأمير من تناول الشاي حتى أمر بمصادرة الطقم الذي قدم له فيه الشاي وإرساله لداره لا لبيت المال. وبذكائه الفطري وحنكته شكر الشيخ بابكر الأمير "المُغتصب" على "الفضل" الذي

أسبغه عليه بالاستيلاء على طقم الشاي. كان الشيخ أيضًا موضوعيًا في سرده لإنجازات الحكم الاستعماري الذي اقتسر الحكم من الدولة التي ظل يذود عن حماها دون حاجة منه إلى إثبات وطنيته. لهذا بادر السير ستيوارت سايمز السكرتير الخاص للسير ريجنالد ونجت حاكم عام السودان (1899 - 1916) الذي أصبح حاكمًا عامًّا للسودان في مرحلة لاحقة (1934 - 1939) بكتابة مقدمة الجزء الثاني من مذكرات الشيخ.

ذلك الشيخ قصير القامة عالي الهمة لم يكن مؤرخًا أو كاتبًا أو مُعلمًا فحسب، بل كان رجالًا في رجل. ولئن كان في السودان أبطال كثر في مجالات العمل الوطني فتلك بطولات ارتبط جُلُّها بمجد شخصي، أو وجاهة اجتماعية، أو رغبة في سلطة زمنية، أو غلبة في السيادة. الشيخ المؤرخ سلك في استبساله طريقًا وعرًا لا تقدم عليه إلا العصبة أولي القوة، ألا وهو تحرير المرأة بتعليمها إذ لا حرية مع الجهل، وكان ذلك أمرًا عسيرًا في مجتمع ينحاز انحيازًا ذكوريًّا ضد المرأة. الرجال في ذلك الزمان أضفوا طابعًا دينيًّا على تجهيل المرأة لا يدعمه نص شرعي ثابت أو تقتضيه مصلحة مرسلة. كم أحسن الدكتور عبد الله الطيب في رثائه لبابكر بدري عندما قال:

وأدركت الحقيقة أن شعبًا	يُذل نساؤه شعب هضيم
أسيرات الجهالة مُرهقات	قيودًا كلها ضيم وشوم
وكيف يجاهد الأعداء فينا	حسام نصف صارمه حطيم
ولم ترهبك ذؤبان تساعي	تقول الشيخ مبتدع لئيم
وليس البدع إلا كل نكس	يرائي كي يقال له حكيم

ولئن وافقتْ الرأي مع الشيخ نخبة كانت ترى أن العلم والتعليم حق للرجل والمرأة بدون تمييز، خالفه آخرون لم تبلغ عقولهم حد السواء، وأرادوا للنساء أن يكنَّ رهينات محبس لا يُعْرفن بقدراتهنَّ المهنية وكسبهنَّ المعرفي بل

بأعضائهن التناسلية. يبعث على الرضا أن كان بين الراشدين من أهل السودان مَن رأى في تعليم المرأة ما لم يره غير الأسوياء هؤلاء؛ مثلًا أبرق من الحصاحيصا أب التعليم عبد الرحمن علي طه عند وفاة الشيخ عن زهاء المائة عام معتذرًا بأن المرض منعه من العزاء في رجل **"أهداه الله حياة قرن ومجد دهر"**. وقال ميرغني حمزة وزير التعليم عند رحيل الرجل الفذ: "أن الناس يتحدثون عن أفلاطون وابن سينا، أو فكتور هوجو وبرتراند رسل من أعلام المربين، ونتحدث عن **بابكر بدري الفيلسوف الذي بنى فلسفته على واقع الحياة واستخلص منها، عن تجربة وتطبيق، مناهج وأساليب وتقاليد ستظل أبد الدهر منارًا يُسْتَهْدَى به"**.
لهذا إن سئلت عمن هو بطل السودان (Hero of Sudan) في القرن الماضي لقلت بلا تردد: الشيخ بابكر بدري. ففي كتابه عن الأبطال وعبادة البطولة (On Heroes, Hero-worship and the Heroic in History). قال توماس كارلايل إن: "أولى متطلبات البطولة هي أن تكون لك رسالة في الحياة، وأن تخلص لتلك الرسالة دون هوى، ثم أن تصدق القول بالعمل". كتاب كارليل ذلك صدر في عام 1840 واحتوى على ست محاضرات تضمنت كل واحدة منهنَّ نبذة عن بطل من أبطال التاريخ في مجالات النبوة والشعر والأدب والدين والقيادة السياسية. فبطل الأنبياء عند كارليل كان هو النبي محمد ﷺ، وفي الشعر كان (دانتي)، وفي الدين (مارتن لوثر)، ومن الأدباء (جان جاك روسو وبيرنز)، وفي القيادة السياسية (كرومويل ونابليون). حاشا لله أن أكون بهذه المقارنة قد قصدت موازاة بطولة شيخنا العظيم ببطولات الرجال الذين سعي كارلايل لتخليدهم، وإنما أشير إلى البطولة والاستبسال في تاريخ السودان.

ما سلف إيراده هو مقدمة ضرورية لما أنا عازم عليه، ألا وهو المزج بين الجانب الاجتماعي في الحياة والجوانب السياسية منها. ذلك أمر ضروري حتى يعي القارئ تفاعلات الخاص والعام في السياسة السودانية، خاصة في فترة نشوء الحركة الوطنية والطريق إلى الاستقلال. تلك التفاعلات جديرة بالاهتمام إذ لحق

بها في أحيان تلبيس، أيّ اختلاط في القول، وفي أحيان أخرى تـدليس أيّ تقويـل لبعض الرجال ما لم يقولوا. تلك جوانب أغفلهـا المؤرخـون إمـا عـن قـصد، أو حرج من نقد الآخرين، أو لظنهم بأن ما رووه مـن تحـليلات للوقـائع التاريخيـة كافية لأن تعكس للأجيال التي جاءت بعدهم حقيقة السياسة في بلادهم، رغم ما في تلك التحليلات من تلاعـب بالحقـائق. وفي حـديث مع الـدكتور فيـصل عبد الرحمن علي طه، الباحث المدقق في تاريخ السودان السياسي المعـاصر، قـال لي إن قراءته لمذكرات بابكر بدري، ومن قبل "مذكرات يوسف ميخائيل، في التركية والمهدية والحكـم الثنائي في السودان" جعلته ينظر لفترة المهدية بمنظـار جديـد. ولا تفوتني عند ذكر ذلك السفر المهم (مذكرات يوسف ميخائيل) الإشارة للذين أعادوا لتلك المذكرات الحياة من الأكاديميين والباحثين: الأستاذ المـؤرخ صـالح محمد نور، الباحث عثمان النصيري ثم البحث القيم الذي توفر عليه الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك.

الجانب العام من قصة حياتي هو الذي سأجليه على النـاس في هـذه الـسيرة؛ لأنه النطاق الذي اجتمع فيه مع الآخرين. في هذا المجال وجـدت سـلوى كبـيرة فيما روته كاتبتان برعتا في صنعتهما: الأولى هي توني موريسون القاصة الأمريكيـة ذات الأصل الأفريقي (نالت جائزة نوبل للأدب في عـام 1963)، والثانيـة هـي الفرنسية سيمون دي بوفوار. قالت توني لصحيفة الجارديان (25 أبريـل 1963) وهي تستعرض حياتها "عندما أتحدث لجيل العشرينيات والثلاثينيـات لا أتوقـع منهم حديثًا عن تفاصيل حياتي، بل عن خبراتي المتراكمة؛ لأن هذا هو الذي يجب أن يعنيهم". أما سيمون فقد قالت في مقدمة كتابها "المثقفـون" (les Mandrins) "حياتي هي أعظم عمل أنجزته". الكشف عن الخبرات المتراكمة في حياة الكاتب العامة على جيل جديد لا يعاني من غيرة جيلية أو يُعمى بـصيرته انحيـاز عقـدي جعلاني أزداد إيمانًا بأن التجارب التي يمر بها الإنسان في الحيـاة والـدروس التـي يتعلمها من هذه التجارب هي المادة التي ينسج منها الكاتب قصة حياة تُروى على الأجيال اللاحقة.

السياسة ونقد الذات

لربما كان أكثر ما يحملني على توثيق ما أقوم به في المجال العام هو فزعي من أن أُنعت بالسياسي، خاصة عندما استيقنتُ من أن السياسة في السودان هي الأقرب في زماننا لوصف أبي العلاء لها ولأهلها. ذلك حكم لم أظلم فيه أحدًا في السودان ما دامت الأمور فيه تتردى بصورة قادت - وما زالت تقود - إلى فتن هزاهز. قال شيخ المعرة:

يَسُوْسُوْنَ الأمُوْرَ بِغَيْرِ عَقْلٍ فَيَنْفُذُ أمْرُهُمْ وَيُقَالُ سَاسَه

فَأُفٍّ مِنَ الحَيَاةِ وَأُفٍّ مِنّي وَمِنَ زَمَنٍ رِئَاسَتُهُ خساسه

لهذا نأت نفسي في نشاطي العام عن السياسة (politics) وانكرست في السياسات (policies) ألا وهي مشروعات إدارة المجموعة. ويميز الباحثون بين السياسي (politician) ورجل الدولة (statesman) أو المؤرخ السياسي (political historian) أو المشغول بفن الحكم (statecraft). فرجل الدولة لن يكون جديرًا بذلك النعت إن لم تتوافر له رؤية للقضايا، ومشروع لإنفاذ تلك الرؤية، وبوصلة أخلاقية هادية، وإيمان بما يطرح من رأي وثبات عنده، وقدرات مهنية لوضع رؤاه حيز التنفيذ، ثم تواضع معرفي يجعله لا يستنكف قبول نصيحة مَن هم أدرى منه بعلاج ما أحدق بالناس من مشاكل. كما أن المؤرخ السياسي ملزم بألّا يبطئ في قول الحق عمَّن وعمّا يصف، وألّا يصدر حكمًا على الآخرين إلا غِبَّ صادقة، وأن لا يعمد إلى تمويه الكلام وزخرفته. فإن كان هناك مَن يرغب في وصفي بالسياسي فأنا سياسي بهذه المعاني. وفي كل المرات التي اقتحمت فيها مجال السياسة الوطنية فعلت ذلك وأنا متحفل بأسلحة أربعة: **الرؤية، ومنهج العمل، وأدوات العمل، وأهل الشورى.**

التدقيق والتمحيص ونقد الذات، كما أوردنا من قبل، أمور ضرورية لأن كثيرًا ممن اشتغلوا بالسياسة في السودان لا يعترفون بخطأ ارتكبوه، ناهيك عن الاعتذار عن ذلك الخطأ. نقد الذات، كما وصفه ألبير كامو، هو حوار مع النفس،

ولا يعيب الفاعل السياسي أن يحاور ذاته. ما الذي ننقد إذن؟ مصدر الأزمة السياسية السودانية، فيما نرى، ليس هو أن آباء الاستقلال والجيل الذي أعقبهم كانوا قوم سوء، بل هو فقدانهم للرؤية الصائبة للأزمة السودانية. فمنذ عهد مؤتمر الخريجين وحتى الوقت الراهن ظلت القوى السياسية جمعاء منهمكة فيما سمّته تحرير البلاد لا تعميرها. وللدكتور جعفر بخيت ورقة جيدة السبك حول جدلية التحرير والتعمير، أتمنى أن يتفرغ لإجلائها على الناس ناشر نشط.

ما الذي يعنيه التحرير بعد مضي نصف قرن من الزمان من خروج الاستعمار من السودان؟ تراوح مفهوم التحرير بين اجترار الحديث عن رفع العلم وذكريات النضال ضد الاستعمار حتى نضب المعين، فأهم قضايا التحرير، كما ينبغي أن تكون، هي بناء الوطن (nation building) بتوحيد أهله والوفاق على هويته، ثم التعمير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي لا تقوم لبلد قائمة إن لم يتحقق. وأذكر في هذه اللحظة ردًّا بليغًا لجون قرنق على سائل سأله في ندوة أمبو عن مدلول تحرير السودان في اسم الحركة: "التحرير ممن؟" قال السائل. على ذلك السؤال أجاب قرنق "السؤال الصحيح هو التحرير مماذا" ثم ضرب بوالدته مثلًا روى فيه كيف كانت والدته تسير على الأقدام لبضع أميال حتى تجلب الماء لمنزلها وعندما يفلح في إيصال الماء إلى قريتها سيحررها من ضنك السير أميالا لترد الماء. أوترى ما الذي يميز بين السياسي الذي يضع كأول واجباته تحقيق المطالب الحقيقية التي تعني المواطن، وذلك الذي ينهمك بكلياته في قضايا لا إجماع عليها مثل محاربة الاستعمار الجديد عند اليساريين الأمميين، والعروبة الإقصائية لأقوام السودان من غير العرب عند القوميين العرب، وإنكار البعد العربي في الهوية الوطنية عند الأفريقيين، وإزالة الرجس من أرض السودان عند الإسلاميين. وعندما يتوقف اهتمام القوى السياسية الناشطة في السودان على هذه القضايا الهُلامية لن يبقى هنالك أي مكان في أجنداتهم للتعمير أو بالحرى التحرير الحقيقي.

هذه الأمور مجتمعة هي التي أدخلت البلاد في مآزق وكروبٍ عظيمة، ولن

ينجي السودان من تلك الكروب إلا الإقرار به كخطأ كبير في السياسة. الخطأ السياسي الذي يلحق الأذى بالناس هو بمثابة الذنب، ولا يرفع الذنوب إلا الاعتراف بها والاعتذار عنها للشعب. وإن لم يكن في تواتر الفشل السياسي مبررًا لنقد الذات، فلن يكون هناك أي سبب آخر يستلزم مراجعة النفس. تلك حالة لا يبقى لنا معها إلا الرضا بما قسم الله لنا، رافعين الأكف له وسائلين إياه أن ينجينا من قرية تعمل الخبائث. بيد أنا نعرف جيدًا أن الله لا يصلح أمر قوم إلا إن أصلحوا ما بأنفسهم حتى لا ينتقلوا من فشل إلى فشل أشد. ولئن صح ذلك الافتراض أولا ينبغي أن يكون في تكرار الخيبات على مدى نصف قرن من الزمان بصائر للناس؟ ثم أولا ترى قيادات السودان من القدامى والمحدثين، وعلى اليمين واليسار، أن في الظن بأن كل شيء على ما يرام بعد نصف قرن من الخيبة استهانة كبرى بالأجيال الجديدة؟ أوليس في دعاوي مَن كان سببًا في الفشل المدمن في الماضي بأنه يملك المفاتيح لحل كوارث الحاضر تهافت في المنطق؟ ثم أوليس في توهم هؤلاء الأفاضل بأنهم قادرون على إعادة إنتاج أنفسهم استحقارًا لعقول الأجيال البازغة، خاصة عندما تؤكد التجارب أن محاولة القدامى إعادة إنتاج أنفسهم كانت دومًا بأسوأ ما فيها.

وإذ أقول كل هذا لا أعد القارئ بأني سأكون متجردًا تجردًا كاملًا، فالإنسان يحب ويكره، ويميل إلى شيء وينأى بنفسه عن شيء آخر. التجرد الذي أعنيه هو التجرد العلمي الذي يلزم الكاتب بالصدق التاريخي أي التزام الموضوعية في الطرح والتقويم للأحداث بعيدًا عن الحب والكراهية لصانعي الأحداث. ومما عَمَّقَ من حرصنا على ذلك اندفاع بعض المؤرخين الهواة، وانكراس أغلبية مكيفي الرأي العام خاصة في المجال الصحفي، إلى دغمسة التاريخ، أي التستر على بعض أخباره، ونشر كل ما يصل الصحيفة دون تدقيق حتى وإن كان في النشر تزييف للوقائع. ذلك أمر لا تفعله الصحف العالمية التي تحترم قراءها، ويحترم محرروها نفوسهم؛ لأن المحرر الذي لا يعنيه كثيرًا أن يُرمى بالكذب أو تُرمى صحيفته بالتكذب لا يحترم نفسه ولا صحيفته.

في مواقع عدة من هذا الكتاب سنتناول ظاهرة التهوين من كل خطأ كان ذلك في السياسة، أم الإعلام، أم رواية التاريخ حتى تحول التهوين إلى استباحة. الإباحة عند الأصوليين هي حكم يُخير المرء بين الفعل والترك، أما الاستباحة فهي اعتبار كل شيء مباحًا. ثقافة الاستباحة هذه عَمَّت البلاد، وأصبح لها فقهاء يبررون كل شيء من نقض الدستور، إلى تحليل السرقة، إلى تزوير الشهادات الجامعية في بلد كان أكثر ما يعتز به نظامه التعليمي هو احترام معاييره الأكاديمية. وحين يصبح نقض الدستور مباحًا لرعاته من الحكام، ويصبح استغلال المال العام للأغراض الخاصة مباحًا للأمناء عليه، وتصبح فيه الشهادات الجامعية سلعة تباع وتشترى، ويصبح الكذب والافتراء مباحًا للأئمة والعلماء، ويصبح نشر التحقيقات الزائفة على صفحات الصحف أمرًا لا يقلق المشرفين على الصحيفة، فلا عجب إن استباح المواطن العادي كل التزام وطني أو مهني أو قانوني أو أسري حتى كادت أوشاج المجتمع أن تتمزق، وفقد المواطن ثقته بنفسه مستكينًا لقدره وهو ينتظر الفرج من السماء علمًا بأن السماء لا تمطر ذهبًا أو فضة.

العلاقات الاجتماعية في السودان ذات أصول شتى تتأرجح بين الانتماءات الأسرية أو العشيرية، والروابط الطائفية، والانتسابات الصفوية المهنية خاصة بين مناصري الأحزاب العقائدية (الشيوعيون والقوميون العرب والإخوان المسلمون). هذه الجماعات - على وجه الخصوص، أدَّت دورًا جوهريًّا في ارتجاج الحياة السياسية في السودان رجًا لما يَنجُ منه السودان بعد. لماذا يقع هذا الارتجاج في الوقت الذي أرادت فيه هذه الجماعات صلاح الأمة؟ تكمن المفارقة في أنه حين ابتغت تلك الجماعات الإصلاح بإرفاد العمل السياسي بالفكر -إذ بدون الفكر لن تكون هناك رؤية- لجأت إلى تبني أفكار هي في حقيقتها عقائد ذات يقينيات مطلقة. العقيدة فكرة لا تقبل الشك، كما أن اليقينيات المطلقة لا توفر أيّ أرضية لقيام نظام ديمقراطي على الوجه الذي تراضى عليه أهل السودان أو ادَّعوا الرضاء به. فالديمقراطية نظام يقبل الارتياب الفكري في كل شيء، ولعل هذا هو الذي حمل أب الديمقراطية جان جاك روسو للمطالبة بعزل أي جماعة سياسية

عقدية تتوسل بالدين للوصول إلى السلطة. ورغم أن حديث روسو يومذاك كان موجهًا للأحزاب الكاثوليكية التي نمت في حضن الكنيسة، فإنه يصدق أيضًا على كل عهد ينشأ فيه كهنوت جديد يزعم أنه المعبر الوحيد عما يدعو له الإله. الديمقراطية هي فن التسوية والتراضي؛ ولهذا توفر الديمقراطية دومًا مساحة للتلاقي والوفاق بين المتخاصمين، ولكن هذا الافتراض مرفوض بطبيعته من جانب السياسيين العقديين؛ لأنهم يحسبون المواطنين أغبياء، أو على الأقل قاصرين في حاجة إلى رعاة. بيد أن السياسة الحكيمة هي تلك التي تتعامل مع المواطنين كما هم في الحياة وكما يريدون أن يكونوا لا كما يريد لهم مكيفو الرأي أن يكونوا في الحياة الدنيا عند فريق منهم، وفي الدنيا والآخرة عند الفريق الآخر. لهذا أصبح الخلاف مع الجماعة الأولى خيانة للوطن مع سبق الإصرار، ومع الثانية كفرًا لا كفارة له. الديمقراطية، أيضًا، منهج متكامل للحكم لا يقبل فكرة التوطين (nativization)، أي إعادة صياغة القيم الإنسانية لتلائم كل وطن أو مجموعة وفق خصائصها، فحقوق إنسان الصين في ظل الديمقراطية ينبغي ألا تختلف عن حقوق إنسان أفريقيا أو الهند.

هذا كان -وما زال- هو حال الأحزاب العقائدية السودانية، فما حال الأحزاب الأخرى في السودان التي توصف بالأحزاب التقليدية؟ باستثناء حزب واحد (حزب الاتحاديين) ولجت تلك الأحزاب ميدان السياسة دون تَحَفُّل بفكر أو ملازمة لمنهج. أليس من الغريب – مثلًا – أن أكبر حزب سوداني في الجماعة الاتحادية لم ينسب نفسه لفكرة أو توجه وإنما لأن منشئيه كانوا أشقاء: علي وإسماعيل الأزهري، يحيى ومحمود الفضلي، أحمد وحسن محمد ياسين، محجوب وحسن عوض الله. لا يملك القارئ لمذكرات علي حامد إلا أن يقدِّر لذلك الكاتب أمانته عندما حرص على ألّا يصطنع أي رابطة فكرية جمعت بين هؤلاء الأشقاء المؤسسين للحزب الذي انتمى إليه، كما يسعى لذلك بعض المُحدَثين من المؤرخين. وربما لو انصرف هؤلاء المؤرخون الهواة لبضع دقائق لقراءة الفقرات المتعلقة بنشأة الأحزاب في كتاب أحمد خير "كفاح جيل" لأفادوا أنفسهم وأراحوا

غيرهم. فصوت أحمد خير كان يومذاك هو الصوت الجهير الذي لا ثاني له في زمان الصمت، والشمعة الوحيدة في العتمة الفكرية التي كانت طاغية على سموات السودان، ولا تستوي الظلمات ولا النور.

تقضي الأمانة مع النفس أن أعترف منذ البدء بعدم قدرتي على مجاراة الشيخ بابكر بدري في سرد سيرتي الذاتية وإجلاء كل سر من أسرارها على الناس في الحياة العامة والخاصة، فالرجل نسيج وحده. رغم ذلك لن أتردد في الكشف عن دوري في المجال العام في كل المواقع التي حللت فيها، وفي حدود ما عرفت وخبرت وقرأت، في كشف الغطاء عمن فرط في حق الوطن أو ألحق به أذى بدون وجه حق حيًا كان أو ميتًا. إن لم أفعل ذلك أكون قد أخطأت في حق الوطن وحق نفسي وحق التاريخ وحق العلم. فالتاريخ علم نقدي للأحداث السابقة؛ ولهذا لا يكتفي المؤرخ بتسجيل الوقائع التاريخية، بل يحللها وفق منهج علمي صارم يعين على إدراك الماضي وعلى التنبؤ بالمستقبل. التاريخ أيضًا هو فحص لأعمال الرجال؛ ولهذا عندما تقول العرب إن "فلانًا تاريخ قومه" تعني أنه الرجل الذي ينتهي إليه شرفهم في الحياة والممات. وبما أن الله جعل الأرض التي استعمر عليها الإنسان كفاتًا أحياءً وأمواتًا أي ينضم فيها الأحياء والأموات، فلا مهرب للأموات من الحساب، إن كان ثمة حساب. من ناحية أخرى، إن كان النقد الأدبي هو إظهار محاسن وعيوب الجنس من الأدب الذي تنقده، فإن النقد التاريخي هو تمييز صحيح الأخبار من زائفها وجيد الأحكام من رديئها. ولعل الشاعر الفرنسي بول فاليري لم يخالف الواقع عندما قال إن التاريخ هو أخطر منتوج أنتجته كيمياء الفكر. أما على الجانب الذاتي سأتناول في سردي للأحداث وتحليلي للظواهر، الظروف التي نشأتُ فيها، والمعلمين الذين تركوا أثرًا ملحوظًا في تكوين شخصيتي، والمعاهد التي ترددت عليها في الداخل والخارج، ورجال القانون الذين تمهرت على يديهم أو تأثرت بهم، ولماذا أقبلت على مجالات في التعليم وأدبرت عن أخرى، ومَن هم المفكرون والأدباء والموسيقيون الذين أحببت، وأهل المغنى الذين مست أغانيهم وموسيقاهم شغاف قلبي، ثم

أصدقائي الأقربين -على اختلاف مذاهبهم- الذين ما كانت معارفي لتنمو لولا حواراتي الدائمة معهم؛ لأن الحوار يلقح العقول كما تلقح الريح السحاب.

الكتاب الذي بين يديك وقدمناه بهذا الاستهلال يتضمن **أربعة أجزاء: الجزء الأول** منها سيرة المؤلف من النشأة الأولى والمراحل التعليمية التي عبرها، ثم المناشط الثقافية التي اسهتوته والمهام المهنية التي أنيطت به. في حين يتناول **الجزء الثاني** تطور السودان السياسي منذ عهد مؤتمر الخريجين وحتى خواتم الستينيات من القرن الماضي. أما الجزء الثالث فيتناول أكثر المراحل مأساوية في تاريخ السودان السياسي إذ انتهت إلى تمزق السودان إلى بلدين. هذا الجزء من الكتاب ختم بفذلكة للكتاب، والفذلكة عند الكُتاب القدامى هي إجمال لما فصل في الكتاب. الجزء الثالث تناول أيضًا استشراء التطرف السياسي يسارًا ثم يمينًا حتى مزق أهل البلاد أما الجزء الرابع الذي اخترنا عنوانًا له "الدبلوماسية السودانية في نصف قرن" فقد ذهبنا فيه إلى تحليل وتقويم للدبلوماسية التي عمل الكاتب في رحابها ردحًا من الزمان إلا إنه - في مجمله - يمثل تقويمًا للدبلوماسية السودانية منذ نشأتها.

آثرت أن أنعت هذا الكتاب في أجزائه الأربعة بالشذرات، مع عنوان فرعي "شذرات من، وهوامش على، سيرة ذاتية". الشذرة هي القطعة من الذهب تستقطع من معدنه، وتستخدم إما للفصل بين حبات العقد أو لتزيينه. وليس لي من سبق في اختيار ذلك العنوان؛ إذ سبق إليه شهاب الدين ابن العماد في تاريخه (شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب). وقد رمى ابن العماد بشذراته إلى روايات تفصيلية عن تاريخ الدولة الإسلامية بدءًا من حياة الرسول ﷺ إلى غزو الأندلس وفتح سمرقند والقسطنطينية واستشهاد الحسين بن علي وولديه إلا إنني أخذت من الشذرات الاسم دون أن أجعل مما كتبت مدونة تاريخية فما أكثر الذين كتبوا، وببراعة لا أملكها، عن تاريخ السودان الحديث. لهذا وردت إشارتنا للهوامش في عنوان الكتاب ومتنه مبينين أننا لا نبتغي من الهوامش على المتن غير التحليل والتشريح للأفكار التي استمددنا منها الرؤى في مراحل العمر المختلفة. وبما أن

الأفكار هي صور ذهنية يرسمها الإنسان بإعمال العقل للتوصل إلى حلول لمشاكل بعينها لا لتستعبده الفكرة، حرصت على أن أبين في أكثر من موقع في الكتاب أن التعبد في الأفكار هو تعهيرٌ لها.

في الهوامش أيضًا تناولت الأحداث الجسام التي وقعت داخل القطر، والمؤثرات أو الدوافع الخارجية لتلك الأحداث، كان ذلك لقربي من الأحداث أو معاصرتي لها أو لأنها- رغم تاريخيتها - كانت ذات أثر مدمر على مستقبل القطر. ولحرص مني على التوثيق تضمن الكتاب إشارات إلى بعض ما قمت به خلال حياتي العملية في الداخل والخارج -ليس من باب التفاخر- وإنما لأهميتها لأيّ قارئ يأخذ ما نقول بجد، أو باحث يريد المزيد من الاستيثاق. أشير على وجه التحديد إلى تجربة الدراسة في الخارج والتمهر على ما درست في المنظمات الدولية إلى جانب التقارير التي درجت على كتابتها أول وفودي على موقع عام في السودان أُضمِّن فيها رؤاي وخطط عملي المستقبلية، وأخرى أتبعه به عند تركي الموقع يحتوي على ما أنجز وما لم ينجز من واجبات ويبين بواعث الإخفاق، وبما أن تضمين كل هذه التقارير في هذا الكتاب قد يرهق القارئ ويضجره قررت إيداع بعضها في موقع إلكتروني مفتوح حتى يطلع عليها مَن أراد الاستيثاق أو المزيد من المعرفة في الرابط: www.mansourkhalid.com/lecture.php .

البحث في السير، كان ذلك في السياسة أو الأدب، عقبة كأداء ينبغي ألّا يرتقيها إلا مَن هو قادر على البحث وحريص على التقصي. هذان أمران لا سبيل لنيلهما إلا بالاجتهاد، والاجتهاد هو استفراغ المرء لجهده لكيما يصل إلى يقين. هذا أمر يخطئ مَن يغفله عند التصدي لما يكتب الآخرون وهم يخاطبون العقول. ولعلني لست بحاجة للقول إنني طيلة عهدي بالكتابة للناس ظللت أنعت ما أكتب بالحوار، والحوار يقتضي طرفين؛ لأنه أخذ ورد، ورأي ورأي مضاد، ومناظرة تبدأ من افتراض أو مقدمة منطقية (premise) ثم تنتهي إلى نتيجة (conclusion) عبر منهج استقرائي (inductive) أو استدلالي (deductive). هذه هي أبجديات علم المنطق التي ينبغي أن يلم بها أيّ كاتب يسعى لمحاجة

الآخر، فالمنطق هو وحده العلم الذي يعصم المرء من الخطأ في التفكير. بدلًا مما يقول به علم المنطق، انبرى كثيرون في محاجتهم لنا إلى شخصنة الأمور، وشخصنة الأمور في أي حوار عقلاني تنبئ عن فجور عن الحق. فعندما يطرح المرء فكرة حول أي موضوع، ينبغي أن يكون محور الجدل هو الفكرة والموضوع لا أصل الكاتب، أو ما يتطرس به من رداء، أو ما يسكن فيه من منزل، أو مَن هم أصدقاؤه الأقربون. ولئن جاز لكاتب سيرة أن يسبر غور مَن يسعى للتعريف به فليس هذا هو الحال في نقد أو تحليل بحث أو مقال أو كتاب. فالنقد العلمي، أولًا وأخيرًا، هو استقصاءٌ لصحة الافتراضات التي ارتكز عليها الكاتب، ونجاعة منهجه البحثي في التدليل على صحة تفاصيل بحثه ومتانة المراجع التي اعتمد عليها لتوكيد أحكامه. حقًّا كم تمنيت لو كان لي كبير وقت وكنت فقيه خلوة، فلو حدث ذلك لاستحرت أولئك المتطفلين على النقد -أي جعلت منهم حواريين- لأفتح عليهم كما يفعل شيخ الخلوة مع الحوار غير الفطِن، الفتح عند الفقهاء هو تلقين الحوار الغبي العلم حتى يحفظه؛ ولهذا يقولون: "فتح الشيخ على الحوار". أما الذين ما طفقوا يرموننا بالمراجم، فشكري لهم وافر، إذ علموني كيف أتقن الاحتقار لمن هم أهل لتلك للمحاقر.

في مطلع هذا الكتاب أومأنا إلى أننا قد نضطر إلى ترداد أمور ضمناها في مؤلفات سبق نشرها. إعادة الكلام مرة بعد أخرى أمر ينبغي أن يتجنبه الكاتب حتى لا يُسئم القارئ، فلماذا نستعيد الكتابة عن أمور طرقناها من قبل؟ للرد على ذلك السؤال المشروع نقول إنه كلما تصدى ناقد لأمر أطنبنا من قبل في الكتابة عنه، وكان الهدف من النقد تبيان خلل في الرأي، أو عوار في منهج البحث، أو عدم صحة في الخبر، كان من واجبنا الرد الهادئ حتى يتواصل الحوار مع قارئ ذكي. كان الأمر أيضًا ليصبح مفهومًا لو مضت قرون على روايتنا للأحداث لأن ذلك قد يقود إلى نسيان للمقدمات، ومن ثَمَّ عدم إدراك للنتائج. هذا الرأي انتهى إليه العالم الاقتصادي - الاجتماعي النمسوي فريدريش فون هايك في كتابه دستور الحرية (The Constitution of liberty) الذي صدر لأول مرة في

ستينيات القرن الماضي. قال هايك قد تكون الأحداث هي الأحداث نفسها، والنتائج هي النتائج نفسها، ولكن البيئة المعاصرة تختلف عن البيئة الماضية مما يحمل البعض على التهوين من الأحكام الصادرة حولها؛ ولهذا لا يُباح فقط التكرار بل أيضًا أن لا يلجأ الكاتب في سرد سيرته إلى نهج كرونولوجي. من الطبيعي، إذن، أن أكرر هنا شيئًا مما كتبت في مؤلفات أخرى إما لإنعاش الذاكرة، أو للحرص على أن يأتي حديث اليوم وحديث الأمس على ولاء ووفاق. ولكن عندما يجيء النقد من متربصين يقرؤون ما نكتب قراءة أفقية عجلى، علهم يجدون فيها كتبنا مدخلًا للطعن، أو الذين يقرأون عناوين الكتب -إن قرأوا أصلًا- ثم يذهبون إلى مساءلتنا عن أمور سطرنا فيها أكثر من مقال، إن لم يكن أكثر من كتاب، فينبغي أن يكون لنا قول آخر؛ لأن لأولئك المتربصين - قبل أن يكونوا أشرارًا - هم في حقيقتهم سخفاء عقل، وأشحاء نفس. سخافة العقل وشح النفس صفتان ذميمتان لا يفارقان مَن ابتلي بهما، بل هما أشد أذى للنفس من الشر؛ لأن الشر لا يصحب المرء دومًا، ولكن هاتين الصفتين لا تفارقانه.

الحال في السودان اليوم غير الحال بالأمس، والمشاكل التي تعاني منها البلاد ليست هي المشاكل نفسها التي جابهت السودان عند استقلاله. مع ذلك مازال بعض صانعي تلك المشاكل يعيشون بيننا دون أن تصدر منهم نأمة اعتذار عن دورهم في خلقها، كما لم يزل بعضهم يوحي للناس بأنهم مازالوا الأقدر على معالجة هذه المشاكل حتى بعد أن انشطر القطر على أيديهم إلى قسمين، ومازال يتمزق من أطرافه. ما المشاكل التي تعسر حلها؟ هي باختصار، إدارة التنوع، الهوية الوطنية، توطيد الديمقراطية، القضاء على التهميش السياسي والاقتصادي، حسم موضوع علاقة الدين بالسياسة. تلك مشاكل عانت من بعضها دول وأوجدت لها حلولًا؛ ولهذا عندما يزعم صناع مآسي الأمس أنهم قادرون على معالجتها اليوم، وعازمون على إعادة صناعة أنفسهم، نقول لهم إن إعادة صناعة النفس، كما ذكرنا قبل هنيهة، بأسوأ ما عرفت به لن تجدي فتيلًا. فالذي يستوجب التغيير هو الرؤية، والمنهج، وأدوات العمل. التهوين من تلك المتطلبات، رغم

الفتن الدهياء التي قادت إليها سياسات الماضي، لا يعبر إلا عن واحد من شيئين: إما فقدان كامل للحس الوطني، أو يقين بليد من جانب تلك القيادات بأنهم خير من وطئ الثرى بعد نزول آدم على الأرض، وما على أهل السودان غير الرضا بهم وبما يصنعون. بسبب انعدام الرؤية الصائبة للمشكل السوداني، والأداء السياسي المتخبط الذي هو نتاج لتلك الرؤية الخاطئة، ثم الخيلاء الفكرية وما ولدته من ثقة غير مبررة بالنفس انتهى السودان "بلد الخير يا بلادي" إلى بلد طارد لبنيه: مَن فاتته الهجرة منهم أصبح هائمًا في فلوات السودان يقتله الظمأ كعيس البيداء "والماء فوق ظهورها محمول". ألا يحق لأهل السودان، إذن، أن يتساءلوا أين ذهب هذا "الخير" وكيف ذهب؟ ثم ألا يجوز لنا مساءلة الحكم القاطع الذي أصدره صديقنا الشاعر الراحل سيد أحمد الحردلو عندما أنشد:

نحن الشأنْ

ونحن النانْ

أتينا عشانْ

نسوي الدنيا للإنسانْ

«تقول لي منو، تقول لي شنو»

فأيّ قارئ لتاريخ السودان الحديث قراءة جيدة ليجد "ألف شنو" تنتظر الجواب، و"ألف منو" حقيقين باللعن. هذه صورة قاتمة، ورغم ذلك نقول لابد للسودان من ربيع وإن طال صيفه وتسرطنت أورامه. هذا الربيع لن تهب نسماته إلا بعد اعترافنا أولًا بأخطاء الماضي وإدراكنا لكيف تعالج، وثانيًا بإقرارنا بأن على فرسان الماضي أن يترجلوا عن ظهور خيل ظلوا يمتطونها لما يزيد على نصف القرن. تلك وحدها هي الوصفة التي تمكن السودان وأهله من السير في طريق قاصد إلى مستقبل، بإذن الله، واعد.

لقد استقل السودان في مطلع يناير 1956 عقب وفاق بين كل الأطراف السياسية في الشمال والجنوب، ولكن ما انكشف ضوء الصباح حتى عتمت ظلمة الليل، وكان ليلًا مكفهرًا. فخلال الفترة بين يناير 1956 ويناير 2005 –أيْ

خلال نصف القرن من الزمان- كان السودان يعيش في حرب سياسودينية بين الشمال والجنوب وحرب سياسية بين أحزاب الشمال في المركز كما بين المركز والأطراف. ولئن أدركت أن أطول حرب دينوسياسية تعرضت لها أوروبا، وشملت ألمانيا، فرنسا، هولندا، وامتدت شمالًا إلى السويد، وجنوبًا إلى إيطاليا وإسبانيا هي حرب الثلاثين عامًا بين (1618-1648) يزداد عجبك من امتداد حرب الكل على الكل في السودان إلى ضعف هذه المدة. حرب الكل على الكل وصف أطلقه جون هوبز على الصراعات الدينو-سياسية التي تلت الثورة الانجليزية، ودارت على مدى ثلاثين عامًا في حين استمرت حرب الإخوان-الأعداء في السودان لنصف قرن من الزمان، ولم تفلح في إطفائها حلول ارتضتها النخب السياسية السودانية منذ إعلان الاستقلال. رغم ذلك لم تقدم هذه النخب على الاعتذار عن أخطاء نصف قرن هم صانعوها.

بقيت لنا فئة أخرى، على المستوى الشخصي، هي الفضوليون المنشغلون بأمور غيرهم. ولئن عرَّفنا في مطلع هذا الفصل مَن هو الحاسد والغيور المتطفل، نضيف في آخر الفصل وصفًا شرعيًّا للفضولي. الفضولي في الشرع هو مَن لم يكن وليًّا، ولا وصيًّا، ولا أصيلًا، ولا وكيلًا ورغم ذلك يتمنى الإلمام بتفصيلات الحياة الخصوصية للآخر. لهؤلاء الذين نزع الشرع عنهم كل حق في الوصاية أو الوكالة أو الولاية على غيرهم، ومع ذلك يتمنون دس أنوفهم فيما لا يعنيهم، أو ينبغي أن لا يعنيهم، لنا كلمة. كلمتنا لهؤلاء هي ما يغيظ كل فضولي يقحم نفسه في أمور غيره، ونلخصها في أن هذا الكاتب كان يسرح في غيدان شبابه في باريس في حديقة لوكسمبورج بأشجارها الغين التي ترتادها حسناوات أمثال الدُّمى من السود والبيض دون أن يجمح صاحبكم نحوهنَّ خالعًا عذاره. وكان يمرح على ضفاف الرون في جنيف وحفافي التايمز في لندن في صحبة غيد جلعاوات في نعومتهنَّ يكشفنَ عن قناع الحياء، ورغم ذلك "ما ضل صاحبكم وما غوى". ثم عبر صاحبكم الأطلسي إلى الدنيا الجديدة يَعُب من العلم ويكرع في جامعاتها ومكتباتها دون أن ينسى نصيبه مما تميل له النفس وتأنس به في مقاصفها وملاهيها

ودور موسيقاها على تنوعها. في كل هذه المضارب كان لصاحبكم وديدات أحباب لم يضل -مع صحبتهنَّ- طريقه إلى مغاني العلم والفن والأدب. ثم أولّا يظن أولئك الفارغون الذين ليس لهذا الكاتب من بينهم ولي ولا وصي ولا وكيل أن من حقه أن يستهدي بالإمام ابن حزم الذي كان يقول عَمَّن يحب "كلما ازددت دنوًا منهنَّ أزداد ولوعًا بهنَّ"؛ أو يزعم أن له جدارة بما زعمه لنفسه سلطان العاشقين، الشريف الرضي:

وَإني لمجلُوبٌ لي الشَّوق كُلَّما	تَنَفَّسَ شَاكٍ أو تَألم ذو وَجْدِ
فَقُلْتُ لأصْحَابي ألا تتزافرُوْا	رُوَيْدكُم إِنَّ الهوَى داؤهُ يُعْدِي
وَمَا شرب العُشَّاق إلا بقيتِي	وَلا وردُوا في الحبِّ إلا عَلَيّ وِردِي

الشريف الرضي -إن لم يعلم هؤلاء- هو حفيد موسى الكاظم ونقيب الطالبيين حتى مماته، فلا هو ظنين نسب بالعروبة، ولا حديث عهد بالإسلام.

الفصل

الثاني

2

البيئة الأسرية والنشأة

الأصول والفروع

بدهـي أن يبدأ الحديث عن سيرة أيّ شخص مـن مرحلــة التكـوين الأولى ألا وهي النشأة الأسرية. النشأة في اللغة هي الإيجاد والنمو، وهما أول كـل شيء. أما الأسرة فهـــي الـدرع الحـصين، كـما هـــي في القـــول الـشائع أهـل الإنـسان وعشيرته التي تكنفه وتصونه، ويلوذ بها إن دعا الـداعي لتحميـه مـن العـوادي. نشـأة الإنسـان تعكس تراضيًا (compromise) بين الناشئ وبيئتـه، يأخـذ عـبره الخالف عن الـسالف لـيس فقــط محاسـنه، بـل أيـضًا غرابـة أطـواره العـضوية (organic eccentrities). إلى هذه الأسرة أومأنا في بعض مـا سـبق لنـا نـشره في كتب أو مقالات، ولتلك الإيماءات سنعود حيثما اقتضى الأمر عودًا. بسطنا أيـضًا على الناس كتبًا ثلاثة أسمّيناهـا "الثلاثية الماجــدية" نسبة للجد "الفكي" محمـد بن عبد الماجد. تلك الثلاثية تضمنت، من جانب، سيرة "الفكي" كما رواهـا ابنـه الشيخ خليل نقلًا عـــن والده، ومن جانب آخر، ديواني الشيخ أحمـد الـصــاوي عبد الماجد شقيق الفكي، وابن أخيه الشيخ عبد العزيز الدباغ محمد عبد الماجد في الإلهيات والنبويات، وكان كلاهمـا مـن النظّـامين المـشهود لهـما في زمـانهما بعلـو الكعب في هذا الجنس الأدبي.

تنحدر الأسرة من الشيخ حامد ود النور حفيد حامد أب عصاة، الذي ظلت أسرته الدانية تنعته بحامد الصغير تمييزًا له عن جده الكبير حامد أب عصاة سيف. الكبير اسم من أسماء الله الحسنى يعني العظيم ذا الكبرياء تعالت أسماؤه، ولم يُعرف عن حامد أب عصاة كِبر فيما أخبرنا الآباء والأجداد؛ وما تداولت الأسرة اسم حامد الأدنى (حامد ود النور ود مكي ود علي ود حامد أب عصاة) إلا للتمييز بينه وبين الجد الأعلى (حامد أب عصاة) الذي كان أيضًا يلقب بأب الجدود. أقامت تلك الأسرة بأصولها وبعض فروعها في شمال السودان، حيث نشأ أب الجدود واستقر بها المقام لنشر العلم بين أهلها كما كان يفعل فقهاء ذلك الزمان. ورغم أن زمان العِزية بالقبيلة قد انتهى، أو ينبغي أن يكون، لا مناص لكاتب يروي تاريخ أسرة من تتبع الأصل القبلي "العمراب" والتسلسل الأسري (الأسرتين الحامدية والماجدية) لجماعة تفرق أبناؤها وبناتها عبر القطر. العمراب بطن من بطون الجعليين وهم قسمان: قسم سُمي بعمراب الجبل (جبل أم علي) ونسب إلى عمر ود بلال والد الشيخ حامد أب عصاة الذي استقر به المقام في منطقة جبل أم علي والمطمر والمحمية، وقسم ثانٍ نسب إلى جد العمراب الأعلى، عمر الأعور الذي استقر في منطقة كلى. ولوالدة الشيخ حامد (وديدة) قصة

تروى، إذ كانت واحدة من سبع أخوات وأخ واحد أنجبهم جميعًا شيخ وافد إلى السودان هو الشيخ حمد أب دنانة. نزح ذلك الشيخ من المغرب حيث تلقى العلم على الشيخ محمد سليمان الجزولي صاحب (دلائل الخيرات) وتطرق على يده شاذليًا ثم ارتحل إلى السودان لينشئ الطريقة الشاذلية. وقد حرص أب دنانة على تزويج بناته السبع من أبناء فقهاء ذلك الزمان في السودان. فإلى جانب وديدة التي ابتنى بها الشيخ عمر ود بلال، تزوجت ابنته آمنة بالشريف محمد سوار الذهب، وعائشة بعجيب المانجلك، ومكة بالشريف ود عبد الصادق الهميم، وصُبحة بالشيخ إدريس ود الأرباب، ورابعة بالشريف شرف الدين بالزيداب، وحليمة بالشيخ عبد الله الأغبش. أما ابنه الأوحد فهو الشريف حسن البيتي. ومن المفارقات وصاة حمد أب دنانة بأن يدفن عند وفاته حيث، وكما، كان يدفن عامة المسلمين، أي أن يكون قبره بمستوى قبور عامة المسلمين. لهذا ظل قبره في أبو دليق قبرًا عاديًا في حين ارتفعت قباب أحفاده السبع في السماء حتى أضحت كالشعرى اليمانية لا تضل عنها عين ولا تخفى على عين. وأيًا كان الحال ما فتئ أحفاد حامد الكبير يحتفون كل عام في أم درمان بالذكرى السنوية للجد في حي الموردة التي يقطن فيها أكثرهم، ومن أولئك الذين تعاوروا على تنظيم ذلك المحفل السنوي الشيخ أبو سبيب، الدكتور حسين أبو صالح، الراحل غازي سليمان، البروفيسور مدثر التنقاري، اللواء محمد عمر إبراهيم العوض، آل الفيل، آل المغربي.

الأسرة الحامدية

كان لحامد الصغير زوجتان، أولاهما هي ابنة عمه آمنة بت ود مكي التي أنجب منها خمس فتيات، ثم، لاحقًا، اثنين من البنين هما النور أكبر أبنائه ثم محمد. أما الزوجة الثانية فهي ابنة خاله مدينة بت ود أحمد التي كانت تلقب "مدينة الحر". ومن زوجته الأولى حظي حامد الصغير بأربع فتيات وولدين. ولئن لعب الابنان دورًا مُهمًا في نشر العلم، فإنه كان للفتيات أيضًا دور كبير في توثيق

العلاقات بين أسرة حامد الصغير والأسر الدينية الأخرى في السودان، فمثلًا ابتنى بفاطمة الابنة الكبرى للشيخ حامد شيخ من شيوخ القضارف يسمى بكرًا، وأنجب منها مكي وسارة، ثم الطاهر والد السياسي المعروف الرشيد الطاهر، كما تزوج ابنته رقية شيخ من شيوخ النهود هو الفكي علي ود أحمد، فخلفت له فقيه النهود العابد: عباس الفكي علي. من جهة أخرى أنجب ابنه النور ود حامد ابنة وحيدة: ستنا التي ابتعل بها ابن خالها العوض عبد الماجد، وانحدر منها فرع الأسرة في الخرطوم، حيث أنجب العوض الشيخ محمد العوض (والد الدبلوماسي الراحل عثمان العوض وإخوانه) وسليمان العوض (والد الدكتور عبد الله سليمان العوض) ونفيسة العوض (والدة الشيخ محمد العبيد وأخوته) وآمنة العوض التي ابتنى بها الشيخ الحسن الأمين الضرير وأنجب منها فاطمة (زوجة الشيخ علي عبد الرحمن الأمين الضرير). تمددت أسرة حامد الصغير إلى شندي أيضًا حيث ابتعل ابنه حامد ود النور بزوجته أودية وأنجب منها محمد حامد (جد الدكتور محمد الفاتح حامد وأخواته) ويوسف حامد (والد عبد السلام ونفيسة وبشرى). أما الزوجة الثانية للشيخ حامد الصغير، ابنة خاله مدينة بت ود أحمد (مدينة الحر) فقد أنجبت له من الأبناء عبد الماجد السناري جد الأسرة الماجدية التي خصصناها بكتاب الثلاثية الماجدية، وأخوته سليمان، وحسن، وعبد الماجد، وبله، والماحي، وآمنة التي سماها على اسم زوجته الأولى وابنة عمه آمنة بت ود مكي، إذ لم ترض مدينة الحر بتسمية ابنتها الوحيدة على اسم ضرتها فأطلقت عليها لقب اللبيق، واللبيق اسم لسوار من الذهب كان شائعًا في العهد التركي. وكان لمدينة الحر هذه سبع أخوات منهنَّ أم سهمين، وفاطمة بت أُمينة (بضم الألف). وينسب لأم سهمين هذه فرع الحاج حمزة، وهي جدة مصطفى محمد الحسن بالموردة وهو والد عبد العزيز مصطفى وإخوته، كما ينسب إليها الحسن محمد عباس من حلفاية الملوك الذي ابتعل بابنة الشيخ عبد العزيز الدباغ محمد عبد الماجد فأنجبت له محمد. من جانب آخر، ابتعل شريف يمني من أهل الحلفاية هو الشريف القاسم بآمنة شقيقة حسن محمد حاج

عباس، فأنجبت له الدكتور عون الشريف. وقد كان الشريف القاسم ملازمًا للشيخ الدباغ الابن الأكبر للفكي محمد عبد الماجد في خلوته بأم درمان، ابتنى أيضًا الحاج خالد حمد كروم بفاطمة بت أمينة (بضم الألف) وأنجبت له خلف الله الحاج خالد ومحمد عثمان حاج خالد، وأبناءه الدرديري وخالد وحامد ومتوكل. وكان من نسل بت أمينه أغلب أسر العمراب بالموردة: آل الفيل، آل الصاوي، آل عمر أزرق، آل عقارب، آل خشم الموس، وآل درب العطش. ابتعل أيضًا وقيع الله من عمراب وأعيان مدينة رفاعة رقية بت الفكي حامد ود مكي، وهي إحدى شقيقات سارة أم الفكي محمد عبد الماجد، وأنجب منها أبناءه: بابكر، علي، محمد المأمون، عمر، محمد خير، ثم الحاج وهو أصغرهم ووالد اللواء شرطة ميرغني الحاج. كما تزوج عبد اللطيف وقيع الله مرة أخرى في كبر من (أمْ تَقول) شقيقة الشيخ بابكر بدري برفاعة وأنجب منها الأستاذ محمد صالح عبد اللطيف وأخاه الطيب وأخته شامة. وهكذا لعبت الفتيات دورًا مُهمًّا في تمتين الأواصر عبر المصاهرة بين أسر العلماء امتد من أم درمان وضواحيها إلى شندي والقضارف وكركوج والنهود ورفاعة.

أبناء العمومة الشناقيط

كان لحامد الكبير من زوجته ابنة عمه أبناء أشرنا إلى أسمائهم في السطور السابقة. على خلاف ابنه عبد الماجد وابنيه، الشيخ محمد (الفكي) والصاوي، اللذين انصرفا للعلم والتدريس، آثر أبناؤه الآخرون: سليمان وحسن وعبد الرحمن، ولوج مجال التجارة. من أولئك الأبناء ابتنى سليمان بسيدة من خارج الأسرة من العرب العمارنة بالهلالية، واسمها هلالة بت بتول بت التارس. وقد تزوج الأخت الشقيقة لهلالة الشيخ أبو القاسم هاشم جد الهاشماب؛ مما جعل من أبناء الشيخ أبي القاسم من تلك الأخت أبناء خؤولة لأبناء سليمان. ورغم أن سليمان قد امتهن التجارة فإن داره ظلت تؤوي العلماء العابرين للحجاز من أجل الحج. من بين هؤلاء وفد شيخ من شنقيط حل أهلًا عند سليمان، وتنبأ له

بأنه سيرزق ولدًا من بعد بنتين. وبالفعل أنجب سليمان ابنًا سماه عبد الرحمن، ولقبه بالشنقيطي. فالشنقيطي لقب لا اسم علم، وفي السودان كثر يُدعون باسم المنطقة التي جاء منها أسلافهم مثل السلاوي نسبة إلى مدينة سلا بالمغرب والتازي نسبة إلى مدينة تازا، وهي أيضًا بالمغرب، والسيوطي نسبة إلى أسيوط. ابتنى أيضًا عبد الرحمن الشنقيطي بسيدة من الجبرتة (مسلمي الحبشة)، وأنجب منها ابنته خديجة التي صارت زوجة للشيخ خليل محمد عبد الماجد، وابنين أحدهما (بشرى) مات في صغره وآخر (إبراهيم) امتد به العمر وصار خبيرًا في علم الحرف. وعلم الحرف وحساب الجمل هو علم يكشف عن التناسب بين الأعداد والحروف الأبجدية (أبجد، هوز، حطي، كلمن إلخ). وكما قال ابن خلدون في المقدمة فإن ذلك العلم شاع بين المتصوفة المتأخرة الذين جنحوا إلى كشف غير المحسوس. عاش إبراهيم الشنقيطي جل حياته في منزل الشيخ خليل إلا إنه كان يتعرض كثيرًا لنهي الشيخ له عن ممارسة رياضة التناسب بين الحروف والأرقام؛ لأنها - في رأي الشيخ خليل- أباطيل. وقد نسب ابن خلدون (المقدمة) "علم الحرف" إلى غلاة المتصوفة، فهم الذين كشفوا للناس حساب التناسب بين الحروف والأرقام وزعموا أن هناك حروفًا نورانية تعبر عن الجمال والخير، وحروفًا ظلمانية تستخدم في الشر. وربما لهذا السبب اتخذ إبراهيم خلوة له بالخرطوم لا يتركها إلا لمامًا ليعود إلى منزل أسرته في أم درمان. ومن عجائب الأمور أن يكون أكثر الملازمين للشيخ إبراهيم في مجلسه العلمي بأم درمان ابن أخيه عبد الرحمن بله الشنقيطي وابن أخته مأمون خليل. كما اطلعت بآخره، أن صديقي وزميل دراستي رئيس القضاء خلف الله الرشيد كان من بين ملازمي حلقات درس إبراهيم في الخرطوم.

أبناء عبد الرحمن الشنقيطي باستثناء أخيهم إبراهيم استمروا، كحال والدهم، في العمل بالتجارة عبر القطر من موقع عملهم فيما كان يعرف بالسوق الكبير في أم درمان. وكما كانت دور الفكي محمد وأخيه الصاوي وابن أخيه الدباغ خلاوي للعلم أصبحت دار أبناء عمومتهم الشناقيط ملتقى للتعامل التجاري،

حيث كان يفد إليها أغلب المتعاملين في التجارة لعقد الصفقات. كانت دارهم أيضًا مأوى لأبناء الأهل الأقربين الذين يفدون للدراسة في الكلية، ومركزًا للنشاط الاجتماعي/ الديني مثل احتفالات المولد النبوي الشريف. وبما أن الشناقيط، كجميع أحفاد حامد الكبير، كانوا يفرضون على أنفسهم حياة خشنة كخشونتهم في دينهم، فرضوا على ضيوفهم الزائرين أيضًا، خاصة من الشباب، المنهج نفسه. أغلب أولئك الشباب كانوا من طلاب رفاعة بكلية غردون: محمد صالح عبد اللطيف، عثمان الجعلي، وأبو القاسم حسن القاش وصحبهم. وبحكم زمالتهم للخال أمير الصاوي في الكلية كانوا يقضون نهارات عطلة رأس الأسبوع في منزل الجد الشيخ الصاوي، إلا إن ظروف محمد صالح عبد اللطيف قد قضت بأن يكون مسكنه الدائم هو ديوان الشناقيط، حيث تبدأ الحياة بصلاة الفجر، وتنتهي بصلاة العشاء. ومن الطرائف التي تروى في هذا أقصوصتان: واحدة رواها محمد صالح عبد اللطيف الذي كان يتخذ من دار الشناقيط موئلًا له في عهد الطلب عن كيف كان الشيخ حسن الشنقيطي، وهو أكبر الشناقيط سنًا، يطفئ أنوار المنزل بعد العشاء ويلزم كل من بالدار بالهجوع. ولكن ما إن يهجع كل من بالدار حتى يتسلل محمد صالح ومعه كتبه إلى الشارع ليجلس تحت أقرب مصابيح الشارع لموالاة مذاكرته. أما الأقصوصة الثانية فقد ظل يرويها وداعه الصاوي عن واحد من أبناء الأسرة في شندي من آل محيميد كان يقيم كلما وفد إلى العاصمة عند آل البرير مما لم يُرضِ أهلنا الشناقيط بحسبانهم الأقرب. وعندما أفلحوا في إقناعه للإقامة عندهم لم يَرُق له - إن لم نقل هاله - ما رأى. كان البرنامج اليومي لتلك الأسرة يبدأ بصلاة الفجر وبعد إغفاءة بسيطة يوقظ النائم كيما يتناول الإفطار وشاي الصباح ثم يتجه الجميع بمن فيهم القريب الزائر للسوق؛ ليبقوا فيه حتى قبيل المغرب. وما إن يحل العشاء يتوجه جميع من في الدار لصلاة العشاء ثم النوم الإجباري. وبعد يوم واحد في هذه التجربة الرتيبة حمل ابن العم حقائبه مدعيًا الرحيل إلى شندي لأمر مهم، ولكن رحيله ذلك كان للالتحاق بقريب له آخر في منطقة السوق هو محي الدين البرير. وعندما رآه

صديقه الخال وداعة الصاوي سأله: "ما قالوا رجعت لشندي". أجاب: "أنا جيت لأهلنا في السوق بعد ما فترت من ناس قوموا صلوا، قوموا أكلوا، قوموا نوموا".

الفكي عبد الماجد في التركية

باستقرار الأخوين حسن وسليمان بحلة الجيلي بمدينة مكوار (سنار القديمة أو سنار التقاطع حاليًا) حيث توافرت لهما ثروة مقدرة، وجَّها الدعوة لأخيهما الشيخ عبد الماجد وابنيه: محمد والصاوي للالتحاق بهما في تلك المنطقة، لا للانغماس في التجارة معهما بل لبسط العلم على طالبيه. ولم يمضِ زمان طويل حتى أصبحت خلوة الفكي عبد الماجد ومسجده نُزلًا للغادين والرائحين من الفقهاء وطالبي العلم. وللاستزادة من العلم ابتعث الفكي عبد الماجد ابنيه محمد والصاوي إلى دونتاي بنواحي سنجة لتلقي العلوم من الشيخ موسى ود الزاكي. وفي واقع الأمر لم تنقطع رغبة الفكي محمد في الاستزادة من العلم، فبعد انصرام عهد الخليفة عزم على الالتحاق بالأزهر الشريف، وما كان بمقدوره أن يفعل ذلك دون استئذان عمه ابن خالة أبيه: الحاج خالد، رغم ذلك ارتحل الفكي إلى الأبيض لملاقاة عمه الحاج خالد الذي انتقل إلى مدينته الأولى بعد سقوط أم درمان. ومع إدراك العم لرغبة ابن أخيه في الاستزادة من العلم نصحه بالعودة إلى أم درمان لرعاية الأسرة، وطلب منه قائمة بأسماء كل الكتب التي يحتاجها للتعليم لكي يوفرها له؛ ففعل الفكي ما أمره به العم، وأوفى العم بما وعد.

أصبح مسجد الفكي عبد الماجد وخلوته في سنار قبلة للغادين والرائحين من الفقهاء، وكان من بين هؤلاء الإمام المهدي والسيد الحسن الميرغني. فعند حلول الإمام في سنار خلال رحلته للغرب كانت أول منزلة له في تلك المدينة هي مسجد الشاطرابي. سأل الإمام إن كان بالمدينة شيخ آخر، فدله مستضيفوه على خلوة الفكي عبد الماجد، ولكن أبلغوه أن الفكي قد رحل عن الدنيا منذ فترة قصيرة. سأل الإمام مرة أخرى إن كان للشيخ خلوة أو مسجد، فأُخبر أن خلوته ومسجده

قائمان يشرف عليهما ابناه الفكي محمد والفكي الصاوي، ويقومان بما كان يقوم بـه الأب من تدريس للعلم ورعاية للمسجد والخلـوة. ورغـم علمـه برحيـل الأب المؤسس أبدى الإمام رغبة في زيارة ولدي الفكي عبد الماجد في الخلـوة، وتـم لـه ذلك. وما إن بلغ الإمام الخلوة حتى حيّا مضيفيه واختار الجلوس في طرف بـرش وهو يقول: "المرء يجلس حيث انتهى به المجلس". ثم طلـب مـن أهـل الـدار أن يعدوا له شعيرية ففعلوا. ولكن ما إن أقبل الإمام على تناول ما قدم له مـن طعـام حتى نبهه أحد مرافقيه إلى صيامه، إذ كان قد رفض الأكل عند بعض أعيان المدينة مدعيًا الصوم. رد المهدي على المرافق بقوله: "أنا صائم عن طعام الكفر، أما هـذا فطعام لم يدخله حطام الترك فقد بلغني أن الحكمدار أبلغ الفقيه عبد الماجـد بأنـه يريد أن يربط له راتبًا، فرفض الفقيه قائلًا: لا حاجة بي لماهيتكم لأن مـاهيتي مـن عند الله". ومن الذين اتخذوا من خلوة الفكي عبد الماجد منزلة لهم في سنار السيد الحسن الختم الميرغني في ترحاله من الشرق إلى الغرب لزيارة والدتـه الـشريفة في مدينة بارا. ومما يطرف ذكره أن السيد الحسن كان دومًا يستلقي عـلى "عنقريـب" الفكي عبد الماجد ويتجه إلى الحائط مرتلًا القرآن. وذات مرة كان الـسيد الحـسن يرتل سورة مريم مستهلًا "كهيعص" على نحو لم يكن يألفه ابنا الفكي عبد الماجد: الفكي محمد وأخوه الصاوي؛ مما جعل الأخ الأصغر يتندر بقراءة السيد الحـسن. في تلك اللحظة دخل والدهما إلى الخلوة فانتهرهمـا قـائلًا: **"القـرآن ده نـزل عـلى جدك أم على جده؟ اقرأها كما قرأها السيد"**.

الفكي محمد وأخوه الصاوي في الفترة المهدية

بعد رحيل الإمام وتولي الخليفة عبد الله التعايشي الحكم طالب كـل الـشيوخ العلماء في السودان بالرحيل إلى أم درمان التي لم يبتغِ أن يجعل منها حاضرة للملك فحسب، بل مدينة للعلم هو بابها. لهـذا حـرم الخليفـة عـلى كـل العلـماء ممارسـة التدريس أو إقامة الصلوات الجامعة إلا في مسجده. وبسبب التناقض الجذري بين نظرة الخليفة للدين ونظرة عدد كبير من الفقهاء والمتصوفة، كان من المحتم أن يقع تضاد في الرؤى الدينية بين الخليفة والعلماء. وفي واقع الأمـر لم يـرتَضِ كثـير مـن

العلماء منهج الخليفة الديني، ومن أولئك أكابر علماء السودان في العهد التركي مثل الشيخ الأمين الضرير، والشيخ الحسين بن إبراهيم الزهراء الذي كان من أكبر دعاة المهدية في عهد الإمام المهدي، لكن وقعت بينه وبين الخليفة جفوة أودت به إلى السجن. جميع هؤلاء الفقهاء، فيما يتضح، لم يضعوا الخليفة في المقام الفكري الذي كانوا يُحلون فيه الإمام المهدي. لهذا لم يكن غريبًا أن يرى الفقهاء والمتصوفة في مواقف الخليفة ما يستبدعون، وأن يسعوا - بسبب ذلك - للنأي عن مجالس علمه التي قدروا أن ليس لها من العلم نصيب. ولإخضاع أولئك الفقهاء لإمرته أخذ الخليفة يتعقب الفقهاء المستقلين بحوارييهم، وما إن بلغه خبر واحد منهم حتى "جاب خبره"، كما نقول في لغتنا الدارجة، أي قضى عليه. وعند وفوده إلى أم درمان رضوخًا لتعليمات الخليفة انتبذ الفكي محمد مكانًا قصيًّا بين حيي الهجرة وأبي روف، وأقام فيه خلوته يدرس فيها العلم مستخفيًا. ذلك ضرب من التقية درج عليه العلماء كلما حملهم طغوان الحكام، أو هرج العامة، على الاستتار. فقد روى الإمام الشعراني في الطبقات الكبرى أن الجنيد المتصوف لم يكن يتكلم في التصوف إلا مع من يثق بهم من بعد أن يغلق أبواب داره ويضع مفتاحها تحت ركبته.

في حالة الفكي محمد، نقل الوشاؤون للخليفة خبر استقلال أولاد عبد الماجد بخلوتهم بعيدًا عن "مدينة العلم" التي أقامها فأضمر الخليفة أمرًا في نفسه. وما إن بلغ ذلك الخبر الحاج خالد، عم الشيخين، حتى ذهب إلى الخليفة ليبلغه ما بينه وبين العالِمَين من علاقة. وكان معروفًا لدى الأسرة أن الحاج خالد لم يكن قط أنصاريًّا بل تجانيًّا مات علي تجانيته، رغم ذلك، ما إن بدأ الإمام المهدي حملته ضد الترك حتى اندفع الحاج خالد - لاعتبارات وطنية -- لمبايعة المهدي في الأبيض، والتي كان واحدًا من كبار تجارها الذين جادوا بالنفس والنفيس في الحملة ضد هكس باشا. ومما يُروَي من أنباء تلك الفترة اصطحاب الحاج خالد لوالدته لمبايعة المهدي. بدأت تلك المبايعة بالتزامات لا يتردد مسلم في الجهر بها مثل التوحيد، ولكن ما إن بلغت المبايعة "ونعاهدك على أن لا نسرق ولا نزني......" انتفضت

والدة الحاج خالد، وفاهت بكلمة نابية أضافت إليها "أزني أنا وأسرق، أنا أمك يا حاج خالد". حمدًا لله أن كانت تلك البيعة أمام الإمام، فلو كانت أمام الخليفة لوقع أمر ذو عوج. ابتسم الإمام المهدي، وقال لوالدة الحاج خالد لقد عفونا عنك بشأن ما تبقى من البيعة.

رغم ما تقدم قوله كان الحاج خالد مستشارًا للخليفة وصاحب حظوة عنده، فأبلغ الخليفة أنه ليس فقط عمًّا للرجلين بل هو ولي أمرهما بعد وفاة والدهما. ولحماية الشيخين طلب من الخليفة أن يلزمهما الفروة والصلاة خلفه في الأوقات الخمسة. وكما روى خليل في سيرة والده أن أم الشيخين سارة كانت تحث ابنيها على الذهاب لجامع الخليفة خشية بطشه بهما، وما تواتر لديها من خبر عن أن بطش رجال الخليفة لم يكن فقط أخذًا للناس بالعنف بل كان عنفًا مشوبًا بجهالة. من ذلك أن الخليفة جعل واحدًا من أنصاره من قبيلة تامة يُدعى منزول عينًا على الشيخين. ومن الطرائف التي أوردها الشيخ خليل في سيرة أبيه أن الفكي محمد كان كثير التنفل فأوقفه منزول بقوله: **"صلاة ما صلاها خليفة المهدي لا تجوز"** فما كان من الفكي محمد إلا أن التفت إلى أخيه الأصغر ليقول: "أو رأيت الذي ينهى، عبدًا إذا صلى".

للمزيد من التحقق عن الرجلين سأل الخليفة الحاج خالد ذات مرة: "هل أدرك والدهما عبد الماجد الإمام المهدي؟" فأجاب الحاج خالد بأنه قُبض قبل ظهور المهدي. ثم سأله: "وهل أدركت أمهما سارة الإمام؟". فقال حاج خالد "نعم أدركته". فما كان من الخليفة إلا أن طلب من أنصاره مناداتها منذ ذلك اليوم بأولاد السارة؛ لأن السارة، كما زعم، "أفضل من الزهراء، وأفضل من أم مريوم، وأفضل من عبد الماجد لأنها أدركت المهدي". ظل ذلك هو الحال إلى أن أمر الخليفة "سيد الجميع" باستدعاء "أولاد السارة" لمجلسه ومعهما عمهما الذي كان الخليفة يعامله بمثابة الأب ويدعوه أبًا. سأل الخليفة الحاج خالد "أبا الحاج وصف لي أبو أولاد السارة ديل". أخذ أبو الشيخ يصف طول الفكي عبد الماجد وعرضه ولونه فقاطعه الخليفة **"عمك ده يزوزي لي الليل كله، وأنا عارف أولاد**

السارة ديل يحبوني حب شديد ومحبتهم دي أشمها في مناخيري" ثم التفت إليهما قائلًا: "يا أولاد السارة عفونا عنكم، عندما تقدروا تصلوا معنا فلتفعلوا، وإن لم تقدروا صلوا بمنزلكم". ومن الواضح أن الخليفة لم يُخل سبيل الشيخين إلا بعد إدراكه بأنهما لا ينازعانه في سلطان زمني، أو يسعيان لتقويض ذلك السلطان كما توهم المهدي في حالة الفكي المنا فلو كان به وهم كهذا لما أخلى سبيلهما رغم محبتهما المزعومة له التي كان "يشمها في مناخيره".

بعودته إلى خلوته مضى الفكي محمد في مواصلة تعليمه في الخلوة التي كان من بين روادها الشيخ الجار ود البنا الكبير. فرغم انتمائه المزعوم للخليفة كان البنا شاعرًا موهوبًا نشأ في بيئة تعشق الأدب والفن وما كان لرجل كهذا أن يُسعد بالتشدد في الدين الذي كان عليه الخليفة. كما لا شك في أن أي عالم مثل البنا قرأ الزمخشري (الكشاف) قد اطلع على قوله "الإيمان لا يكون بالقسر وإنما بالاختيار والتمكين". وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:99]. ما برح الشيخ البنا يتردد على المجلس "السري" لود عبد الماجد، وكان كلما شهد شخصًا غريبًا في المجلس أومأ إلى الفكي بإشارة تحذير، رغم أن الفكي كان دومًا حذرًا فيما يروي أمام أي جمع في مجلسه. وذات يوم شهد البنا غريبًا لا يعرفه في المجلس، فأشار للفكي إشارة التقفها الفكي ولكن لعلمه بحقيقة مَن هم في المجلس رد على البنا بقوله:"يكتم إيمانه". تلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28]، والمشهور أن ذلك الرجل كان قبطيًّا من آل فرعون.

عانى الشيخ محمد عمر البنا كثيرًا من صحبة الشيخين رغم ما بينهم من ود. فذات مرة قام الفكي محمد وأخوه الصاوي بزيارة البنا في داره لمواساته إذ أعله الله. وخلال وجودهما مع البنا دخل عليهم الفكي أحمد أبو شريعة، فأوجس البنا

خيفةً من أن تقع ساقطة من الفكي محمد أمام ود أب شريعة الذي عرف بأنه شديد التسليم بالمهدي. قال البنا للشيخ المادح: "شنف الأسماع بمديح أب الفاضل (أي المهدي) عَلَّ الله يشفيني". ومما هو جدير بالذكر أن ود أب شريعة رغم قصائده الكثر في مدح المهدي لم ينظم قصيدة واحدة في مدح الخليفة. فما كان من الفكي محمد إلا أن قال للمادح: "شنف الآذان بمدح الرسول، ودعك عن مديح زيد وعبيد". تلك القالة جعلت البنا، كما ورد في مذكرات الشيخ خليل، يتحرك في مرقده ويقول: "آخ يابوي". وهنا قال له الفكي "لا توجل فود أب شريعة قد دخل الإسلام من زمان"؛ مما أضحك ود أب شريعة المادح والبنا الشاعر.

إشارة الجد لدخول ود أب شريعة الإسلام هي إشارة صادرة من رافضي (أو مُنكِر كما كانوا يصفون مَن رفض المهدوية) لم تأنس نفسه للخليفة، بل كان في كل لحظة يعبر عن رفضه. وحتى عند الاصطفاف في أي صلاة يؤمها الخليفة، كان الفكي وأخوه الصاوي يقرءان في سرهما قبل الصلاة: "قل يا أيها الكافرون". وقد أتيحت للشيخين فرصة لجذب ود أب شريعة إلى جانبيهما إثر الخلاف الذي وقع بين المادح والخليفة حتى جيء به مخفورًا من الحدود الحبشية التي بُعث للرباط فيها مع يونس الدكيم. وحول نقض ود الشريعة لبيعته للمهدي دار لغط كثير، منه ما رواه صديقه الشيخ بابكر بدري عن الشاعر نفسه بأنه بعد انهيار المهدية أحرق كل شعره في مدح الإمام. ولاشك في أنه كان لمطاردة الغزاة للأنصار، من ناحية، وكراهية مَن بهم موجدة من الأنصار، من ناحية أخرى، أثر في قرار ود أب شريعة بحرق ما أبقى عليه من أشعار في مدح الإمام وخليفته، على أن السبب الأكثر معقولية لما دفع ود الشريعة للجفوة مع الخليفة هو تمنع الخليفة عن لقائه بعد أن جيء به مخفورًا من جبهة الشرق. وما إن علم الفكي محمد بما حاق بذلك المادح المُجيد حتى أرسل له في داره بأم درمان جوار بوابة عبد القيوم ما يعينه في الحياة مما دفع قريبًا له يدعى حسين شعبان لمطالبة المادح بزيارة أولاد عبد الماجد لشكرهم. في البدء تأبى ود أب شريعة زيارة الشيخين في دارهما خشية أن يشمتا فيه إلا أن شعبان قال له: "إن الشماتة ليست من صفات العلماء". وعند زيارته

للشيخين في خلوة الفكي محمد استقبلاه بحفاوة بالغة، وأمداه بكتب في السيرة. نتيجة لذلك اللقاء أنشأ ود أب شريعة أولى قصائده (النومسوه) في مدح الرسول، وكانت أيضًا الأولى من قصائده التي لم يختمها بالدعاء لنفسه، بل بشكر "الخلان" الذين هدوه سواء النسبيل. تقول القصيدة:

النومسوه ... على المخلوق رَيَسوه
عبدًا مَنسي ونِسوه ... جو الخِلان حَسَّسوه
مما أيسر آنسوه ... صار رَضيان خَنَّسوه
بعد النوم أجلسوه ... من تصعيب سَلَّسَوه
ليهو القول ملسوه ... وقِفلو الطاش فلسوه
صار يمدح بي صبابة ... حُبًّا خالص من لُبابه
سَكتْ بحُه وقال حَبابه ... الخيرات طه بابه

لم يبسط الحاج خالد كف حمايته على ابني أخيه في مجلس الخليفة فحسب، بل حمل ابنه محمد عثمان على اصطحاب الصاوي الأخ الأصغر معه إلى ديار الجعليين لجمع الضرائب للدولة. وخلال تلك الرحلة طلب الصاوي من محمد عثمان زيارة قبر جدهما الشيخ حامد في أم علي للتبرك، فاستجاب محمد عثمان للطلب. وكان الصاوي يضمر في نفسه شيئًا: الاستنجاد باب الجدود طالبًا غوثه مما نزل بأهله وبديار المسلمين من نوازل. فما إن حل الشيخ الصاوي بمرقد "أبي الجدود" حتى أخذ، بعد أن حيا وصلى وسلم، يرتجل قصيدة ظل كبار الأسرة يحفظونها ويرددونها على مسامع أنجالهم حتى حل على الناس زمان "ده الجنني وشغل بالي". تقول القصيدة:

يا أيها الجد الكبير ... أبو الجدود المُنجدين
نابت بنيك نوائبٌ ... أفلا تغارُ على البنين

يــا حامــدًا ألــق العــصا	تلقــف حبـال الــساحرين
فحبـــــالهم ماحَيــــــةٌ	تــسعى لتلقــف يــا فطـين
وإذا النوائــــب أقبلـــت	فـــإذا بحامـــد بـــاليمين

تلك النجوى ما كانت لتـصدر عـن الجـد الـصاوي لـولا اسـتهانة الخليفـة بالعلماء من بعد أن دوخ البلاد وقهر أهلهـا وأذلهـم. تلـك صـفحة مـن التـاريخ المهدوي لن يمحوها من الذاكرة السياسية الدور المهم الذي أدَّاه الإمام المهدي في إحياء الدين وتحرير الوطن من طغيان الأتراك. وكم أحسن المؤرخ الباحث المتميز أحمد إبراهيم أبو شوك عندما ألقى إضاءات كاشـفة لاختـزال الخليفـة لـسلطات الدولة في خدمة مصالح النخبة الحاكمة من أهله، والتحقير لمـن عـداهم. واتخـذ المؤرخ الباحث من "كتلة" المتمة نموذجًـا لجـبروت الخليفـة (الـسودان الـسلطة والتراث). فرغم الاعتبارات الاستراتيجية التـي حملـت الخليفـة عـلى التخطـيط لإخلاء المتمة من أهلها وإخضاعها للأمير محمـود ود أحمـد تحـسبًا لغـزو أجنبـي مرتقب، فإن الأسلوب الذي اتبعه في تنفيـذ تلـك الاسـتراتيجية كـان يُنبـئ عـن عنصرية غير حميدة وغلو لا يتفق مع ما أمـر بـه الإسـلام ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: 171]. الغلو في الدين والعنصرية المفضوحة سببان وحدهما كافيان لإباحة لجوء المنكـوب للتعـاون مـع الشيطان إن كان في ذلك خلاص من داهية أعظم.

مـن نـماذج الغـــلو المستبـشع كانـت "كتلـة البطـاحين" و"كتلـة المتمـة" و"الكتلة" هي الموقعة. ففي الأولى أخذ جيش الخليفة يعمل تقتيلًا في أهل ورعايا شيخ البطاحين عثمان ود أحمد أمام شيخهم حتى لم يبقَ منهم إلا واحـد. وإمعانًـا في الإساءة قال قائد الجيش لزعيم القبيلة: "خذ مـا تبقـى مـنهم". أمـا في "كتلـة المتمة" فكان الأذى أكثر مأساوية إذ لم ينج منه الذين آزروا الإمام المهدي وأنفقوا

ما لهم في حروبه. ففي كتاب سابق رويت قولًا للعم ميرغني حمزة أفضى بـه إليَّ في معرض الرد على سؤال يدل على حنقه على المهدوية. قـال ميرغنـي: "أنـت عـارف وين ولدتني أمي، في ظل شـجرة تُنـضب في الـصحراء بعـد هـروب كـل نـساء الجعليين من البلد"، والتنضب نوع من شجر العضاة. أمـا الغلـو الكبـير في كتلـة المتمة فقد تبدى في حبس الخليفة للياس باشا أم برير في سجن الـساير ومـصادرة كل ممتلكاته بدعوى إيوائه عبد الله ود سعد عند خروجـه مـن الخرطـوم للحـاق بأهله في المتمة، رغم أن إلياس قد ترك البلاد بإذن من الأمير يعقوب. أما لليـاس باشا أنه كان الســاعد الأيمن للإمام المهدي في فـتح الأبـيض. وحـول العنـصرية المستقبحة كانت أكبر دلالة عليها خطاب الخليفة أمام المصلين في أم درمان الـذي جاء فيه: "**يا إخوانا أنصار الدين، إن الله ناصرنا عـلى الأعـداء الجلابـة الجعليـين والدناقلة المنافقين**". ولئن ظل بعـضنا في الـشمال يـشيعون بـين النـاس أن تعبـير "الجلابة" تعبير أطلقه أهل الجنوب على تجار الرقيق الوافـدين مـن الـشمال فهـم مخطئون إذ أطلقه من قبل خليفة المهدي على أبناء القبائـل العربيـة الـشمالية التـي وقفت ضد نظام حكمه كما لم يزل أهل الوسط والغرب (جبال النوبـة، كردفـان، دارفور) يطلقونه على أهل الشمال (الدناقلة والشايقية والجعليين) الـذين نزحـوا لهذه المناطق لممارسة التجارة واختاروا لسكناهم مناطق متميزة حيثما حلـوا. هـذه المناطق – وما زال الحال في بعض المدن– تُسَمَّى أحياء الجلابة وتهفو للإقامة فيهـا نفوس مبخوسي الحظوظ مـن أهل البلاد وهم يتغنون "أنا ببنـي لي بيـت في حـي الجلابة".

هذه الجماعة، في حقيقة أمرهـا، طبقـة تجاريـة شـمالية (الدناقلـة، الجعليـين، الشايقية) نزحت إلى الجنوب لممارسة تجارة الرقيق في البدء، وفي المنتجات الأخرى مثل ريش النعام والعاج (سن الفيـل) كـما في تزويـد تلـك المنـاطق باحتياجـاتهم الغذائية الضرورية مثل السكر والملح. وفي الشمال اتجهت هذه الجماعة إلى منـاطق

أغلبها في الغرب (كردفان ودافور)، وكان نزوحها إليهـا أمـرًا حتّمَتـه ضرورات اقتصادية تمامًا كنزوح التجار ورجال الأعمال الإغريق والـشوام والهنـود للـشمال (الخرطوم، مدني، القضارف، كوستي، بورتسودان). على أن صفتين كانتـا تميـزان تلك الطبقة: الرغبة في الاستغلال والانتهازية. وإن كان الاستغلال صفة ملازمـة للتجارة، خاصة في وسط عملاء يسهل استغفالهم فقد تجلت الانتهازية في شيئين: الأول هو أنه ما إن نمت ثروات الجلابة إلا وهرعوا بهـا إلى مـواطنهم الأصـلية. والثاني هو الهربان من المناطق التي نمت فيها ثرواتهم كلما حاقت بأهلهـا مـصيبة. لهذا فإن القول الجامح بأن الجلابة هم جماعة من المسترقين فيه ظلم لتلك الجماعة، كما أن القول بأنهم رسل تحضير للمناطق التي نزحوا إليهـا يغفـل عـاملًا مهـمًا في نزوحها ألا وهو عامل الاستغلال الاقتصادي.

كتلة المتمة والأسرة الحامدية

موقعة المتمة -أو كتلة المتمة- كان لها أثر غائر على الأسرة الحامدية؛ إذ قتـل فيها ستة إخوان تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والأربع والعشرين سنة مـن العمر هم أبناء ستنا بنت النور التي سلف ذكرها. ولئن نحينا عنف المعارك جانبًا، فهل يمكن إغفال النعوت العرقية التي أطلقها الخليفة على قبائل أمـدت جيوشـه بخيرة رجالها، محمد شريف ابن عم المهدي، الزاكي طمل الذي زج به الخليفـة في السجن، وتُرك ليموت فيه جوعًا، محمد أبو قرجة الذي نفي للرجاف. الـشعوب لا تستحي من الكشف عن الجوانب المظلمة في تاريخها، فأكثر الفترات إشراقًـا في تاريخ فرنسا هو عهد التنوير والثورة الفرنسية. فعهـد التنـوير كـان إيـذانًا بإنهـاء الظلامية الفكرية التي عَمَّتْ أوروبا في القرون الوسطى، وفتحت البـاب واسـعًا لسيادة العقلانية، أما الثورة الفرنسية فكانت هـي أول ثـورة في التـاريخ أرسـت القواعد الثابتة لحقوق الإنسان والمواطن التي أصبحت نبراسًا للحكم الرشـيد في القرون التالية. رغم ذلك لم يتردد مؤرخو الثورة الفرنسية في نقد تجربـة الثـورة في

الفترة بين (الخامس من سبتمبر 1793 والثامن والعشرين من يوليو 1794) ونعتها بعهد الرعب. فما بالك بحاكم يركب الأمر على غير بيان ويدفع قاصدًا بوطنه وشعبه إلى عتمات ليالٍ كثير شرها. كما أن المؤرخ الذي يزيف التاريخ بسبب التزام سياسي أو حنين عاطفي لماضٍ يحسبه زاهرًا، أو الجبن عن قول الحق، ليس بمؤرخ يحسن صنعته.

استمساك الشيخين محمد والصاوي بإنكار مهدوية الإمام لم تمحها السنون فقد روى لي، مثلًا، الخال أمير الصاوي قصة دالة في هذا المجال، قال الخال إن الشيخ عبيد عبد النور أستاذ التاريخ في كلية غردون كلفه مع زملاء له في الدراسة: حمزة ميرغني، إسماعيل محمد بخيت، محمد عباس فقير، بكتابة بحث عن المهدية، ومهد لهم للقاء مع السيد عبد الرحمن المهدي للاستئناس برأيه بحكم درايته بالموضوع. استقبل السيد عبد الرحمن الطلاب الباحثين وأكرم وفادتهم، ولكن هداهم للاتصال بأخيه السيد علي المهدي لأنه أدرى بالتفاصيل التي ينشدها الطلاب. هرع الطلاب إلى السيد علي المهدي، فأحسن وفادتهم هو الآخر وزودهم بما لديه من معلومات عن علم الإمام وفتوحاته العرفانية مختتمًا الحديث بأبيات ثلاثة نظمها معلم المهدي، محمد شريف نور الدائم يشيد فيها بحواره. الأبيات الثلاثة هي:

كَمْ صَامَ كَمْ صَلَّى كَمْ قَامَ كَمْ تَلَا

مِنَ الله مَازَالَتْ مَدَامِعُهُ تجري

وَكَمْ بِضَوْءِ اللَيْلِ كَبَّرَ للضُّحَى

وَكَمْ خَتَمَ القُرَآنَ في سُنَّةِ الوترِ

لِذَلِكَ سُقي من منهل القوم شربة

بِهَا كَانَ محبُوْبًا لدى النَّاسِ في السِرِّ

وعند عودة أمير إلى الدار سأله والده الصاوي عما درس، فحدثه عما رواه السيد علي المهدي. سأل الأب ابنه: "هل أبلغكم أن في القصيدة أكثر من هذه الأبيات؟". وعندما أجاب أمير بالنفي طلب منه والده توجيه السؤال للسيد علي المهدي عند لقائهما التالي معه. وفي اللقاء الثاني سأل الابن السيد علي المهدي عن إن كان في قصيدة ود نور الدائم أبيات أخرى، فرد عليه السيد علي المهدي بحذاقة وهو يبتسم: **"ده العارفنه منها، الباقي تلقاه عند ناس أبوك"**. وما كان لابن المهدي أن يقول غير هذا، فهذه الرائية، التي لم يفلح أحد حتى اليوم في جمعها، هي من أقذع ما قيل عن المهدي، خاصة وقد جاءت من معلم المهدي ومن قطب صوفي. ففي تلك القصيدة قال ود نور الدائم:

إلى الخمس والتسعين أدركه القضا	**على ما مضى في سابق العلم بالشر**
بصحبة شيطان من الجن آيس	**وشيطان إنس وافقاه على الضُّر**
فقال أنا المهدي قلت له استقم	**فهذا مقام في الطريق لمن يدري**
فقلت له دع ما نويت فإنه	**وتالله شر قد يجر إلى الخسر**
وقال له الشيطان بَشِّر ولا تخف	**فإنك منصور علي البر والبحر**

آباء الأسرة في الحكم الثنائي

في بداية عهد الحكم الثنائي ثابر الفكي محمد ود عبد الماجد على الاستمساك برأيه، ولا أقول عناده في أمر الدين، فالعناد هو ردك للحق رغم معرفتك إيَّاه. فما إن استتب له الأمر واستقر على هواه حتى أخذ الحاكم الأجنبي يؤسِّن نفسه. ومن وسائل التأمين كان إغلاق الطريق على أي تطرف ديني يؤدي إلى ظهور مهدي جديد. لهذا ذهب الحاكم الاستعماري إلى وضع جميع الفقهاء في مكان واحد تشرف عليه الحكومة كما تشرف على مَن يعلمون الناس أمور دينهم. ذلك المكان عرف فيما بعد بالمعهد العلمي وتولى قيادته علماء مرموقون مثل الشيخ محمد أحمد

أبو دقن والشيخ أبو شامة عبد المحمود. الدراسة في ذلك المعهد بدأت عام (1912) على نظام الأزهر القديم، وتطور حتى تكاملت فيه الأقسام التعليمية الثلاثة: الابتدائي والثانوي والعالي في عام (1925) وتخرج فيه كثيرون انخرطوا في مجالات القضاء والتعليم والإرشاد.

رفض الفكي محمد الانصياع لرغبة الحاكم الاستعماري مؤثرًا الاستمرار في التعليم في خلوته. ذلك الرفض حدا بعدد كبير من الفقهاء أن يرفضوا هم الآخرون الانخراط في المعهد إن رضخت الحكومة لمطلب "الفكي محمد". وإزاء تمنع "الفكي" من الانضمام إلى جمهرة العلماء شكاه الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم، شيخ العلماء، إلى السكرتير القضائي، وطلب منه قطع الراتب الذي قررته الحكومة للعلماء، إلا أن "الفكي" تأسيًا بما فعله والده عبد الماجد مع الحكمدار التركي قال للشيخ أبي القاسم: "لا حاجة بي لهذا الراتب فلتقطعوه، فقد عاهدت الله على أن أدرس العلم لمن يريده في داري لوجه الله تعالى". لجأ الشيخ أبو القاسم فيما بعد إلى عدد من أعيان البلد، منهم الشيخ عوض الكريم أبو سن، والشيخ حسين الفيل (وهو ذو قربى بالفكي)، والحاج مدثر إبراهيم الحجاز، والفقيه عيسى ود دوليب، ولكن باءت جهود جميع هؤلاء بالفشل في إثناء الفكي عن موقفه. هنا قال الشيخ أبو القاسم للفكي: "ماذا أنت فاعل إن منعتك من التدريس في منزلك؟" قال الفكي: "أنا أدرس القرآن والذي ليس له شيخ علماء، فلتكتب لي كتابًا بهذا المنع". رد الشيخ أبو القاسم:"وما الذي ستفعل بهذا الكتاب؟". قال الفكي "سأوصي أولادي بأن يدفن كتابك في كفني عند الوفاة، فإن جاء منكر ونكير يسألاني لماذا توقفت عن تدريس القرآن، أقول إنني فعلت هذا بموجب هذا الأمر المكتوب من شيخ العلماء". وهنا انتفض واقفًا الشيخ عوض الكريم أبو سن وقال: "يا جماعة ما في فايدة، الكلام بقى حديث منكر ونكير". لإنهاء هذه الأزمة تصدى السيد علي الميرغني فأقنع "الفكي" بالمشاركة

في المعهد لفترة قصيرة ريثما يستقر الأمر بالتحاق بقية الفقهاء برحابه. وللاطمئنان على امتثال الفكي لطلبه ظل السيد علي يرسل له كل صباح حمارًا مطهمًا ومعه خليفتان، واحد منهما على اليمين والثاني على اليسار، يصحبانه من خلوة عبد الماجد في الصباح ثم يعودان به إلى الخلوة عند الظهيرة.

بعد فترة قصيرة ترك الفكي المعهد العلمي ليعاود التدريس في خلوته مستقلًّا عن المعهد العلمي. على تلك الخلوة توافدت جماعات من طالبي العلم من جميع أنحاء السودان منهم مَن استقر في الخلوة كطلاب علم دائمين، ومنهم مَن اختلف إليها لتلقي العلم. وكان الفكي يعول الطلاب الدائمين في خلوته، ولهذا كان طلاب العلم المقيمون يطلقون على كل واحدة من زوجات "الفكي" اسم "أم الفقرا". رواد تلك الخلوة شملوا شقيقه الشيخ أحمد الصاوي عبد الماجد، والشيخ أحمد السيد الفيل الذي كان يقيم بالخلوة كل أيام الأسبوع عدا يومي الخميس والجمعة، وبعد التحاقه في سلك القضاء الشرعي تولى منصب قاضي قضاة السودان. منهم أيضًا الشيخ محمد أحمد أبو دقن من أهالي الباوقة الذي أخذ علوم الفقه من الفكي محمد ثم التحق بكلية غردون، فانتظم في سلك القضاء الشرعي حتى أصبح مفتشًا للمحاكم الشرعية ومن بعد انتقل إلى مشيخة المعهد العلمي، والشيخ أحمد الطاهر من الكواهلة بنواحي بحر أبيض الذي التحق بعد الفترة التي قضاها في خلوة الفكي محمد بكلية غردون، ومنها انتظم في سلك القضاء الشرعي حتى أصبح قاضيًا للقضاة، والشيخ الطيب بابكر الشهير بأب قناية من الجزيرة، والشيخ منصور العجب من الدندر، والشيخ السنوسي سر الختم، والشيخ خالد محمد عثمان من العمراب، والشيخ محمد المدني عثمان من بربر، والشيخ شكاك من الرباطاب، والشريف عبد الرحمن البيتي، والشيخ أحمد سمساعة من العمراب، والشيخ بشير الدابي وأخوه عبد القادر من رفاعة، وحاج الشيخ عمر من الفاضلاب، وكانت له مواقف مشهورة مع الاستعمار إذ كان أول

من قاد مظاهرة في أم درمان عقب دفن مأمور المدينة المصري: عبد الخالق أفندي حسن، داعيًا فيها المعزين بندائه الشهير "من يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل معي تحيا مصر وتسقط انجلترا". وكان من بين الذين يؤدون صلاة الجمعة مع الفكي الشيخ قريب الله أب صالح إلى جانب آخرين أورد أسماءهم الشيخ خليل فيما سجل عن والده من سيرة ذاتية. ما أشرنا إلى هؤلاء إلا للكشف عن تمدد العلاقة الروحية والعلمية للفكي محمد عبر السودان.

تولى الإشراف على تلك الخلوة بعد رحيل الفكي محمد أخوه أحمد الصاوي، فأولاد الفكي، على التوالي، عبد العزيز الدباغ وسليمان ثم خليل. ورغم العروة الوثقى التي ربطت بين الآباء والإخوان إلا إن منهجهم في الوصول إلى الحقيقة كان مختلفًا. ففي التطرق مثلًا ظل الفكي محمد شاذليًا منذ أن أخذ الطريقة على يد الشيخ موسى ود الزاكي في دونتاي، في حين تطرق ابنه الدباغ تجانيًا مما يجليه تسفاره إلى الشمال الأفريقي للتواصل مع شيوخ تلك الطريقة في مصر والمغرب وعلاقاته الوثيقة مع رجالاتها في الخرطوم: الشيخ مجذوب جلال الدين، الشيخ مجذوب الحجاز، المحسن عبد المنعم محمد. من جانبه تطرق سليمان أحمديًا أما خليل فقد توفر للشيء الذي استجاده واشتهر به ألا وهو الفقه. ويُدهش في موقف الشيخ خليل من التطرق، العلاقة الوثيقة التي رسخت بينه وبين شيوخ السمانية بدءًا من الشيخ قريب الله وإلى ابنه الشيخ الفاتح الذي أشرف على تجهيز خليل عند وفاته.

محور التعليم الديني في خلوة الفكي محمد هو الفقه المالكي. ومما يكشف عن استمساك الفكي بمذهب مالك إطلاقه على كل أبنائه أسماء فقهاء المالكية. من بين هؤلاء خليل نسبة للفقيه المالكي خليل بن إسحاق صاحب المختصر في الفقه؛ والصاوي نسبة لأخيه الذي أطلق عليه ذلك الاسم غير المعروف بين السودانيين يومذاك نسبة إلى المتصوف أحمد الصاوي المالكي الخلوتي، وهو واحد من أبرز

علماء أهل السنة. كما سَمَّى أبنـاءه الآخـرين: إبـراهيم البـاجوري المـالكي نـسبة لإبراهيم الباجوري الذي تولى مشيخة الأزهـر (1847 – 1860) بعـد المـيلاد؛ وعليش أحد أعيان المالكية (ولد في المغرب وارتحل إلى مصر) وواحد ممن طـوروا الفقه المالكي في مؤلفات عديدة، منها "فتح العلي المالك في الفتـوى عـلى مـذهب مالك" و"فتح الجليل على مختصر خليل" و"هداية الـسالك إلى آخـر المـسالك في فروع الفقه المالكي"؛ والدسوقي نسبة للشيخ إبراهيم أبو المجد الدسوقي (نـسبة لمدينة دسوق بمصر)، وقد ولي مشيخة الأزهر في عهد السلطان الظـاهر بيـبرس؛ ومالك نسبة لإمام المذهب. أما ابنه الأكبر عبد العزيز فقد ألحق باسمه "الـدباغ" لا إشارة لمعالج الجلود كما تصور ديك يحـلي كتفيـه بـالنجوم كـان في بدايـة عهـد الإنقاذ يصيح في الناس كل صباح من إذاعة السودان، وإنما للقطب الصوفي عبـد العزيز الدباغ الذي أورد الشيخ أحمد بـن المبـارك الكثـير عـن كراماتـه في مؤلفـه "الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ". وحمدًا لله أن انبرى لذلك "الديك" أحد حواريي الشيخ الدباغ البررة مصطفى طيب الأسماء ليعلمه ما كان ينبغي أن يكون عالمًا به. وعلى أيٍّ، قام أربعة من أبناء الفكـي محمـد عقـب وفاتـه: الـشيخ الصاوي، والشيخ خليل، والشيخ موسى، والـشيخ خالـد بالاتـصال بمفـتش أم درمان المستر ريد لتسجيل الأرض التي أقيمت عليها الخلوة والمسجد وتوسعتها، وقد تم لهم ذلك.

الفصل الثالث

3

الكاتب وآباء أسرته المؤسسون

ما إن استقر الفكي محمد في مسجده وخلوته بأم درمان بعد رفضه الانضمام إلى المعهد العلمي الجامع الذي أنشأه الحكم الاستعماري لتطويع العلماء والذاكرين حتى انكب علي نشر المعارف الدينية في مسجده والخلوة الملحقة به، وذلك جهد لم ينقطع عنه حتى انتقل به النعش إلى مقره الأخير. وكانت حلقات الدرس تضم كل يوم ليلًا ونهارًا خمسين محفظة تناولت الفقه والتفسير في علوم الدين والنحو والعروض في علوم اللغة. وبعد رحيله في عام 1929 تولى مهمة التعلم على أثره شقيقه الشيخ الصاوي عبد الماجد ثم أبناء الفكي محمد، على التوالي: الشيخ عبد العزيز الدباغ، الشيخ سليمان، فالشيخ خليل.

في عالم الشيخ الصاوي

من الآباء المؤسسين للأسرة الماجدية لم يدرك هذا الكاتب "الفكي" محمد الذي رحل في نهاية عشرينيات القرن الماضي، ولكنه حظي بمعايشة الجد الصاوي حتى رحيله في نهاية شهر مايو (1946) حين كان الكاتب في أواخر سنوات الدراسة في المرحلة الابتدائية وبداية المرحلة الثانوية، والعم الدباغ الذي كان رحيله عند بلوغ الكاتب منتصف المرحلة الثانوية، والعم سليمان الذي رحل في

عام (1963)، ثم خليل الذي رحل في ثمانينيّات القرن الماضي. لهذا إن بقي في الحافظة شيء نستعيده فهو مجالس الدرس التي كان يعقدها الشيخ الصاوي في داره أو في مسجد الفكي محمد بعد رحيله. تستعيد الذاكرة أيضًا حرص الشيخ الصاوي على تعليم النساء، وحُنوّه وابني أخيه الدباغ وخليل على الصغار. ومن اللحظات التي يذكرها الكاتب عن الجد الصاوي جلسات المديح التي كانت تعقد في الدار عقب صلاة الجمعة كل أسبوع. تلك الجلسات كانت تضم إلى جانب المادحين أبناءه وأبناء أخيه وأصدقاء الأسرة من الحي، في حين يسعى بينهم الصغار بكؤوس الشاي الأخضر يعطره العنبر. والعنبر، لمن لا يعرفه، مادة ذات رائحة نافذة تفرزها الحيتان. وكانت أغلب الأماديح من شعر الصاوي الذي وصفه قائله بالقصور عن جلال الممدوح ألا وهو الرسول المعصوم.

هذا قريض قاصرٌ من قاصرٍ عبدٌ نفورٌ دائم الزلات

ومن قصائد الشاعر المادحة التي كثيرًا ما كان يرددها المادحون تلك التي تبدأ بالنسيب مثل:

الدر والجوهر المكنون في فيه وبارد الشنب المعسول يلفيه

من مُنصفي من غرام شب في مهجي فـالعين تظهـره والقلـب يخفيـه

كما منها:

قلبـي بحبـك دائـمًا مفتـون وسـحاب عينـي بالـدموع هتـون
وحـديث لـيلى العامريـة شـاغلي لـيلي ويـومي والحـديث شـجون
مجنـون لـيلى كـم تـنفس بـالهوى شـغفًا إليهـا والجنـون فنـون

وبشأن حنو الجد بحفيده بوصفه أصغر الأحفاد في داره أتـذكر، مما أتـذكر، استردافه لي على ظهر دابة كان يبعث بها إليه بعض أصدقائه لتحملـه إلى دورهـم. تلك الدابة كانت حمارًا مُطهمًا، والمطهم هو التام من كل شيء. في ذلك العهد كـان الحمار المطهم هو ليموزين وجهاء المدينة، ورغم ذلـك لم أر عنـد واحـد مـن آبـاء الأسرة مثل هذه المطهمات إلا عند أعمامنا في الموردة. وكان لي ولابن عمـي محمـد موسى شأن وتجارب معها. فقد كان، مثلًا، آل الحاج خالد يفدون كل جمعة لفيفًـا (خالد وحامد ومتوكل) لزيارة الشيخ الصاوي وأبناء أخيه على متن حُمـر عاليـة، وكانت زياراتهم تلك تسعـدنا وتـشقينا في الوقـت نفسه. مـصدر الـشقاء هـو تكليفي وابن عمي بالسيطرة على الحمير لربطها بحلقات حديدية تثبت في حـائط منزل الفكي محمد، أما السعادة فكانت تجيء عندما يتبارى الأعمام في دس عملـة فضية في أيدينا تنسينا هول الواجب الذي أوكل إلينا. وعلني لا أكمل هذا الفصل دون الإشارة إلى استرداف الشيخ الصاوي لي على متن واحد من تلـك المطهـمات في أكثر من زيارة للجد إلى أصدقائه العتبـانيين لتنـاول الغـداء مـع نفـر كـريم في أبروف. ذلك النفر كان يضم إلى جانب آل عتباني الـشيخ عبـد الـرحمن الـشلالي (والد الضابط الطبيب حسين) والشيخ محمد أحمد مختـار والـشيخ عمـر إسـحاق والبكباشي نور. كنت دومًا سعيدًا باصطحاب الجد لي لزيارة أناس لم أكن أعـرف عنهم غير الأسماء، ولكني كنت أستطعم في دورهم طعامًا لا يقدر على صـنعه إلا طاهٍ ماهر.

على أن الزيارة التي لم تبرح ذاكرتي هي مرافقتي للجد الصاوي مع خمسة من أبنائه لزيارة السيد علي الميرغني في داره ببيت المال. فما إن دخلنا على مجلس السيد حتى رأينا في البهو العريض كرسيين مما يعني أن على كل من عدا السيد والشيخ أن يتقرفص أرضًا. ولسبب لا أعلمه ظللت واقفًا خلف مقعد الجد وممسكًا به، دون اكتراث لإشارات أخوالي المنذرة، خاصة أنه لم يكن مَن بينهم من يجرؤ على الحديث بصوتٍ عالٍ أمام السيد والوالد. من تلك الإشارات زم الشفاه وكأنها تقول: "انتظر لما نرجع البيت". ولا شك في أن الذي شجعني على الموقف الذي اتخذت دون وعي أو إرادة مني صمتُ الجد على ما فعلت. ولإدراك السيد علي أن ثمة حرجًا قد وقع للأخوال تسبب فيه فتى غريب الأطوار، قال السيد للشيخ الصاوي: "ولدكم ده سيكون له شأن"، عندها كف الأخوال عن زم الشفاه إلى حين.

لم يطل المقام بالشيخ الصاوي إذ رحل في يوم الثلاثاء 17 جمادي الأولى عام 1364 هجرية الموافق الأول من مايو عام 1945. وكان لابن أخيه الشيخ خليل محمد عبد الماجد مرثاة أدمعت من الأهل والصحاب مَن لم يعرف بسيلان دمعه. كتب الخليل: "أما بعد فقد جل الخطب وعظم المصاب، واشتد الكرب وطاشت من مكرها الألباب. وأظلمت الدنيا وزال ضياؤها. وهمت العيون دمًا فلم يرقأ بعين ماؤها. وصُمت آذاننا وخرست ألسنتنا وضاق ذرعنا، وهُد ركن اصطبارنا بوفاة مَن ألقت إليه المعالي زمامها، وسيرته الفصحاء أمامها، الذي أحيا رسم الأدب بعد اندثاره، العالم العامل والخاشع المتواضع، التقي النقي البارع، عمي وسيدي وسندي والقيم على بعد وفاة والدي، ولا جَزم أن ذلك هو الأستاذ الكامل المرحوم الذي فجعنا به القضاء المبرم والقدر المحتوم مولاي الشيخ أحمد الصاوي مَن هو لكل الفضائل حاوي، طيب الله ثراه وأكرم نزله ومثواه:

لعمرك ما الرزية فقدُ مالٍ ولا فرس تموت ولا بعير

ولكــن الرزيــة فقــدُ شــخصٍ   يمــوت بموتــه خلــق كثـير

مع الدباغ: النحوي والشاعر والفقيه الذاكر

فيما يتعلق بالعم الدباغ لم يزل لاصقًا بذاكرتي مناداته لي دومًـا "يـا منـصو"، حاذفًا حرف الراء من اسمي. لم أدرك معنى ذلك النداء، فقلت لـصفيه وحواريـه بدوي طيب الأسماء: "أنا اسمي منصور ليه يسميني عمي الـدباغ منـصو". قـال بدوي، أمطر الله قبره وقبر شيخه بوابل هتون: "عمكَ الشيخ من باب الود رَخَّـم اسمك". والترخيم هو حذف الحرف الأخير من الاسم تخفيفًا له، ورَخم الـشيءُ أي سَهُل. وفي ألفية ابن مالك:

تــرخيمًا احــذف آخــر المنــادى   كيــا سُــعا فــيمن دعــا ســعادا

مثال ذلك أيضًا قولك مناديًا نكرة مقصودة مثل فاطمة يا فاطم، أو زينبًـا يـا زين. تلك الحادثة العابرة حملتني على قراءات لم أكن لأستهمّ أو أعنـى بهـا كثـيرًا مثل الاطلاع على الكتب التي تتعمق في أحوال الكلام إعرابًا وبناءً.

من جانب آخر، كان أكثر ما يحملني على الذهاب إلى خلوة الشيخ الدباغ كل خميس حلقات الذكر التي كان يقيمها السادة الـسمانية القريبيـة في تلـك الخلـوة، يتصدرهم الشيخ قريب الله ومنشده قنديل. في تلـك الـسن كنـت كلـما سـمعت منشدي السمانية في طريقهم من مسجد الشيخ قريب الله إلى خلوة الدباغ خففـت سريعًا إلى الخلوة وأنا أقول: "ناس الحاقلة جو". ذلك تعبير من فتى لم ينضج بعد، فالحاقلة كلمة لا معنى لها، والصحيح هو حوقلة الذاكرين، أي قولهم: "الحـق لا إله إلا الله". وبمضي الزمن هدى الله بصري إلى أشعار السادة الـسمانية وصـفيهم الدباغ، فأخذت أنقب في أصولها وفروعها حتى أصل إلى عراقة نسبها. من ذلـك ما ورد في باب العشق والخمريات في شعر الدباغ وفي دواويـن الـشيخ قريـب الله وما استلهماه من شعر عمر بن الفارض، وأراجيز العارف بالله النابلـسي، وحكـم

أبي العتاهية. لا أغالي إن قلت إن الشيخين كانا من أهل الإشراق، والإشراق عند القوم نور ينبعث من العالم غير المحسوس فيتم به العرفان. ولعل اهتمام الدباغ بالشعر قد جذب إليه في خلوته شبابًا أصبحوا فيما بعد من أميز شعراء السودان مثل محمد محمد علي والهادي آدم. وقد تدهش أيضًا إن نبئتَ بأن واحدًا من رواد خلوة الدباغ كان شاعرًا ينظم بريشته ألا وهو عثمان عبد الله وقيع الله. كان عثمان يوم ذاك طالبًا بكلية غردون، ويقيم مع أسرة الشيخ أحمد الشيخ والد الشفيع وإخوانه، وكان ذلك المنزل قبالة منزل الدباغ وخلوته.

تعرفت أيضًا بآخره إلى مؤلفات الدباغ الفقهية، إلى جانب أشعاره التي حملها إليَّ وتكرَّم بإهدائها لي حواريه الراحل مصطفى طيب الأسماء. وعلى رأس المؤلفات "رسالة إصابة السهام والأسنة في منكري كسب أهل السنة" التي نشرها ابن عمه محمد الفاتح الصاوي، وطبعت في مطبعة منديل بالخرطوم في عام (1935). قدم لتلك الرسالة مقرظين ثلاثة من العلماء: الشيخ يوسف الدجوي من علماء الأزهر المشاهير، والشيخ أحمد السيد الفيل مفتي الديار الإسلامية، وعم الكاتب الشيخ أحمد الصاوي عبد الماجد. أما أشعاره فقد ضمنتها في كتاب حوى أشعار الدباغ في الخطابيات والإلهيات والنبويات كجزء من "الثلاثية الماجدية". في رسائله الشعرية تلك خاطب الدباغ علماء ذلك الزمان في كل أصقاع الأرض مثل الشيخ إسماعيل حقي مفتي ألبانيا، وحافظ العصر محمد حبيب الله الشنقيطي في بلاد شنقيط، والشيخ مجذوب جلال الدين والد الشاعر محمد المهدي المجذوب، والشيخ محمد الأمين القرشي في الجزيرة، والشيخين حسن الطهاوي ويوسف الدجوي من علماء الأزهر، وشيخ التجانية في مصر محمد حافظ التجاني، وعمه الشيخ أحمد الصاوي عبد الماجد، والشيخ أحمد سكيرج الأنصاري. تلك العلاقات التي ورف ظلها عبر العالم تنبئ عن التقدير الذي حازه الدباغ من جانب فحول العلماء في المغارب والمشارق حتى شملت ألبانيا. وقد حرصت عند إكمال مراجعة ديوان الدباغ في الإلهيات والنبويات على عرضه على شيخ من

شيوخ السمانية الذين ظلوا ملازمين للدباغ هو العارف بالله زين العابدين بن الحسن بن عبد الرحمن بن الشيخ الطيب. لا أذكر ذلك الشيخ لأنه سليل أسرة لها مجد الرهان فحسب، وإنما لتطوعه بمراجعة ديوان الدباغ، وكان الشيخ الزين ملازمًا له. أراد الله أن يقبض الشيخ الزين قبل صدور الثلاثية الماجدية، فقلت فيه: "رحم الله شيخنا الذي أنكر الدنيا فربحت في متجر الحمد بضاعته".

وإن كان لي أن أتوقف عند واحد من أولئك الأفذاذ الذين خاطبهم الدباغ لكان هو الشيخ مجذوب جلال الدين والد الشاعر محمد المهدي مجذوب عند وفوده للعاصمة ليلتحق بالمعهد العلمي معلمًا فيه. كان المجذوب (عليه رضوان الله) ينتمي إلى الأسرة التجانية التي تسلك فيها الدباغ. ولكن رغم تجانيته كان الدباغ صديقًا للشيخ قريب الله. وما إن أبلغ الشيخ قريب الله الدباغ بحلول المجذوب بأم درمان واستقراره فيها حتى بادر الدباغ بالكتابة إليه في "16 رمضان 1359 هجرية" يقول:

حمدًا لمن أهَّل للفتوة	شريعة الوصال للأخوة
وإنني أقول للأستاذ	ومربحي في تجرتي ملاذي
هل تقبلون وافد التعرف	إزالة لصارف التخوف
والظن أن يجود بالبلاغ	ويكشف الحجاب للدباغ
ويقبل العيان للعيان	تفضلًا لطالب الإحسان
وليتني أرضيك يا وجيها	ومن سواك يحسن التوجيها
فمجدكم كرامتي ومجدي	وجَدُكم سما به وجدي
وأذكر لنا بالخير في دعاكا	وإننا بالذكر لن ننساكا

ما عَتَّمَ أن تسلم الشيخ المجذوب تلك الرسالة حتى رد عليها مستهلًا القول:

حمـدًا لمـن أهّـل للفتـوة | قومًـا تلـوا لرقيـة النبـوة
فواصـلوا مـا أمـر الإلـه | بوصـله وقطعـوا سـواه
وانـشقت الأسرار بـاللواقح | وانفلقت أنـوار فـيض الفـاتح
في قلـب عبـدٍ نـال قـرب الله | فـصار يـدعى بقريـب الله
وبعد فالأرواح منها مـا ائتلـف | في عالم النور ومنها مـا اختلـف
وإننـي مـذ جئـت أم درمانـا | فـلا أزال ولهًـا لهفانـا
وقلـت للـزين أخـي في الله | مـن لي هنـا بعـالم أواه
أهـلًا بمـن أسرع في الـبلاغ | أخـي المفـدى حِبنـا الـدباغ
ابـن محمـد عبـد الماجـد | العـالم الفـذ الفقيـه العابـد
قـد ورثـوا للفـضل والمحامـد | من جدهم باني الفخـار حامـد
وهو الـشهير في الأنـام بالعـصا | وأنـه أعـده لمـن عـصا

القصيدتان لم تردا في ديوان الـدباغ، وإنـما وردتـا في (مـنح الـسول) للـشيخ المجذوب. وقد ضمناهما بحذفارهما في كتاب الثلاثية الماجدية. أما "الفتوة" التـي وردت في القصيدتين فتشير إلى مـصطلح مـن مـصطلحات المتـصوفة يعـبر عـن المروءة. ففي قول الحارث المحاسبي "الفتوة هي أن تَنصف ولا تنتصف"، كما هي في قول الجنيد: "كف الأذى وبذل الندى".

عودة الصاوي إلى أم درمان

عودة الجد الشيخ الصاوي لأم درمان كانـت عقـب فـترة قـضاها في سـلك القضاء الشرعي حملته إلى مناطق عديدة في السودان من شمال القطـر (عـبري) إلى غربه (أبو زبد). وكانت تلك العودة محل استبشار لصديق الأسرة الـشيخ قريـب الله أب صالح، فاستقبل الشيخ العائد بقصيدة عصماء، ومـن مثـل ذلـك الـشيخ

العارف في إجادة تقصيد النظم وتهذيبه. قال الشيخ قريب الله في عودة الشيخ أحمد الصاوي إلى الديار:

رجعتَ إلينا والديارُ أمينة ... وألسنةُ الإقبال تهتف بالهنا

وقابلك الإجلالُ والسَّعدُ والولا ... وعادت لك الأعيادُ أحمد بالمنا

وناداك داعي الحقِ للحق حبذا ... نداءَ العلا فاصرف لهذا الندا أذنا

لطيفتُك العظمى إليك مشوقة ... لما فيك من حلو اللطائف والمعنى

وجاء ذوو العرفان يدعوك سيدي ... لأجل غذاء الروح بالمجلس الأسنى

فأنتَ من الأكوان يا خيرَ جوهر ... عليك انطوت أصدافُه وانطوت عنا

ونحن لك الإخوان في الدين والتقى ... وحيثُ ذكرناكم بمجلسنا طبنا

ولما سمعنا عنك أنك قادم ... إلينا فرحنا بالقدوم ورحبنا

وبعد صلاة الله ثم سلامه ... على أحمد ما طار طير إلى المغنى

كذا الآل والأصحاب في كل لمحة ... لنحمد مولانا ونشكر ما دمنا

أشياخ السمانية رجال تأنس لهم النفوس؛ لأنهم لا يسلكون في الحياة إلا طريقًا قصدًا، ولا يزدهيهم عجب بالنفس أو تكابر. هم أيضًا نفر يعرفون الرجال بالرجال لا بالجاه والمقام. علني أشير في هذا الموقع إلى زيارتي للشيخ الفاتح في مناسبة حزينة هي وفاة زوجته. فعند وصولي إلى دار المأتم لأعزي كان الشيخ العابد في قيلولة، فعزيت مَن كان بالدار وأردت الخروج. ولكن قبل تحركي من ذلك المقام الطاهر برز الشيخ، ولعل فتى أوقظه من غفوة كان في حاجة لها، ليقول له وزير الخارجية جاء لعزائك. هذا ما فطنت إليه عندما التفت الشيخ للفتى بعد أداء واجب العزاء ليقول له: "ده ما وزير الخارجية، ده حفيد الفكي محمد والفكي الصاوي". أولم أقل أن الشيخ العظيم، ومافتئ أبناؤه النجباء، يعرفون الرجال بالرجال لا بالرتبة أو الوجاهة.

رحيلان مفجعان

رحل العم الدباغ في عام (1948) عن ثلاثةٍ وستين عامًا من العمر، فَعَمَّ الأسرة حزن كبير وتوجع غامر، ولا يتوجع الإنسان إلا من فقدان حميم. وقد نظم، عند رحيله، ابنُ عمه الخال محمد الفاتح الصاوي قصيدة في رثائه تستعصر الدموع، استهلها بقوله:

هو الخطب فلنعقد له العزم ... فليس لهذا الموت من دافع أمر

عزيز لدينا اليوم يا آل ماجد ... نشيّع منا الحبر واسطة الخير

بعد رحيل الدباغ بشهرين اثنين، انتقل الوالد، وكان لحزنه على رحيل الشيخ أثرٌ بالغ عليه، إذ جاء عقب علة لا يستعصي علاجها، ولكن الله هو المُعطي وهو الآخذ وإليه المآب. ومن بين كل إخوته، أحب الوالد الدباغ حبًّا كثيرًا، خاصة، وكان الوالد، مثل أخيه الأكبر سليمان، بارعًا في الخط، ولهذا نذرهما الشيخ الدباغ لخط أشعاره. وقد كان الشيخ سليمان، إلى جانب قدراته في الخط والتدوين، شاعرًا ملهمًا. ومن سوء حظي لم يتأتَّ لي الاطلاع على شعره إلا بعد نشر "الثلاثية الماجدية" بزمان؛ لهذا آليت على نفسي تضمين الطبعة الثانية من ذلك الكتاب ما وقع بين يدي من شعر سليمان. وقد أصبح سليمان بعد تقاعده من القضاء الشرعي مدرسًا للغة العربية والخط في مدارس الأحفاد حتى قبض في أبريل 1963.

أما الوالد فإلى جانب قدراته في الخط كان ذا قدرات في الدوبيا؛ لهذا اختاره دسوقي القباني أكبر مستوردي الفواكه في الخرطوم من مصر والشام للإشراف على إدارة وحسابات أعماله، وكان القباني حوارًا ملازمًا للشيخين الصاوي والدباغ. وبما أن طبيعة عمل الوالد كانت تقتضي مداومة العمل ليلًا ونهارًا في الخرطوم، لم يسعد أبناؤه وبناته وإخوته بلقياه إلا في عطلة رأس الأسبوع (مساء الخميس إلى صباح السبت). رغم ذلك كان يتاح لي لقاؤه، حيث يقيم في منزل

دسوقي القباني كلما اصطحبني لزيارته شقيقه موسى محمد عبد الماجد عندما يحضر إلى أم درمان في العطلات السنوية. ومع حنو الوالد على كل إخوته كانت له علاقة خاصة ببعض أفراد الأسرة، أذكر منهم سليمان الشنقيطي والطيب أحمد حمدنا الله. فعندما اعتلَّ الوالد بعلة طارئة، ولم يكن أبدًا مسقامًا، صحبه سليمان الشنقيطي إلى المستشفي وعاد منه مرافقًا لجثمانه. وما إن رآني سليمان حتى ضمني إليه وعيناه باكيتان بكاءً يصحبه شهيق. كان أيضًا من المستأثرين بوقت الوالد في يوم العطلة الأسبوعية أكثر مما كان يستأثر به أطفاله الطيب أحمد حمدنا الله الذي أنجبته شقيقة الدباغ فاطمة بنت الفكي محمد عبد الماجد التي ابتعل بها أحمد حمدنا الله خال الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح، أوترى لعبة الكلمات المتقاطعة هذه في العلاقات الأسرية في أم درمان؟

أيًا كانت الحال، كان مساء الخميس مساءً ذا نكهة نتشممها فيما كان الوالد يحمل لنا من الخرطوم عبر النيل من الفواكه التي لم نكن نعرفها مثل العنب والتفاح واليوسفي البرتقالي البهي. وكثيرًا ما كنا، أنا وأخي وابن عمي محمد موسى (الذي ظللنا ندعوه الفكي إذ سماه والده على جده الفكي محمد) ننقض على تلك الفواكه البهية حتى ينهانا الوالد برفق عن التفكه حتى يفرز ما أتى به لمن كان يقدمهم على غيرهم من أهله: الشيخ الصاوي، والشيخ الدباغ، وعمته فطين بت عبد الماجد، الشيخ خليل، ووالدته. وقد بدا لي أن "فطين" هذه كانت ذات حظوة خاصة عند الوالد، ربما لأنها كانت الأخت الوحيدة للفكي محمد. تلك السيدة كانت مُهابة بين أهلها، وقد ابتنى بها أحد أعيان بربر (سدني ود عثمان)، وهو تاجر امتدت تجارته إلى مصر وتركيا ولم تنجب منه إلا أنها بسبب تلك الزيجة، أصبحت واصلة متينة مع أهل بربر، خاصة العلماء منهم، ومن أولئك الشيخ البدري الذي صار ملازمًا للدباغ وأخذ العلم عنه، ثم عاد إلى موطنه لينشئ فيه قلاعًا للعلم رعاها أبناؤه حتى أصبحت جامعة.

الأم الرؤوم

بعد رحيل الوالد توافق الأخوال والأعمام على أن يكون للوالدة سارة بنت الشيخ الصاوي عمود الرأي في تسيير أمور أسرتها الصغيرة لثقتهم في حكمتها. كانت سارة، على وداعتها، صارمة في رأيها، حانية على أطفالها، ورؤومًا على كل طفل من حولها. كانت أيضًا باتةً فيما تراه من رأي، فإن اقتنعت بشيء فلا تحيد أو تتحول عنه إلا عقب إقناع من إخوتها. من ذلك رأيها في تعليم البنات، وهو رأي نافحت عنه حتى مكنت بناتها من الوصول إلى أعلى مراتب التعليم الذي أهلتهنَّ قدراتهنَّ إليها، والسماح لهنَّ بالانتقال إلى أماكن العمل التي أهلهن له تعليمهنَّ في كل بقاع السودان. وفي هذا خاضت معركة شرسة مع أكبر إخوانها، فرغم أن الرجل كان معلمًا، فإنه كان لا يرى للمرأة مكانًا إلا في المنزل. ذلك موقف ناصرها فيه إخوتها وداعة ومصطفى والدرديري وأمير وباركه الشيخ خليل. لهذا كنت سأظلم نفسي إن لم أهدِ للوالدة ولشقيقتها مدينة والعم عليش كتابي عن الأسرة الماجدية. قلت في المقدمة: "إلى سارة ومدينة الصاوي، الأم والخالة، تلِدتا في بيت علم ودين، وعاشتا راضيتين مرضيتين. إلى عليش محمد عبد الماجد العم السادن على مسجد أبيه. ميراث أبويهم وأخويهم أهديه، لا فضل ولا منة لي فيه، ولهم ولذوي القربى جميعًا بر أوليه".

كانت سارة الصاوي تروي لنا الأقاصيص التي أخذتها، كما أخذها إخوانها، من والدها الشيخ الصاوي باعتزاز لا يخلو من مباهاة. وكان في تلك الأقاصيص ما هو من صحيح الخبر، بقدر ما فيها من خرافة. ومن القصص التي كانت تستعيد روايتها، هي وإخوتها، قصة عن جدتها مدينة الحر أم الشيخ عبد الماجد. تقول القصة إن الابنة الوحيدة لتلك الجدة خامرها داء أبى أن يفارقها. وبما أن ابنها (الفكي عبد الماجد) كان غائبًا في الحقل للزراعة، حملت ابنتها على "عنقريب" إلى صديق الأسرة الشيخ يعقوب أب قرن، الذي كانت خلوته على مقربة من خلوة ابنها. وما إن وضعت الفتاة، وهي ملقاة على "عنقريبها"، حتى

أخذت تنادي الشيخ هجو وهي تقول : "**وكت الحلقة تقيف، والطار يرن، ومنشدها يطن، يبدا بي حامد أب شوشية (حامد أب عصاة)، ده جِدنِا (أي جدي أنا)، ويتني بالصادقاب (آل صادق الهميم جد الركابية)، ديل أولاد عَمِنا (أي عمي أنا)، ويتلت باليعقوباب ديل أهلك إت (أي أهلك أنت)، دحين ما جابني ليك قِل الرجال ولكن طبق العود على العود شدة. تعال يا عشاي الأسلم عليك**".
سأل الشيخ عمن هي هذه السيدة الفصيحة الجريئة، وعند إبلاغه عن أمرها هرع إليها الشيخ هجو حافي القدمين ليسألها عما بها، فروت له ما ألم بوحيدتها من داء. طلب الشيخ هجو من أحد مرافقيه أن يناوله الركوة، وأخذ يصب منها على جسم الفتاة وهو يتلو بعضًا من آي الذكر والدعوات الصالحات. وما إن فرغ من قراءته حتى قال للفتاة: "أقيفي". فتحركت دون أن تقف. فانتهر الشيخ مَن سعوا لمساعدتها على الوقوف قائلًا: "خلوها تقيف براها"، فوقفت. ولفرحة الأم بسلامة ابنتها دست في يد الشيخ عشر خيريات (العملة التي كانت سائدة في الحكم التركي) فردها إليها قائلًا "**لمن تصلي البيت لبسيها لبنيتك**". وعند عودة الأم للدار تكشف لها أن الخيرياتِ العشر قد تحولت إلى عشر جنيهات من الذهب. أيًا كان الأمر من صحة الرواية، وربما تكون صحيحة؛ لأن الأسرة ظلت تتداولها كابرًا عن كابر، أو كان من احتمال أسطرة تلك الروايات عبر تداولها، وهذا أمر محتمل، فإن الرواية لا تحكي فقط عن اعتداد الأسرة بشيوخها، بل تحكي أيضًا عن كرامات صديقهم الجار ود هجو الذي شفى المريضة وحول الخيريات إلى جنيهات من الذهب.

اعتداد سارة بت الصاوي بآبائها وتيمنها ببركاتهم أمر طبيعي في تلك الأسرة أما صرامتها في الرأي فقد تجلت في أحداث أخرى عايشتها معها. مثال ذلك حدث لم أستغربه وحدي، بل استغربه كل مَن شهده معي. فعند تعييني لأول مرة وزيرًا في حكومة مايو، ولما أزل أسكن في منزل الأسرة بأم درمان، وفد إلى الدار نفر من البوليس يتصدرهم ضابط لإقامة جوسق للحراسة أمام الدار؛ مما درج

الناس على تسميته "كشك"، وتلك كلمة فارسية أصلها كوشك. وعندما أبلغها العسكر بهدفهم، ألا وهو خراسة بيت الوزير منصور خالد، ردت بحزم قائلة: **"ده ما بيت الوزير، ده بيت أبوي الصاوي الساكن معانا فيه وزيركم"**. ويقيني أن أمهات كثر وزوجات كُنَّ ليسعدن برؤية ما يحسبونه مظهرًا من الوجاهة ينعم بها الوزراء. ظلت سارة بت الصاوي تعنى بالحراس إلى حين عودة "الوزير"، وكان أول ما قالته لي عند وصولي الدار: **"كلم ناسك ديل يا منصور يشيلوا كُشُكُم، أنحنا مما أتولدنا حارسنا الجامع ده"**، قالت هذا وهي تشير إلى مسجد الفكي محمد الذي يقع قبالة منزل أبيها.

توالت السنون من بعد فارتحلت إلى داري في الخرطوم ثم غادرتها إلى الخارج. وطوال فترة وجودي خارج السودان كنت أحرص على دعوة الوالدة لزيارتي في أغلب بقاع الأرض التي ارتحلت إليها وأقمت فيها: لندن، وجنيف، والقاهرة. خلال هذه الزيارات ظننت أن الوالدة ستسعد مثل أي سائح آخر بزيارة معالم المدينة بعد قضاء حاجاتها، بل الحاجات الضرورية لمن معها مثل زيارة الأطباء والتبضع في الأسواق. وفي ذات مرة اصطحبتها إلى وندسور وهي من أجمل المناطق حول لندن وبها كثير من القصور الملكية. لم أحس أبدًا بأي حرص منها على النظر إلى القصور التي أشير إليها، بل لمست زهادة منها في النظر إليها. وفي طريق العودة للمنزل مررنا بقصر بكنجهام الذي تقيم فيه الملكة، وقلت لها انظري لهذه الجماعات من السواح الذين جاؤوا من أقاصي الأرض لرؤية المكان الذي تسكن فيه ملكة بريطانيا. ردها على ذلك السؤال الذي حسبته تقريرًا لأمر واقع كان مدهشًا، قالت: **"يا ولدي نحن قصيرنا في الجنة"**، هذا رد لا تملك معه إلا الصمت والتملي، ولكن الوالدة لم ترد لي أن أتملى إذ أتبعت قولها ذلك برواية عن جدتها مدينة الحر، التي كانت سيدة ذات جَلَد ومراس، قالت: **"أنا حبوبتي مدينة لمن مشت تعزى الملكة في سنار (ولعلها كانت تشير إلى إحدى ملكات**

الفونج في أواخر أيام المملكة) لقت الملكة راقدة في عنقريب قد (عنقريب من الجلد) وأبت تقوم ليها "جدتي قالت ليها" يا الملكة أنا لاني شايقية أكشف ليك مُقنعى ولا دنقلاوية أقلع ليك مركوبي، كان انتي بت ملوك الدنيا، أنا بت ملوك الآخرة، كدي اقيفي الاشيل معاك الفاتحة". في تلك الأقصوصة غير قليل من عنجهية الجعليين، ولكن فيها أيضًا اعتدادًا بالنفس أكثر مما يجب، واستهانة بالآخر أكثر من حد المقبول، ولكن ما حيلتي مع ناس "ديل أهلي".

العلم تاجهم

رغم كل هذا الغلو الموروث، لعلني لم أجاوز الحد أو أسرف في الإشادة بالأجداد والأعمام الذين ظلت الأسرة تكتن بظلهم، وكان ظلًا باردًا وكريمًا. على أن الإشادة الحقيقية بآباء هذه الأسرة لا تكون، في نظري، بحسبهم ونسبهم، بل بعلمهم وفضلهم. العلم تاج على رؤوس مَن حباهم الله به، فما بالك بمن عاشوا بذكر الله لم تعشَ قلوبهم عنه ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: 36]، أما الفضل فهو أرفع الدرجات في مكارم الأخلاق، يكدح له المرء كدحًا ليلاقيه. ومَن كسب العلم والفضل فلا حاجة به إلى الحسب والنسب؛ لأنهما في قول ابن المقفع "أقل مناقب الخير غناءً لأهلها في الدين والدنيا" (الأدب الكبير). وقد نقل كبارنا لأبنائهم دعاء جدهم عبد الماجد الذي سأل فيه الله أن لا يفتقر أولاده ولا يغنون؛ لأن الفقر مذلة والغنى يبطر الإنسان حتي يستخف بالنعمة. وفي حديث أبي ذر "إن رجلًا بلا مال فقير، وأفقر منه رجل ليس لديه إلا المال". كما أن الفقير الغني هو الذي لا يملك من متاع الدنيا شيئًا ولا يملكه منه شيء. رغم رقة حالهم كان آباء الأسرة، بما رزقهم الله، يُكسِبون المُعدَم ويحملون الكَل. وبقدر ما بحثت ونقبت، لم أجد فيما تركه الجدان وأبناؤهما الأوائل شيئًا عن متابعة جذور نسبهم إلى العباس وهو أمر درج عليه

أهلنا الجعليون. من الباحثين عن الجذور عثمان حمد الله (والد فاروق حمد الله) الذي صاغ كتيبًا مقتضبًا حول جذور الجعليين تحت عنوان "التعارف والعشيرة". كما فصل في الموضوع عبد الله محمد الخير في كتابه "السور الحصين المنيع البأس في اتصال إبراهيم جعل بأصله العباس الملقب بأشرف لقب وأفصح مدحًا (مدح) وبه اشتهر بنوه الحذاق الكياس". ذلك الكتاب قامت بطبعه ونشره وحدة الفولكلور بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم، وقدم له الدكتور عبد الله علي إبراهيم. وكأن عباسيي السودان يظنون أن التاريخ توقف عند زمان "الجد" العباس بن عبد المطلب، أو كأن العبابسة السودانيين لم يقرؤوا قول الرسول ﷺ : (**إن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى القلوب التي في الصدور ومَن لم يسرع به عمله لا يُسرع به نسبه**).

التاريخ الذي تلا رحيل العباس تاريخ لا يسر، كما أن اختلاط الدماء في عروقهم جعل من الحديث عن نقاء تلك الدماء أكذوبة. حقيقة الأمر أن العباسيين، بل المنافيين جميعًا، لم يتوحدوا إلا على يد محمد بن عبد الله، ومادام صلاح حالهم إلا في عهدي الصحابيين ومن بعد اندلعت الفتنة الكبرى التي لم تنتهِ باقتتال أبناء العمومة العباسيين فحسب، بل توالت بين أحفاد بيت واحد هم آل عبد مناف. بداية الصراع كانت بين علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف؛ ثم صراع بين أبناء علي مع معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. ثم جاءت بعد ذلك العِترة التي نتعزى بها ونزعم انتسابنا لها أبناء العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. ففي البدء لم يجد العباسيون سبيلًا لإجلاء بني عمومتهم الأمويين عن الحكم إلا بعون الفرس (أبو مسلم الخراساني)، ولكن ما أن استتب لهم الأمر واستقام حتى نقلوا الدولة من دمشق إلى الكوفة والأنبار. ومن جانبه لم يستنكف معاوية بن حرب بن عبد مناف ومَن

خَلَفه عن السعي لقطع دابر بني العباس، ومن بينهم سادة شباب أهل الجنة: الحسين بن علي في عام (680م)، وزيد بن علي في (740م) والحسن بعد أن أودعوا السم في طعامه.

ما الذي فعله العبابسة بعد أن استقر لهم الأمر ودام حكمهم لقرابة الستة قرون (من 132 إلى 749 هجرية)؟ جعلوا أول حاكم عليهم أبا العباس المولع بسفك الدماء حتى لُقِّبَ بالسفاح، وتبعه أبو جعفر الذي دفعته الريبة في أبي مسلم الخراساني، الرجل الذي حمل العباسيين إلى سدة الحكم، إلى قتله وتابعيه ولما يتجاوز أبو مسلم كثيرًا الثلاثين من العمر. وعندما آل الحكم إلى الرشيد أوصى بالحكم لابنيه المأمون ثم الأمين، إلا إن المأمون لم يطق صبرًا على أخيه الأمين، بل دفعته الخشية من تطلعه المشروع للحكم فقتله وعهد الحكم من بعده إلى ابنه الملقب بـ"الناطق بالحق". ومن بعد، عرف عهد بني العباس المتوكل الذي هدم ضريح الحسين بن علي في كربلاء وضريح علي في النجف بعد أن منع زيارتهما. فما هو الذي يُغري بالمفاخرة بأحفاد العباس بعد كل هذا التاريخ الدموي. ليت المفاخرة كانت بما أتاه الأقيال من بني العباس من كسب في الدين والعلم والأدب مثل عبد الله بن عباس، ولكن المفاخرة كانت بالأصل العرقي بدعوى أنهم خيار من خيار. ولما يزل الموهومون بعراقة الأصل لا يعترفون باختلاط دمائهم بدماء مَن حسبوهم الأدنون من النوب والبجة والزنج. ليت هؤلاء يعلمون أن اختلاط الدماء هذا له تاريخ مُذ بداية حكم بني العباس. فقد ولد المأمون من أم فارسية اسمها مراجل وماتت في نفاسها به، وانحدر الواثق بالله الخليفة التاسع لبني العباس من رحم أم رومية اسمها قراطس، وكانت أم المنتصر بالله بن المتوكل بن المعتصم ابن هارون الرشيد رومية هي الأخرى، أما أم عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فكانت بربرية (من الشمال الأفريقي) تُدْعَى سلامة. كما كانت أم المستضيء بالله أرمنية. مثل هذا الاختلاط في الدماء يجعل الحديث عن

صفاء العرق في الماضي والحاضر انخداعًا ولا ينخدع، أي يختفي ويستتر، إلا الضب.

حمدت الله أن لم يكن التعزي بالأنساب ديدنًا لشيوخ الأسرة كما فعل "أحفاد العباس" الأخر في ربوع السودان. وزاد من حمدي لله أنهم لم يذهبوا مذهب آخرين يُصرون على أنهم أحفاد رسول الله، وفي الفقه لا يكون الإصرار إلا في الإثم. ولعل هؤلاء لم يقرؤوا قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 40]. هؤلاء توسلوا لأبوة الرسول بالنساء رغم أن الله تعالى قال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: 72]. ولو أراد الله عز وجل أن يقول "بنين وبنات" لفعل. ولعل الله تعالى شاء أن لا يعيش أي واحد من الذكور من أبناء الرسول إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر حتى يصير رجلًا فيفتن به الناس. ولعل قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ﴾ [الأحزاب: 4] يصدق على هؤلاء الراغبين في اصطناع القداسة أو انتحالها. رغم ذلك لم تعوز الحيل الذين هم في لهفة للانتماء للعترة النبوية الشريفة، إذ جعلوا من الانتماء لفاطمة الزهراء سبيلًا للانتماء إلى النبي عليه صلوات الله. لا أدري إن كان قد أتى هؤلاء حديث الأمويين للحسن بن علي الذي كان يفاخر بأمومة الزهراء له حتى يؤكد صلته بالرسول، أكثر من مفاخرته بأبيه علي، باب العلم ورب السيف. ففي حديث الأمويين للحسن: "نرى جُل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولو كانت هناك امرأة لتكرم لكانت آمنة بنت وهب التي جاءت بمحمد، لا فاطمة التي جاء بها محمد". ولعل الذين يتعزون بالأنساب أن تلك هي عادة جاهلية أبانها شعراؤهم إذ كان كل صاحب معلقة ينسب نفسه إلى قبيلته. فزهير ابن أبي سلمى المزني نسبها إلى مزنة، وامرؤ القيس الكِندي نسبها إلى كِندة،

وعمرو بن كلثوم التغلبي نسبها إلى تغلب. كما أن انتساب المرء للعترة النبوية لا يحميه من لظى النار ولا يضمن له خلودًا في دار النعيم. ما أصدق الشاعر السعودي المعاصر الذي قال:

ولا تحسب الأنساب تنجيك من لظى ولو كنت من قيس وعبد مدان

أبو لهب في النار وهو ابن هاشم وسلمان في الفردوس من خراسان

سألت نفسي ما بال أهالينا الذين وفدوا إلى أرض السودان عبر صحراء مصر وبحر القلزم لا ينتقون للانتماء لهم من المجموعات العربية غير قريش، خاصة عند اطلاعي على أخبار الأسر من أهل مكة. هذه القراءات هدتني إلى أن أسرة الشيبي التي ظلت تتوارث السدانة على الكعبة والحفاظ على مفاتيح أبوابها لم تدع نسبًا لقريش، بل لم يجتمع نسبها بالرسول إلا عند عبد الله بن قصي بن كلاب. كما تضاعف إعجابي بآباء الأسرة عندما فطنت إلى أن الأمر الوحيد الذي فاخر به الفكي محمد، كما أورد خليل نقلًا عن أبيه، هو نسبه الفقهي، أي سنده في علم الفقه من القطب الدرديري إلى مالك بن أنس. ذلك السند أبان مسيرة الفكي في تلقي العلم أولًا عن فقهاء بلاده من الشيخ موسى ود الزاكي الذي أخذ العلم عن القاضي أحمد بن إبراهيم بن عيسى الأنصاري صاحب مسيد ود عيسى، عن العلامة إبراهيم ود صبر، عن العلامة أحمد ود عيسى، الذي أخذ العلم في مصر عن القطب الكبير أبي البركات أحمد الدردير إلى آخر السند.

حوار مع «شريف حسيب»

لقد كان لي أكثر من حوار مع صديقي (الشريف الحسيب) الطيب حسب الرسول حول هذا الموضوع. الحديث مع الطيب هو دومًا ذو شجون، ولم لا وهو الذي يقول لي كلما لقيته:

في واحد من هذه الحوارات روى لي الطيب أنه من فرط استمساكه بقرشيته كاد أن يصفع سعوديًّا لأنه تعامل معه كواحد من "السوادين" (الاسم الذي يطلقه عامة أهل المملكة على السودانيين). انفجر الطيب في الرجل قائلًا: "أنا عربي أكثر منك، أنا هاشمي". ذلك القول زاد من حيرة الرجل إذ إنه، فيما يبدو، لم يسمع بهاشمي أسود الأدمة. عندما روى لي الطيب تلك القصة، قلت له من باب التطمين إن الرجل لم يكن أقل نكرانًا لهاشمية (السوداني) من أولئك الذين أنكروا هاشمية الفضل بن العباس بن أبي لهب شاعر الهاشميين الذين نافح عنهم أمام بني عمومته الأمويين ومَن والاهم حين قال:

مَهْلًا بني عمنا مهلًا موالينا لا تَنبشوا بيننا ما كان مدفونا

كُلٌّ له نيَّةٌ في بغضِ صاحبه بنعمةِ الله نقليكم وتَقلونا

وعندما عير الأمويون الفضل بخضرته (والخضرة عند العرب هي السمرة الداكنة) قال:

وأنا الأخضرُ من يعرفني أخضرَ الجلدة في بيت العرب

من يساجلني يُساجل ماجدًا يملأ الدلو إلى عَقْد الكَرَب

إنما عبدُ مناف جوهرٌ زينَ الجوهَر عبدُ المطلب

(وعقد الكرب هو الحبل الذي يُشد في وسط خشبة الدلو ليدعمها). هل هذا ما قصده صديقي الشريف؟ لا أظن، فقد حملته على أن يقول إنه لو كان من بين مستعربة السودان الذين ادعوا الانتساب للأصول العربية ذات الحسب لكان المحس هم الأحق، إذ كان المحس من التواضع بمكان؛ بحيث لم ينسبوا أنفسهم إلى قريش بل إلى الخزرج، وهي قبيلة يمنية هاجرت من اليمن إلى يثرب. وحين كان القرشيون ينكرون الرسالة ويحاربون الرسول في مكة، خرج الأوس والخزرج عند وفوده إلى المدينة يرحبون به ويتغنون:

طلـــع البـــدر علينــــا مـــن ثنيـــات الـــوداع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا جئـــت بـــالأمر المطـــاع

خزرج أو لا خزرج، أنجب فقهاء المحس الشيخ أرباب العقائد الخشن، الذي روى كاتب الشونة أن حوارييه في السودان كانوا من دار برنو إلى فاس، كما تتلمذ على يديه الشيخ حمد ود أم مريوم، والشيخ خوجلي عبد الرحمن أبو الجاز، وود ضيف الله، إلى جانب تأسيسه أول مسجد بالخرطوم في زمان كانت تُسَمَّى فيه الخرطوم (حلة أرباب العقائد). استعان أيضًا سلاطين الفونج بأرباب العقائد لنشر الإسلام في سنار، أول مملكة إسلامية في السودان الوسيط. هذا ما كان من أمر الإشعاع الديني الذي نشرته القبائل الشمالية المستعربة في السودان. أما النسب للقبائل العربية ذات الحسب، قرشيين كانوا أم خزرج، فأمر فيه قولان. ومما يروى عن الدكتور عبد الله الطيب عندما شاهد زميلًا له في كلية الآداب يحلي صدر مكتبه بلافتة تقول: "الدكتور عز الدين الأمين الخزرجي" قال: "يطرشني ما سمعت بخزرجي مشلخ"، والأستاذ عز الدين ذو شلوخ بارزة، لا تخفى على ناظر.

في عالم الشيخ خليل

أسعدني الحظ أن أكون على مقربة من العم الشيخ خليل الذي ورث علم مَن سبقوه من أهله العلماء، ورعى ما ورث من سابقيه: أبيه الفكي محمد وعمه الشيخ الصاوي وأخيه الدباغ حق رعايته. وحين لم يكن الشيخ خليل يتخفف في نواهي الشرع، بل يبالغ في حمل حوارييه على الالتزام بها، كان يلجأ إلى الرخص دومًا كلما أوتي لذلك سبيلًا. ولعل ذلك يعود إلى استمساك خليل، مثل مَن سبقه من شيوخ الأسرة بالمذهب المالكي. ذلك المذهب توسعت قاعدته في الحجاز حتى أصبح عمل أهل المدينة أصلًا من أصول الفقه المالكي، ثم انتقل منها إلى مصر

وذاع فيها حتى بلغ الشمال الأفريقي عندما تبنته دولة المرابطين كدين رسمي. رغم ذلك لمست ترخصًا مدهشًا عند خليل في العادات وتوسيعًا لدائرة المباح كلما كان له في الأمر خيار. موضوع الرخص والعزائم موضوع استغرق من الفقهاء زمانًا طويلًا، فالعزمة حق من حقوق الله، أما الرخصة فهي تجاوز الأحكام رعاية لحاجة العباد. وتختلف الرخصة من شخص لآخر، وأدرى الناس بموجباتها هو المعذور نفسه، خاصة الرخصة تسهيل وتيسير في تطبيق الأمر الأصلي. في هذا يقول الإمام الشاطبي "على كل أحد الأخذ بالرخصة بنفسه لأنه فقيه نفسه" (الموافقات). وفي الحديث: **"إن الله يحب أن تؤتي رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه"**. ولعل الشيخ خليل قد التزم أيضًا بحكم لأخيه الأكبر الدباغ قال فيه:

إذا جادلت أهل الكتب يومًا — فجادلهم برفق مع دليل

ولا تكره لدينك من أباه — فلا إكراه في شرع الرسول

ذلك هو إسلام أهل السودان قبل أن ينبري للفتوى غلاة جاوزوا المدى في أحكام دين متين أوصانا النبي أن نطأ فيه برفق.

كان الشيخ خليل يستقبل أحد شيوخ القبط بأم درمان عندما يزوره لتهنئته بالمولد النبوي الشريف، ويرد عليه الزيارة في عيد ميلاد المسيح. وعندما نرى اليوم أناسًا يعاسرون مواطنيهم المسيحيين، ويضيقون عليهم الأمور عند الاحتفاء بمناسباتهم الدينية، ومنها عيد ميلاد المسيح، يتساءل المرء هل قرأ هؤلاء كتاب الله: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم: 15]. أو قوله على لسان عيسى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم: 33]. ومتى يكون السلام على عيسى إن لم يكن يوم مولده؟ لعن الله الجهل ولعلها الجهالة، فالجهل هو اليقين بشيء على غير ما هو عليه، أما الجهالة فهي الجفاء والتسافه: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾. [البقرة: 67].

وحول أخذ الشيخ خليل بالرخصة في أمور الدين، أستذكر موقفًا للشيخ عايشته وأوردت خبره في كتاب (أهوال الحرب وآفاق السلام). الخبر كان عن فتى من فتيان الحي جاء إلى الشيخ دامع العينين، ليقول له إن والده طلق والدته من قيد الزواج طلاقًا بائنًا. سأله الشيخ عما وقع بالتدقيق، فروى الفتى أنه يدمن الشرب، وقد نهاه والده عن ذلك مرارًا فلم يرعوِ. وفي آخر تحذير له قال الأب لابنه: "إن لم تكف عن الشرب فأمك طالق بالثلاثة". مضى الفتى يقول للشيخ إنه لم يكترث لتحذير أبيه، وعند عودته للدار مخمورًا ليلة الأمس من مثوله أمام الشيخ أنفذ الأب في الصباح ما هدد به. قال الشيخ للفتى: "اجلس يا ابني". ثم بعث بمن يدعو الأب للحضور إليه في خلوته. وعند مجيء الأب قال له الشيخ خليل: "يا شيخ فلان ابنك هذا ارتكب ما ينهى عنه الشرع، وهذا ما يفعله كثيرون من لداته إلى أن يهديهم الله. ولكن ابنك هذا ولد مبرور تمكن هدايته؛ لأنه حريص على سلامة أسرته". وأضاف الشيخ: "إن كان بر الإنسان بربه هو التوسع في طاعته، فإن بره بالوالدين هو التوسع في الإحسان لهما". ثم مضى للقول:"طلاق زوجتك غير واقع لأنه طلاق في حالة غضب، وابنك سيهتدي بإذن الله ولتتركه لي".

أذكر أيضًا وأنا مازلت أروي سيرة خليل قصة رجل أبروفي كان يرتاد "الأنادي" وهي خمارات البلد الواقعة في الطرف الشمالي من أم درمان. على تلك الخمارات كان يعرج مَن ينشد غيبوبة العقل، ومنهم خِمّيِّر كان كلما عاد إلى داره في أبي روف يمر بمسجد الفكي، وهو يترنح ثملًا، ولكنه متى ما بلغ المسجد حتى أخذ يردد: "الله الله". وفي أكثر من مرة اندفع بعض حواريي الشيخ خليل لانتهاره فنهاهم الشيخ قائلًا: "**سيبوه يتعبد بطريقته وسيهديه الله إلى الطريق السوي**".

هذه المواقف المتسامحة للشيخ خليل ظلت تطرأ على ذهني كلما سمعت في

زمان الحكم بشرع الله الذي نحن عليه عن قضاة وفقهاء تتلمظ شفاههم عندما يأمرون بجلد الشارب أمام جمع غفير نكاية به. لماذا تلمظ الشفاه؟ يراودني ظن بأن القضية ليست هي قضية تطبيق شرع الله الذي لا بديل له، وإنما هي من مخلفات الصراع الطلابي بين الإسلاميين واليساريين، خاصة بعد أن استقر يقين الإسلاميين على أن خصومهم اليساريين ما هم إلا جماعة من السكارى. لهذا السبب ألزموا أنفسهم ليس فقط بقفل منافذ الشرب أمامهم، بل أيضًا التشهير بهم. وعندما يصبح تطبيق الشريعة أداة للتشهير بمن يخالفك الرأي، يصبح هذا تحريفًا لكتاب الله الذي هو عندهم مصدر كل تشريع. فالكتاب، مثلًا، يقول حول السرقة: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: 38]. رغم ذلك تجافى القائلون بأن "لا بديل لشرع الله" الحد الذي أوجبه الشرع على السارق والسارقة نكالًا بهما، واستبدلاه بالسجن والغرامة رغم ما في ذلك من خروج على نص صريح في الكتاب. في الوقت نفسه غالوا في عقاب شارب الخمر والتشهير به في حكم غير حدي. فالإشارة للخمر وردت في خمس آيات في أربع سور هي البقرة، والمائدة، والنحل، والنساء.

هذه الآيات تبين ما في الشرب من نفع وفائدة كما فيه مما يؤثم عليه الشارب، قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: 219].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90].

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: 91].

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [النحل: 67].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: 43].

التعزير عقوبة يُبتغى منها التأديب على ارتكاب معصية أو جناية، ويقوم به الحاكم على رعيته، والأب على ابنه، والمعلم في تأديب صبيانه. وبطبيعته هذه يتراوح العقاب التعزيري بين الفعلي والقولي؛ ومن الفعلي الجلد أو الغرامة، ومن القولي الزجر عن المنكر وفي انصياع العاصي لذكر الله مزجرة. وعندما نتناول موضوع هذه الحدود لا نفعل ذلك تزيدًا على الحاكمين بأمر الله، أو تبريرًا للشرب وإنما لإثبات أن أولئك الحاكمين قد جعلوا من أحكام الكتاب المنير الذي يدعون الاستمساك به ألعوبة يطبقون ما أرادوا منها ويبطلون ما شاؤوا. هذا التلاعب بالأحكام قاد بآخره إلى جدل عبثي حول حد الزنى بين القائلين بإلزامية حكم الرجم على الزاني والزانية المحصنين والقائلين بحكم أقل قسوة. هذا تعابث بالأحكام في الجنايات، إذ يسبق الحكم على الجاني والجانية إثبات الجرم. وتكاد جميع الأحكام التي صدرت بحد الزنى في السودان الحديث منذ عهد نميري في مرحلته المنسوبة ظلمًا للإسلام لم تلتزم بشرائط الإثبات في الشريعة الإسلامية، إما للجهل بها أو تجاهلها؛ لأن الغرض من الحكم عند هؤلاء لم يكن الردع للآخرين بل للتشهير بالمتهمين. ولا أعرف منذ عهد الرسول ترخصًا في الأحكام مثل أحكام الزنى، والرخصة هي التسهيل في الأمور. وفي الحديث **"أن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه"**. من ذلك الترخص وضع شرائط لإثبات الزنى يصعب تحقيقها ألا وهي رؤية أربعة من الرجال للزاني والزانية رؤية عينية وهما يمارسان الفاحشة شريطة أن لا يكون الشهود من الصبيان أو المجانين أو الكفار. ولعل هذا هو السبب الذي حمل الإمام ابن تيمية على القول في "منهاج

النبوة": "الشهادة على الزنا لا يكاد يقام بها حد، وإنما يقام الحد على الاعتراف". وحتى في حالات الاعتراف حرص الرسول على إيجاد الذرائع للمعترفين مثل ماعز بن مالك الأسلمي والغامدية اللذين سعى الرسول ما وسعته الحيلة لأن يجد لهما مخرجًا من اعترافيهما.

لا يدفعنا للإطالة في هذا الموضوع إلا أمران: الأول هو هروع بعض "علماء الدين"، رغم أن كل مسلم ينبغي أن يكون عالمًا بدينه، لإدانة وزير العدل لتجاسره على الحديث عن عقوبة الرجم للزاني المحصن رغم الخلاف بين الفقهاء حول هذا الموضوع. أوَليس من الأحكام الحدية للزنى التي جاء بها الكتاب: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور، 2]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٖۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٞ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النساء: 25]. فإن كان هناك حد بالرجم للزانية المحصنة ترى أي حساب ينتظر الأمة الزانية، أهو نصف رجم؟ نحن في السودان نعيش في بلد يحكمه دستور يحدد كيف تكون صياغة القوانين حتى ما كان منها مستمدا من الشريعة. فالقانون تصوغه وزارة العدل، وتسترشد في صياغته بأهل العلم في الموضوع المعين. لهذا فإن في قول "علماء الدين" إن وزارة العدل لم تستشرهم في الأمر تطاول غير حميد، خاصة والسلطة نفسها التي استنجدت بها الدولة لإجازة الديون الربوية بدعوى المصلحة (الهيئة التشريعية) هي التي ستقرر بشأن عقوبة الرجم في الزنى فلماذا، إذن، لا ينتظر العلماء عرض الأمر على تلك السلطة

التشريعية، فلعلهم يجدون عبر الحوار المفتوح مصلحة في عدم اللجوء إلى عقاب لم يقره كل الفقهاء إلا إذا افترضوا أن لهم رقابة على الشارع في كل مستويات التشريع.

الأمر الثاني هو حادث شهير وقع في الخرطوم وجُلدت لارتكابه إحدى الفتيات جلدًا مبرحًا أثار ثائرة العالم عبر الأسافير مما حمل مسؤولًا كبيرًا للقول "**هذه الفتاة لم تلتزم فقط بقوانين النظام العام بل هي أيضًا زانية**". تلك تهمة غليظة لا يصدرها راع على رعاياه، ولو قرأ ذلك المسؤول ما دار بين الخليفتين الثاني عمر والرابع علي بن أبي طالب الذي قال عنه الرسول: "**أنا مدينة العلم وعلي بابها**". لما رمى تلك الفتاة بتلك التهمة الغليظة. فقد جاء عمر إلى علي ينشد الفتيا وهو يقول: "ما رأيك يا علي في أن أمير المؤمنين شهد بالأمس "فلانًا وفلانة" (وسماهما باسميهما) يمارسان الفاحشة". رد علي بالقول: "على أمير المؤمنين أن يأتي بأربعة شهود وإلا وقع عليه حد القذف".

نعود في خاتمة المقال لنقول إننا ظللنا نسائل النفس عن كيف أباح هذا الشيخ المالكي لنفسه هذه الدرجة من الترخص الحميد في الأحكام، وبالمزيد من البحث والاجتهاد أدركت أن طريق الشيخ خليل كان اقتفاءً لطرائق بعض شيوخ المالكية الأماجد. فابن خلدون، مثلًا، لم تمنعه مالكيته المشهورة من الاعتماد في تلقينه الدروس لحوارييه على كتاب البدائع لابن الساعاتي الحنفي، وهو من شيوخ مدرسة الرأي بالعراق. كما أن الإمام الشاطبي الغرناطي الذي كان مالكيًا مثل كل أهل المغرب لم تحُلْ مالكيته دون تجاوزه التشدد المالكي والأخذ من العلوم النقلية والعقلية المختلفة حتى يستولد فقهًا يُمكن المسلم من مواجهة النوازل والمستجدات حتى يرتقي بالأدلة إلى مستوى القطع. هؤلاء هم الفقهاء الذين لم يتوقف اجتهادهم عند اللحظة النصية الأولى، بل ذهبوا إلى تقفي المصالح

والمقاصد من التشريع. وهؤلاء هم الفقهاء الذين لم يتخذوا الدين أداة للتشهير بغيرهم من المسلمين كما فعل مسلمو الباراكس بجامعة الخرطوم.

برحيل الفكي محمد وأخيه الصاوي وأخويه الدباغ وسليمان، انبرى الشيخ خليل، إلى جانب تدريسه الكبار أصول الفقه، لتعليم الصغار. وكان الصغار يتعلمون على يديه القرآن ترتيلًا وتجويدًا إلى جانب مبادئ اللغة العربية ثم الحساب. وكان سنده في التدريس في الخلوة الشيخ أمين أبوبكر مصطفى الطاهر الذي استمر في التعليم في الخلوة النظامية بعد تخلي الشيخ خليل عن التعليم فيها. أما تعليم الحساب في خلوة الشيخ خليل، فقد كانت وراءه قصة تعود إلى عهد أبيه الفكي محمد. فما أن تحقق للفكي ما يريده: إنشاء خلوته التي توفر فيها على تعليم الدين بمعزل عن فقهاء المعهد العلمي حتى وفد إليه الشيخ بابكر بدري طالبًا منه إضافة علم الحساب إلى جانب الدراسات الدينية واللغوية. قال الشيخ للفكي إن تعليم أصول الدين ومبادئ اللغة ضروري، ولكن تعليم الحساب سيفيد الطلاب في أمور دنياهم مثل البيع والشراء، كما سيتيح لهم فرصًا للتمهر في أمور قد تفيدهم في حياتهم العملية. قَبِل الفكي نصيحة الشيخ بابكر، وهي نصيحة تكشف عن نظرة الشيخ بابكر الشمولية للتعليم، فالتعليم الذي لا يَعُدُّ الطالب للحياة العملية ليس بذي نفع.

استمر الشيخ خليل في التدريس حتى لحق به داء أقعده بأمر طبيبه الدكتور محمد الحسن أبي بكر. ولكن رغم امتثاله لأوامر الطبيب استمر في تعليم حوارييه من سريره، أو بالأحرى "عنقريبه" حتى انتقل إلى الدار الآخرة في نهاية أغسطس (1981)، وأشرف على تجنيزه صديق الأسرة الشيخ الفاتح قريب الله. وقبيل وفاة الشيخ جاء إليه الدكتور إبراهيم المغربي؛ ليطلب منه القيام بمراسم عقد ابنه عاصم على كريمة الأستاذ جمال محمد أحمد كما كان يفعل الكثير من أهله

العمراب. ولكن ما إن علم المغربي من الأسرة ومن الدكتور محمد الحسن أبي بكر أن الشيخ لا يستطيع الانتقال من حيث كان يرقد قرر إكمال مراسم العقد في دار الشيخ خليل وهو في مرقده. ولا أحسبن رجلًا مثل المغربي قد فعل ذلك بحكم عصبية القبيلة، وإنما لثقته في علم الشيخ وكرامته.

الفصل الرابع

4

في مراحل التعليم النظامي قبل الجامعي

المرحلة التمهيدية

أولى مراحل التعليم غير النظامي في السودان هي الخلوة، وهي المرحلة التي تمهد لدخول التلميذ إلى المراحل النظامية الأعلى وهنَّ ثلاث: الأولية فالابتدائية أو الوسطى ثم الثانوية. كل واحدة من هذه المراحل الثلاث كانت تستغرق أربع سنوات. في أولى تلك المراحل التعليمية التحقت بخلوة العم خليل محمد عبد الماجد الملحقة بمسجد أبيه الفكي محمد. وكانت تلك الخلوة هي المعهد الوحيد الذي يرتاده كل أطفال الأسرة في أول عهدهم بالتعليم، كما كان أيضًا قبلة لكل أطفال الأحياء المجاورة: بيت المال، وسوق الشجرة، وأبو روف، وود البنا، وفريق الخنادقة. التعليم في المرحلة الأولى (الخلوة) كان يهدف، في الأساس، إلى تربية التلميذ بالتلقين والمحاكاة والاقتداء بالمعلمين بهدف تنمية قدراته الإدراكية ومهاراته العملية ودرايته بالأشياء. لهذا كان تعليم الخلوة في كل أصقاع السودان يوكل إلى شيوخ متمكنين من علمهم، يعلمون الأيفاع اللغة العربية والدين ومبادئ الحساب. ظاهرة الخلاوي لم تكن مقصورة على السودان وحده، بل شملت كل البلاد العربية وإن اختلفت الأسماء، فحين كان يطلق على الخلوة في مصر اسم الكُتَّاب وجمعها كتاتيب كانت تسمى في شمال أفريقيا "المسيد"، وهي

تحريف لكلمة مسجد. وللأستاذ المعتصم أحمد الحاج دراسة جيدة حول الخلاوي في السودان حتى نهاية القرن التاسع عشر، أصدرها مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، وقد يفيد الراغب في الاستزادة من العلم عن هذه المؤسسة التعليمية الرجوع إليها.

الخلاوي في ذلك الزمان بالسودان كانت ملحقة بالمساجد، ويشرف عليها إمام المسجد. وحيث كانت، ومازالت، الدراسة في المدارس النظامية تتم على أساس الفصول التي ينتقل فيها التلميذ من فصل إلى آخر إلا إن الدراسة في الخلاوي كانت فردية يتلقى فيها الحوار -أي التلميذ- التعليم مباشرة عن شيخه أو عن طريق أحد النجباء من حواريي الشيخ يختاره ليشرف على تعليم مجموعة من أقرانه. كما كانت الدراسة في الخلاوي القرآنية، بخلاف المدارس تنحصر في حفظ القرآن، وإكمال جزء منه والانتقال إلى الجزء الذي يليه وَيُسَمَّى هذا بالشرافة، وتعني الاحتفال بإكمال الحواري لجزء معين من القرآن. فالشرافة الأولى هي إكمال جزء عم، وتكون عند حفظ التلميذ لسورة النبأ، والثانية هي شرافة تبارك عند إكمال سورة الملك حتى يبلغ الطالب الشرافة الأخيرة التي تُسَمَّى الختمة وهي بإكمال سورة البقرة. هذا النهج من التعليم كان يطبق في خلوة الدباغ

إلى جانب دراسات في اللغة (حفظ ألفية ابن مالك) والأدب والفقه والتوحيد للمتقدمين في العلم. أما خلوة أخيه خليل فقد انتهجت نهجًا شبه نظامي، إذ كانت تدرس الصغار ألف باء اللغة والقرآن والحساب.. والأخير، كما سلف الذكر، حمل عليه الشيخ بابكر بدري والدهما منذ بداية التدريس في الخلوة.

مرحلة الدراسة في الخلوة هي المرحلة التي يهيأ الطفل فيها للانتقال إلى المرحلة الأولى من مراحل التعليم النظامي، ولكن من المؤسف حقًّا تحول بعض الخلاوي في هذا الزمان في بلادنا، باعتبار ما يدرس فيها، إلى معاهد لتلويث عقول الأيفاع بأفكار تزرع الخرافات في وجدانهم، بل تقوض السلامة الأسرية. فمما روى لي أحد الآباء أن معلمة متأسلمة نصحت التلاميذ الذين عهد لها آباؤهم وأمهاتهم أمر تنشئتهم بعدم مصافحة أمهاتهم إن كن لا يقمن الصلاة. ولا أدري من أين في كتاب الله أتت هذه المعلمة المضللة بهذا الحكم، بالرغم من أن في ذلك الكتاب ما يقارب عشر آيات تحض الأبناء على الإحسان للوالدين، ومنها ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء، 23]. وفي الحديث: "**رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد**". أنبأني أيضًا الوالد نفسه بتوجيه المعلمة لابنه ألَّا يدخل الدار إلا وهو يقدم القدم اليمنى على اليسرى لأن في القدم اليسرى شيطانًا، ذلك واحد من خزعبلات السلفية، فالشيطان روح شرير يغوي الإنسان، ولكن الذي يفعله هذا النفر من المعلمين والمعلمات هو الغواية بعينها.

المدرسة الأولية

بعد مرحلة الخلوة التحق الكاتب بالمدرسة الأولية (مدرسة أبو روف)، وهي أولى مراحل التعليم النظامي. وكانت تلك المدرسة هي الوحيدة في الحي. وأي رحلة في طلب العلم هي كمال في التعليم كما ذكر ابن خلدون في المقدمة، كما في قول لعباس العقاد: "بارك الله في العلم والتعليم، وفي عَلِم وتَعلم، وفي عالم وعليم

ومعلم، وفي كل حرف من حروف العين واللام والميم". في تلك المرحلة التعليمية النظامية الأولى تطور أسلوب التدريس من الحفظ والتلقين إلى المحاورة؛ وبما أن المناهج التعليمية الجديدة تتضمن معارف لا يتم اكتسابها إلا بالحوار والنقاش والعمل التطبيقي كان لابد للمعلم من تجاوز تلقين التلميذ إلى محاورته؛ لأن التلقين يضعف الحس النقدي عند المتعلم. وقد نهى ابن خلدون في المقدمة عن التلقين في التعليم؛ لأن "فتق اللسان لا يكون إلا بالمحاورة والمناظرة في مواضيع العلم؛ لأنهما يمكنان طالب العلم من استنباط الفروع من الأصول". نهى ابن خلدون أيضًا عن الشدة مع الطالب مثل الجلد ولاسيما أصاغر الولد؛ لأنها، كما قال: "تحملهم على الكذب والخبث، وتعلمهم المكر والخديعة".

ما نهى عنه ابن خلدون كان ممارسة دائمة في الخلاوي ومدارس الأساس في السودان، ودون أن نرمي شيوخنا بالاستمتاع بمثل ذلك العقاب الوجيع على التلاميذ نقول إن ممارسة العقاب الجسدي (corporal punishment) على الطلاب في مدارس الأساس (الأولية والوسطى) مثل الجلد بالبسطونة (cane) أو السوط أو الحبال الغليظة كان معروفًا حتى في المدارس في بريطانيا. وفي مدارس السودان الوسطى كان ضابط المدرسة (وهو الأستاذ الذي يلي الناظر في سلم القيادة) هو الذي يشرف على ذلك العقاب التأديبي، أو إن أردت التعذيبي، ويقوم به صول المدرسة وهو عسكري متقاعد. وفي حالات نادرة يحال العقاب إلى أحد كبار التلاميذ من مفتولي العضلات، ولعل تلك كانت هي أقصى المنن التي جاد بها الكريم المنان على مَن فتل عضلاتهم. وعلى كل فمنذ عقد الخمسينيات حُرِّمَ العقاب الجسدي في بريطانيا كما حُرم في جنوب أفريقيا في عام 1996 عندما صعد مانديلا للسلطة. ويحمد لدولة جنوب أفريقيا الجديدة إصدارها قانونًا يجعل فرض العقاب على التلاميذ اعتداء. فقانون المدارس في جنوب أفريقيا (South African Schools Act) ينص في مادته العاشرة أولًا على أنه "لا يحق لأي شخص أن يطبق العقاب الجسدي على المتعلمين". وثانيًا

"أي شخص يقوم بفعل يتعارض مع النص السابق يكون عرضة للإدانة والعقاب بالعقاب نفسه الذي يفرضه القانون على المتهم بالاعتداء" (assault).

ما هو الحال في السودان؟

حسب علمي هناك توجيهات قد صدرت لمنع المعلمين من اللجوء للعقاب الجسدي في المدارس ولكن الشكاوي تتوالى ضد مسؤولي المدارس الذين يفرضون عقابًا جسديًا على التلاميذ ليس فقط لخرقهم للنظام، بل حتى لعدم الإيفاء بمصاريف الدراسة في مستوى تعليمي ينص الدستور على مجانيته. ولعلي لو كنت ناظرًا لواحدة من تلك المدارس لاصطحبت التلميذ وأباه أو أمه إلى مسؤول التعليم في المنطقة لأطالب بالحق الدستوري لذلك التلميذ بدلًا من معاقبته أو الإلحاح على والده الذي لا يستطيع الإيفاء بالمصروفات المدرسية لأنه يعيش فقرًا مدقعًا مذلًا . ولو كنت في مكانه لطرقت أول ما طرقت أبواب مَن يسمون اللجان الشعبية التي أريد بها تقليص ظل السلطة حتى تكون أقرب للناس في توفير الخدمات، ومنافذ العمل الشريف لهم، وتحقيق الأمن المجتمعي في مناطقهم. هذا هو الترتيب المنطقي لما يتوجب على الحاكم أداؤه قبل ما يُسَمَّى بسط الأمن بالمعنى الحرفي للكلمة، الذي يعني دومًا إحاطة أهل كل حي بجيش من البصاصين إحاطة السوار بالمعصم: لا شك لديّ في أن ناسجي هذه السياسة قد قرؤوا حديث الرسول ﷺ **«مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»**. ولكني أشك كثيرًا في أنهم جعلوا من هذه الكلمات مشكاة تضيء لهم الطريق.

إلى جانب دراسة اللغة العربية والدين ضمت المعارف الجديدة مبادئ التاريخ وعلم الحساب والجغرافيا والوعي بالمحيط البيئي الذي يعيش فيه التلميذ. وتهدف دراسة المحيط البيئي إلى الوعي بالمكونات الجغرافية للمدينة التي يعيش فيها التلميذ، وما تضم المدينة من حارات وأرباع (كل ربع يضم أربع حارات) ونشاط أهلها، وأسماء القائمين على أمرها (مشايخ الحارات والأرباع ثم

عمدة المدينة)، وعناصر الصحة العامة فيها (الإنسان والحيوان). تلك المعارف الجغرافية الطبيعية والبشرية صحبتها تغذية التلميذ بمعلومات عامة سُمِّيت الزراعة، البيطرة، الأشياء، أيْ المعلومات العامة. الغرض من دراسة هذه المواد كان هو إعداد التلميذ منذ صغره للتعرف على محيطه الجغرافي والاهتمام بالبيئة الطبيعية التي يعيش فيها إلى جانب عنايته بصحته ورعاية الحيوان والنبات في داره ومدينته. جميع مناهج الدرس في تلك المرحلة كانت تعد على أيدي نخبة من المعلمين في معهد التربية ببخت الرضا، ويشرف على إعدادها أساتذة كبار كانوا جميعًا من السودانيين إلا واحدًا: عبد الرحمن علي طه، والشيخ مصطفى، وعثمان محجوب، وسر الختم الخليفة، ومكي عباس، وأحمد إبراهيم فزع، والنور إبراهيم. أما البريطاني الوحيد فهو المستر جونسون سميث. وقد نظم الأستاذ عبد الرحمن علي طه أرجوزة في الجغرافيا كنا نرددها عن ظهر قلب، وها نحن نستعيدها لأنها قد سقطت، أو أسقطت، من شاشة تلاميذ هذا الزمان لحكمة لا يدركها إلا الذين تعاقبوا على الحكم، وأنِسوا في نفوسهم القدرة والكفاية لإصلاح حال البلاد وأهلها مما لم تثبته التجارب. تقول الأرجوزة:

في القولد التقيت بالصديق	أنعم به من فاضل رفيق
خرجت أمشي معه للساقية	ويا لها من ذكريات باقية
فكم أكلت معه الكابيدا	وكم سمعت آورو آلودا
ودعته والأهل والعشيرة	ثم قصدت من هناك ريره
نزلتها والقرشي مضيفي	وكان ذاك في أوان الصيف
وجدته يسقي جموع الإبل	من ماء بئر جره بالعجل
ومن هناك قمت للجفيل	ذات الهشاب النضر الجميل
وكان سفري وقت الحصاد	فسرت مع رفيقي للبلاد
ومر بي فيها سليمان على	مختلف المحصول بالحب امتلا

ومــرة بارحــت دار أهــلي لكي أزور صاحبي ابن الفضل
ألفيتــه وأهلــه قــد رحلــوا مــن كيلـك وفي الفضاء نزلــوا
في بقعــة تــسمى بابنوســة حيــث اتقــوا ذبابــة تعيــسة
مــا زلـت في رحــلاتي الـسعيدة حتــى وصـلت يــامبيو البعيــدة
منطقــة غزيــرة الأشــجار لمــا بهــا مــن كثــرة الأمطــار
قــدم لي منقــو طعــام البفــرة وهــو لذيــذ كطعــام الكــسرة
وبعــدها اســتمر بي رحــيلي حتــى نزلــت في محمــد قــول
وجدت فيها صاحبي حاج طاهر وهــو فتــى بفــن الـصيد مـاهر
ذهبــت معــه مــرة للبحــر وذقــت مــاءً لا كــماء النهــر
رحلـت مـن قـول لـود سـلفاب لألتقــي بــسابع الأصــحاب
وصـلته والقطـن في الحقـل نَـضَر يـروى مـن الخـزان لا مـن المطـر
أعجبنــي مــن أحمــد التفكــير في كــل مــا يقولــه الخبــير
ولـست أنـسى بلـدة أم درمـان ومــا بهــا مــن كثــرة الــسكان
إذ مــر بي إدريــس في المدينــة وياهــا مــن فرصــة ثمينــة
شـاهدت أكداسًـا مـن البـضائع وزُمــرًا مــن مــشترٍ وبــائع
وآخـر الـرحلات كانـت أتـبره حيث ركبت مـن هنـاك القـاطرة
سرت بهــا في ســفر بعيــد وكــان ســائقي عبــد الحميــد
أعجبـت مـن تنفيـذه الأوامـر بدقــة ليــسلم المــسافر
كـل لـه في عيـشه طريقـة مـا كنـت عنهـا أعـرف الحقيقـة
ولا أشــك أن في بــلادي مــا يــستحق الــدرس باجتهــاد
فأبــشر إذن يــا وطنــي المفــدى بالــسعي منــي كــي تنــال المجــدا

الذين يصفون بخت الرضا بأنها كانت مصنعًا لشحن عقول الشباب بأفكار الاستعمار لا يعترفون بجميل لآبائنا من المعلمين السودانيين، ولا يرون ما في مناهج الدرس التي أعدها أولئك الآباء من تعميق لمفاهيم التنوع بين أقوام السودان، وهم صنوف، وسبل كسب عيشهم وهي شتى، وتضاريس جغرافيته وهي ذات تخاليف. ولئن اطلعت على الجهد الذي بذله أولئك المربون للتقصي عن الفوارق التي تنجبها البيئة الطبيعية وسبل كسب العيش بين سكان السودان في البيئات المختلفة والجوامع التي تربط بينهم بسبب المصالح المشتركة، تكتشف هَزَالة الزعم بأن بخت الرضا لم تهدف من إدخال منهج هذه الجغرافيا المحلية إلا أقلمة التعليم بالصورة التي تضعف الانتماء القومي. كما أن دراسات سبل كسب العيش التي أرستها بخت الرضا تحقق هدفًا أسمى هو الربط بين العلم والعمل. وللإمام الغزالي قول عن العلم والعمل في مؤلفه المختصر "أيها الولد" ينبغي أن يرعوي له كل معلم. قال الإمام: "علم بلا عمل جنون، وعمل بلا علم لا يكون". وعسانا في هذا الموقع نزجي الشكر لرجلين، الأول هو الدكتور فيصل عبد الرحمن علي طه لحصر وجمع أوراق والده المعلم المتفرد، إذ فيما جمع وسجل ما يزيل غُبشات في سيرة بخت الرضا وأساتذتها العظام أثارها متعامون عن الحق: ﴿ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ ﴾. والثاني هو واحد من أنجب أبناء بخت الرضا الدكتور محمد خير عثمان وزير التربية في عقد السبعينيات من القرن الماضي. كتب محمد خير في كتابه (المدخل إلى بخت الرضا وأوراق أخرى، دار مدارك) ناقدًا الزاعمين بأن الهدف من مناهج التعليم في بخت الرضا كان هو تدمير الفكر والتاريخ السوداني. لأن في زعمهم ذلك إنكار لما قام به الأفذاذ الذين "تركوا أروع الأمجاد في العمل التربوي، ومن خلاله في الحقل الوطني في شموله واتساعه وعمله". من أولئك أشار خير إلى "عبد الرحمن علي طه الموجه الحقيقي للسياسة التربوية في بخت الرضا، وأول وزير وطني للتعليم وصاحب أول ثورة تعليمية حقيقية بتحريره للتعليم السوداني من براثن السيادة الاستعمارية، ووضعه أول مخطط لتعليم قومي موحد بين الشمال والجنوب". أضاف خير أن محيي الدين

صابر قائد الثورة ضد بخت الرضا ينبغي أن لا يكون أقل "معرفة أو اعترافًا بالأمانة الوطنية لكل مَن وقع عليهم عبء العمل التربوي في يوم من الأيام، خاصة إن كان بين أولئك رجال مثل: مكي عباس، وسر الختم الخليفة، وعبد الله الطيب، وجمال محمد أحمد، وأحمد الطيب أحمد، وعبد الرحيم الأمين، ومندور المهدي، ونصر الحاج علي، وبشير محمد سعيد، وحسن أحمد يوسف، وعبد المنعم عبد اللطيف، وعبد العزيز حسن علي، ومحمد التوم التجاني، وأحمد الطيب عبد الحفيظ، وعبد اللطيف عبد الرحمن، وصلاح المليك، وإبراهيم نور". ولو اكتفى أولئك الناقدون بالقول بأن التعليم في عهد الاستعمار لم يخلق نخبة من القيادات الوطنية المفكرة لأقررنا رأيه هذا لأن هدف الاستعمار من التعليم يومذاك كان هو إعداد نخبة معتبرة من القيادات الإدارية والقضائية، والمحاسبين، والمهندسين، والمسّاحين، لا خلق قيادات فكرية. وإن كان ثمة جماعة من الخريجين انصرفت إلى النشاط الفكري، فقد فعلت ذلك بجهد طوعي في أندية خاصة مثل جماعة أبي روف وجماعة الهاشماب، وحتى هذه المجموعات عادت أدراجها إلى أصولها الطائفية، فقد اتجه من نادي الهاشماب، المحجوب وعبد الله ميرغني، من جماعة أبي روف إلى الحزب الذي كان يرعاه الأنصار (حزب الأمة)، كما اتجه خضر حمد وإبراهيم يوسف سليمان إلى الحزب الذي كان يرعاه الختمية (الحزب الوطني الاتحادي).

رغم ذلك وجد في ذلك النمط من التعليم الوظيفي بالسودان ما يغري جيرة السودان أو مَن شارك أهله الديانة باللحاق بمؤسساته. من بين هؤلاء الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور سليمان حزين من مصر (كلية غردون التذكارية)، والأمير (الملك فيما بعد) فهد بن عبد العزيز في مدرسة الدويم الريفية، والشاعر لطفي جعفر أمان ومحمد عبد القادر بافقيه من جنوب اليمن. وقبيل استقلال السودان انتدبت حكومة السودان من خريجي قسم الشريعة الإسلامية بكلية غردون ثلاثة من قضاة الشرع المشاهير لإنشاء أول محاكم شرعية في شمال نيجيريا (الشيخ النور التنقاري، الشيخ البشير الريح، والشيخ محمد صالح سوار

الذهب). وعقب خروج الاستعمار سعت الدول التي كانت على أهبة الاستعداد لاستقلالها إلي خريجي مدارس السودان فأوفدت محمد أحمد أبو رنات للنصح حول دستور عدن (اليمن الجنوبية) وحسن الترابي برفقة العالم المصري عبد الرزَّاق السنهوري لصياغة دستور دولة الإمارات المتحدة. وحتى عندما ضاقت بلاد السودان بأهلها ولفظت بعض علمائها، فتحت لهم دور العلم أبوابها في نيجيريا؛ لتحتضن أولئك الرجال ومنهم اللغوي (عبد الله الطيب)، والبيطار(النذير دفع الله)، والقانوني (زكي مصطفى). ومن هؤلاء من عُمّد أي صار عميدًا في الكلية التي أُلحق بها.

حقًّا لو كلف أنفسهم ناقدو التعليم "الاستعماري" في السودان بعقد مقارنة مع التجربتين الهندية والسودانية لكانوا أكثر موضوعية وفطانة. فطوال فترة الصراع مع الاستعمار كانت الإدارة البريطانية في البلدين تتنافس في مجالات محددة هي الخدمة المدنية، القضاء، التعليم. وبخروج الاستعمار من البلدين توجه الهنود لبناء دولتهم المرتقبة بالإبقاء على أفضل ما خلف الاستعمار وراءه، وتقديم البدائل لما حسبوه مسيئًا للتقاليد أو مثبطًا لهمة الأمة. ولاريب في أن الذين يعرفون شيئًا عن تطور التعليم في الهند بعد الاستقلال يلمون جيدًا بشيئين: الأول هو تبني الهنود للأسس التعليمية التي أرساها الاستعمار، والثاني هو أنهم متى ما رأوا في ذلك التعليم ما يستوجب الحذف أو التبديل انصرفوا إلى إيجاد البدائل له بدلًا من لعن الاستعمار؛ لأن لعن الاستعمار في مرحلة بناء الأمة لا معنى له لسببين: السبب الأول أن الاستعمار ملعون بالضرورة طالما حكم عليه أهل السودان أن "يمشي لي بلده". والثاني هو أن الاكتفاء بلعن الاستعمار لا يفيد دون تقديم البديل الأفضل عما ترك من مؤسسات أو مناهج عجزنا عن تطويرها، بل عن الحفاظ على المستويات التي كانت عليها. الهبوط في مستوى الخدمات مثل التعليم والصحة كان مريعًا مما كان عليه في العهد الاستعماري كمًّا ونوعًا. لهذا السبب من الظلم أن يحسب ناقد أن المقارنات التي يعقدها البعض بين أداء الدولة في المجالين يُعَبِّرُ عن حنين للكولونالية، لا مقارنة موضوعية للأداء في عهدين.

موقف مؤتمر الخريجين من ذلك التعليم كان موقفًا صائبًا، خاصة في نقده لنواقص التعليم في عهد الاستعمار، كما كان موضوعيًا في تقديره للنظام الذي كان يترجاه من ذلك التعليم في المستويات العليا كما سلف الذكر. وإن كان هناك ما تشكر عليه الأحزاب التقليدية بعد الاستقلال فهو محافظتها على هيكل النظام التعليمي الموروث من عهد الاستعمار وعلى القيم المعيارية التي أرساها. من جانب آخر أخطأ السياسيون العقائديون خطأ جسيمًا في حق التعليم عندما أقدموا على إعادة هيكلته دون أن يقدموا للناس بديلًا مقنعًا عنه. مثال ذلك إعادة النظر في هيكلة النظام التعليمي ومناهج الدرس في الفترة الأولى من نظام مايو على يد الدكتور محيي الدين صابر مما يمكن وصفه بمصرنة التعليم. وفي عهد الإنقاذ اجترأ على إعادة النظر في مناهج التعليم في مستويات التعليم المختلفة بعض وزراء التربية، ومثال ذلك إقحام ما سُمّي الثقافة الإسلامية بصورة فطيرة تسيء إلى الثقافة الإسلامية ولا تعبر إلا عن قصور معرفي بها. في تلك المرحلة أيضًا أقدم وزير صديق لي (عبد الباسط سبدرات) على إلغاء كتاب نافع هو كتاب المطالعة لتلاميذ السنة الثالثة الأولية والذي كان التلاميذ يتعلمون منه الكثير عن النيل، وعلاقة الإنسان بالحيوان والطيور والرفق بهم، وكيف يقرأ التلميذ الخريطة الجغرافية، والعمل اليومي، واحترام المعاقين (قصة الأعمى والمعقد)، وعلاج المرضى والمستشفيات. ذلك الكتاب لم يعده مستعمر نصراني (ولا ضير في كتاب نافع حتى وإن أعده نصراني أو يهودي) بل أعدته شعبة اللغة العربية في معهد بخت الرضا تحت إشراف رئيسها المصري الدكتور عبد العزيز عبد المجيد الذي صار بعد سودنة الوظائف رئيسًا لمعهد بخت الرضا. لماذا اتخذ الوزير ذلك القرار؟ قال الوزير، فيما يروي الرواة، إن الهدف من استخدام اسم طه القرشي لوصف "تلميذ مجتهد" كما جاء في نص في ذلك الكتاب استهانة بالنبي، وكأن شعبة اللغة العربية قد اختارت اسم طه القرشي، وفي ذهنها اسم النبي محمد الذي كان من بين أسمائه الشائعة في المدائح "طه القرشي". ومن الواضح أن الوزير

الذي أصدر ذلك القرار لم يطلع، عند إصدار قراره، على الفصل التاسع والعشرين من ذلك الكتاب الذي خصص كله للإشادة بموقف الرسول (طه القرشي) في الرفق بالحيوان، ناهيك عن البشر.

جغرافيا الحي

خلوة خليل ومدرسة أبي روف كانتا، ومازالتا، تقعان في شارع يمتد من شارع الهجرة حتى أبي روف؛ ولهذا أطلق عليه اسم الجد (شارع ود عبد الماجد). هذا الشارع هو واحد من ثلاثة شوارع نسبت إلى أسماء مَن اشتهر من الرجال من أهل المنطقة إما لعلمهم أو دورهم الوطني الجهادي. ففي شمال الحي كان (ومازال) شارع الخبير علي وهو قائد من قوات المهدية، وكان اسم الشارع الذي يمتد من شارع الهجرة حتى النيل شارع إلياس باشا أم برير (بفتح الباء وكسر الراء)، وهو أول حاكم وطني لكردفان في العهد التركي التحق بالإمام المهدي وشارك معه في فتح الأبيض. وعند انتقال إلياس باشا إلى أم درمان بنى له بيتًا كبيرًا سُمِّي بـ(حوش إلياس باشا). كان هناك أيضًا، ومازال، شارع النور عنقرة الذي يفضي إلى سوق الشجرة والنور قائد مقدام من قواد المهدية، ولا ينتقص من إقدامه في الحروب أنه كان من أكبر تجار الرقيق بالسودان. أما حي أبي روف نفسه فقد أطلق على أول قائد من قوات المهدية الذين قرروا الارتحال من الخرطوم إلى البقعة بعد أن أضحت عاصمة للدولة الجديدة.

الأنظمة الحاكمة حتى في "العهد الاستعماري" ظلت تطلق أسماء الأقيال على طرق المدينة، ليس فقط لتمييز الأحياء، وإنما أيضًا لتكريم الشخصيات التاريخية وتعليم الناشئة غيضًا من تاريخ بلادهم. وخلال تسفاري عبر العالم أدركت أن إطلاق أسماء النابهين على جادات المدن وميادينها العامة لا يمثل فقط تكريمًا لأولئك النابهين أو يكشف عن وفاء الأجيال اللاحقة للأجيال السالفة، بل هو أيضًا تسجيل لتاريخ الوطن والكشف عن دور رجاله ونسائه. ولكن كلما امتد بي الزمن في سوداننا الحبيب ازداد وهمي بأننا لا نوفي لرجالنا ونسائنا نذرًا. أهل هذا لهيمنة السياسة على حياة الناس حتى لم يعد بين الناس مَن يذكر بناة الوطن من

المهندسين، ورعاة صحة أهله من الأطباء، ومَن ربى أبناءه وبناته من المعلمين، وتغنى بمحاسنه من الشعراء والمغنين؟ أم هي الغيرة والحسد الكامنان في نفوس صناع القرار الذين ما انفكت الغيرة الجبلية تذهب ببعضهم إلى غمط الآخرين أشياءهم حتى بعد مواراتهم في الثرى؟

الشعوب التي تعرف أقدار الرجال لا تحسب أن الساسة وحدهم هم أجدر الناس بالاحتفاء، وعلَّني أستعيد هنا ما رويت من قبل في واحد من كتبي عن استطلاع للرأي قامت به صحيفة الفيجارو الباريسية عن أعظم عشرين شخصية في فرنسا في المرحلة التي تم فيها الاستطلاع. تصدر القائمة التي استُطلع فيها الرأي مائة فرنسي مختلفي المشارب والاهتمامات، أولهم جان كوستو عالم البحار المستهم بأمر البيئة، وبعد عدد من الفلاسفة والأدباء والممثلين ورد اسم رئيس الجمهورية فرانسوا ميتران في الرقم الرابع عشر. ميتران لم يكن رئيسًا مغمورًا بل هو الرئيس الذي قضى برضاء الناس أطول مدة في الحكم في الجمهورية الخامسة (أربعة عشر عامًا). ذلك تميز لم يسبقه إليه حاكم فرنسي غير نابليون الثالث الذي حكم بلاده من أبريل 1808 إلى يناير 1837، ولويس فيليب الذي حكمها من 1773 إلى أغسطس 1850. أوليس من الظلائم الكبرى إغفال أهل الحل والعقد من السياسيين إما بسبب الغيرة أو الاختلاف في الرأي أو عدم الاكتراث لما قدمه للمدينة والقطر مَن هم ليسوا بسياسيين؟ هل تصدق، مثلًا، أن شوارع العاصمة الوطنية خلت من أسماء رجال من أهل السياسة مثل ميرغني حمزة، عبد الله خليل، عبد الخالق محجوب، حسن الطاهر زروق، محمود محمد طه، حماد توفيق، خالدة زاهر من ضمن آخرين من المشتغلين بالسياسة فاتهم التكريم. وإن كانت الغيرة السياسية هي السبب في ذلك الإغفال في حال البعض، فما بال أولياء الأمر في تلك المدينة يغفلون أسماء رجال من أهل الفن والأدب والتعليم مثل: أحمد محمد صالح، وعبد الفتاح المغربي، ومعاوية نور، وخليل فرح، وعبيد عبد الرحمن، وسيد عبد العزيز، وعبد الرحمن الريح، وعبد الكريم كرومه، ومحمد أحمد سرور. تلك غفلة لا أستثني نفسي منها كـ"أم درماني"؛ إذ كنت في قلب السلطة القومية على مدى عقد من الزمان.

حضرة الناظر

تعاور النظارة في نظارة مدرسة أبي روف ثلاثة نظار في مرحلة التحاق الكاتب بها: الشيخ محمد عبد المولى، والشيخ حمد محمد عليّ، والشيخ إبراهيم عبد الرازق. وعساي أخص الأخير بذكر خاص لما كان له من أفضال عليّ. فعند قبولي بمدرسة أم درمان الوسطى فرضَت عليّ لجنة القبول مصاريف كاملة، وقد رأيت في ذلك ظلمًا كبيرًا لي، خاصة من بعد أن أحرزت درجة متقدمة في امتحانات القبول بتلك المرحلة. إزاء غضبي قال لي الشيخ إبراهيم: "دعك من لجنة القبول، ستصحبني إلى المستر وليامز، مدير المعارف". وبالفعل، اصطحبني الشيخ معه في الترام إلى مصلحة المعارف في الخرطوم، وهي مدينة لم أكن أعرفها إلا لِمامًا، إما خلال الزيارات العابرة للوالد مع العم موسى كلما وفد إلى الخرطوم في عطلته السنوية لزيارة أخيه في مقر عمله وسكناه كما سلفت الإشارة، أو بصحبة الخالين حسن وأمين الصاوي في عطلات الأعياد لزيارة حديقة الحيوان ومن بعد لمقهى الحلواني في عمارة عبد المنعم بوسط العاصمة لتناول ما كان يسميه النادل بالجيلاتي. والجيلاتي كلمة إيطالية لما كنا نطلق عليه "الدندرمة" ولست أدري ما هو اسمها اليوم حيث استعجم الكلام على قائليه حتى استبهم. أيًّا كان الأمر، إبان حضرة الناظر للمدير البريطاني بانجليزية فصيحة ما جاء به إلى مكتبه، فقرر "الخواجة" تخفيض المصروفات إلى النصف. ولعل الناظر إبراهيم عبد الرازق قد أورثني خِلة التوسط هذه، إذ ما فتئت أتلقى كل عام في بداية العام الدراسي بجامعة الأحفاد طيوفًا من المستجيرين بي من أمهات وآباء أسرتنا الممتدة وجيرتهم الأقربين لأسعى مع رئيس الجامعة لتخفيف أعباء المصاريف المدرسية على بناتهم. وأحمد الله أن «قاسم بدري»، المستر ويليامز السوداني، لم يرد لي طلبًا.

من أفضال حضرة الناظر عليَّ أيضًا تشجيعي على نشر ما أكتب. كان الشيخ إبراهيم من الزوَّار الدائمين لمنزل عبد الله بيه خليل، وذات مرة سألني في حضور البيه "لماذا لا تصدر مقالاتك التي نشرتها "الرأي العام" في كتيب؟". تلك المقالات التي أعددتها بتشجيع من الأستاذ محجوب عثمان، وتولى محجوب نشرها

بالرأي العام، حيث كان يعمل قبل التحاقه بصحيفة الأيام كشريك في ملكيتها ومحرر فيها، تضمنت وصفًا لأولى رحلاتي إلى أوروبا، بل إلى خارج السودان. وصدق الشيخ وعده بنشرها في مطابع مكتب النشر، حيث كان يعمل وصحبتها جائزة ثمينة: خمسة عشر جنيهًا. ذلك المبلغ كان يمثل ضعف الراتب الشهري لخريج الجامعة؛ لهذا استكثرته على نفسي وتركت نصفه لشيخي.

مدرسة أبي روف: مصنع الرجال

مدرسة أبي روف الأولية هي واحدة من أقدم المدارس الأولية في العاصمة إذ تم افتتاحها في عام (1917)، وكان لها قصب السبق في أكثر من مجال. فمن ناحية تخرج فيها كثر ممن نبغوا في الحياة العامة، فمن المعلمين نذكر: حسن أحمد يوسف، وإبراهيم نور، وعبد الرحمن دياب، وحسن عباس، ومحمد عبد المنعم إسماعيل، ومحمد الصاوي. ومن رجالات الإدارة العامة : حسن علي عبد الله، وحمزة ميرغني، وأمير الصاوي، وكرم الله العوض، والسني بانقا. ومن سلك القضاء والقانون: أحمد سليمان، وجلال علي لطفي، ومحمد الفاتح حامد، ومحمد طه أبو سمرة، وشمس الدين اللدر. وفي مجال الطب: أحيد سليمان، ومحمد الحسن أبوبكر، والسيد داؤود حسن محمد داؤود، ومعتصم أبوبكر، وأحمد البلة حمزة، وعباس رمزي. ومن رجالات الأمن والجيش: عبد الخالق إبراهيم، وعبد الوهاب إبراهيم. ومن الاقتصاديين: مالك محمد عبد الماجد، وعبد الرحمن أحمد مهدي. ومن رجال الأعمال: سمير أحمد قاسم. وليس من محض الصدف أن أنجبت تلك المدرسة سبعة من وكلاء الوزارات بعد الاستقلال: حسن علي عبد الله وكيل وزارة الداخلية وهو غير علي حسن عبد الله وكيل وزارة الحكومة المحلية، حمزة ميرغني وكيل وزارة المالية، أمير الصاوي وكيل وزارة الداخلية، حسن أحمد يوسف وإبراهيم نور وكيلي وزارة التعليم؛ ومعاوية أبو بكر وكيل وزارة الأشغال، جلال علي لطفي النائب العام. إضافة إلى ذلك كانت تلك المدرسة هي الحاضنة الأولى لقادة الفكر في مطلع الحركة الوطنية (جماعة أبو

روف): الأخوين حسن وحسين الكد، وإبراهيم يوسف سليمان، وإبراهيم عثمان إسحاق، وإسماعيل العتباني. ولعل تلك كانت مصادفة جغرافية. إذ إن القيادات الفكرية / السياسية للمدرسة المناظرة لمدرسة أبي روف (مدرسة الهاشماب) قد تخرجوا جميعًا في المدرسة الأولية نفسها (مدرسة الموردة): (عبد الحليم محمد، وعرفات محمد عبد الله، ومحمد عشري الصديق، والسيد الفيل). مدرسة أبي روف أيضًا أنجبت بعضًا ممن نبغ في الشعر الغنائي مثل عوض جبريل، وعلني أضيف إلى شعراء الحي الشاعر المفلق محمد بشير عتيق، وعندما نقول أفلق الشاعر إفلاقًا فنعني أنه أتى بالبديع المعجب. ورغم أن «عتيق» قد أكمل دراساته الأولية في الدويم في صحبة نوابغ من التلاميذ مثل عوض ساتي، ومحمد أحمد محجوب، ونصر الحاج علي إلا إنه عند عودته لأم درمان أخذ يواظب وشقيقته الشفة بت عتيق على حلقات الدرس التي كان يعقدها الشيخ الصاوي في داره. على كل ففي عام (2017) بلغت تلك المدرسة عظيمة النتاج عامها المائة، وكم كنت سعيدًا عندما اتصل بي نفر كريم من شباب الحي لإبلاغي برغبتهم في إطلاق حملة بمناسبة العيد المئوي للمدرسة لإعادة إنشائها وتأسيسها. قلت لهم "مرحى مرحى" وذلك حرف تعجب يوجه إلى مَن رمى وأصاب.

التعليم الأوسط

انتقل الكاتب من بعد مرحلة التعليم الأولى إلى مدرسة أم درمان الأميرية الوسطى في مقرها الجديد بجوار سجن أم درمان بعد أن خُصص موقعها القديم لاستيعاب طلاب كلية غردون في سني الحرب. وعند التحاق الكاتب بتلك المدرسة كان ناظرها لنصف العام الأول هو المعلم الرائد صالح بحيري، وكان ضابطها هو الأستاذ بابكر علي الذي كانت فرائص الطلاب ترتعد عند رؤيته، والفريصة هي العضلة الصدرية التي ترتعد عند الفزع. ثم أعقب صالح بحيري في النظارة الأستاذ عبد القادر شريف. ولكن سرعان ما تقرر تقسيم المدرسة إلى قسمين، الأول منها هو أم درمان (أ) قرب شارع كرري بغرب المدينة، والثاني أم

درمان (ب) شرقها قرب صهريج المياه في أبي روف. كان من نصيب الكاتب الالتحاق بأم درمان (أ) التي ظل الأستاذ عبد القادر شريف إلى حين ناظرًا لها. وقد أراد الحظ السعيد للكاتب في مرحلتي اندماج المدرستين، وفي مرحلة فصلهما أن يتلقى العلم على أيدي أساتذة ترك كل واحد منهم ميسمه في تكوينه الأول، خاصة في تجويد اللغة. ففي المرحلة الأولى حبب اللغة الانجليزية للكاتب الأستاذ الحاج هاشم وكان أول مَن تعلم على يده الكاتب اللغة الانجليزية. زاد من ألفته بتلك اللغة الأسلوب الهادئ والساخر معًا اللذان كان الأستاذ حسن الطاهر زروق يدرس به تلك اللغة. وإن كانت اللغة الأم تكتسب بالقراءة والممارسة، فإن اكتساب اللغة الأجنبية لا يكون فقط بالتقاط التعبيرات وحفظها وإنما بالتمهر في الحديث بها كما يتحدثها أهلها. وكثيرًا ما يعاني متعلمو اللغات الأجنبية من داء حفظ الكلمات دون وعي بأنظمة الإدراك العقلي لهيكل اللغة المكتسبة مع أنظمة الإدراك العقلي في هيكل اللغة الأم. أحمد للراحل جعفر محمد علي بخيت مبادرته من بين كل الذين تلقوا أولى دراساتهم في اللغة الانجليزية على يد ذلك المعلم الماهر، بإهداء رسالته للدكتوراه في جامعة كامبردج إلى عدد من الذين عمل معهم أو تحت إشرافهم من الإداريين: المستر إير، والمستر بلفور بول، وحسن علي عبد الله، وعلي حسن عبد الله، وإسماعيل محمد بخيت، أمير الصاوي، إلى جانب مَن قدموا له إفادات عن تاريخ حركة (1924) مثل سليمان كشة وتوفيق صالح جبريل دون أن ينسى أستاذيه الفكي عثمان ود عبد الله الذي حفظ القرآن تحت قدميه والأستاذ حسن الطاهر زروق الذي فتح قلبه، كما ورد في الإهداء "على **الوطنية في المدرسة الوسطى وحثه على الاهتمام بالأدب وعلى إصدار صحيفة حائطية**".

عند الانتقال إلى أم درمان (أ) كان الكاتب وزملاؤه أحظياء بالتعلم على يد فريق من الأساتذة المهرة، خاصة في العلوم التي كانت تتوق إليها نفسه: اللغات، والتاريخ، والجغرافيا، ومبادئ العلوم الطبيعية. من أولئك أذكر معلم العربية بشير محمد سعيد، وكان في مطلع عهده بالتدريس، ووديع شحاتة ومحمد توفيق

أحمد في اللغة الانجليزية، وحسن محمد الأمين في العلوم. ثلاثة من هؤلاء هجروا مجال التعليم: بشير محمد سعيد للصحافة، محمد توفيق أحمد للالتحاق بمصلحة العمل التي تدرج في وظائفها حتى صار مديرًا لها، وحسن محمد الأمين الذي أضحى سفيرًا بوزارة الخارجية. ولعل الكاتب يذكر بوجه خاص الأستاذين بشير محمد سعيد ومحمد توفيق أحمد؛ لأن الأول دله على "أيام" طه حسين، وفتح بصره على خرائد المتنبي الأبكار حتى شغف بحب الكاتب وأولع بالشاعر. أما توفيق فقد كان له الفضل في تبسيط اللغة الانجليزية للكاتب حتى ألفها وانبسط لسانه بها. وفي الحالتين تطورت علاقته مع الأستاذين وأطنبت، أي طال مجراها. أما الطلاب الذين عايشوا الكاتب في تلك المدرسة وكان يلقي لهم، ويلقون له، بالمودة تقفز إلى الذهن منهم أسماء أحمد عبد الرازق علي طه، عبد العزيز النصري حمزة، صديق منزول، عبد الرحمن إلياس، عبد الرحمن محمد يحيي، السيد داؤود حسن داؤود، أحمد محمد صالح سوار الذهب. رحم الله مَن رحل منهم ومَن بقي، فالرحمة للأحياء والأموات.

المرحلة الثانوية

من حسن حظ أبناء جيل الكاتب انتقالهم للدراسة في المرحلة الثانوية إلى مدرستين جديدتين: وادي سيدنا وحنتوب. إنشاء هاتين المدرستين تم قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، ولكن عندما بلغت شرار الحرب شرق أفريقيا (إريتريا) بدخول إيطاليا الحرب كواحدة من دولتي المحور (ألمانيا - إيطاليا) تحولت مدرسة وادي سيدنا إلى ثكنات عسكرية لجنود الحلفاء الذين كانوا يحاربون تلك الدولتين في الجبهة الشرقية الأفريقية. إلى تلك المدرسة وفد الكاتب في السنة الأولى مع مَن سبقه في الدراسة في الفصول العليا. المدرستان - وادي سيدنا الثانوية ورصيفتها حنتوب- أنشئتا بصورة نموذجية، إذ وفرت لهما الفصول حسنة الإعداد: التهيئة الصحية والبيئية، المكتبة التي تحتوي على كل ما يحتاجه الطالب من كتب تعينه على القراءة خارج الفصل بما في ذلك الكتب

المرجعية باللغتين العربية والانجليزية، ومختبرات العلوم، والمراسم للموهوبين في الرسم، والمسرح، ثم التعليم الرياضي، أو إن شئت، والترفيهي (recreational) الذي كان يتمثل في ميادين كرة القدم، وكرة السلة، والسباحة. بيد أن التعليم في تلك المدرسة لم يقتصر فقط على هذه المناشط، بل شمل أيضًا تطوير قدرات التلميذ الجدالية في حلقات المناظرة والجمعيات الأدبية. كل هذه معينات ضرورية للتعليم إن كانت غاية التعليم حقًّا هي إنماء العقل وصحة البدن وصقل المواهب. و يعترف الكاتب بأن نفسه لم تتعلق بالرياضة البدنية، و لم يلمس فيها ما يحضه على خوض مجالاتها المختلفة، بالرغم من أن من أحب الزملاء إلى نفسه في مرحلة الدراسة الوسطى كان صديق منزول الذي ذاع صيته فيما بعد بين الناس، وكان صيتًا مستحقًا. وفي المرحلة الثانوية "القون" نصر الدين أحمد محمود. على أن إغفال الكاتب للرياضة في الصغر أمر أسف عليه في الكبر، خاصة عندما أخذ أغلب الأطباء الذين يغشاهم لا يملكون ما يوصونه به عقب العلاج غير "عليك بالرياضة". ولكن الأسف مع هؤلاء لم يكن يطول، خاصة عندما تكشف للكاتب أن بين كل طبيب وطبيب ناصحًا أكرشَ عظيم البطن. أيًّا كان الأمر، كان جل انهماك الكاتب بالقراءة في المكتبة التي كان يتولى الإشراف عليها أحمد عمر عبد الرحمن الذي أصبح له صديقًا دائمًا.

أثار انتباه الكاتب مؤخرًا فيما كُتب عن المدرستين مقالات هي أقرب إلى التخرص منها إلى التقرير الناجم عن البحث والتحقق. من ذلك كتيب عن مدرسة حنتوب منسوب إلى أحد خريجيها، وصف فيه ناظرها لويس براون بأنه ابن لرئيس وزراء بريطانيا العمالي جورج براون، بل ذهب الكاتب لتأكيد زعمه بالقول بأن رقم منزل الناظر براون في حنتوب كان رقم (10) من بين منازل المدرسين، وهو رقم يتطابق، كما زعم الكاتب، مع رقم مقر رئيس الوزراء البريطاني، رقم (10) داوننغ ستريت. ولعل الكاتب لم يكن يعلم أن تخصيص ذلك المقر لرئيس الوزراء البريطاني يعود إلى عام (1732) عندما أهداه الملك

جورج الثاني إلى السير روبرت والبول قبل ميلاد لويس بـن بـراون بقـرنين. أمـا غوردون جورج براون، الأب المزعوم لناظر حنتوب، فقد حل في ذلك المنزل بعد استقالة توني بلير، وبقي فيه لفترة لم تتجاوز الثلاث سنوات (2007-2010).

أساتذة أجلاء ورفاق دراسة أخيار

الإشراف على المدرستين (وادي سيدنا وحنتوب) تولاه أستاذان بريطانيـان (المستر فاركهاسون لانق في وادي سيدنا، والمستر لويس براون في حنتوب)، وكانا معلمـين متميـزين دون حاجـة لتأصـيل نـسبيهما. إلى جانـب هـذين الأسـتاذين البريطانيين كان يساعد في الإشراف على إدارة المدرسـتين مُعَلِّمَان سـودانيان مـن فطاحل المعلمين (عبيد عبد النور في وادي سيدنا وأحمد محمد صـالح ومـن بعـده السني عباس في حنتوب). وخَلْف لانق في وادي سيدنا كانت هناك نخبـة منتقـاة من المعلمين المتميزين في مجالات علمهم نِعماهـم مـن أسـاتيذ: عبيـد عبـد النـور ومحمد أبو بكر (في التاريخ)، والنصري حمزة وأحمد المرضي جبـارة وأنـور تـاوس (في علوم الطبيعة)، وحسن أحمد بشاشة (في اللغة العربية)، وأحمد بشير العبـادي وخالد موسى وعبد الرحمن عبد الله وميرغني حمـزة (في الرياضـيات)، وعبـد الله بشير سنادة وأحمد حسن فضل السيد (في الجغرافيا)، ورقيق الحاشية عبـد القـادر إبراهيم تلودي والخير هاشم (في الفنون). أذكر رقة تلودي على الأخص لأنه كان لطيـف الـصحبة يـوليني اهتمامًـا خاصًّـا رغـم أنـه لم يمنحنـي مـرة واحـدة في الامتحانات النهائية درجة أعلى من "متوسط". ومـع أدائـي المتوسـط في الفنـون أورثني الأستاذ تلودي حب الفنون هاويًا لا محترفًـا وتلـك هوايـة لم تبرحنـي ولم أبرحها. كما لا أنسى للأستاذ فضل السيد حثه لي على الكتابة بالإنجليزية للناطقين بها، وفي ذلك شجعني على أن يكون لي صديق قلم pen friend أكاتبـه ويكـاتبني بل قد عرفني عليه (عليها) وكانت ابنة لصديقة له تعرف عليها في بريطانيا خلال بعثته الدراسية التي كان قد عاد لتوه منها.

إلى جانب هؤلاء كان هناك أساتذة من البريطانيين يعلموننا الانجليزية، وكان من بينهم ناظر المدرسة المستر لانق والمستر ماكنيل والمستر كوك والأستاذ السوداني محمد ناجي. حل بنا أيضًا معلمًا للغة الانجليزية والتاريخ لفترة قصيرة الأستاذ جمال محمد أحمد، وهي فترة كان لها ما بعدها. وفي جانب الإشراف الإداري على المدرسة كان الأستاذ صالح عبد العظيم ومساعده زين في حين تعاقب في الإشراف على الداخلية التي كنت أقيم فيها (كتشنر) الأستاذ النصري حمزة، وبعد انتقاله إلى خور طقت ليصبح أول ناظر لها الأستاذان خالد موسى وأحمد حسن فضل السيد. كما كان الخير هاشم معلم الفنون هو الأستاذ المقيم بالداخلية إلا إنه انصرف إلى الاهتمام بالسينما، وأصبح فيها بعد أول مدير لإدارة السينما، بوزارة الإعلام. ما تذكرت هؤلاء الأساتيذ إلا وتذكرت قول الإمام الغزالي: "التعليم هو أشرف المهن بعد النبوة". على أنني لن أنسي أبداً من الأساتذة المراقبين علي الداخلية الأستاذ أحمد حسن فضل السيد الذي فتح لي أفقاً جديدة هو الولوج في مجال الصداقات عبر القلم (Pen friendship). فمن بين ما نصحني به الأستاذ فضل السيد تبادل الرسائل مع أصدقاء وصديقات خارج السودان مما سيوسع من معارفي عبر العالم ويتيح لي المجال لتحسين الكتابة باللغة الإنجليزية. ولم يكتف أستاذي بذلك بل دلني علي من أكاتب وكانت هي ابنة زميلة له في الدراسة التقي بها عندما كان في رحلة دراسية بانجلترا عاد منها لتوه. علي تلك الفتاة تعرفت عبر البريد ولتوثيق تلك العلاقة حرصت علي لقائها في وارسو خلال مؤتمر الشباب الذي شارك فيه كلانا.

نسبت أسماء الداخليات آنذاك إلى كبار رجالات الاستعمار: اللورد كتشنر، السير ونجت، السير دوقلاس نيوبولد، السير لي ستاك، السير جميز كري (منشئ التعليم النظامي في الهند وأفريقيا). تلك الأسماء تحولت في بداية الحكم الذاتي إلى أسماء رجال كان لهم دورهم التاريخي في السودان المعاصر أو البلاد العربية، فقد تحول، مثلًا، اسم داخلية كتشنر التي كانت تؤويني إلى داخلية المختار (البطل الليبي عمر المختار). رغم ذلك، من التعسف القول بأن في إقدام البريطانيين على تمجيد رجالاتهم محاولة للتعفية على ذكرى الأماجد من أهلنا. ففي العدد الأول

من مجلة وادي سيدنا (17 مايو 1948) التي كان عبد العزيز الزين صغيرون رئيسًا لتحريرها، وكنت مديرًا للتحرير، كتب المستر لانق ناظر المدرسة مقالًا استهلاليًّا يروي فيه قصة وادي سيدنا. في ذلك المقال أشار لانق إلى "سيدنا" الذي نسب له الوادي ووصفه بشيخ من الفقهاء "العرب" اختار ذلك الموقع المخضر مستقرًّا له. كما أشار إلى قبر يقع على بعد نصف ميل شمال الوادي في قرية النوفلاب يقال إنه قبر والد الإمام المهدي. وختم الناظر البريطاني مقاله بالقول **"بانتقالنا إلى هذا الموقع في (يناير 1947) تبدأ صفحة جديدة من صفحات تاريخ وادي سيدنا. ورغم أنه قد لا تكون من بين أبناء هذا الجيل شخصيات درامية مثل مَن سبقهم، فربما يكتسب بعضهم صفات مثل تلك التي حظي بها أجدادهم السابقون حتى ينبغ منهم قادة لسودان المستقبل"**.

في تلك الداخلية التقيت بكثر من الطلاب منهم مَن ظللت أكن له الود، ومنهم مَن لم أكف عن احترامه إما لعلمه أو حلمه دون أن ألقِي له بالمودة، كما منهم مَن لم يكن جديرًا بود أو خليقًا باحترام. وعلني أشير إلى الطلاب من الكبار والصغار الذين عرفت وأحببت، فمن الكبار أذكر: الدكتور الزين النيل، والدكتور حسن كشكش، وجعفر محمد علي بخيت، ومزمل سلمان غندور، ومجذوب الشوش، وصلاح أحمد محمد صالح، وحسن بليل، والمهندس الزين مصطفى، والفاتح عبود، وسر الختم السنوسي. وقد وثقت الصداقة مع الأخير رابطة العشيرة. ومن الصغار أذكر أبناء العنبر الذي كان يضمنا: فاروق فضل، وحسين بازرعة، وفاروق مصطفى المكاوي، ومحمود حامد الريح، والسر دوليب، عبد الرحمن محمد صالح سوار الذهب، وسيد أحمد عبد الله، وعبد الرحيم البخيت. أما من أبناء الداخلية خارج العنبر فأذكر عابدين شرف، عبد المنعم مصطفى، عبد الرحيم موسى، عبد الحليم الطاهر، حسين أبو صالح، السيد حسن داؤود، إبراهيم الصلحي. كما كان للكاتب في الداخليات الأخرى صحاب آلفهم وآلفوه على رأسهم الدكتور أحمد عبد العزيز، والمحامي عبد الرحمن يوسف، والدكتور نصر الدين أحمد محمود، والمحامي صديق أحمد خير، والقانوني يوسف محمد علي، المهندس عامر حسن، والمهندس عبد الرحمن إلياس.

السينما والموسيقى: عشق جديد

إلى جانب النشاط الأكاديمي والأدبي استهواني أمران: السينما والموسيقى الكلاسيكية، ولحقت بهما هواية جمع المنحوتات الفنية والصور الزيتية. الهواية شغف بالشيء دون مزاولته، وكان لمعلميَّ دور كبير في غرس ذلك الشغف في نفسي. فقد أحببت السينما منذ أن أخذ الأستاذ الخير هاشم يدعو إلى مشاهدة الأفلام في غرفته عددًا منتقى من تلاميذ الداخلية ومن خارجها. تلك الهواية صحبتني وزاد اهتمامي بها عند انتقالي لجامعة الخرطوم واكتشافي مع صحب لي لسينما النيل الأزرق التي تجاور الجامعة. ثم تحول ذلك الاهتمام إلى وَله عند ارتحالي إلى الولايات المتحدة، وهو وَله جعل مكتبتي تضيق بما حوت من أفلام اقتنيتها، ومازلت أسعى لاقتناء المزيد منها. فالتطور المتواتر في صناعة السينما ظل يدفع بي إلى تحويل ما أملك من ذخائر فنية إلى شرائط مدمجة (compact cassettes)، ثم إلى الوسائط الحديثة لاختزان الصور والمعلومات النصية والسمعية والمرئية بما في تلك ذوات السعة التخزينية العالية (Digital Versatile Discs) التي تعرف بالـ(DVD). أما الموسيقى الكلاسيكية فقد أولجني في عالمها الناظر لانق الذي كان يدعوني وبعض التلاميذ لتناول الشاي في منزله، رغم أن العلاقة مع أي "خواجة" استعماري كانت عند المتمذهبين علاقة مشبوهة حتى وإن كان ذلك "الخواجة" هو المدرب الانجليزي لفريق كرة القدم، ناهيك عن الناظر. فالعلاقة مع الناظر لاشك في أنها ستجعل منك عند غلاة المتمذهبين عميلًا من عملاء هوايتهول.

الموسيقى، أيًا كان نوعها، هي أسمى تعبير عن الروحانية الإنسانية كما هي مبعث سعادة قصوى للمستمع، لهذا يقول الناس عند سماعهم لأي حديث يسر القلب ويثلج الفؤاد أن لذلك الحديث "وقع الموسيقى في الأذن" (It sounds like music to the ears). وبسبب ذلك ظلت الموسيقى هي لغة العواطف لأنها تنقل عبر السماع أحاسيس معينة اختلجت في نفس المتلقي. الموسيقى أيضًا، كما وصفها أفلاطون، هي الصفة الثامنة المكملة للفيلسوف؛ فالرجل عنده لا يصبح

فيلسوفًا إلا إذا أصبح ذا مزاج موسيقي منسجم، بل إن الموسيقى، حسب قوله: "تكسب الحياة معنى، وتجعل للريح أجنحة، وتضفي على شطحات الخيال دلالات". ولجبران خليل جبران كتيب صغير عن الموسيقى قال فيه: "لغة الموسيقى ليست كاللغات، هي لغة القلوب تحكي ما يكنه القلب للقلب. وهي كالحب، عَمَّ تأثيرها في الناس فترنم بها البربر في الصحراء، وهزت أعطاف الملوك في الصروح، ومزجتها الثكلى بنوحها، فكانت ندبًا يفتت قلب الجماد". لهذا صارت الموسيقى من الهوايات التي لا يُحمل عليها المرء بل يشغف بها وتنقاد إليها نفسه انقيادًا.

وبما أن للموسيقى الكلاسيكية إيقاعًا وجرسًا خاصًا لا يستسيغها مَن لم يألف ذلك الجرس والإيقاع. فالموسيقى الغربية، خاصة الكلاسيكية، تعتمد بوجه عام على عناصر فنية غريبة على آذاننا، فآذاننا لا تألف من الموسيقى غير النغم (melody) والإيقاع (rythem). ومن خير مَن كتب بالعربية في هذا المجال الدكتور حسين فوزي في كتابه "الموسيقى السيمفونية" التي وصفها بأرفع ما يبلغه المؤلف الموسيقي في ارتقائه الإبداعي. ولوقوف إدراك مستمعينا للموسيقى على النغم والإيقاع يضيقون أيما ضيق باللحن الذي يكون واضح النغم تارة ثم يختفي تارة أخرى تحت سيل منهمر من نغمات أخرى. لهذا كان مدخل المستر لانق لتقريب الموسيقى الكلاسيكية لأسماع زواره من التلاميذ حتى يستذيقوها وتنقاد هم هو حملهم على سماع المقطوعات الموسيقية التي تصحبها دقات الطبول الأفريقية، أو تلك المقاربة للموسيقى الشرقية. وفيما أذكر كانت أول معزوفة أسمعها لنا لانق هي الرومبا الجمايكية (Jamaican Rumba) وهي معزوفة حديثة عهد آنذاك أعدها الموسيقار الجمايكي آرثر بنجامين، وخرج بها على الناس في عام 1938 عندما انتشرت ما يعرف بالموسيقى الصحائفية (Sheet music)، أي الموسيقى التي تسجل في صحائف عريضة. أما المعزوفة الثانية فهي الرابسودي السويدي (Swedish Rhapsody) للموسيقار السويدي هوقو آلفن(Hugo Alfven)، والرابسودي لحن مرتجل، ولهذا فهو خالٍ من تعقيدات الموسيقى الكلاسيكية السيمفونية.

صحبنا من المتمذهبين لم يقفوا عند وصف أي علاقة لطالب مع معلم بريطاني بالعلاقة المشبوهة، بل ذهب بعضهم إلى اعتبار ما كان يقوم به الناظر من تطوير لإحساس الطلاب بالموسيقى وتنمية الذائقة الموسيقية عندهم، صرفًا لنظر الطلاب عن الكفاح وهروبًا من المعركة. وعندما تسمع حديث الهروب من المعركة تحس بأن مدرسة وادي سيدنا الثانوية لم تعد معهدًا للدراسة وتطوير القدرات والانفتاح على الثقافات، بل هي ساحة حرب مثل معركتي جبل سرغام وكرري. وإلى تهمة "الهروب من المعركة " أضاف هؤلاء شنعة - أو ما حسبوه شنعة مذمومة - ألا وهي الترف البرجوازي. ليتني كنت أعرف عن الموسيقى الكلاسيكية يومها ما تعلمته من بعد حتى أُلقم هؤلاء حجرًا أسكتهم به عند المجادلة. ففيها تعلمت لاحقًا أن أكبر مدارس الموسيقى الكلاسيكية في القرن العشرين كانت في الاتحاد السوفيتي، دولة الطبقة العاملة. ومما كان يردده نقاد الموسيقى يوم ذاك أن مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية هم إما روس أو راحلون، بمعنى أن أغلب المؤلفين الموسيقيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانوا من ألمانيا (باخ، وبيتهوفين، ويوهانس برامز، ورتشارد فاجنر)، أو النمسا (جوستاف ماهلر، وموزارت، وشتراوس، وشوبيرت)، أو فرنسا (هكتور بريليوز، وإيما نويل شاربيير، وجاك أوفنباخ)، أو إيطاليا (باقانيني، وروسيني، وفيردي). ولكن في القرن العشرين الذي أفل فيه نجم موسيقيي الغرب الكلاسيكيين أنجب الاتحاد السوفيتي- وليس غيره – أكبر عدد من الموسيقيين: آرام كاتشاتوريان (1903-1978)، وسيرجي بروكيفييف (1859-1953)، روخمانينوف (1873-1943)، وشستوكوفيتشي (1906-1975)؛ إيغور سترافينسكي (1881-1961). جميع هؤلاء بلغوا الأوج في عهد النظام البلشفي دون أن يصف أحد تجويدهم لعلم الموسيقى الكلاسيكية وإجادتهم لها بالترف البرجوازي.

التشدد في أمر الغناء والموسيقى لم يكن وقفًا على مَن يجهلون أمر الموسيقى الكلاسيكية، بل كان سائدًا حتى بين بعض أجلة العلماء الذين حسبوا الموسيقى لهوًا. أولئك المتشددون مروا مرور الكرام -حتى لا نقول جهلوا- ما أورده حجة

الإسلام الغزالي في باب السماع والوجد من كتاب "الإحياء": قال حجة الإسلام: مَن لم يكن يحركه الغناء فهو ناقص، مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، وزائد في غلظ الطبع وكثافته عن الجمال والطيور، بل على جميع البهائم فإنها جميعًا تتأثر بالنغمات المعزوفة". مَرَّ هؤلاء أيضًا مرور الكرام على ما قال به الإمام ابن حزم في المُحلى حول إنكار بعضهم للغناء ودعوتهم لتكسير المزامير والعيدان والمعازف باعتبارها أدوات لهو. قال ابن حزم إن الآية التي يستدل بها أولئك الغلاة على أن الغناء لهو: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: 6] نزلت في الكافر ابن النضير لا سامع الغناء؛ لهذا، أفتى ابن حزم، بأنه يصبح لزامًا علي كل مَن يقوم بتحطيم الآلات الموسيقية بحسبانها أدوات لهو، ضمانها أي دفع ثمن ما حطم من آلات. كما استدل بعضهم على فساد ذلك التخريج الزميت بحديث الرسول: "لا **تشددوا على أنفسكم، فيُشدد عليكم. فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع، والديارات** ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾". وعندما يكون الخيار في الفتوى بين قولي الغزالي وابن حزم وأقاويل مجاهيل لا يُعرَف الواحد منهم ولا أبوه، يصبح تقديم رأي أولئك المجاهيل تجديفًا بنعم الله.

لهذا لم يجفل الكثير من علماء المسلمين عن الكتابة عن الغناء والموسيقى. من هؤلاء أبو يوسف بن إسحاق الكندي فيلسوف البصرة (120هـ) عندما وضع مؤلفًا في "الإيقاع" ورسالة عن صناعة الموسيقى، وابن سينا (427هـ) صاحب الشفاء في الموسيقى، وأبو نصر الفارابي (300هـ) الذي صنع كتاب "الموسيقى". كما بدأ الإمام مالك حياته في المدينة بالغناء حتى نهته أمه لا إنكارًا منها للغناء، بل لعلة خلقية فيه لا تحببه إلى أهل السماع. قالت الأم لابنها: "أنت دميم الوجه والدمامة صفة لا يحبها أهل السماع "؛ مما حمل مالكًا على دراسة الفقه فكسبه الفقهاء. مع ذلك ما فتئ بعض العلماء يقيمون على وصف الفن والغناء باللهو، وينسبون عشاقهما ومؤديهما إلى السفهاء. ففي عهد المأمون، مثلًا، كان من أخلص

ناصحي المأمون إسحاق بن إبراهيم الموصلي، كما كان أنيسًا له في الطرب. ولما أراد المأمون أن يولي إسحاق القضاء، نصحه الفقهاء أن لا يفعل فانصاع الأمير لرأيهم ولكنه كتب يقول: والله لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتي".

الصراعات السياسية ومحاولات الاستقطاب

فترة الدراسة الثانوية كانت هي الفترة التي أخذت فيها الصراعات السياسية الطلابية تطل برأسها رغم أنني لا أعرف واحدًا من أساتذتنا في وادي سيدنا تظاهر بتأييد، أو بدت منه مناصرة، لأي من الفريقين المتصارعين: الإخوان المسلمين والشيوعيين. ثم لحقت بالتعليم غاشية في السنوات التالية عندما أخذت الأحزاب العقائدية تكلف مناصريها من الأساتذة بالإشراف على المنسوبين لها من الطلاب في تلك المدارس، أو تجنيد المزيد منهم. بأي معيار من معايير الأمانة المهنية تلك كانت خيانة للأمانة، فشتان بين نشر المعلم لمبادئ التربية الوطنية وغرس حب الوطن في نفوس الطلاب وبين تحوله لداعية حزبي. وعلى كلٍّ، ظللت بمنأى عن الجماعتين لا لعدم الاكتراث للقضايا الوطنية التي كانوا يزعمون التداول في أمرها، بل لأنني كنت –ومازلت– أرى في التمذهب السياسي الذي يفرض على الشخص قيدًا فكريًا حديديًا إجهاضًا للمصالح الوطنية، كما ينبغي أن تكون، وكما يحسها ويراها المواطن العام، واعتقالًا لملكة التفكير الحر عند الأيفاع. لم يكن موقفي ذلك إنكارًا من جانبي للمذهبية، وإنما لتحول المذاهب السياسية إلى عقائد تحكمها حتميات اندفع العقائديون لإعلائها على الواقع الذي يحياه الناس. ومتى ما تعارض ذلك الواقع مع ما تقول به الحتميات – دينية كانت أو سياسية – سعى العقائديون إما إلى تطويع الواقع لها، أو تصويره تصويرًا كاريكاتيريًا. ولاشك في أن في محاولة تطويع الواقع لرؤى تتعارض معه جحودًا للحق. أما التصوير الكاريكاتيري للواقع فيمسخه مسخًا. بسبب من ذلك رفضت التعصب، ونأيت بنفسي عن أي أصولية فكرية تحتكر الحقيقة. فالتعصب في حقيقته عدوان مكبوت، أما الأصولية الفكرية فهي ترسيخ لطبائع الاستبداد

كما في الوهم باحتكار الحقيقة رهافة للحس النقدي. ديدني كان -وما زال- هو أن أي أفكار لا تتسق منطقيًا وتُثبت تجريبيًا هي أفكار بائرة بطبيعتها.

يوسف محمد علي: صديق لا يغيب عن الحافظة

لن يغيب عن حافظتي واحد من أصفيائي في المدرسة: يوسف محمد علي. توسم فيَّ يوسف خيرًا؛ فسعى لإلحاقي بالتنظيم السياسي الذي كان ينتمي إليه آنذاك (الحزب الشيوعي السوداني). لهذا السبب، دعاني يوسف مع طالب آخر (طه محمد طه) لاجتماع مسائي في فصلنا الدراسي (ليوناردو) للتشاور في موضوع جماعة طلابية وطنية. وبما إنني كنت من الواثقين بحكمة يوسف، جئت للاجتماع الذي قدم فيه لكلينا نسخة من كتيب عنوانه "الماركسية والحرب" كيما نقرؤه ونعود للنقاش حوله في الأسبوع التالي بعد قراءته. لم أنم تلك الليلة إلا بعد أن أكملت قراءة ذلك الكتيب الجاف، ثم قلت لنفسي ما شأن جمعية طلابية وطنية بذلك الكتيب الذي لا يُفيد ولا يُسلي. وعند لقائنا للمرة الثانية وجهت سؤالًا ليوسف بدلًا من تلخيص الكتاب الفج الذي كان يتوقع مني تلخيصه: سؤالي كان "لقد قلت إن الجماعة التي تريد منا الانضمام إليها هي جماعة طلابية وطنية، فما علاقة الطلاب بالماركسية، أو علاقة الوطن بالحرب، أو علاقة المدرسة بكليهما". كان ذلك آخر عهد لي بمثل تلك التنظيمات السرية أيًا كان مذهبها. تركني الإخوان يوسف وطه وشأني لأنهما لم يريا في هذا الطالب مجندًا مطواعًا، فالمجندون لمثل هذه المنظمات ينبغي عليهم أن لا يسألوا، بل عليهم ركوب سلَم الطريق لا يخطئونها حتى وإن كبت بمناخرهم على النار. ذلك الحدث لم يخدش علاقتي بيوسف رحيب العقل الذي ما مضت أعوام إلا ورفض هو نفسه الرسوف في أي قيد فكري أو تنظيمي. أما طه فقد ظل وفيًّا لأفكاره ورؤاه كما ظللت حريصًا على التواصل معه رغم أنه كان ينصح مشايعيه في مرحلة لاحقة بالابتعاد عني. تقديري لطه رغم الجفوة التي طرأت علي علاقتي معه هو الذي حملني على الاستعانة بطه لمعاونتي في إنشاء وزارة الشباب عندما وليت أمرها.

صلتي بيوسف كان لها بعد آخر هو مواصلة العلاقة بيننا وبين الناظر لانق حتى بعد اقتحامنا للحياة العامة. كنت أتبادل الرسائل مع الناظر لانق، يكتب إليّ متسائلًا عما أحرزت في حياتي العملية، وعن مواظبتي على القراءة، وماذا أقرأ، وعن سماع الموسيقى الكلاسيكية، وما الجديد الذي استمع إليه. وفي كل واحدة من رسائله كان يبلغني عن خطابات يوسف إليه وسعادته بقراءة تلك الرسائل. وعندما قرر نميري توجيه الدعوة لناظر حنتوب، لويس براون للمشاركة في حفل تنصيبه رئيسًا للجمهورية، طلبت منه أن يوجه الدعوة أيضًا للمستر لانق، فاستجاب نميري للطلب. وفد لانق إلى الخرطوم لحضور ذلك الحفل، وكان مَن أوائل من طلب مقابلتهم حمزة ميرغني ويوسف محمد علي؛ مما يدل على أنهما كانا من زمرة طلابه النجباء. ما تيسر لي أن أدعو يوسف للاحتفاء بلانق لأنه كان بعيدًا في الخليج، أما حمزة فقد أولم لناظره في داره بأم درمان، لكنه اعتذر عن حضور الحفل الذي أقامه نميري للوفود الزائرة، ومن بينهم الناظرين. من الأشياء التي استرعت انتباهي في حمزة وأبيه أنهما يكادان يكونان، مع قلة من العاملين في الحياة العامة أو في مجالات السياسة والإدارة، من أكثر الذين ظلوا ينأون بأنفسهم عن الأنظمة العسكرية نأي السليم من الأجرب، ولدرجة توحي بتصلب الرأي كما سنبين.

المتكاثرون بما ليس عندهم

فراقي مع يوسف محمد علي كان فراقًا فكريًا لم يطل، إلا إن ذلك لم يكن هو الحال مع آخرين من رفاقه كانوا يستخفون بغيرهم ويكاثرون بما ليس عندهم. فقد كان لي، مثلًا، موقف من أغلب إضرابات الطلاب عن الدراسة أو الطعام لا لسبب مبدئي وإنما لما تنم الدعوة للإضراب من احتقار للآخر. فقد شاركت، مثلًا، في بعض الإضرابات والمظاهرات ومنها تلك التي أوقد لهيبها ابن العم السفير سر الختم السنوسي وهو يعلن رفضه للعقل والمعقولية قائلًا: "**العاوز العقل والمعقولية يلقاها عند أرسطو**". وصف ذلك الإضراب صديقي إبراهيم الصلحي في سيرته الذاتية كما يلي: "أتذكر من قادتنا آنذاك سر الختم السنوسي

السفير لاحقًا بالخارجية، وكان خطيبًا مفوهًا يتحدث بمنطق ما كنا نفهم لغويًا مدلولاته، ولكنه كان يملؤنا حماسًا منقطع النظير" (قبضة من تراب: ص 190). السنوسي لم يكن أبدًا بالرجل المتطرف، ولكن ذكرني قوله ذلك بحديث للسير ونستون تشرشل جاء فيه: "مَن لا يتطرف حتى سن الخامسة والعشرين لا قلب له، والذي يتطرف بعدها لا عقل له". قد يقول قائل إنني كنت في شبابي صبيًّا بلا قلب وما كنت كذلك، فللتطرف حدود. مثلًا، قدرة الإنسان على احتمال أقصى درجات التناسب في كل شيء محدودة، فإن كان الإنسان قادرًا علي احتمال أقصى درجات البرودة، أي حدها الأعلى وهو تجمد الماء، فليس في مقدوره احتمال أقصى درجات الحرارة التي كشفها العلم وهي درجتها في سطح الشمس، التي تبلغ (6000) درجة مئوية.

مواقفي دومًا كانت تنطلق إما من إيماني بعدم جدوى الإضراب مثل الإضراب عن الطعام احتجاجًا على رداءته وما كان كذلك؛ أو الطريقة التي كانت تتم بها الإضرابات وكانت طريقة مهينة لكل مَن يحترم نفسه. موضوع إضرابات الطلاب عن الطعام لرداءته كان محل سؤال وَجَّهَهُ زين العابدين عبد التام لوزير المعارف عبد الرحمن علي طه في الجمعية التشريعية (السبت 8 أبريل 1950). قال الوزير ما يلي: "إن المظاهرات التي حدثت أخيرًا في وادي سيدنا لم تكن نتيجة مباشرة لسوء الطعام أو لاستخدام مدرسين غير أكفاء ولكنها كانت نتيجة لجو من عدم الاستقرار الذي كانت دلائله واضحة أثناء الفصل الدراسي، وآية ذلك الشائعات الخاطئة الخطيرة التي كانت تروجها فئة قليلة من الطلبة لتشجيع الفوضى وروح التمرد بين الآخرين، والنشرات التي كانت توزع بغير إمضاء، منتقدة قوانين المدرسة وحاثة الطلاب على مخالفتها". وحول الغذاء قال الوزير في رده: "إنه توجد لجنة خاصة بالطعام في وادي سيدنا، ويرأس تلك اللجنة أحد المدرسين الكبار، ومن أعضائها كبير ضباط المدرسة، وخمسة طلاب يمثلون داخليات المدرسة الخمس، تجتمع هذه اللجنة مرة في الأسبوع لتنظر في الاقتراحات التي يرفعها الطلبة عن الأكل وتعمل على تحسين الطعام في حدود الميزانية المقررة".

عن تلك الإضرابات المفتعلة بسبب رداءة الطعام روى الصلحي في مذكراته أنه عقب واحد من الإضرابات قامت إدارة المدرسة بدعوة آباء الطلاب للمشاركة في الحوار مع الأساتذة حول شكاوى الطلاب. وبعد تذوق أولياء الأمور للطعام قام أحد الآباء موجهًا الحديث لابنه: **"والله يا ولد انتو بقيتو بطرانين خلاس. حسع دي أمانه عليك يا ود الكلب أماتكم في البيوت بعرفن يسوَن جنس الأكل ده، تبيخ بي لحم وسمن ورغيف وسلطة وحلو كمان. أما عجيبة"** (قبضة من تراب: ص 190). هذه الإضرابات المفتعلة بلغت حدًّا تجاوز المنطق، فمثلًا، كان ما أشار إليه وزير المعارف في الجمعية التشريعية حول كفاءة المدرسين يتعلق بتكليف اثنين من خريجي وادي سيدنا نالا أعلى درجة في العلوم في امتحان الشهادة (نصر الدين أحمد محمود وأحمد عبد العزيز) للقيام بالتدريس في فصول المرحلة الأولى ريثما يحضر الأستاذ المصري المعين لهذا الغرض، وكان في مقدور المدرسة أن تترك تلاميذ هذه المرحلة بلا دراسة حتى يلحق الأستاذ المعين بالمدرسة.

لاشك في أن المراد من افتعال تلك الإضرابات كان هو إثارة الاضطراب في المدرسة حتى وإن ذهب ذلك إلى مس كرامة المعلمين. وفيما روى لي أحد طلاب مدرسة حنتوب قصة التظاهرة التي رتبها في تلك المدرسة مَن يرتبون التظاهرات ضد تعيين المستر وود سكرتيرًا أكاديميًّا لجامعة الخرطوم. لا شك لديّ في أن تلك التظاهرة كانت بإيعاز خارجي، فلو سألت أحد المتظاهرين في حنتوب عما هو السكرتير الأكاديمي في أيّ جامعة لحار في الجواب. وفي زمان آخر (وكان ذلك في جامعة الخرطوم بعد زماننا الزاهر) بلغ بطر الطلاب بالنعمة بإيحاء من المناضلين في الداخل والخارج لطلاب الجامعة، أو التزيد من جانب فريق على فريق آخر، بالإضراب عن الطعام عندما فرضت إدارة الجامعة الخدمة الذاتية في تناول الطعام، أي خدمة أنفسهم بأنفسهم، بدلًا من انتظار خدام المطعم لينقلوا الطعام إلى موائد الطلاب. وفي تقديري أن ما يزيد عن التسعين بالمائة من أولئك الطلاب الذين أبطرتهم النعمة كانوا يحملون صواني الطعام في منازلهم من المطبخ (أو التُكل) لا إلى مائدة، بل إلى حيث يتقرفص الكبار على الأرض قبل الصغار

لتناول الطعام. وبعد الفراغ من الأكل كان أولئك الطلاب أنفسهم يحملون بأياديهم الكريمة ما تبقى منه إلى من حيث أتى مطبخًا كان أم تُكلًا أم راكوبة. ما طالب به المبطورون هو أمر لا تعهده أغلب الجامعات في العالم، إذ إن في كل هذه الجامعات ما يُسَمَّى بمائدة الطعام الكبرى (refractory) التي يجلس عليها الطلاب بعد انتقائهم بأنفسهم لما يريدون أكله من بوفيه مفتوح ثم يحملونه بأنفسهم إلى المكان الذي ينبغي أن يجلسوا عليه. أو لا يحق على هؤلاء القول: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص 58]. هذا البطر كان يُعَدُّ جزءًا من النضال الطلابي الوطني ضد الاستعمار، أو هكذا كان يزينه ملقحو الفتن بين الطلاب.

الاستخفاف بعقول زملائهم

نجيء من بعد إلى الطريقة المهينة التي كانت تعلن بها الإضرابات لما فيها من استخفاف بعقول الطلاب من جانب الدعاة لتلك الإضرابات. فما إن تطفأ الأنوار في الداخلية إلا ويقف أمام باب العنبر شخص لا تستبين ملامحه ليعلن على ساكني العنبر: "بكره إضراب". على خلاف زملائي في العنبر كنت دومًا أصيح في زائر الليل الداعي للكفاح الوطني بالإضراب عن الطعام أو عن الدراسة والذي لا أستبين شكله ولا أعرف هويته: "مَن الذي قرر الإضراب؟ وأين ومتى اجتمع الطلاب؟" ولكن سرعان ما يختفي زائر الليل إلى حيث أتى. أولئك هم الذين كانوا يوزعون المنشورات التي لا توقيع عليها، وذلك أمر لا يقوم به إلا ملقح فتنة يتمنى ألا يصيبه شررها أو يدفع ثمنًا لها. وإن سأل سائل ما الذي كان يحملني على تلك المجابهة مع زائر الليل، أقول إنني لم أكن أحسب نفسي فارسًا غطريسًا يأنس في نفسه القدرة على الوقوف ضد تنظيم سياسي طلابي، وإنما كان احترامي لنفسي يحملني على ألّا أكون أداة طيعة لأحد. ولئن استقر في عقل التنظيم الذي ينتمي له المنادون بالإضراب أنهم التنظيم الطليعي والقاطرة التي تقود الوطن كله، وأن لذلك التنظيم طلائع بين الطلاب يقودونهم كما تقاد الإبل مساقًا واحدًا، كان رأيي دومًا هو أن تتخذ مثل هذه القرارات

الطلابية في العلانية وفي حوار مفتوح بينهم. فالحوار والإقناع هو السبيل الأمثل لاتخاذ القرارات بدلًا من الاحتيال والاستهبال. كثيرون كانوا يستجيبون لهذا النفير الليلي الأخرس لا إيمانًا بالدعوة وإنما لأسباب تعنيهم. من هؤلاء كان الموالي لأهل النفير، ومنهم مَن كان يرى في الغياب عن الدراسة استراحة محببة، كما منهم مَن لم يكن من هؤلاء أو أولئك، ولكن دفعته الخشية على نفسه من حملات التشهير بأوصاف ملهوجة مثل: التخاذل، فقدان الوطنية، أو العمالة للاستعمار. هذا أمر قد لا يعترف به كثيرون إلا مَن عصم ربي مثل الفنان إبراهيم الصلحي الذي أشار لتلك الظاهرة في مذكراته. منذ ذلك الزمان لم تكن لي حاجة في السعي للنجاة من تهم بواطل فإن كذبًا نجى فصدق أخلق.

تلك هي المرحلة التي قررت فيها الإمساك بالوعل من قرنيه، فأنشأت صحيفة حائطية تحت اسم "هذيان" بالرغم من أني كنت مديرًا لتحرير مجلة وادي سيدنا المطبوعة وكاتبًا راتبًا فيها، وكما سلف الذكر كان رئيس تحرير تلك المجلة الطالب عبد العزيز الزين صغيرون، في حين كان المشرف عليها من هيئة التدريس أستاذ الرياضيات ميرغني حمزة، وحتى لا تختلط على الناس الأمور، فميرغني حمزة الأستاذ هو أخ لأستاذنا الكبير النصري حمزة وليس ميرغني حمزة الوزير المهندس. وكان من المساهمين الراتبين في الجريدة الحائطية جعفر محمد علي بخيت والفنان إبراهيم الصلحي الذي كان يتولى خط بعض ما نريد إبرازه أو تزيينه ببعض رسوماته. في تلك الصحيفة ظللنا نتداول الكتابة حول القضايا الوطنية العامة، خاصة فيما يتعلق بالحكم الذاتي الذي طغى الحديث عنه يوم ذاك على كل حديث آخر. أذكر في هذا المقام المقال الضافي الذي كتبه جعفر بخيت عن مشروع المجلس التشريعي ونشرته "هذيان". في ذلك المقال كشف جعفر عن عيوب المشروع دون أن يشير إلى مزية واحدة فيه، إذ لم تكن له في تقدير جعفر أي مزايا. وحسنًا فعل الطالب جعفر، إذ لم تحمله الغلواء غير المنطقية التي حملت أهل السياسة على القول: "لن ندخلها وإن جاءت مبرأة من كل عيب"، ففي ذلك الرأي عوار في المنطق. ذهبنا أيضًا إلى أن نجعل من "هذيان" منبرًا يطل منه كبار

الكتاب في ذلك الزمان على الطلاب، ومن أولئك الأستاذ الكبير عثمان أحمد عمر (عفان). وكان وقتها يصدر صحيفة أسبوعية باسم الشباب. وقد كرم عفان صحيفتي الحائطية بالإسهام بمقال رفيع نشرناه على حلقات تحت عنوان "رسالة للشباب"، وكان المقال درسًا في الوطنية وفي تهذيب النفوس.

بين القراءة والدافوري

كل هذه المناشط لم تحُل بيني وبين هوايتي المفضلة من بين كل الهوايات ألا وهي القراءة. ومما يَسَّر عليَّ المهمة وجود رجال ونساء في الأسرة التي نشأت فيها من القارئين للكتب والصحف، كما منهم مَن اقتني المكتبات. لهذا صرفني ولهي بالاطلاع على الكتب والمجلات عن الاهتمام بما كان لداتي من أبناء الأسرة يكرسون جُل وقتهم فيه: لعب الدافوري في شارع ود عبد الماجد، بل في باحة مسجده في بعض الأوقات. لا أدري ما مصدر كلمة دافوري وإن كان المصدر هو كلمة دفر دفرًا فيا لتلك من رياضة. الدفر في اللغة يعني دفع الآخر من قفاه أو صدره. لهذا كنت، على خلاف ما يصنع مجايلي من أبناء الأسرة، أتلصص على مكتبة الخال مصطفى الصاوي، ومنها قرأت دواوين العقاد الأولى: الديوان، هدية الكروان، أعاصير مغرب، كما توسعت في قراءة كتب طه حسين. فبعد (الأيام) التي هداني إليها الأستاذ بشير محمد سعيد في المدرسة، قرأت على هامش السيرة واستوقفني فيها ما حفظت، ولاأزال أردد من الباب التاسع في الجزء الأول من الكتاب: "أقبلن مع ضوء النهار يسعين سعيَ النسيم يسبقهنَّ عَرفُ المسك ونَثر القرنفل، ويحملن من نَدي الأزهار وشهي الثمار، ومن رَطِب الأغصان وجني الريحان، ما يُصَوّر الطبيعة، وقد أيقظها بردُ السحر ومَسُّ النَدَي وغناءُ الطير، فجرت فيها رعدة الحياة، ثم استقبلت ضوء الصبح باسمةً له مُقدمة عليه، ثم منغمسة فيه تُريد أن تَعبُر ما بين ساحليه من مطلع الشمس إلى مغيبها. وَكُنَّ قاصرات الطرْف فاترات اللحظ ساحرات العيون، وكنّ واضحات الجباه قاتمات الشعور، وكنّ مشرقات الوجوه باسمات الثغور، وكنّ أسيلات الخدود جميلات القدود نحيلات الخصور، وكنّ عذابَ الأصوات ملاحِ الألفاظ فاتنات

الألحان، وكنّ يتغنين في يونانيتهنَّ الحلوة أغنية الصباح، تلك التي تعوّدنَ أن يحملنَ بها تحية النهار إلى سيدهن الشاب الفتى المترف كيمون بن أركيتاس".

بعيدًا عن روعة التعبير فيما كتب العميد، وحُسن انتقاء اللفظ وانسياب الكلام فيما روى، فإن كتاب "على هامش السيرة" هو واحد من ثلاثة كتب تعرَّض العميد بسببها إلى الاتهام بالخروج عن الملة، وليس فقط بالاستغراب، أي بصيرورته غربي الهوى. ففي كتاب مستقبل الثقافة لمصر كان لعميد الأدب العربي قول صادم للبعض هو: "إن عقلية مصر عقلية يونانية، وأنه لابد لمصر من العودة لاحتضان فلسفة يونان". الذين لا يملكون القدرة على المحاجة جهلوا أن في ذلك القول رأيًا يؤكده التاريخ إذ لم تكن للعرب فلسفة قبل أن ينقل المشارقة من آباء عهد التنوير الإسلامي في الدولة العباسية (ابن سينا والكندي والفارابي مثلًا) فلسفة اليونان، كما فعل من بعد المغاربة (ابن رشد وابن طفيل). الكتاب الثاني هو "في الشعر الجاهلي" الذي صدر ثم أعيد نشره بعد إضافات وشروح تزيل غموض بعض ما ورد فيه مما لم يكن غامضًا، وإنما نظر إليه ناقدوه بعين مغمضة، ولاسيما أن كان أكثر ما أخذ على الكتاب هو إضاعته على المسلمين فرصة تنزيه القرآن ورميه بما رماه به المشركون وحَرَمه الصحابة. أما الكتاب الثالث: "على هامش السيرة" فقد وسم بمحاولة شحن السيرة النبوية بأساطير وثنية يغلب عليها الخيال، وفي ذلك انتقاص من قدسية تلك السيرة دون وعي بأنه في اللحظة التي يُضفي فيها أيّ مؤرخ قدسية على التاريخ يفتقد ذلك التاريخ موضوعيته.

إلى جانب التلصص على مكتبة مصطفى الصاوي كان بعض سيدات الأسرة والأخوال الآخرين والأعمام يشجعونني على القراءة بإمدادي بالصحف الاجتماعية والأدبية في ذلك الزمان: الرسالة لأحمد حسن الزيات والثقافة لأحمد أمين، وعلى رأس السيدات كانت زينب إمبابي، قرينة الخال مصطفى الصاوي والتي كانت تدمن القراءة، ولا عجب فهي معلمة لغة عربية. كانت زينب تبعث بي إلى مكتبة حليم عطا الله بالمحطة الوسطى بأم درمان للحصول على مجلة اللطائف المصورة التي كانت تصدر، فيما أذكر، من دار الهلال على أن أحمل معها قراطيس من التسالي، وكنا نسميه في ذلك الزمن الجُرم. كما كان من الأخوال

والأعمام عصبة من القارئين رأت في ولعي بالقراءة خصلة حميدة يجدر بهم تشجيعها. من أولئك كان العمان عليش وعلي محمد عبد الماجد وابن العم بدوي سليمان محمد عبد الماجد والخال محمد أحمد الصاوي (وداعة). فحين كان العمان علي وعليش وابن العم بدوي يمدوني بالصحف الأدبية الشهرية (مجلة الهلال)، والأسبوعية (الرسالة والثقافة) كان الخال وداعة يحمل إليّ مساء كل اثنين أو خميس مجلتين: المصور والاثنين. ورغم أن حظ الخال وداعة من التعليم النظامي كان قليلًا فإنه كان محبًّا للقراءة ومولهًا بالكتاب وضنينًا به. فعلى سبيل المثال، وفد إلى داره المعلم الباحث عثمان حسن أحمد، وكان الخال يستأنس كثيرًا بصحبته. وكان أول ما مد عثمان يده إليه نسخة من الطبعة الأولى لديوان الشيخ عبد الله محمد عمر البنا التي نفدت من الأسواق، وكان ذلك قبل أن تمتد يد البحر المدقق علي الملك لإعادة الحياة للديوان من جديد. طلب عثمان من الخال أن يعيره الكتاب فرد عليه "أعمل إيه لو ضاع؟". سأله عثمان "وماذا سيحدث؟، " فرد الخال " **لو ضاع الكتاب إيه سيبقى لي لأورثه لأولادي**". أو رأيت ما عنيت بأن الخال كان ميلاهًا بالكتاب يحن إليه إن فقده وَيَعُدُّه ثروة يورثها الآباء للأبناء.

ومما لا يعرفه الكثيرون في الأسرة أن وداعة كان شاعرًا مجيدًا وإن قل شعره، أو لعل له ما حفظه أبناؤه. ومن قصائده التي أمدني بها الخال أمير الصاوي قصيدة نظمها وداعة بمناسبة العيد الهجري في عام (1361) الموافق لعام (1942 ميلادية) للمشاركة في ذلك الندي تجمع شيوخ الأسرة في كرمة بن هانئ لسماع تلك القصيدة: والشيخ الدباغ، والشيخ خليل، والشيخ محمد العوض، الشيخ محمد العبيد وجميع أنجال الشيخين الصاوي والشنقيطي إلى جانب الأهل من رفاعة (محمد عبد اللطيف والفضل محمد نور) ومن شندي (الشيخ يوسف جامد) كما حضر الندي جميع شبان الأسرة وعلى رأسهم علي محمد عبد الماجد (سكرتير لجنة التعاون العائلي) ورئيسها (أمير الصاوي) إلى جانب أمين الصاوي وحسن الصاوي والدرديري الصاوي وأحيد سليمان ونافع فضل المولى ودراج جوهر والطيب حمدنا الله. اصطحب أمير الصاوي لذلك الندي أيضًا أستاذ

الشريعة المصري محمد محيي الدين برفقة أستاذ اللغة العربية (أحمد بلطا) في المدارس العليا، إذْ كان أمير يتلقى الدرس.

تقول القصيدة التي قام بإلقائها على ذلك الجمع شقيق وداعة الأصغر أمير الصاوي:

عام سعيد بالمسرة قد بدا ... ولذا نرى كل الظلام تبددا

جمع الأحبة في لقاء نضرة ... في "كرمة" فيها المكارم والندا

قد سرني يا قوم يوم رأيتكم ... فردًا يجاهد والجميع له يدا

آباؤكم نشروا الفضيلة في الورى ... فقهًا وتوحيدًا وعلمًا راشدا

هم أوقدوا نار التلاوة والقرى ... عاشوا كرامًا ثم طابوا مرقدا

غرسوا التكاتف والتراحم بينكم ... وبنوا لكم مجدًا واسمًا خالدا

جمعوا عشيرتهم وصانوا عرضهم ... حتى علوا أرقى المراتب سؤددا

تركوا لكم إرثًا عظيمًا وارفًا ... تسمو به دهرًا واسمًا ماجدا

كرمة بن هاني هي حديقة صغيرة في منزل الشيخ الفاتح الصاوي، ولعله أخذ الاسم عن القصر الذي أنشأه أحمد شوقي في الجيزة بعد عودته من المنفى، وأقام فيه حديقة سمّاها كرمة ابن هانئ. لم يَعنِ شوقي بابن هانئ، كما يظن البعض، ابن هانئ الأندلسي بل الحسنِ بن هانئ (أبو نواس) الذي كان شوقي مفتونًا بشعره. ورغم أن وداعة قد استفرغ جهده في إنشاء تلك المنظومة إلا إن أحد أشياخ الأسرة (الشيخ خليل) اعترض على قوله: "فردًا يجاهد والجميع له يدا" لأن الصحيح هو "يدٌ" إلا إن الشيخ محمد العبيد تصدى للناقد بقوله "هذا خطأ تجيزه القافية".

البراميل الفارغة

لِدَاتي كانوا يكرهون فيّ انشغالي بما ليس من اهتماماتهم مثل الدافوري، وكانوا يحسبون ذلك "قرضمة". لهذا ظللت أقول لهم باللغة الانجليزية كلما تصدوا لي في

الطريق، ربما تباهيًا بإلمامي بها: "أنتم براميل فارغـة" (You are empty barrels).
الوَلع بالرياضة، خاصة كرة القدم، كان داء ألم بالصغار ولم ينجُ منه الكبـار. فقـد شهدت بين الأعمام وأبناء العمومة من لا يفرغ من غدائه يوم الجمعة حتى يهرول إلى دار الرياضة في أم درمان لمشاهدة مباريات كرة القدم، خاصة إن كانـت تـدور بين الهلال والمريخ، ثم يعودون يتجـادلون: مَـن أحـسن ومَـن أسـاء في اللعـب، وكيف أضاع هذا اللاعب أو ذاك فرص فريقه في الانتصار. وفي أخريـات الأيـام شاء الحظ السعيد أن ألتقي برجل قرأت عنه دون أن ألتقيه هو الشيخ الهدية. كان اللقاء في نيفاشا حين حضر الشيخ من بـين وفـد مـن "رجـال الـدين" للاجـتماع بطرفي المحادثات. وحال وصوله بعث إليّ الشيخ الهدية مَن يدعوني للقائه. ذهبت مع الأخ ياسر عرمان إلى لقاء ذلك الرجل السمح لا ألوي على شيء غـير رغبتـي في التعرف عليه. قابلني الرجل ببشاشة وبادر بـالقول: "ربـما أنـت لا تعرفنـي". قلت له "نعم أنا لا أعرفك، ولكني أعرف عنك الكثير". لم يدع لي الشيخ الهديـة وقتًا لأزيد، بل قال: "أنا قرأت كل ما كتبت، أعجبني أسلوبك ولكني لا أتفق مع أكثر ما كتبت". أسعدني أن الرجل لم يكن من الذين درجوا على القول "الكتـاب يعرف من عنوانه"؛ أو الذين لا يرون خيرًا في كاتب خـالفهم الـرأي. ثـم مـضى لينبئني بما لم أكن أعرف، قال: "أنا تتلمذت على يد عمك الشيخ خليل، وكان أعز أصدقائي عمك عبد الله محمد عبد الماجد. كنا نلتقي كل يوم مـن أيـام العمـل في المحطة الوسطى بأم درمان (محطة الترام) لنستقل الترام معًا إلى المحطـة الوسـطى بالخرطوم، ثم نذهب سيرًا على الأقدام إلى مكان عملنا في البوسـتة. وكنـا نتـآنس طوال الأسبوع إلا يوم السبت حين كنا نتجـادل جـدلًا يلفـت أنظـار كـل مَـن حولنا". قلت للشيخ: "ولماذا يوم السبت؟" قال الشيخ: "**أنت مـا عـارف، يـوم السبت ده ما اليوم البعد جمعة دار الرياضة، لقد كنت هلاليًّا وكان عمك مريخيًّا**".
هذه الظاهرة تشبه ما يطلقه الأمريكيون على هواة كرة القدم الذين يستمر جدالهم حول المباريات الكروية حتى يوم الاثنـين، ويطلقـون عـلى الواحـد مـنهم ظهـير الاثنين الربعي (Monday quarter back)، وهو الظهير الـذي يتخـذ موقعـه في

الجزء الخلفي من الملعب. قلت لنفسي بعد سماعي للشيخ الهدية: "لعلني قد حرمت نفسي من متعة استذاقها حتى الأشياخ".

على أن لداتي من شباب الأسرة لم يكونوا جميعًا براميل فارغة، فقد توشجت علائقي مع بعضهم وأنا في أم درمان، ومع بعض آخر حين ارتحلت إلى الخرطوم، وكان ذلك إما لتوافق في المزاج أو لتقارب في الاهتمامات. من أولئك أذكر ابن العمة أحمد محمد العوض الذي كان مولعًا، هو الآخر، بالقراءة إلا إن قراءته كانت ذات طابع غريب. كان أحمد وفدي الهوى، وكان أكثر من حبب الوفد إليه سكرتيره العام مكرم عبيد الذي عُرف ببلاغته. لم يكن أحمد يطلع على خطاب لمكرم إلا وسعى لاقتنائه ثم أمدّني به. وعند انسلاخ مكرم عن حزب الوفد وإنشائه لحزب الكتلة الوفدية أصبحت الصحيفة التي يثابر أحمد على قراءتها هي جريدة الكتلة. ومن أبناء العم القارئين عبد العال سليمان الذي كان يحدثني، فيما يحدث، عن قراءاته في الأدب ثم افترق بنا الدرب بعد هجرتي الأولى للولايات المتحدة. كم كنت سعيدًا بلقائه بعد طول غياب في وزارة المالية السعودية حين تسعود وصار سكرتيرًا خاصًا للشيخ «محمد أبا الخيل» وزير المالية السعودي الذي أثنى ثناءً عطرًا على أمانته كنت به فخورًا جدًا. أخ ثالث سلك طريقًا مختلفًا هو ابن العم محمد موسى الذي سَخَّر جل وقت فراغه للاستماع للموسيقى السودانية واقتناء ذخائرها. تلك هوية لم تعرف طريقها إلى أبناء جيله من الأسرة، وإن كان بينهم مَن أحب الموسيقى، فإن أولئك حرصوا حياءً على عدم البوح بحبهم لها. الأخوان الآخران اللذان أصبحا من أكثر الأهل قربى مني عندما ارتحلت إلى الخرطوم هما ابن العم عبد السلام يوسف حامد وصديقه ابن الخال عبد الرحمن وداعة الصاوي. وكان مما يقرب بيني وبين هذين الأخوين عدم انشغالهما - خارج إطار ما يعملان - بما ينشغل به أغلب أبناء جيلهم: السياسة والرياضة ومتابعة ما تنشره الصحف، وأهم من ذلك الابتعاد عن نبش سير الآخرين، فحياتهما كانت مليئة بألوان اللهو البريء وغير البريء التي اختاراها لنفسيهما فأغنتهما عن سير الآخرين.

الفصل

الخامس

5

الفترة الجامعية

البدايات

التعليم الجامعي، الذي يُطلق عليه طورًا مرحلة ما بعد الثانوي (post secondary)، وطورًا آخر المستوى الثالث للتعليم (tertiary education)، هو المرحلة التي لا يَقتصر التعليم فيها على تلقي المعارف فحسب، بل يشمل أيضًا الدراسات والبحوث التطبيقية. هو أيضًا فترة تربوية تصقل فيها المواهب، ويزداد فيها نضوج العقل، وتتلاقح فيها الأفكار. ولئن كان الكاتب من المحظوظين الذين أتيحت لهم فرص التعليم الثانوي في مدرسة وفرت للطالب كل ما يحتاجه لتنمية عقله وجسمه وروحه، فقد كانت الجامعة التي التحق بها الكاتب في عهد الاستعمار "البغيض"- وظلت لفترة محدودة فيما تبعته من عهود "بائدة"- أكثر سخاء فيما وفرته للتعليم الثورة التعليمية في "عهد المشروع الحضاري". ففي العهدين "البغيض" و"البائد" وفرت الجامعة للغالبية العظمى من الطلاب تعليمًا مجانيًا، وسكنًا مجانيًا، وطعامًا مجانيًا، وعلاجًا مجانيًا، وغسيلًا مجانيًا للملابس، كما وفرت السفر المجاني ذهابًا وإيابًا للغالبية العظمى من الطلاب القادمين من المناطق البعيدة.

قضيت العام الدراسي الأول في كلية الآداب ريثما يتاح لي الالتحاق في العام الذي يليه بكلية الحقوق (أضحى اسمها اليوم كلية القانون) إذ كان القبول في تلك الكلية لا يتم كل عام. وعلى كلٍّ لم يضع ذلك العام سدى بل كان من أثرى الأعوام التي قضيتها في الجامعة وكانت الفترة مثرية بفضل ما اكتسبت فيها من معارف في مجالات عديدة على أيدي أساتيذ مهرة: الأستاذان ج. ن ساندرسون ومكي شبيكة في علم التاريخ وقد التحق بهما الأستاذ جمال محمد أحمد الذي كان يضفي على محاضراته تلميحات تشد المستمع إليه وترغبه فيما يقول، والأساتذة عبد المجيد عابدين ومحمد عبد العزيز إسحاق وإحسان عباس في اللغة العربية والمستر هارت والدكتور كولمر في اللغة الانجليزية. إضافة إلى ذلك وفرت الجامعة مكتبة ثرية قوامها مكتبة السكرتير الإداري دوقلاس نيوبولد؛ ولذلك سُمّيت باسمه. وكان الأساتذة في جميع هذه المجالات يحثون الطلاب على عدم الاكتفاء بقراءة الكتب المدرسية المقررة، بل إلحاقها بقراءات إضافية من مكتبة الجامعة أو أيّ مكتبة أخرى يتاح للطالب الوصول إليها. حمدًا لله إنني لم أعش في زمان انقطعت فيه صلة الطالب بالكتاب، بل صار سبيله الوحيد للمعرفة هو قراءة صحائف (sheets) يدوِّن فيها الأستاذ ما يحسب أنه ضروري كيما يجتاز الطالب

الامتحان، وكأن الامتحان أصبح غاية في ذاته. تلك الصحائف أصبحت تعرف بـ«الشيتات» ولعل ذلك جمع تكسير لكلمة "شيت" علمًا بأن الشيت في اللغة العربية هو نسيج خفيف من القطن؛ مما يدل على أن الطلاب لم يكتفوا في عبثهم اللغوي بتشويه لغة غيرهم، بل شوهوا أيضًا لغتهم. المسؤولية عن هذا التردي في التعليم ووسائطه لا يحتملها، بدون شك، الطلاب بل البيئة السياسية التي أوجدته، والتي كاد أن يصبح فيها إتقان اللغة الانجليزية ضربًا من الخيانة الوطنية، أما إتقان لغتهم الأم فقد أضحى غير ذي موضوع.

في هذه المرحلة توثقت علاقتي بأغلب الصحاب الذين انتقلوا من مدرسة وادي سيدنا إلى الجامعة: عبد العزيز صغيرون، عبد الرحمن عبد الله، فاروق فضل، سيد أحمد عبد الله، عبد الرحيم موسى، عبد الحليم الطاهر، صلاح شبيكة، نصر الدين أحمد محمود، زكي سر الختم، أحمد عبد العزيز، مأمون داؤود، جعفر بخيت، الأخوان الشوش (مجذوب ومحمد)، سليمان طه أيوب، كما نشأت علاقات جديدة بيني وبين من وفدوا إلى الجامعة من حنتوب وارتاحت إليهم نفسي: أحمد عبد الرازق علي طه وعبد العزيز النصري حمزة (كان كلاهما زميلين لي بالمدرسة الابتدائية بأم درمان)، خلف الله الرشيد، عبد العزيز شدو، عثمان أبو كشوه، عثمان محمد الحسن، الرشيد عثمان خالد، أبوبكر عثمان محمد صالح، دفع الله الرضي، عبد الوهاب موسى. ومن خور طقت: عبد السلام صالح عيسى، عبد الله هداية الله، صديق أحمد إسماعيل، ومن بخت الرضا محمد خير عثمان.

التخليط الأيديولوجي والعَوة السياسية

أغلب هؤلاء – إن لم يكن كلهم – من الذين آثروا الاستقلال عن التمذهب السياسي أو بالأحرى الأيديولوجي. الأيديولوجية في أصلها اليوناني هي علم الخطاب (Logos)، وبمعناها السياسي السائد راهنًا هي النظرية التي تشكل الأفكار بالصورة التي تجعل منها أداة لحل القضايا السياسية والاجتماعية

والثقافية. وبهذا الفهم فإن نجاح أيّ أيديولوجية يعتمد على فاعليتها في تصوير الواقع الاجتماعي والإحاطة بحقيقة مشاكله والحلول الواقعية لتلك المشاكل.

تلك الأيديولوجيات تحولت إلى عقائد ترتكز على حتميات صمدية تُلغي الاختيار الحر للإنسان ولا تُقضى حاجة بدونها عند معتنقيها. كان ذلك هو حال الشيوعيين، من جانب، ومن الجانب الآخر طائفة الإسلاميين التي كانت في حالة كمون في عهدنا بالمدارس الثانوية، ولكن ما أن أخرجت براعيمها حتى اتخذت لها هدفًا واحدًا هو إحياء الدين. ومتى ما تحولت السياسة إلى عقيدة يصبح نقدها بالضرورة خيانة أو هرطقة. فعلى المستوى الفكري العالمي، مثلًا، برز في فرنسا تعبير خيانة المثقف، وكان على رأس من ابتدع هذا التعبير جان بول سارتر الذي أطلق النعت على المثقفين والكتّاب الذين شغلوا أنفسهم بهواجس روحية بدلًا من الاهتمام بمشاكل الإنسان الراهنة. هذه النظرة التي أضافت بعدًا قيميًّا أخلاقيًّا على الفكر أثبتت هشاشتها مواقف سارتر نفسه اللاحقة عند نبذه للفكر السياسي اليساري الذي دعا له والتزم به. وفيما بعد، حملته الستالينية، إلى جانب بعض عمالقة الفكر الغربي في تلك الفترة مثل الشاعر ستيفن سبندر وآرثر كوستلر على نبذ الفكرة وتسميتها "الاشتراكية الوافدة من الصيقع".

وإن كان للتكفير الفكري سوابق في فقه السياسة المدنية الغربية، فلا عجب إن لجأ الإسلاميون إلى تكفير خصومهم؛ لأن النظير المساوي للمؤمن في الدين هو الكافر. على أن المكفراتية الإسلاميين لا يدركون أن الخلاف في الفكر، حتى وإن كان الفكر مستمدًّا من الدين، يجب أن لا يرقى إلى الكفر. إحياء الدين أمر محمود لو كان بين دعاته ومناظريهم وفاق على ما الذي ينبغي إحياؤه في ذلك الدين حتى يرتب به الناس أمور دنياهم. فمسلمو السودان ما زالوا يقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة ويحجون إلى بيت الله من بينهم من استطاع (أو لم يستطع) للحج سبيلًا؛ مما يكشف عن أن أداء الشعائر الدينية أضحى تباهيًا اجتماعيًا. مسلمو السودان أيضًا ما انفكوا يلتفون حول أشياخهم طواعية دون إغراء أو تحريض. فما هي رسالة الإحياء، إذن، طالما كان الإسلام بخير كدينةٍ في ربوع السودان إن لم

تكن إحياءً حضاريًا. ولا يكون الإحياء الحضاري للإسلام بإعادة إنتاج الإسلام التاريخي وإنما باستلهام قيم الدين ومقاصده في تدبير أمور الناس في الحياة الدنيا التي يعيشون اليوم. كما أن الالتزام بالفروض والتكليفات الدينية لا يحقق وحده إحياءً حضاريًّا إسلاميًّا، وإنما تحقق الإحياء النقلة الحضارية الإسلامية ونجاحها، إن لم يكن تفوقها، في كل مجالات الحياة: الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والعمرانية. الغلو المفرط في الفكر السياسي جعلني أدرك ما حمل نابليون بونابرت على صك تعبير "أيديولوجي" " Ideologue" الذي عني به المثقف الذي يشغل نفسه بقضايا لا تفيد الناس.

رغم ذلك لم تنصرم علاقتي بالعقائديين، فالعلاقة بلا هوى لا تنصرم لاختلاف الرأي. لهذا لم أكِن عداءً لأيٍّ من الفريقين، بل كان لي بين ظهرانيهم أصدقاء. ولكني لم أحس لحظة واحدة بأن الصراع السياسي في الجامعة كان صراعًا طلابيًّا فكريًّا جادًّا، فلو كان كذلك لكنت أسعد الناس به. ذلك الصراع كان امتدادًا لصراع حزبي خارجي ليس للطلاب المتمذهبين فيه أكثر من أجر المناولة. سعى هؤلاء وأولئك إلى استدراجي إلى جانبهم؛ مما زاد من نفوري منهما إذ كان كلاهما يحسبني من الرصيد الاحتياطي لجماعته على اليمين واليسار. ذلك موقف لا يكشف فقط عن خيلاء فكرية غريبة، بل أيضًا عن جهل كامل بالجغرافيا. ففي افتراضك أن شخصًا ما هو إلا رصيد لك يمكن استغلاله متى أردت وكيف شئت، خيلاء لا يقدم عليها عاقل. أما الجهل بالجغرافيا فليس أدل عليه من الجهل بأن بين القطبين الشمالي والجنوبي خط استواء، ومن خط الاستواء ذلك كنت أتمنى إثراء الجدل والحوار بين الجانبين وبينهما والآخرين. وفي كل ما كتبت كانت غايتي الوحيدة من الكتابة هي إذكاء الحوار، وليس صياغة الفصل الأخير من تاريخ السودان، فذلك ما لا يسعى له رشيد. وكما سلف القول: الحوار أخذ ورد، وسؤال توجهه وجواب تترجاه، ورأي تطرحه وآخر تستدعيه. بهذا الروح لم أكن قط أنظر للأمور نظرة عجلى، بل نظرة ذات تحديق؛ لأن الذي يرى الأشياء ببصره دون بصيرته، أي فطنته، لا يرى إلا صورة مهزوزة. هذا

الهدف لا يحتاج تحقيقه إلى خبير بغوامض الأمور، بل ينبغي أن يكون منهج كل عاقل مدرك.

ثلة من الذين لم يرُقْ لهم بروز شخص لا يرى ما يرون، بل يسعى للكشف عن خطلهم الفكري، قابلتني بالكيد، والكيد هو إرادة الأذى للآخر دون خفية. مع ذلك لم أقابل كيدهم بكيد وأقول: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ بل مضيت في المزيد من التعرية الفكرية للمتمذهبين ولاسيما أن أكبر نقاط الضعف عند هؤلاء هي استمساكهم بمسلمات حفظوها دون دراية بالبيئة التي نشأت فيها تلك المسلمات، ودون اعتبار للواقع الذي يعيشون على مستوى الوطن ويشهدون علي مستوى العالم. ذلك الاستمساك بالمواقف الخاطئة أحالهم، في تقديري، إلى طائفة من العنادية، والعنادية جماعة من السوفسطائيين الذين ينكرون حقائق الأشياء ويحسبونها خيالًا باطلًا يحملهم دومًا علي الطلوع على الناس بما يكرهون.لذلك ظللت ثابتًا على موقفي حتى أدرك غايتي. وكان ذلك الثبات على المواقف -وما زال- هو نتاج لخَصلة أعتز بها هي التصالح مع النفس. فالتصالح مع النفس يكسب صاحبه يقينًا فيما يعتقد، وجرأة فيما يقول، وطمأنينة فيما يفعل. وكما أشرنا في استهلال هذا الكتاب أن أغلب الأخطاء التي يرتكبها البشر تعود إلى ازورارهم، إن لم يكن عجزهم، عن مواجهة النفس.

إزاء هذه العَوَّة (الجَلَبة) السياسية انصرفت للنشاط في ثلاثة مجالات: الأول هو المجال الفكري بالكتابة. والثاني هو المجال التنظيمي لحشد الطلاب الرافضين لهيمنة الطرفين. والثالث هو العمل الاجتماعي. ففي الحالة الأولى درجت منذ المرحلة الثانوية أُوالي الكتابة المطبوعة (مجلة وادي سيدنا)، وكان أول ما كتبت في ذلك الإصدار مقالًا عن شعر التجاني يوسف بشير حظي بتقدير من الأساتذة والطلاب. أما في الصحافة الحائطية فقد أصدرت، كما سلف الذكر، صحيفة سميتها (هذيان) لأسجل فيها كما يسجل الزملاء الذين يشاركونني الرأي ما يَعِن لنا كتابته في الأدب والسياسة. على الطريق نفسه مضيت في الجامعة إذ بادرت بالكتابة في مجلة الكلية، وهي المجلة التي كانت تصدرها كلية الخرطوم الجامعية.

وكان أول مقال نشرته لي تلك المجلة بعنوان "عقيدتان ومجتمعان". المقال، كما ينم عنه عنوانه، كان مقارنة بين العقيدة الإسلامية والعقيدة الماركسية. ومن الواضح أنني، منذ ذلك التاريخ، كنت لا أتناول موضوع الماركسية كنظرية فقط، بل أحللها أيضًا كما أخذ معتنقوها يتعاملون معها كعقيدة فيها المحُرَّم وغير المحُرَّم. فمثل كل العقائد الدينية أصبح للماركسية من الناحية الميثولوجية، كتاب ورسول لا ينطق عن الهوى وشيطان ويوم قيامة ثم جنة خلد. فكتابها هو "رأس المال"، ورسولها الذي لا ينطق عن الهوى هو ماركس، وشيطانها الذي تعزي له كل الآثام هو الرأسمالية، ويوم قيامتها هو يوم الثورة الكبرى التي تطيح بالشيطان الأكبر (رأس المال) ويتحول فيه المجتمع إلى جنة خالد نعيمها هي المجتمع اللاطبقي الذي يعيش فيه الناس في سلام دائم، ويؤخذ فيه من كل حسب طاقته ويعطى لكل حسب حاجته.

من جانب آخر، قررت مع صديقي عبد العزيز شدو إنشاء صحيفة لم ترَ النور، إذ كنت أريدها صحيفة فكرية جادة، وأرادها شدو صحيفة ساخرة. شدو كان صديقًا حبيبًا لنفسي منذ كان فتى غض الإهاب، واستمر الود بيننا حتى بعد أن تراكم شحمه وارتضى لنفسه التجنيد السياسي الإجباري في عهد الإنقاذ. وَلَعُ شدو بالسخرية من الآخرين حمله على إصدار جريدة حائطية ساخرة مع شيخ المسرحيين حمدنا الله عبد القادر سمياها "الصاروخ"، في حين أصدرت أخرى سميتها "المقص". وبما أن الصاروخ قذيفة نارية لا يريد بها مطلقها إلا أذى الآخر لا حواره، جعلت لجريدتي الحائطية "المقص" شعارًا هو "الناس يقولون، دعهم يقولون، ماذا يقولون" (People say, what they say, let them say). هذا الشعار ذكرني به فاروق محمد إبراهيم، وكان على عهد الطلب في الشط الآخر من نهر السياسة. ففي الفترة التي التقينا فيها بالقاهرة عقب انقلاب الإنقاذ لمس فاروق عند قراءته أجزاءً من مواد كتاب كنت أعده للنشر عنافة لا تتفق مع شعاري الأول. وكان من الأحرى بفاروق -سيد العارفين- أن يدرك أن ذلك كان زمانًا وهذا زمان. ولا أجد في وصف هذا الزمان الوغد أبلغ من رسالة بعث

بها عثمان حسن أحمد إلى صديقه علي الملك قال فيها: "لا أزال مصابًا بالداء العضال الذي تعرف: متابعة كتابات أهل السودان في صحفهم ومجلاتهم وكتبهم. يدهشني في هذا السيل العرم من الكتابات أن بعض الكتاب لا يكف عن تسويد الصحف دون أن يقول شيئًا ذا بال، وآخرون يكتبون في كل شيء وبثقة يحسدون عليها. أوشكت أن أقاطع الصحف لولا بعض الأقلام التي لا تشيخ ولا تذبل والتي يتحين المسؤولون عن التحرير في الصحف الفرص للسماح لهم أحيانًا كجرعات مضادة لداء السعر الكتابي:"(أفكر جادًا في تكوين جمعية الرفق بالقراء)". لا حول لي بعد ما كتب عثمان إلا أن أقول لصديقي فاروق: "أنا إذن لفي ضلال وسُعُر" أن أصبحت الكتابة سَعَرًا كسعر الكلاب.

وعودًا للحديث عن صحيفتي "المقص" وصحيفة شدو "الصاروخ"، أقول إنه رغم خلافي الفكري مع البعض حرصت على ألّا أطلق علي أحد نعوتًا ترقى إلى تشويه السمعة، أو تنبو علي السمع. كان صديقي الراحل شدو جَدِلًا سَلُط لسانه، ولهذا لم تَرُق لي نعوته لبعض خصومنا الفكريين، بِمَن فيهم مَن فترت علاقتي معهم مثل طه محمد طه. كان شدو لا يذكر طه باسمه وإنما يسميه الزميل طوطو، كما كان أيضًا كثير التندر بزميلنا في الدراسة ميرغني النصري حتى كاد أن يجعل منه هزأة. أذكر، مثلًا، صحبتي لشدو وخلف الله الرشيد لحضور لقاء سياسي في دار اتحاد الطلبة رتب له "الديمقراطيون" وهذا هو الاسم الشفري الذي كان يطلقه الشيوعيون علي من والاهم، أو كان رفيق درب لهم (fellow traveler). وما إن شهد شدو أخانا ميرغني النصري يتقدم إلى المنصة ليتزيد علي الشيوعيين بالمواقف حتى طلب من كلينا الإنصات إلى ما سيقول، إذ كان موقنًا بأن النصري لم يتقدم للمنصة إلا لذلك الغرض. ما كَذَبَ ميرغني ظن شدو، إذ احتل المنصة ليلقي خطابًا ناريًا مُتبعًا إياه بدعوة الطلاب للخروج. الخروج إلى ماذا؟ قال ميرغني: "**إلى العراك إلى العراك**". هذه الصرخة للعراك جعلت ثالثنا خلف الله الرشيد يقول: "**يا إخوانا ميرغني ده مودينا للعراق في**

شنو". رد عليه شدو: "**يا مغفل ده مودينا تبوك، ده بيقول إلى العراك**". ولعل شدو كان محقًّا فالخروج في تظاهرة طلابية في شارع غردون (شارع الجامعة حاليًّا) لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يصبح جهادًا أو حتى عراكًا، ولكن كل شيء جائز في عهد الصِّبَا، أو بالأحرى في زمان استعباد المذهبيات للعقول.

عبد العزيز شدو وخلف الله الرشيد ودفع الله الرضي ومهدي الفحل كانوا الأقرب إليّ من الزملاء في كلية الحقوق، وكنا كثيرًا ما نلتقي في الغرفة التي آوتني مع خلف الله في الداخلية طوال فترة تزاملنا في كلية الحقوق. تلك الداخلية تحولت فيما بعد إلى مبنى لكلية القانون. وكان شدو وخلف الله يجيدان السخرية من الآخرين، بل جعلا من صديقنا مهدي الفحل أسهل الأهداف للسخرية. من ذلك إصرار خلف الله على نعت مهدي بـ"صاحبنا الذي يقضي عطلة رأس الأسبوع (الويك إند) في أبي دليق" مضيفًا كما قال منصور خالد، وتلك تهمة لا أنكرها. مع ذلك كان مهدي الفحل صديقًا مصطفى من جانب صحابه الذين عرفوه رجلًا غزير العلم، موسوعي المعرفة، لا يضاهي علمه إلا تواضعه وبساطته. ولربما مما لا يعرفه الناس عن مهدي جمعه ونشره لكتاب والده: الفحل الفكي الطاهر عن تاريخ وأصول العرب في السودان. أما دفع الله الرضي، فقد كان فائض الإلمام بالأحكام البريطانية، ما أتانا إلا ليروي لنا عما قرأه عن اللورد دينتق واللورد مانسفيلد حتى لقبناه باللورد دف (Lord Daff). وعلني أعترف بأن لم يكن بين الأساتذة في كلية الحقوق واحد بقيت ذكراه عالقة ببالي مقارنة بتلك التي علقت بعبد العزيز إسحاق، إحسان عباس، وأستاذ التاريخ ساندرسون، وجمال محمد أحمد في كلية الآداب. وربما كان الاستثناء لذلك أستاذا الشريعة: الشيخ صديق الضرير والشيخ غندور، ومن غير السودانيين عميد الكلية المستر تننبوم الذي كان يدرسنا مادة المسؤولية التقصيرية (tort) التي حملتني علي قراءة الأحكام البريطانية بشغف لا بسبب المادة نفسها وإنما للبلاغة اللغوية في تلك الأحكام. تننبوم، أيضًا، هو الأستاذ الوحيد في كلية الحقوق الذي

امتدت علاقتي به، خاصة بعد ارتحالي إلى لندن خاصة في الفترات التي كان يزورني فيها الراحل زكي مصطفى. فما حل على زكي في حي شيلسي حتى طلب مني أن أقتطع ساعة من وقتي لزيارة العميد، حيث كان يقيم بحي فكتوريا، وهو حي غير بعيد من مسكني في شيلسي، وكنت دومًا أتوق لتلك الزيارة.

سقوط الإله

في تلك الأيام ظهر كتاب هز دوائر الفكر في الغرب، جاء به من لندن الدكتور أحمد الطيب أحمد، وقدمه لصديقه المعلم عبد الرحيم الأمين. وعند فراغ المعلم من قراءته قدم لي الكتاب فالتهمته التهامًا ثم قررت نشر تلخيص له في جريدة المقص. عنوان الكتاب هو "الإله الذي سقط" (The God That Failed) مع عنوان فرعي "اعترافات" (Confessions). قدم لذلك الكتاب وصنفه النائب البريطاني العمالي رتشارد كروسمان ونشرته دار هاربر وإخوانه (Harper Bros). في ذلك الكتاب وردت اعترافات لست من أشهر الكتاب الغربيين الذين عرفوا بتبنيهم للماركسية، أو انحيازهم للأحزاب الشيوعية في بلادهم. هؤلاء هم الكاتب الفرنسي أندريه جيد، والمعلق السياسي الأمريكي لويس فيشر مؤلف كتابي "حياة لينين" و"سيرة المهاتما غاندي" الذي أصبح أساسًا لفيلم غاندي الذي أخرجه رتشارد أتينبورو ومثل فيه بين كنقلي دور غاندي. إلى جانب هذين كان من بين "المعترفين" إقنازيو سيلوني عضو الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي مات أخوه الشيوعي في سجون الفاشية، وريتشارد رايت المؤلف والمناضل الأمريكي الأفريقي من أجل حقوق السود في الولايات المتحدة، والشاعر والروائي الانجليزي ستيفن سبندر، والكاتب المجري رتشارد كوستلر مؤلف كتاب "ظلام في الظهيرة" (Darkness at Noon) وهو الكتاب الذي صيغ بالألمانية ثم ترجم للانجليزية. وفي الكتاب الأخير كانت لمؤلفه أوصاف مرعبة لستالين بالرغم من أن اسم ستالين لم يرد في الكتاب مرة واحدة، وإنما كان الكاتب يشير إليه بـ"رقم واحد" (Number One).

لم تكن غايتي من نشر أجزاء الكتاب الستة هدم الأصنام، فمالي لذلك حيلة، ولو كانت لي حيلة يوم ذاك لقلت: "وتالله لأكيدن أصنامكم" . هدفي حقًا كان هو إضفاء بُعد فكري على الحوار السياسي الذي كان يدور في تلك الأيام، ولكن بدلًا من اعتبار نشر الكتاب تحريكًا لبحيرة السكون الراكدة، ذهب البعض لوصف كتاب لم يقرأوه وقتها بأنه مؤامرة رأسمالية ضد دولة الكادحين، بالرغم من أن مؤلفيه جميعًا كانوا من عمالقة الفكر في بلادهم، ومن الذين تبنوا الماركسية أو انحازوا للدولة اللينينية. وبالطبع لحق بي سوط الاتهام بالعمالة، وكأن ذلك الكتاب الذي صدر في لندن وكان يباع في مكتباتها هو وثيقة سرية سربها الاستعمار الجديد لعملائه في أقاصي الأرض بما في ذلك جامعة الخرطوم الكائنة بالقرب من بري المحس وبري الدرايسة. أو ترى إلى أين تذهب سخافة العقل عند بعض الناس؟ أتمنى من الله أن يلهم من بقي من الماركسيين والمتمركسيين قراءة ذلك الكتاب القديم حتى يعيدوا النظر في الثوابت التي توقفوا عندها بالأمس. ولعلهم اليوم ليسوا بحاجة إلى ذلك بعد إعلان سقوط الإله لا بيد الاستعمار وعملائه، مَن كان منهم في لندن أو بُري الدرايسه، وإنما على يد الأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي ميخائيل قورباشيف الذي أعلن حل حزب الطبقة العاملة بقرار منفرد لم يرتفع ضده صوت واحد. ذلك هو المصير الحتمي لأيّ نظام يرَكز السلطان في يد فرد، وذلك حكم ينطبق على أيّ حاكم فرد استولى على الحكم ودام فيه غلبة واقتدارًا، بِمنَ في ذلك مَن يزعمون حكم البلاد والعباد بتفويض إلهي.

تيار المستقلين

في جانب النشاط السياسي العملي تبادلت الرأي مع ثلة من الصحاب حول توحيد الطلاب الذين لا ينتمون للتيارين، خاصة أولئك منهم الذين لا يرضون بالاستخفاف بهم (to be taken granted) عند القرار باسم الطلاب في القضايا العامة أو تلك المتعلقة بالجامعة. ضمت تلك الجماعة، الإداري عبد الرحمن عبد الله، وعبد العزيز الزين صغيرون، وعبد العزيز شدو، والرشيد عثمان خالد،

وعثمان أبو كشوة، وعثمان محمد الحسن، ومحمد خير عثمان، إلى جانب آخرين لم يشاؤوا أن يبدو صفحتهم للقادحين في سيرة إخوانهم تارة باتهامهم بالتخاذل، وتارة أخرى بعدم الوطنية. عبر تلك المغامرة المحسوبة أفلحت تلك الجماعة في انتخاب واحد من الطلاب المستقلين (عبد الرحمن عبد الله) لعضوية لجنة الاتحاد الطلابية، وكانت تلك هي المرة الأولى التي وقع فيها ذلك. بسبب ذلك التوفيق احتدم الغضب عند الفرقاء المناوئين للمستقلين، وبوجه خاص بين الشيوعيين الذين أخذوا يطلقون الشائعات حول أصل وفصل حركة المستقلين. وكان للشيوعيين قدرة فائقة على اغتيال الشخصية وتلطيخ سمعة خصومهم بمن في ذلك إخوتهم الذين انسلخوا عنهم فنعتوهم بـ"المنشفيك" وكأن السودان قد أصبح الولاية السادسة عشر للاتحاد السوفيتي: دولة البلاشفة. فلا السودان قد أصبح هو البلد الذي يسيطر عليه "البلشفيك"، ولا جامعة الخرطوم قد أضحت جامعة خرطومنغراد. وبما أن بروز حركة المستقلين في الجامعة توافق مع ظهور مشروب غازي أمريكي الصنع (بيبسي كولا) زعموا أن أمريكا قد أدخلته لتمويل الحركات المناوئة لهم، ومنها "الجماعة المشبوهة" في جامعة الخرطوم، أو إن شئت جامعة خرطومنغراد. لم يجد هؤلاء مَن يقول لهم: "ويحكم أهبلتم؟".فهؤلاء القادحون كانوا ليبدون أكثر اتساقًا في المنطق لو قالوا إن شركة «أبو العلا التجارية» هي التي أمدت حركة المستقلين بالعون، فشركة «أبو العلا» هي التي أدخلت هذا المشروب في السودان وروجت له ترويجًا جيدًا. ذلك هو أصل حركة المستقلين التي تضاربت الأقوال حول أصلها، خاصة بين الأجيال اللاحقة.

إلى أين أودت بنا العَوَّة السياسية

في مطلع هذا الفصل تحدثنا عمّا أسميناه العَوَّة السياسية التي قلنا إنها لم تكن من صنع الطلاب وحدهم، بل كانت امتدادًا لنشاط حزبي خارجي. ورغم أن لجميع الأحزاب في العالم مناصرين في الجامعات، فإن أولئك المناصرين لا يقومون بنشاط حزبي إلا وفق قواعد يلتزم بها الجميع. من تلك القواعد احترام حق غير المتحزبين في أن يبقوا على استقلالهم، والنأي بحرم الجامعات عن أيّ

نشاط لا يرتبط بالتعليم، واختصار النشاط الاجتماعي على الأماكن المحددة لهذا الغرض. وقبل ما يربو على العام من إعدادي لهذا الكتاب أصدر مدير جامعة الخرطوم بيانًا حول قواعد ممارسة النشاط الطلابي في الجامعة. في ذلك البيان وجه المدير الطلاب بحصر نشاطهم السياسي في المواقع التي حددها القانون، ومما يبعث على الدهشة أن ذلك القانون هو القانون نفسه الذي كان سائدًا في تلك الجامعة، ربما قبل أن يلتحق مدير الجامعة بمعاهد التعليم النظامي في مستوياتها الدنيا. ما الذي حدث حتى آل الحال إلى وضع يتشكى منه المدير؟ ما حدث لا يتحمل المسؤولية عنه الطلاب وحدهم، بل أيضًا أغلب الأساتيذ. ففي عهدنا بالدراسة كان في الجامعة حرم لا يسمح فيه للطلاب أو أساتذتهم استغلاله لأي غرض لا يتعلق بتلك الدراسة. ثم جاء علي الناس زمان أصبح فيه الحوار داخل الجامعة - نعم الجامعة - بالهراوات، وفي رواية بالأسياخ، كما أصبح تجوال الطلاب وهم يحملون مكبرات الصوت شيئًا مباحًا لا يثير ثائرة أحد من أغلب الأساتذة وإن اشمأز منه الطلاب الذين يريدون موالاة دراستهم. كل هذا كان يتم بدعوي العمل الوطني ويجد مساندة غير خفية من الأساتذة المتحزبين، وكأنهم لا يفرقون بين مجالات العمل المختلفة، ولا يعون أن لكل مقام مقال. ولعلني أذكر خلال زيارتي للسودان بعد انتفاضة أبريل اصطحاب الأستاذ محمد الفاتح حامد لي في زيارة لزميل له في كلية القانون. وعندما أُبلغ أن الأستاذ وصحبه في اجتماع "وطني" بنادي الأساتذة، وجه الفاتح للشخص الذي جاءه بالرد سؤالًا لا يصدر إلا من أمثال الفاتح، قال: "إن شاء الله يكون الأساتذة أخذوا إذنًا من الطلاب للغياب عن المحاضرة" في ذلك السؤال ظلال لا يراها إلا معلم يدرك أن الواجب الأول للأستاذ في الجامعة هو تدريس الطلاب.

بآخره تدهورت الأمور في جامعة الخرطوم حتى بلغ التدهور حدًّا لا يرضى عنه شخص رشُد أمره. فإن أرادت جماعة التظاهر حيث يحق لها التظاهر في الجامعة، تصدت لها جماعة أخرى بالسيخ والحديد؛ وإن لم يرُق لبعض الطلاب استمرار بعض زملائهم في مواصلة الدرس؛ لاحقوا الراغبين في مواصلة الدرس

وهم يحملون مكبرات الصوت إلى قاعات المحاضرات أو المكتبات حتى يحملوا الراغبين في العلم على ترك القاعات والمكتبات، وإن لم تُرضِ المواقف السياسية لبعض الأساتذة الجماعة الإسلامية المسيسة؛ خرجت تلك الجماعة على أساتذتهم في ناديهم الذي أخذوا يطلقون عليه، دون حياء أو توقير، "خمارة الأساتذة". وعندما تتحزبن كل المؤسسات العلمية في السودان، بما فيها الجامعات، لا بدع في أن ينحرف الأمر إلى تماس هندسي (tangent) خطير. هذا الانحراف حَوّل الجامعة إلى مركز للدعوة الحزبية، ومخزن للسلاح والعتاد، ومأوى لأنصار الحزب من كل حدب وصوب حتى وإن لم يكونوا طلابًا. وبهذا تطور العنف الطلابي من عنف معنوي مثل الوخز في مقالات الصحف الحائطية، والتنابذ في مقهى النشاط، إلى عنف مادي جسدي. وأخيرًا انقلب السحر على الساحر، مثال ذلك إصدار مدير الجامعة في سبتمبر 2014 لبيانه الذي أشرنا إليه آنفًا. في ذلك البيان أمر المدير الطلاب بحصر نشاطهم في المواقع التي حددها القانون، وكأن ذلك المدير وسلفه الإسلاميون لم يلموا بذلك القانون إلا بعد مضى ربع قرن من الاستباحة لحرمة التعليم. تلك الاستباحة تمادى فيها نظام الإنقاذ حين أوكل رعاية الطلاب لما سُمِّى الصندوق القومي لرعاية الطلاب وهي مهمة كانت تشرف عليها عمادة الطلاب. ولا مشاحة في أن توكل للطلاب، مهمة إدارة شئونهم، ففي ذلك تأهيل لهم وتدريب على إدارة تلك الشئون. ولكن عندما يتحول الصندوق إلى مؤسسة حزب واحد بصرف النظر عن الانتماء الحزبي للطلاب الآخرين الذين تشملهم الرعاية يصبح في الأمر ما يدعو للريبة والقلق.

الرحلات الداخلية وما تعلمت خلالها

ثمة أمران أتاحا لي فرصة السفر إلى أغلب أنحاء القطر في سني الدراسة الثانوية ثم الجامعية حتى صرت به مشغوفًا. الأمر الأول هو امتداد الأسرة عبر السودان، والثاني هو ما كلفت به من مهام صحفية أو سياسية من جانب أستاذي عبد الرحيم الأمين بوصفه رئيسًا لتحرير جريدة "الأمة"، أو بصفته مساعدًا

للأمين العام لحزب الأمة. ففي الحالة الأولى قمت بزيارة العم موسى محمد عبد الماجد الخبير الغابي في سنار، كركوج، الحاج عبد الله، والعم سليمان محمد عبد الماجد والخال مصطفى الصاوي في وادٍ مدني أكثر من مرة، كما قمت بزيارات متعددة لكوستي ومروي والقضارف لزيارة الخال أمير الصاوي حيث كان يعمل كإداري، ثم زيارة الخال الدرديري الصاوي في مواقع عمله العديدة: ود مدني، وعطبرة، وحلفا، وبورتسودان. الزيارات الداخلية كانت دومًا في الفصول الرخية فَمَنْ ذا الذي يطيق زيارة حلفا في الشتاء القارص أو بورتسودان في قيظ الصيف المشبع بالبخار.

في تلك الزيارات الأسرية بشمال السودان أستأني قليلًا عند زيارة للخال الدرديري الصاوي في حلفا لا لأمر يتعلق مباشرة بالزيارة، وإنما لتجربة هي امتداد لتجربة سابقة فتحت عيني علي الخدمات الطبية في السودان. ففي باكورة شبابي لم أكن على علم كبير بالخدمات الطبية والاستطباب الحديث إذ نشأت في ظل أسرة أغناها الطب النبوي (ولا تسألني عن ماهيته) عن كل طب عداه. وكان أقرب ما يكون للطب الحديث في تجاربي هو الزيارات الأسبوعية التي كان يقوم بها لدار الأسرة الحكيم ود اب صالح (الشيخ سليمان أبو صالح والد حسن وحسين أبو صالح وإخوتهم) الذي كان يعمل كمساعد حكيم في مستشفى أم درمان. كنا متى ما رأينا "الحكيم" في أول الطريق يتهادى في دراجته معلقًا علي رقبته سماعة وحاملًا معه جرابًا مليئًا بالأدوية هرعنا إلى الأمهات ننادي "الحكيم ودأب صالح جه". أول من كان "الحكيم" يزور في الأسرة الشيخ الصاوي للتحية ثم ينفُج من بعد إلى حوش الصاوي من بيت إلى بيت - إذ لم تكن للبيوت أبواب - لكيما يعود المرضى من الرجال والنساء والأطفال ثم يعود إلى الشيخ الصاوي ليس فقط لوداعه وإنما أيضًا ليستطبه الشيخ الصاوي روحيًّا بتعاويذ يقرؤها عليه.

تجاربي المباشرة مع الطب الحديث كانت أولًا في التطعيمَ الذي يُجرى علينا في المدرسة أثناء تفشي بعض الأوباء مثل السحائي، ويقوم بها مبعوثو المصلحة الطبية

الذين تكلفهم تلك المصلحة بالقيام بهذه المهمة في المدارس المختلفة. وثانيًا عند التحاقي بالمدرسة الوسطى التي لم تكن تبعد كثيرًا عن مستشفى أم درمان كانت أول زيارة لي للعيادة الخارجية بذلك المستشفى لإصابتي بحمى طارئة. وعند وصولي إلى العيادة الخارجية انتابني شعور غريب: مبنى ناصع البياض، وبلاط أحمر لامع، ورجال ونساء يغدون ويروحون في ملابس هي الأخرى بيضاء ناصعة ولنظافة المكان كدت في المرة الأولى أن أخلع نعلي لأنا قد تربينا على أن نفعل ذلك عند دخولنا لمكان طاهر: (الخلوة والمسجد) وكما علمنا القرآن: ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾. ما كفني عن ذلك إلا كبير أطباء المستشفى (الدكتور إبراهيم حسين) والطبيب الآخر الذي كان سيقوم بالنظر في حالتي (الدكتور الخير الشفيع).

ما علاقة كل هذا بوادي حلفا؟

خلال زيارتي لحلفا لزمت السرير للمرة الأولى في حياتي إثر علة حُمَّ بها جسمي مع رعشة. وعندما أبلغ الخال الدرديري إدارة المستشفى عادني في المنزل الطبيب الأكبر في ذلك المستشفى (الدكتور محمد أحمد علي) ثم حملني مباشرة إلى المستشفى لتوجسه من أن ملاريا قد أصابتني. صدق حدسه بعد الكشف المعملي لدمي؛ ولذلك بقيتِ في ذلك المستشفي فترة قاربت الأسبوع. في تلك الفترة كان طبيبا المستشفى (محمد أحمد علي ومحمد شريف) يعودانني مرتين في اليوم، وكان الدكتور شريف يمر أيضًا في منتصف النهار للاطمئنان على سلامة الطعام الذي يقدم للمرضى. ولئن يحدث هذا لطالب صغير وغريب دون أن يطالبه أحد بمقابل مالي للاستطباب أو الدواء أو البحوث المعملية، ولئن يجيء الإتقان في العمل من أطباء تلقوا تعليمهم في مدرسة لم تبلغ بعد المستوى الجامعي (مدرسة كتشنر الطبية)، ولئن كان هؤلاء الرجال يؤدون واجباتهم بهمة لا تترجى عطاءً ماديًّا أو معنويًّا، أوَلا يحق لي السؤال عما لحق بتلك المهنة الشريفة في زماننا هذا؟ كلما قلبت الأمور ظهرًا لبطن زاد يقيني أن ظاهرة هبوط الخدمات من علو إلى سُفل في كل المجالات هو نتاج طبيعي لأمرين. الأمر الأول هو تحول السياسة

(politics) إلى صراع من أجل السلطة في حين أغفلت السياسات (policies) التي تضفي على السياسة معنى، وتجعل لها مردودًا إيجابيًّا، فالسياسات وحدها هي التي تتحقق عبرها مرامي السياسة في الحكم والإدارة والتنمية والخدمات. أما الأمر الثاني فهو عدم الالتزام بالقيم المعيارية التي تضبط سلوك كل فاعل في المجال العام وزيرًا كان، أم مهنيًا، أم إعلاميًّا، أم سائق حافلة. ولعل هذا الفشل السياسي هو الذي دفع المئات من الأطباء الذين لم يريدوا الحنث بالناموس العظيم الذي أدوا القسم له أن يتركوا أوطانهم وراء ظهورهم لا بحثًا عن مراعٍ أكثر اخضرارًا، وإنما نأيًا بأنفسهم عن التلف.

الاستهانة بأخلاقيات المهن وبالقيم المعيارية التي تضبط العمل العام قادت إلى استباحة كل شيء. خذ لذلك مثلًا خبرته في مهنتي الأولى (المحاماة)، إذ كان يُفرض على المحامي، كما على الأطباء، عدم الإعلان عن أنفسهم حتى أمام مكاتبهم أو عياداتهم إلا عبر لافتة صغيرة لتوجيه النظر للمكتب أو العيادة. هذه الاستباحة قادت إلى هبوط عمودي للقاع في كل المجالات: صيرورة الطب تجارة كتجارة القطاعي؛ معايشة القاذورات في المستشفيات رغم ما ينبغي أن يكون قد تعلمه كل ممرض وطبيب عن قديسة التمريض فلورنس نايتينجيل عندما قالت: **"أيّ شيء محتمل الحدوث في المستشفيات إلا نشر الأوبئة"**؛ ممارسة الطب عبر التليفزيون ليس فقط من جانب الأطباء (وهذا أمر سيئ) وإنما أيضًا عبر دجاجلة يوهمون الناس بقدراتهم على معالجة أخطر الأمراض مثل السرطان بالرقية. كل هذه الأشياء تقع اليوم على مرأى ومسمع من المجلس الطبي، كما أيضًا على مرأى ومسمع من السادة والسيدات من رجال السياسة في الحكم والمعارضة. ما الشاغل الذي يجعل هؤلاء يسترخصون حيوات الناس؟ هل هو الصراع على كراسي الحكم أو الوظيفة؟ وإن كان ذلك هو الهدف الأسمى فما الذي سيصنعون بذلك الحكم أو تلك الوظيفة بعد إدراكهم لهما؟

إيلاؤنا لموضوع الاستباحة اهتمامًا كبيرًا في هذا الكتاب هو أبلغ دليل على رداءة الحال الذي صرنا إليه، فالسودان اليوم لم يعد بلدًا فاشلًا بالتعريف السائد

للفشل في أدبيات السياسة، وإنما صار في وضع بئس الوضع هو. ففي أدبيات السياسة المعاصرة تُعَرَّف الدولة الفاشلة بتلك العاجزة عن أداء الواجبات الأساسية للدول ذات السيادة: فقدان السيطرة على أجزاء من أرضها، عدم احتكار الدولة للقوة الضاربة، اهتراء السلطة الشرعية للحد الذي يجعلها عاجزة عن اتخاذ قرارات مُرضية لجميع أقوامها، العجز عن تقديم الخدمات الضرورية لمواطنيها، الانحدار السحيق لاقتصادها، الفشل في خلق علاقات متوازنة على الصعيد الدولي تحقق المصالح المشتركة بينها وبين الدول الأخرى. كل هذه الظروف تجمعت لا لتجعل فقط من الدولة السودانية دولة فاشلة، ولكن أسوأ من ذلك حولته إلى دولة في حالة التداعي الحر (Free Fall).

الرحلات السياسية الداخلية

أما الرحلات الصحفية والسياسية فقد أتاحت لي ما لم يُتح لكثير من أندادي. فأول زيارة لي لربوع كردفان، مثلًا، بدأت بزيارة إلى الأبيض برفقة رئيس حزب الأمة الصديق المهدي ومساعد الأمين العام للحزب المعلم عبد الرحيم الأمين حيث أقام أحمد عبد الله حامد قائد القيادة الوسطى "الهجانة " حفل غداء على شرف الوفد قبل توجهه إلى النهود الدائرة التي كان المعلم مرشحًا فيها. ترشيح القيادة السياسية لحزب الأمة للمعلم ليكون نائبًا في إحدى دوائر الحزب المضمونة كاد أن يقود لخلاف عميق في الحزب عندما رشح السيد عبد الله الفاضل أكبر أبنائه (الطيب) في الدائرة نفسها أيضًا. وحالما علم عبد الرحيم الأمين بذلك الترشيح أبلغ عبد الله خليل الذي نقل الأمر إلى الإمام عبد الرحمن. موقف الإمام لم يكن حكيمًا فحسب، بل كان أيضًا معبرًا عن وفاء لكل مَن انضم إلى الحزب من خارج الأنصار أو آل البيت. هذه المشاعر نم عنها قول الإمام عبد الرحمن للسيد عبد الله الفاضل بحضور رئيس الحزب، صديق المهدي، والأمين العام عبد الله خليل: **"أنا داير ألم الناس حول الاستقلال، ولكن كل ما ألقى لي راجل يقيف جنبي ليه عايزين تبعدوه عني؟"**. أبقى الأمام على ترشيح المعلم في تلك الدائرة في

حين تنازل السيد الطيب عن الترشيح. وقد وجهني عبد الله بيه بأن أصحب المعلم في زيارته للنهود لمخاطبة أهلها. ومن المفاجآت السارة للمعلم ولي أيضًا هو إعلان اسم عبد الرحيم الأمين كأول مرشح يفوز بالتزكية في تلك الانتخابات.

من النهود سلك الوفد طريقًا وعثًا إلى المجلد رغم أن وعوثته لم تبلغ وعوثة طرق أطراف الخرطوم في القرن الحادي والعشرين عندما يفاجئ أهلها الخريف. وفي المجلد تعرفت على رجلين نعمَ الرجال هما الشيخ بابو نمر والشيخ علي نمر. البابو كان سيد قومه يدير أمرهم بالحسنى دون أن يسودهم. وقد أتيح لي أكثر من لقاء معه عندما أصبح أمينًا للرعاة في الاتحاد الاشتراكي وزائرًا دائمًا للصديق عمر الحاج موسى في مكتبه. ورغم أن لنا إلى سيرة البابو عودة، فإن هناك أقصوصتين جديرتين بالرواية عن مسيرة ذلك الشيخ الحكيم. الأولى كانت في أول زيارة لنميري إلى معقل ناظر المسيرية، فما إن حطت الطائرة التي كانت تقل الرئيس ورفاقه حتى اندفعت الجماهير تهتف بهتافات تلك الأيام، ومنها "تسقط تسقط الإدارة الأهلية". وكان البابو وأبناؤه بارزين في ذلك اللقاء بغيابهم. في تلك اللحظة جاءني رسول من البابو يحمل إليَّ رسالة تقول: إن الناظر يدعو الرئيس ووفده لتناول الغداء معه، وكان نزله على مقربة من حيث هبطت الطائرة. نقلت أمر الدعوة في الحال لنميري، ونصحت بالاستجابة لها، وكان ذلك في حضور الرائد زين. قلت له إن هذا الرجل هو كبير قومه، وليس من الحكمة أو الذوق أن نرفض دعوة كبير القوم ونحن في داره. ذلك رأيساندني فيه الرائد زين في حين اعترض الآخرون عندما أبلغوا بالأمر. وهنا قال نميري **"أنا رايح، العايز يجي معاي يجي والما عايز على كيفه"**. وبوصولنا إليّ دار شيخ الإدارة الأهلية "الساقطة" وجدنا المكان ضيقًا بما وسع. ليست هذه القضية هي، فأول حديث دار بين نميري والناظر كان درسًا في التحول الاجتماعي. سأل نميري الناظر **"إن شاء الله ما تكون زعلت من الهتافات بسقوط الإدارة الأهلية"**. لم يرد البابو على ذلك السؤال ردًّا مباشرًا، بل روى قصة قال فيها: **"زي الهتافات دي كانت تردد**

في ثورة أكتوبر، فقلت للسر (سر الختم الخليفة رئيس الوزراء وكان بين البابو وسر الختم آصرة): **الهتافات لا تودي ولا تجيب ونحن عرفنا أن الإدارة الأهلية حتسقط مما دخل القطر بابنوسة"**. يا لحكمة الشيخ البدوي الذي أدرك بفطرته السليمة كيف يقع التحول الاجتماعي في المجتمعات الإنسانية، دون حاجة منه إلى الإلمام بالجدلية.

أما الأقصوصة الثانية فقد رواها لي القانوني المتميز الدرديري محمد أحمد، وهو من أهل المنطقة. قال إنه كان برفقة زملاء له من الطلاب المنتمين لجماعته السياسية، يعسكرون خلال ندوة خلوية في أحدى مناطق المسيرية. ورغم أن البابو كان على علم بوجودهم، فإنه لم يُبد اهتمامًا بهم حتى أوعز إليه أحد مساعديه بأن أولئك الشباب ظلوا لفترة في دار المسيرية، ومن المناسب أن يكرمهم شيخ المسيرية. وبالفعل استجاب البابو لذلك الطلب وأولم للطلاب بحضور الكثير من أهليهم. وعند مخاطبته للطلاب قال: **"نحن كلنا مسلمين وما بنابا الإسلام، لكن في شيء واحد لو استمريتو فيه حيجيب خبركم زي ما جاب خبر المهدية"**. وعندما سأله واحد منهم عن هذا الشيء قال: **"الله أكبر الكثيرة دي"**. بالطبع قابل الطلاب تعليق الناظر الأنصاري باستغراب ولهذا استدرك الناظر قائلًا **"تكرار الله أكبر ده يولد في الإنسان شعور يخليه يرمى نفسه في النار، وده الحصل في المهدية"**. في هذه المرة لم يكن البابو محللًا اجتماعيًا بارعًا، وإنما كان قارئًا حصيفًا للتاريخ. فمن قراءته للتاريخ عرف البابو أن الإفراط في تحميس الناس لا يشعل فقط براكين لا تنبت فوق قممها الأزاهير، بل ينتهي بهم إلى الزمي بأيديهم في تهلكة. هذا الرأي سمعته أيضًا عن شيخ من آل مادبو دعاه وأهله أحد كبار الإنقاذيين إلى الانضمام إلى كتائب المجاهدين ضد الجنوبيين (الدينكا) لحماية الإسلام. رد ذلك الشيخ كان مُفحِمًا بالحجة إذ قال **"الدينكا أهلنا لا بنعيش غيرهم لا يعيشوا غيرنا"**، أما حول الجهاد الإسلامي في سبيل الله قال للداعي **"الإسلام ده دينا ما بنخليه ولكن إسلامنا ما زي إسلامكم الحار ده"**. ليتنا، ولو

قليلًا، نأخذ الحكمة من أفواه حكماء البادية، فالجهاد لا يكون إلا للدفاع عن النفس ورد العدوان كما أفتى الشيخ محمود شلتوت (القرآن والقتال، 1946)، ولاسيما في عالمنا المعاصر حيث يقتضي التواؤم مع أحكام اللحظة المعاصرة إعادة قراءة للمسلمات الموروثة.

الزيارة الأولى لجنوب السودان

ومن المجلد بدأت رحلة كانت في حسباني يوم ذاك مغامرة بل ورطة، والورطة هي ما يعسر على المرء النجاة منه. بدأت الورطة عندما قرر رئيس الحزب أن أصحب الدكتور مأمون حسين شريف بعد الرحلة الكردفانية في رحلته إلى الجنوب في طائرة ذات محرك واحد. لم يزدني اطمئنانًا قول دكتور مأمون لي بأن تلك الطائرة تخص الإمام وأن طيارها فرنسي الجنسية. صحبت «مأمون» ولما أكف عن الارتجاف وأقول لنفسي إن السفر فوق ظهر مهرة أرعب أعرابيًّا في البادية (بشر بن عوانة العبدي) فكيف لي أن أطمئن وأنا داخل مركبة هوائية ذات محرك واحد يقودها سائق فرد وعلى ارتفاع شاهق من الأرض؟ عن مهرته تلك قال العبدي:

تبهنسَ إذْ تقاعسَ عَنْهُ مُهري	محاذرةً فقلتُ عُقرتَ مُهْرَا
أنلْ قَدَمِي ظهرَ الأرضِ إني	رَأَيْتُ الأرضَ أثبتَ منك ظَهْرَا

التبهنس هو السير بخيلاء ولهذا لم تطمئن نفسي إلا عندما حطت الطائرة على الأرض في يرول، حيث تلقانا نائب مفتش المركز تيتو، وهو شلكاوي كما نمَّت عن ذلك النتواءات البارزة في جبهته، وكان تيتو عليمًا بأمور المنطقة التي يديرها وكريمًا مفضالًا. في تلك الرحلة توجهنا جنوبًا إلى أرض الزاندي، حيث كان مضيفنا جيمز طمبرة كبير الزاندي، ثم شمالًا إلى دار الدينكا (قوقريال) حيث تلقانا وبالغ في إكرامنا كبير الدينكا شير ريحان. تلك كانت هي الزيارة الأولى التي

قمت بها لجنوب السودان إلا إنها كانت حافزًا لي لاستكشاف المزيد عن ذلك الإقليم وأهله والاهتمام بقضاياهم.

العمل الاجتماعي والرحلات الخارجية

عزمت أيضًا في الجامعة على الدخول في مجال العمل الاجتماعي إثر إيحاء من الدكتور سعد الدين فوزي وكان وقتها نائبًا للمستر وود المسؤول البريطاني عن شؤون الطلاب. لا أعبر باسم سعدٍ إلا وذكرت له تواضعه العلمي، وهو تواضع يفتقده في زماننا أنصاف علماء ظنوا أن «يافوخهم» قد ركب السماء بعد نيلهم درجة عليا من جامعة لا يتوفر فيها من وسائط التعليم ما كان يتوافر في الماضي للمدارس الثانوية. ما الذي قال سعد خريج مدرسة لندن للاقتصاد بامتياز عندما أبلغه حمزة ميرغني بوصفه عضوًا في مجلس جامعة الخرطوم برغبة المجلس في ترشيحه مديرًا للجامعة خلفًا لمدير الجامعة البريطاني قرانت الذي قرر الاستقالة؟ رد سعد على حمزة بالقول: "لم يحن الوقت بعد" (it is not time yet). ترى كم عدد الذين قالوا "لا قدرة لنا على هذه المهمة". مَن الذين توالوا على إدارة الجامعة، أو الجامعات، في هذا الزمان؟

أيًا كان الأمر، قَدَّم إليَّ الدكتور فوزي بطاقة دعوة لاجتماع في أكسفورد جاءته من منظمة خدمية للطلاب كان مقرها جنيف وكانت تنعت باسم ينم عن أهدافها: "الخدمة الجامعية الدولية" (World University Service) واختصارها (WUS). فالمنظمة، إذن، لم تكن اتحادًا دوليًا للطلاب حتى يقال إنها واحدة من منظمات الاستعمار الجديد الموازية للاتحادات "الديمقراطية" في شرق أوروبا مثل اتحاد الشباب العالمي، ولا جهاز اختراق واستخبار رغم أنا كنا نعيش في زمان أصبحت فيه عند متطرفي اليسار حتى المياه الغازية مثل البيبسي كولا واحدة من أدوات الاختراق الاستعماري. ثمة هدفان كانا وراء اجتماع أكسفورد: الأول هو التدارس مع طلاب أفريقيا حول حاجة الدول المشاركة للمزيد من

الجامعات، وتطوير الدراسات الإضافية في الجامعات الأفريقية باعتبار تلك الدراسات هي البوابة التي تطل منها الجامعات على المجتمع خارجها، وتنمية العلاقة بين الجامعات الأفريقية والخارجية. أما الثاني فهو مساعدة طلاب الجامعات المنضوية تحت لوائها في إيواء الطلاب، والعناية بصحتهم، وتوفير البعثات الخارجية للراغبين فيها والمؤهلين لها، وتوفير الكتب الدراسية والوسائط التعليمية للمعاهد العليا والجامعات التي تعجز دولها عن مدها بما تحتاج إليه من تلك الوسائط. احتوى سجل أنشطة المنظمة الذي مدني به فوزي على كثير من هذه الإنجازات مثل المساعدة في إسكان الطلاب في الهند (كلكتا) وباكستان (كراتشي والسند)، وتزويد الجامعات بالوسائط التعليمية (إندونيسيا).

وقبل التحاق السودان بالمنظمة كانت لها فروع في العالم رَبَتْ على الثلاثين وشملت من دول العالم الثالث الهند، والفلبين، وسيلان، وباكستان، وإندونيسيا، ومصر، نيبال، والملايو، ولبنان. كما ضمت بعد استقلال دول أفريقيا جنوب الصحراء أو بلوغها مرحلة الحكم الذاتي: اتحاد شرق إفريقيا (كينيا، وتنزانيا، ويوغندا)، وغانا، ونيجيريا. كنت -ومازلت- أتساءل عن الأسباب التي تحمل أي طالب من المتمذهبين على تخريب أي عمل يعين الجامعات على أداء واجبات أعيتها الظروف عن أدائها بسبب محدودية الإمكانيات، أو تتيح للطلاب فرصًا للترقي العلمي أو التواصل مع زملائهم في الخارج، فأحار في الجواب. ولا تدفعني لاستعادة السؤال إلا تجربة يجدر ذكرها الآن. التجربة كانت تتعلق بإلحاحي على طالب بالسنة الدراسية الأولى أنست نفسي إليه هو محمد سعيد القدال. فعندما دعوت القدال للمشاركة في فرع لجنة الخدمات الجامعية الذي كنت أسعى لإنشائه تردد طويلًا في القبول رغم تقديره لي وودي إياه. أذهلني ذلك التردد إلى أن علمت بآخره أن القدال كان قد انخرط في الحزب الشيوعي وهو الحزب الذي كان مسكونًا بكراهية كل ما هو غربي، حتى الغرب الذي لم يكونوا يدركون أصله، رغم تشبثهم بشرق أثبتت الأيام أنهم لم يكونوا يدركون طبيعته. حبي للقدال لم يفتر؛ فهو مؤرخ محقق وأنيس يزيل الوحشة. وكان لنا (أنا

والقدال) صديق صاحب مُلَح وأطاريف هو محمد نور السيد، فكلما التقينا عنده كان يقول هازئًا للقدال: **"لو تبعت منصور خالد ما كان أخير ليك"**. كل منا أدرى بما هو خير له والخير دومًا فيما اختاره الله.

للرحلات الخارجية طعم مختلف لا يعرفه إلا مَن تذوقه، ولكن تحول دونها عقبة كأداء في طريق طالب جامعي رقيق الحال. فرغم تكفل المنظمة الراعية بكل نفقات الإقامة خلال الاجتماع في أكسفورد، وتوفير سعد الدين فوزي لنفقات السفر البري إلى مصر وعبر البحر المتوسط إلى إيطاليا، كان عليَّ أن أدبر ما تبقى. وعند وصولي إلى القاهرة -أولى المحطات في رحلة طويلة- استقر بي المقام في فندق متواضع بالعتبة قبل أن أقدم على زيارة وكالة حكومة السودان (الاسم الذي كان يطلق على المكتب الذي يدير شؤون السودان في مصر قبل الاستقلال، وهو المكتب نفسه الذي افتتحت فيه السفارة). بُغيتي كانت هي زيارة وكيل السودان علي عوض الله، الذي كان زائرًا مداومًا لمنزلنا بحكم صداقته لزميل دراسته أمير الصاوي لتحيته. أكرم الرجل وفادتي، وما إن علم بأمر رحلتي المزمعة حتى قرر الإسهام في تكلفة السفر عبر البحر على متن باخرة يونانية تدعى سيبيريا من الإسكندرية إلى جنوة، مما وفر لي مبلغًا كبيرًا أفادني في الإنفاق على احتياجاتي الخاصة في تلك الرحلة. خلال الرحلة مررت بروما وسويسرا (لوزان) ثم مدينة باريس التي يلزم عندها التوقف. قلت لنفسي بعد أن ألقيت رحلي في مدينة باريس الجامعية واستمرأت النظر في حدائقها الدهماء وأشجارها الشعواء: **"لي إلى هذا المكان عودة"**. توجهت من بعد إلى لندن، فكان في انتظاري صلاح أحمد محمد صالح الذي آواني بكرمه المعهود. وبما إن صلاح كان يعمل في الإذاعة البريطانية آنذاك؛ طلب مني إعداد موضوعين للإذاعة لا أذكرهما لتفاهتهما، ولكن رغم تفاهتهما تلك تقاضيت عليهما حفنة من الجنيهات اقتسمتها مع صديقي المذيع، وهو رجل لم يكن ينسى نفسه من الخير متى استطاع لذلك سبيلًا.

عقب المشاركة في ندوة أكسفورد والاطلاع على وسائل إنشاء فصل

(chapter) للمنظمة في السودان قررت عند العودة، حسب الترتيب المتبع، تكوين لجنة إشرافية لذلك الفصل تضم أساتذة وطلابًا. وبما إن الخدمات التي تقدمها المنظمة تشمل خدمات صحية إضافية للطلاب ومناشط ترفيهية لهم، إلى جانب بعثات خارجية للدراسات العليا لجأت إلى سعد الدين لدعوته لرئاسة تلك اللجنة والاستنارة برأيه حول أعضائها. اعتذر سعد عن رئاسة اللجنة، ولكنه قبل عضويتها، ونصحني بأن تضم اللجنة من الأساتذة الدكتور مكي شبيكة كرئيس لها، والبروفيسور مورجان من كلية الطب. أما من جانب الطلاب فقد أقنعت بالانضمام للجنة الرشيد عثمان خالد، عبد العزيز الزين صغيرون، وكنت حزينًا لنفور محمد سعيد القدال عن الانضمام إلى اللجنة. وقد تفضل البروفيسور مورجان بالإشراف على عيادة الطلاب الذين يحتاجون لعلاج لا يتوفر لهم أو يسهل عليهم عبر القنوات الصحية القائمة مرتين في الأسبوع. وخلف الدكتور شبيكة في رئاسة اللجنة البروفيسور ساندون أستاذ علم الحيوان في كلية العلوم، بل ربما أصبح من بعد عميدًا لها.

أما بالنسبة للبعثات فقد وفقت خلال عملي كسكرتير للجنة وقبل مغادرتي الجامعة في الحصول على منحتين في سنتين متتاليتين في الجامعات الكندية. الأولى منها خصصت للرشيد عثمان خالد في جامعة ساسكا تشوان لدراسة الاقتصاد، والثانية لنصر الدين المبارك الذي، فيما أظن، أكمل دراسته حتى الدكتوراه في علم الإحصاء من الجامعة الكندية التي ألتحق بها. أستذكر أيضًا ما فعله وزير المالية إبراهيم أحمد عندما جاءه الرشيد، وكان سكرتيرًا للوزير، ليودعه. هنأ الوزير موظفه الصغير على اختياره للدراسات العليا في كندا متمنيًا له التوفيق، ثم قدم له ورقة مكتوبة وقع عليها. تلك الورقة كانت موجهة إلى مكتبة فويلز في شارع شيرينق كروس، وهي أقدم المكتبات في لندن، إذ أنشأها صاحباها الأخوان وليام وجلبرت فويلز في عام (1903). قال إبراهيم أحمد للرشيد: "قد تحتاج لبعض المراجع والحوليات في دراستك ويمكنك بموجب هذه الرسالة أن تطلب من

المكتبة تزويدك بكل ما تحتاج إليه من كتب مرجعية أو حوليات تعينك على البحث والدراسة". كان إبراهيم أحمد معلمًا في كل شيء بها في ذلك إجزال العطاء لمن يستحق.

فرسان العلم الثلاثة

جمال محمد أحمد.. شيخ الحريين

إن كان لنفر من الأساتذة تأثير على تكويني الفكري والمزاجي أكثر من غيرهم لكان هؤلاء: جمال محمد أحمد، ومحمد عبد العزيز إسحاق، وإحسان عباس. أثر جمال عليَّ كان بليغًا، خاصة في رفض التعصب لأيّ مذهب، وكان جمال مفتونًا بالحريين (Libertarians) يحدثني عنهم كثيرًا، ويدعوني إلى قراءة بعض أدبهم. فقرأت مثلًا كتاب فريدريك هايك النمساوي "الطريق إلى العبودية"(Road To Serfdom) بعد أن دلني عليه جمال. ذلك الكتاب وُضع وقتها في قائمة أهم عشرين كتابًا غير قصصي في القرن العشرين، وظل يشغل بال علماء الاقتصاد وطلابه لزمان حتى بلغت النسخ التي صدرت عنه في زمانه (350,000) حسبما أوردت مطبعة جامعة شيكاغو التي تولت نشره. كان جمال يمدني أيضًا ببعض الصحف الانجليزية التي كانت ترد إليه والتي لم يكن في طاقة طالب رقيق الحال مثلي أن يحصل عليها من مكتبة السودان بوكشوب، إن وردت إليها أصلًا.

وذات مرة قدم إلى جمال دعوة جاءته من مؤسسة علمية بلجيكية تُعنى بالحضارات، وتتقصى عوامل التعاون بينها. وكان من بين مناشط المؤسسة إصدار شهري اسمه "الحضارة" (Civilization). كتبت تلك المؤسسة لجمال تطلب منه ترشيح أحد طلابه للاشتراك في منافسة بين طلاب العالم لاختيار أجود مقال لطالب عن التعايش بين الحضارات المختلفة، وكان ذلك قبل قرابة الثلاثة عقود من الزمان الذي أثار فيه صموئيل هنتنجتون نقعًا لّما يهدأ بعد في كتابه "صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي" (The Clash Of Civilization,

Remaking Of World Order). كتبت المقال حسب طلب جمال، وأودعته البريد، وكانت فرحتي عظيمة عندما جاءتني عبر البريد أيضًا رسالة تفيد بحصولي على الجائزة الأولى (50 دولارًا) وهو مبلغ يساوي ثلاثة أضعاف الراتب الشهري لخريج الجامعة في ذلك الزمان. مع ذلك المبلغ بعثت لي المؤسسة الناشرة للمقال بخمس نسخ مغلفة أهديت واحدة منها لجمال، والثانية لسعد الدين فوزي والثالثة لعبد الرحيم الأمين، وظننت أنني قد احتفظت من النسخ باثنين لنفسي. وفي حلي وترحالي اختفت النسختان، لكن كم كانت غبطتي عظيمة عندما عثرت على واحدة من النسختين في آخر مكان توقعت أن أجدها فيه. فعند مراجعتي لأوراق عبد الله بيه خليل مع ابنه أمير وجدت واحدة من النسخ الضائعة، وقد مهرها البيه باسمه وأودعها وسط أوراقه.غبطتي كانت مزدوجة: أولًا للعثور على الوثيقة الضائعة. وثانيًا على اهتمام رجل مستهم بكبريات الأمور في بلده بأن يحفظ مقالًا لطالب بين وثائقه. هذا المقال سنودعه في الموقع الإلكتروني الذي أشرت إليه أكثر من مرة لا لأنني أتيت فيه بما يغبطني عليه الأوائل والأواخر، ولكن لأنه جهد طالب أفريقي وكاتب ناشئ في تناول موضوع أخذ يشغل الناس بعد ثلاثة عقود من الزمان.

إحسان عباس.. السادن على محراب العلم

الأستاذ الثاني هو إحسان عباس فلسطيني الأصل، كان إحسان صديقًا حميمًا لجمال وليوسف بدري وسعد الدين فوزي. تبنى يوسف بدري بدرًا، شقيق إحسان، الذي لم يكن يطيق الحياة بدونه، فحمله معه إلى السودان حيث عينه يوسف معلمًا بمدارس الأحفاد. أما جمال فزَادَ عن إحسان حينما افتعل عبد الله الطيب خلافًا معه بلا مبرر مشروع، إلا إن حسبنا الغيرة بين العلماء أمرًا مشروعًا. ويبدو أن مصدر الغيرة كان هو احتمال ترقية إحسان ليكون أستاذًا (professor) للغة العربية في الجامعة؛ مما كان سيقطع الطريق إلى الوظيفة في تلك المرحلة على عبد الله الطيب. ذلك موضوع تطرقنا إليه في سلسلة من المقالات في رثاء إحسان عند رحيله نشر في جريدة الصحافة (فبراير 2004م) تحت عنوان "إحسان عباس

سادن التراث وشيخ المحققين". سعى جمال وسعد الدين للحصول لإحسان على جنسية سودانية حتى تحميه من غَول الغيارى من الزملاء، فتأبي إحسان عرضهما لا استنكافًا لحصوله على الجنسية السودانية، وإنما تأبيًا لسلوك سكة لولبية إلى موقع هو به جدير. ومن الغريب ألا يقبل عبد الله الطيب توسط جمال، إذ كان لعبد الله صديقان لا يبدلهما بصديق: جمال محمد أحمد وأحمد الطيب أحمد. فعندما مضى جمال، وسبقه أحمد للاستجابة لداعي الموت رثي عبد الله جمالًا رثاءً يستدر الدموع من المآقي نقتطف منه:

ذكرت جمالًا صديقي دَرَج — وكم لجمال الحياة ابتهج
وكان فتي ذهبي المُحيا — يُرى فيه ضوء الحياة انبلج
ذكرت براعته في الحوار — إذ جَد أو بالمزاح امتزج
وعشنا زمانًا وراء البحار — وجمر الشباب شديد الوهج
ونقرأ في شغف لا نمل — بذوق سليم وفكر نَضِج
أتاني رسول نعى لي جمالًا — فحق الدموع له أن تتج
وإن دموعي هذا القريض — الذي فيه شجوي شدا أو هزج
بكيت عليه بوجد شديد — ومثلي عليه بكي وانتخج

* * *

بكوا لي جمالًا فقالوا ذهب — وكان سنا وجهه كالذهب
وكان امرئ عسجدي الأديم — تري فيه ماء الحياة اصطخب
وكان ذكيًا طموح الفؤاد — وحلو الفكاهة مُرّ الغضب
جمال مضي ومضي أحمد — ومن ذا إلى الموت لم يستجب
وإن فؤادي لذكراهما — حزين ودمع جفوني شَرِب

* * *

نعوا لي جمالًا صديقي الفطن وجئت الصلاة فقالوا دفن
بكيت عليه بدمع غزير وقلبي لموت جمال حَزن

رغم كل ذلك الحب الصادق الذي كان عبد الله الطيب يكنه لجمال، والاحترام والتقدير اللذين كان يوليهما له من زمان الطلب، لم يفلح جمال في إثناء عبد الله الطيب عن الغيرة من وجود أستاذ غير سوداني هو ضريب له في العلم، ونظير له في البحث والتحقيق. أهي غيرة العلماء؟ ربما. ذلك ظن يزكيه حدث آخر رواه لي جمال، وكان حزينًا لروايته. كان بين عبد الله الطيب وسعد الدين فوزي ود مفقود، ربما لتنافس كليهما على عمادة كلية الآداب في وقت لم تنشأ فيه كلية مستقلة للاقتصاد. وعندما علم سعد الدين، وهو في رقدته الأخيرة بأحد مستشفيات لندن، أن عبد الله الطيب بلندن طلب من جمال أن يبلغ عبد الله بأنه يريد لقاءه في المستشفى حتى يودعه الوداع الأخير، ويطلب العفو عما نابه منه أو ظنه. فتأبى عبد الله رغم إدراكه بأن سعدًا كان في رقدته الأخيرة التي قُبض فيها.

إحسان لم يكن معلمًا فذًا فحسب، بل كان باحثًا محققًا مجيدًا لا تباريه في التحقيق إلا قلة. فخلال عمله في جامعة الخرطوم والجامعة الأمريكية ببيروت أصدر ما ينيف على الثلاثين تحقيقًا في الأدب الأندلسي والتراجم بوجه عام، إلى جانب الترجمة للعربية لعيون الأدب الانجليزي. هذه المؤلفات ضمت كتبه: الحسن البصري، وعبد الوهاب البياتي، وفن الشعر، وأبو حيان التوحيدي، والشعر العربي في المهجر الأمريكي، وتحقيق الوفيات من أشعار أهل الأندلس للكتاني، وتحقيق أمثال العرب للمفضل الضبي، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميري، وأنساب الإشراف للبلاذري، ومرآة الزمان لابن الجوزي. ترجم إحسان أيضًا فن الشعر لأرسطو، ودراسات في الأدب العربي لفون جرو نينبام، وإرنست همينجواي لكارلوس بيكر، ويقظة العرب لجورج أنطونيوس، ودراسات في حضارة الإسلام للسير

هاملتون جب، وت،س. إليوت لمانين، وقصة موبي ديك لهيرمـان ملفيـل. ذلـك الكسب لم يكن بكثير على مَن تتلمذ على يد أحمد أمين، وأفنـى العمـر في صـحبة محمود محمد شاكر، وواظب على المشاركة في نـدوة العقـاد الأسـبوعية. وعنـدما جاءني نعيه قررت الذهاب مع صديق الطرفين عز الدين عمر موسى لعزاء أرملته أم إياس على فقدها العظيم وكانت أُمًّا لكل طلابه. أسأل الله الرحمة لتلك السيدة العظيمة التي رحلت هي الأخرى عن الدنيا. حقًّا لم يظلم السودان إحسانًا، وإنـما ظلم نفسه بحمل ذلك الرجل العظيم للارتحـال إلى الجامعـة الأمريكيـة ببـيروت التي احتضنته بصدر رحب، وأصدر خلال عمله فيها أهم أعماله.

إسحاق... محطم الأصنام

كان إسحاق، مثل جمال، مشغولًا بقضية حرية الفكر، وكان أول مَـن بـادر، هو وصديقه العالم الفلكي إبراهيم حلمي عبد الرحمن (صار فيما بعد أول سكرتير لمجلس قيادة الثورة في مصر، ومن بعد أول مدير عام لمنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية) بترجمة ونشر كتـاب بيـوري (A. J.Bury) عـن حريـة الفكـر. وكـان بيوري أستاذًا ملكيًّا (Regius Professor) في جامعـة كـامبردج، أي مُعينًـا بـأمر ملكي. ذلك الكتاب الذي نشرته دار النشر بجامعـة كـامبردج في (1913) غـالى وأسرف في تبخيس الدين المسيحي؛ مما حمل النقاد على شجبه، وعلى رأسهم جيمز فورد. كتب فورد ناقدًا بيوري بالقول: "يستوي في سـوء الظـن القـائلون إن كـل المسيحيين حمقى مع أولئك الذين يقولون إنَّ كل من ينعتـون أنفـسهم بـالمفكرين الأحرار مخادعون محتالون". مع ذلك فقد فتح الأستاذ إسحاق عقولنا بنشره ذلك الكتاب حتى لا نقع أسرى للمسلمات التي لا يقبلها عقل، والتي كنا نتقبلها عـن رضى لألفتنا لها، أو لتحصيننا بالفهم الموروث للدين وسطوة العادات والتقاليد.

إسحاق كان أيضًا مولعًا بتحطيم الأصنام (iconoclastic). وفي ذلـك كـان وفيًّا لأستاذه العقاد الذي لم يتوانَ حتـى عـن محاولـة هـدم عمـلاق الـشعر أحمـد شوقي. تلك صفة أورثها العقـاد لكـل حوارييـه الأقـربين حتـى صـارت غالبـة

عليهم: عبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبد القادر المازني، والأديب السوداني معاوية نور، وسيد قطب. فما بالك بمن عداهم. وإن أدهشك ورود اسم سيد قطب من بين هؤلاء، فقطب قبل انصرافه لأن يكون داعية لمحق الكفر والكافرين كان ملازمًا للعقاد وفي مقدمة المدافعين عن شعره. ففي الحملة التي ابتدرها العقاد ضد عبد الرحمن الرافعي كان سيد قطب أول مَن انبرى للدفاع عن شعر العقاد والانتقاص من شعر غريمه. قال، مثلًا: "شعر الرافعي من النوع الذي تباع منه كل عشر صفحات بقرش واحد أما شعر العقاد فان أوتاره التي توقع الحب في نفس القارئ لم تجتمع قط لشاعر عربي ولا تجتمع لعشرة من شعراء العربية في كل العهود ". وعلني أفصح للمرة الأولى في هذه المذكرات عن تحول راديكالي كان سيقع في حياتي بسبب إعجابي بمواقف سيد قطب الداعمة للعقاد الأديب والشاعر، واستمتاعي بتفسيراته الأدبية للقرآن التي أودعها في كتاب (التصوير الفني في القرآن) قبل أن يصدر كتابه التفسيري للقرآن "في ظلال القرآن". وفي معرض سعيي للقاء سيد قطب التقيت بالطالب (الشيخ) صادق عبد الله عبد الماجد، وكان صديقًا حميمًا لأخي ابن عمتي السفير عثمان محمد العوض، زميله في الدراسة بجامعة فؤاد (القاهرة). مهد لي صادق لقاءً مع سيد قطب في داره، وكان أكثر ما تناولت مع قطب من الموضوعات الأدب، وفي ذهني ما كتب عن العقاد وما كتب عن نجيب محفوظ (رادوبيس) وهي القصة التي راقت لقطب للدرجة التي حملته على الكتابة لوزير المعارف علي ماهر باشا لإدراجها في مناهج الأدب التي تدرس في المدارس. كم تمنيت أن يكون كتاب قطب الذي ذاع في الآفاق كتابًا تنويريًا أكثر منه كتابًا دعويًّا؛ لأن التنوير هو الوسيلة الوحيدة للعبور من الموروث القديم إلى الحاضر المعاصر.

أعود إلى أستاذنا إسحاق لأقول إننا كنا في جامعة الخرطوم نلتقي كجماعة مرتين في الأسبوع في منزله القريب من داخليتنا، وكان ملاصقًا لمنزل الدكتور مكي شبيكة. ضمت تلك الجماعة عبد العزيز شدو، وعثمان أبو كشوة، وعثمان محمد الحسن، ومهدي مصطفى، وعبد العزيز صغيرون، وعبد الرحمن عبد الله،

ومحمد خير عثمان. من بين هؤلاء حظي شدو باهتمام خاص من شيخه، وكان يناديه "المدفع" إذ لم يكن شدو يتحدث كما يتحدث بقية خلق الله وإنما يقذف الكلم، فلا غرو إذن، أن سَمَّى صحيفته الحائطية "الصاروخ". وطوال فترة الدراسة لم أسمع إسحاق ينادي شدو باسمه بل كان يقول له عندما يطلب الحديث: "ما الذي تريد أن تقذف يا مدفع؟". ولئن كان حب أدب طه حسين قد وقر في نفسي منذ أن قدمني له الأستاذ بشير محمد سعيد في مرحلة الدراسة الابتدائية، فقد ثبت فيها الولوع بالعقاد بعد أن علمنا إسحاق الكثير من شعره ونثره وطرفًا من حياته. كان إسحاق يقرأ علينا من شعر العقاد وهو يهتز طربًا في داخله:

أمَحَل الدهر واضطرد — لا خميسٌ ولا أحد

لا انتظارٌ لموعد — أو هيامٌ بمن وعد

كل أيامنا تساوين — في الاسم والعدد

صبحها مثل ليلها — والتقى أمسها بغد

ويقرأ:

زرقة عينيك لا صفاءٌ — فيها ولكنه فضاء

حُمرة خديك لا حياء — فيها ولكنه اشتهاء

قوامك الرمح لا اعتدال — فيه ولكنه اعتداء

لم يكن شعر العقاد غريبًا عليَّ، فقد ظللت أستمع أطيافًا منه في مجالس مصطفى الصاوي وصحبه الاتحاديين، خاصة خلف الله بابكر وحسن وحسين عثمان الكد، إذ كنت أجلس على مقربة منهم بهدف خدمتهم، ولكني كنت أتلقف ما يروون، ومنه حبهم للعقاد لحبه السودان والسودانيين حتى كاد أغلب أبناء ذلك الجيل يحفظون شعره. ومما روى علي حامد في مذكراته إلقاء محمود الفضلي أمام العقاد عند زيارته للسودان قصيدته:

أبعـدًا أرجـي أم أرجـي تلاقيـا | كلا البعد واللقيا تهيج مـا بيـا

كان محمود شجي الصوت، كما روى علي حامد، يثير بترنمه بشعر عباس الذكريات في نفس الشاعر حتى أدمع العقاد، فوصف الحاضرون دمعته تلك بدمعة الجبار. حفظ ذلك الجيل للعقاد جميلًا عندما انتقل إلى مقابر حمد النيل لزيارة قبر صديقه معاوية محمد نور. وكان معاوية خلال إقامته في مصر ملازمًا للعقاد كما كان الأديب الكبير يتوقع له مستقبلًا زاهيًا في مجال الأدب إلا إن الأقدار قضت بأن يموت في يفاعته. وعند تأبينه بعث العقاد بقصيدة نابعة من القلب، منها:

أجل هذه ذكـرى الـشهيد معاويـة | فيالك من ذكرى على النفس قاسـية
أجـل هـذه ذكـراه لا يـوم عُرسـه | ولا يـوم تكـريم، ودنيـاه باقيـة
فما أقصر الدنيا التي طَوَّل الـضنى | أصـائله فيهـا، وأشـقى لياليـه
وما أضيع الآمـال، آمـال مَـن رأوا | مطالعـه في مـشرق النـور عاليـة
بكـائي عليـه مـن فـؤاد مفجـع | ومن مقلة ما شـوهدت قـط باكيـة
تبينـت فيـه الخلـد يـوم رأيتـه | ومـا بـان لي أن المنيـة آتيـة
ومـا بـان لي أني أطـالع سـيرة | خواتيمهـا مـن بـدئها جَـدّ دانيـة

معاوية، بلا مراء، كان عبقرية فذة، وإن لم يكن كذلك لما احتضنه العقاد وبكاه عند موته بدمع سخين، بل لما صبر لنقده الجارف لواحد من أقرب أصدقاء العقاد (إبراهيم عبد القادر المازني). وشكرًا لله أن أفلح ابن أخت معاوية الرشيد عثمان خالد في جمع ما تيسر له جمعه مما كتب في الصحافة المصرية باللغتين العربية والانجليزية، رغم ذلك بقيت صفحات كثيرة مطوية في سيرة معاوية ينبغي أن يعكف عليها العاكفون.

في زيارة الهرم الرابع

ظللت ألحف الرجاء على أستاذي إسحاق لكي يحملني إلى منتدى العقاد الأسبوعي عند زيارتي لمصر في منزله الواقع في شارع السلطان سليم بمصر الجديدة، والذي أصبح فيما بعد شارع شفيق غربال المؤرخ المصري المعروف. وكان من المداومين لحضور تلك الندوة أنيس منصور، والعوضي الوكيل، وعلي أدهم، وعبد الرحمن صدقي. كان الأستاذ إسحاق من الذين لا ينقطعون عن ذلك الندى خلال إقامته بمصر، وفي إحدى زياراتي للقاهرة اصطحبني إلى دار العقاد في مصر الجديدة لحضور إحدى ندواته الأسبوعية، فشهدت جمعًا غفيرًا من المثقفين المصريين وغير المصريين يتحلقون حول عملاق يكاد رأسه يلامس السماء يحيط رقبته بكوفية في غير وقت الشتاء. قلت لنفسي مَن ذا الذي يناطح رجلًا ذا سورة مثل هذا العملاق؟

كانت السهام تلقى على العقاد فيلقفها ليردها إلى نحور مَن حسبوا أنفسهم خصومًا له. فأهل اليسار لم يكونوا يطيقونه لما كتب عن الشيوعية رغم وصف لويس عوض للعقاد بأنه النموذج للمثقف الثوري. لم يشفع للعقاد عندهم أيضًا أنه كان من أقسى الناقدين لأنظمة الحكم المطلق وأكبر المنافحين عن الديمقراطية. ففي كتابه عن الحكم المطلق الذي أهداه لمصطفى النحاس في عام 1929 قال إن: "الديمقراطية، إن لم تكن خير أنظمة الحكم والمثل الأعلى لها، فإنها على الأقل أهون الحكومات احتمالًا وأقلها عيوبًا". العقاد لم يكن درويشًا من دراويش الديمقراطية مثل بعض من خبرنا في بلادنا، وإنما كان ناقدًا محللًا لها. فما قال به العقاد في عام 1929 هو عين ما قاله تشرشل في نهاية الحرب العالمية الثانية وجاء وقع الحافر على الحافر مع قول عباس. ففي رأي تشرشل: "الديمقراطية هي أسوأ نظام للحكم باستثناء كل الأنظمة الأخرى". سوء الديمقراطية، فيما نقدر، هو قلة تهذيبها (clumsiness) بسبب احترامها للتنوع والتعدد، وتوفيرها الحريات للمواطنين دون تمييز، وما كان لها أن تكون غير ذلك. أما عند أهل اليمين، فقد أنكروا عليه قوله: "من الخطأ تصور أن مسلم البعثة المحمدية هو

نفسه المسلم الذي يتكرر ميلاده في كل العصور". هذه النظرة التجديدية للإسلام لا يستسيغها الفقهاء الذين أرادوا الوقوف بالاجتهاد عند العصور الغابرة؛ فصاروا مثل الفريسيين (Pharsees) في المسيحية يقرؤون الكتاب بعيون الموتى. وعلى أيٍّ، فإن استهجان العقاد لمن يسمونهم العلماء لم يكن يقل عن استهجان طه حسين الأزهري لهم. قال العقاد عن أولئك الفقهاء: "عندما يصمت علماء الأزهر عن القول تظن أنهم لا يعلمون، وعندما يتحدثون يتأكد الظن باليقين". غير أن العقاد كان يميز بين الأزهريين، فعالم مثل محمد عبده الذي ألف العقاد كتابًا عنه ووصفه بالإمام المجدد لا يمكن أن ينسب للجهلاء. أما العميد طه حسين الذي كان أول نشأته طالبًا في الأزهر قبل أن ينتقل إلى باريس ومونبلييه، فقد قال عن الأزهر: "عند قدومك للأزهر أول ما ينبغي عليك أن تخلع هو عقلك قبل نعليك". عند وفاة العقاد قال الأستاذ إسحاق وهو يجفف دموعه: "لقد انهدم الهرم الرابع". وإن كانت مصر فقد عُرِفت عند العالم بأهراماتها الثلاثة، كان أستاذي إسحاق يرى بها هرمًا رابعًا.

العقاد لم يكن هَرمًا فقط بل كان أيضًا وطيدة من وطائد الكبرياء؛ ولهذا لم يرضَ لنفسه الخنوع لجبار. ومن بين ما روى عن الغرور الحميد للعقاد موقفه عند أول اجتماع للمجلس الأعلى للآداب في عصر عبد الناصر، والذي كان من المقرر أن يفتتحه وزير المعارف كمال الدين حسين. ولما أزف الوقت المحدد لبداية الاجتماع ولم يحضر الوزير، التفت العقاد للدكتور طه حسين ليقول: "**تقدم يا دكتور طه لافتتاح الجلسة إذ لا ينبغي أن ينتظر مفكرو مصر كائنًا مَن كان**". وعندما حاول الدكتور طه حسين الاعتذار للوزير لعل طارئًا ألم به انتصب العقاد واقفًا وقال: "إذن سأفتتح الجلسة". هذا ما فعل إلى أن وصل الوزير بعد بضع دقائق، فأخلى له العقاد المنصة (عقاديات، وديع فلسطين مجلة الهلال، يونيو 2012). ويروي أيضًا أحد تلاميذ العقاد (أنيس منصور) قصة عن أستاذه ذات معان. فعند سعي أنيس لترطيب الأجواء بين أستاذه العقاد وعبد الناصر حدد أنيس منصور (وكان قريبًا من الزعيم) موعدًا للقاء الرجلين دون أن يذكر أين

سيكون اللقاء إذ ظن أنه لا حاجة له لـذلك. ولما حـان وقـت اللقـاء في القـصر الرئاسي ولم يرَ أنيس للعقاد أثرًا اتصل به متسائلًا: "أين أنت يا أستاذ؟". وبـبرود قال العقاد: "أنا في داري". قال له أنيس: "ولكن الرئيس ينتظـرك". قـال العقـاد "وأنا أيضًا أنتظره". ومن الواضح أنه لم يَعِن للعقاد أبدًا أنه سيرتحل للقاء الرئيس في قصره، بل إن الرئيس سيزوره في بيته. ولعل هـذه الكبريـاء هـي التـي حملـت العقــاد على الاعتـذار عــن تسلُّم الجائزة التقـديرية للأدب التي منحهـــا لــه عبد الناصر، كما رفض تسلُّم الدكتوراه الفخرية التي منحتها له جامعـة القـاهرة. وفي عالم الجوائز الكبرى رفض جائزة نوبل في الأدب برنارد شو وجان بول سارتر لأنهما حسبا هذه الجائزة تكريمًا ممن هم ليسوا أهلًا لتكريمهما.

الأستاذ إسحاق في المجال الدبلوماسي

لا يكتمل الحديث عن الأستاذ إسـحاق إلا بالإشـارة لواحـد مـن انجازاتـه التي لا يذكرها الذاكرون، ولا يلم بها الكثيرون. ففي أول زيارة للـصاغ صـلاح سالم للسودان قرر الأستاذ محمد أحمد عمر صاحب الحادي الاحتفاء بـه في منزلـه بأم درمان، وكنت من بين المدعوين لذلك الحفل. وبقدر ما كنْت سعيدًا بالـدعوة كنت حريصًا على أن أصحب معي أستاذي إلى تلك المناسبة، وما كان علـيّ إلا أن أخطر "محمد أحمد عمر" برغبتي. في ذلك الحفل قدم إسحاق نفسه لصلاح سـالم كأستاذ في جامعة الخرطوم وخلال الغداء اختلى الرجلان ببعضهما يهمسان؛ وعند ذلك النوع من الهمس يـصبح اخـتلاس الـسمع ضربًـا مـن قلـة الأدب. وعنـد خروجنا في الطريق إلى الخرطوم أبلغني إسحاق أن الصاغ كان يرغب في أن يعرف المزيد عن التعليم الجامعي في السودان وما الذي ينبغي لمـصر أن تفعـل في ذلـك المجال. ورغم أن الذي كان يدور في رأس سالم هو توسيع نطاق البعثات المـصرية اقترح عليه إسحاق أنه مـع زيـادة عـدد البعـوث إلى مـصر والتوسـع في التعلـيم المصري الثانوي بالسودان، فمن المفيد أن تنشئ مصر جامعة في الخرطوم، أو فرعًا لجامعة القاهرة فيها. وفيما هو جلي استقر الأمر بعد تشاور صلاح سالم في القاهرة على الاقتراح الثاني.

اللقاء مع سالم كان له أيضًا أثر في حياة أستاذي، إذ سرعان ما استدعته الحكومة المصرية للالتحاق بوزارة الخارجية كنائب للسفير في الكونغو، وكانت الكونغو يوم ذاك مصدر اهتمام كبير لعبد الناصر خاصة عقب تولي لوممبا الحكم. لهذا انتدبت الحكومة كسفير لها بالكونغو واحدًا من أميز رجالاتها: الدكتور مراد غالب الذي صار فيما بعد سفيرًا لمصر في الاتحاد السوفيتي في عهد ناصر، ووزيرًا للخارجية في عهد السادات. وبعد الغدر بلوممبا ومصرعه كُلِّف إسحاق بمهمة عسيرة أداها بنجاح ألا وهي تهريب أبناء لوممبا إلى مصر، حيث تولت الدولة رعايتهم. وقد ظللت وبعض صحبي نزور أستاذنا في داره بالزمالك، أذكر من هؤلاء مهدي مصطفى، وعبد الرحمن عبد الله، محمد خير عثمان، عثمان محمد الحسن لننعم بصحبته وبكرم زوجته محاسن التي كانت تعتبرنا جميعًا أبناءً له.

في دنيا عميد الأدب العربي

أما العملاق الثاني طه حسين الذي حببه إلى نفسي أستاذي بشير محمد سعيد فلم يُتح لي لقاؤه إلا بعد بضع سنوات. كان أستاذنا إسحاق مفتونًا أيضًا بطه حسين. وقد روى لنا كيف كان وصحبه من الطلاب في جامعة القاهرة متى ما أزف الوقت لإلقاء طه حسين لمحاضرته يقولون: "**فلنذهب لنستمع إلى الدكتور طه يُغني محاضرته**". ذلك القول أذكى في نفسي الرغبة في لقاء الرجل الذي يتحدث وكأنه يعزف على آلة طرب. ويبدو لي أن الإعجاب بالدكتور العميد كان طاغيًا في الوسط العلمي في مصر مما تكشف عنه الرسائل التي كان يبعث بها إليه تلاميذه، ومنهم مَن نبغ في مجال الأدب. تلك الرسائل أودعها الأستاذ العميد للدكتور الدبلوماسي محمد حسن الزيات زوج ابنة طه حسين، أمينة. وقبل رحيل الزيات، استحفظ الزيات تلك الرسائل للدكتور عبد الحميد إبراهيم مع الكلمات الآتية: "لقد حملت هذه الأمانة إلى أمد أراده الله وهأنذا أحملها إليك، فعلها ترى النور على يديك". الدكتور عبد الحميد عمل كأستاذ للأدب العربي الحديث في عدد من الجامعات المصرية، كما عمل أستاذًا للأدب العربي في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن. وقد ظل إبراهيم على مدى ثلاثة عشر عامًا

يشرف على تنظيم مهرجان طه حسين السنوي بجامعة المنيا، كما له من المؤلفات أكثر من خمسين مؤلفًا منها: "موسوعة الوسطية" و"مقالات في الأدب العربي" التي جاءت في خمسة عشر جزءًا، ثم رسائل طه حسين التي لم ترَ النور إلا في عام (2006) أي بعد رحيل العميد، ثم الدكتور الزيات.

تلك الرسائل حفلت بالثناء الفائض من جانب مرسليها على العميد وأفضاله عليهم، كما شملت في بعض الحالات نقدًا من بعض أصدقائه الذين، فيما يبدو، كانوا راغبين في إنقاذ العميد من نفسه. كتب، مثلًا، للعميد معبرًا عن تقديره لمزاياه في الأدب والتأريخ الشاعر اللبناني خليل مطران، والشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري، والشيخ محمد متولي الشعراوي (رئيس بعثة الأزهر للسعودية) قصيدة تجاوزت أبياتها المائة بيت، ورئيس الأزهر الباقوري. كما كانت بين الدكتور طه والشيخ مصطفى عبد الرازق وأخيه علي رسائل حث فيها الدكتور طه عليًّا على الإقدام على الزعامة الدينية لما لمسه فيه من علم وجرأة في التعبير عن رأيه. ومن تلاميذه كان أكثر من كاتبه الدكتور محمد مندور، وزكي مبارك الذي كان يوقع رسائله إلى العميد بـ"ابنك وتلميذك". في واحدة من تلك الرسائل كتب مبارك لمعلمه: " إني أجد في مراسلتك عنتًا ومشقة، وأحاول في الكتابة إليك ما يحاوله المكدود في اقتلاع الصخر. لن تذبل الأيام ما يعتادني من الحب لك، والخوف منك، بل ستجدني حين تعود مثالًا لصدق البنوة، وسترى أن عاطفة البنوة قد تصل حين تصدق إلى مثل ما تصل إليه عاطفة الحب حين تثور من حولي الأعاصير". كتب سيد قطب أيضًا شاكرًا العميد عندما تناول بعض ما كتب في كتابه "فصول في النقد". إلى جانب ذلك كتب العقاد رسالة ودية إلى العميد بعد أن لمس في أسلوبه استفزازًا للقارئ وهو استفزاز كثيرًا ما يلجأ إليه الدكتور طه حسين لهز المسلمات. قال العقاد في رسالته: "إن لطه حسين هوًى داخليًّا لمصادمة الآخرين، ومن الخير كل الخير أن يضبط هذا الهوى فيسيِّره بدلًا من أن يسير معه".

طه حسين، في واقع الأمر، لم يكن مثل فارس لامنشا (دون كيخوته) يحارب طواحين الهواء، بل كان جادًا في الشخوص بكل بصيرته، لكيلا نقول بصره، إلى الشمال. فرغم كل ما قدم للأدب العربي، وأضاف إلى التاريخ الإسلامي، وجدد في البحث عن أصول اللغة العربية، فإن بصيرته كانت مشدودة لشمال البحر الأبيض المتوسط... ففي كتابه "مستقبل الثقافة مصر" وجه العميد سؤالًا هو: **"هل لمصر ثقافة... وما عسى أن تكون؟"**حتى في تحليله لأصول لغة العرب لم يسعَ الدكتور طه إلى البحث عن أصوله العربية في عدنان أو قحطان كما ظل يفعل بعض أدباء مصر وكل أدباء السودان. جمهرة أدباء مصر، وإن كان أغلب أهلنا في السودان يجهدون أنفسهم لإثبات نسبهم العربي كان طه حسين على خلاف هؤلاء يتشوف مستقبلًا أشد إبهارًا لمصر إن اتجهت شمالًا. لهذا اسخط كتابا طه حسينَ عن الشعر الجاهلي ومستقبل الثقافة في مصر الكثيرين المتمترسين داخل ماضيهم. قال العميد في بداية كتابه الذي أثار ضجة كان يتوقعها: "هذا نوع من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد لم يألفه الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق بأن فريقًا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وأن فريقًا آخر سيزوَرون عنه ازورارًا. ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث، أو بعبارة أخرى أريد أن أقيده فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت عنه إلى طلابي في الجامعة". "ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعًا ما أعرف أني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي. هذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره غير حافل بسخط الساخطين ولا مكترثًا لازورار المزورين. وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث لئن أسخط بعضًا وشق على آخرين، **فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل، وقوام النهضة الحديثة، وذخر الأدب الجديد**". تلك الكلمات: الاستنارة، النهضة، المستقبل، تعبر عن الغايات التي كان ينشدها العميد عند طرحه لكتابه على الملأ مما حسبه الكثيرون دعوة للأوربة (Europeanization).

مواقف العميد من الأوربة لم تكن مواقف عابرة؛ ففي مقدمة الرسائل

السرية -أي التي لم تنشر من قبل- أراد محققها أن يجعل من آراء طه حسين عملًا لحظيًا إذ قال: "إن الكتاب لا يؤلفه الكاتب، وإنما اللحظة التاريخية التي تنتقي شخصًا واحدًا له من الملكات والقدرات ما يستطيع أن يفي بمقتضيات هذه اللحظة". اللحظتان اللتان عناهما الكاتب، كما قال، هما: "اللحظة التي تخلقت في بداية القرن العشرين فامتطاها طه حسين وهمز جواده لكي يتخطى الحدود ويقفز فوق البحر ويلتمس معطيات الغرب". أما اللحظة الثانية فهي "اللحظة التي تخلقت في أوائل القرن الحادي والعشرين وتنتظر فارسها لكي يعيد الجواد الشارد إلى خيمته ليمدد رجليه على راحته بعد أن هده الشتات وأضناه اللغوب". سمّى محقق رسائل طه حسين اللحظة الأولى لحظة التغريب والشتات، والثانية لحظة العودة والبحث عن الذات. ثم مضى ناشر الرسائل تقديمه لها إلى الزعم بأن العميد قد دعا في تلك اللحظة، دون مواربة، إلى الاندماج في حضارة العصر بأن: "نسير سيرة الأوروبيين لنكون لهم أندادًا وشركاء في الحضارة بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يُكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومَن زعم غير ذلك فهو خادع أو مخدوع"، وكان بذلك ناقلًا أمينًا لرأي العميد. غير أن طه حسين قد أضاف إلى ذلك ما أثار -ومازال يثير- الغضب ضده عندما قال: "أما صلة مصر بالإسلام فهي صلة طارئة لا تتعدى مجرد الشعور الديني، وإذا صح أن المسيحية لم تمسخ العقل الأوروبي ولم تخرجه عن يونانيته الموروثة، ولم تجرده من خصائصه التي جاءت من إقليم البحر الأبيض المتوسط، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير العقل المصري أو عقل الشعوب التي اعتنقته". ومن الواضح أن طه حسين لم يكن يرى في التدين الذي كان يحيط به إلا نفاقًا وطول لسان، و"طول اللسان"، حسب قوله: "لا يمحو حقًا ولا يثبت باطلًا". أما عن التدين فقال إنه لم ينفذ أبدًا إلى المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، ودليله على ذلك: "إن ذلك التدين لم يغرس في دروس الشيوخ مرة واحدة معنى الرفق، ولم يعمق في نفوسهم مشاعر إنسانية كبيرة بحيث لا يستنكف أكبرهم عمامة وأوسعهم قفطانًا من أن يقول لي يا أعمى".

بتبنيه لهذا الفكر الجريء المصادم أراد طه حسين الخروج بالمثقفين، خاصة القصاص والروائيين الذين عاشوا في الغرب، وهم في صراع داخلي بين ما ورثوه من قيم وفكر وبين الواقع الجديد الذي عاشوه في غرب أحبوه، وإلا لما بقوا فيه ولجؤوا إليه، وبين التركيبة الخاصة للمجتمعات التي جاؤوا منها، ومافتئت عاجزة عن تقديم حلول عملية لمشاكل بلادهم. نتيجة لهذا الصراع انتهى ذوو الشخصية المزدوجة، أو انتهى أبطال رواياتهم، إلى الانتحار. ودونكم في أدبنا المعاصر شخصية مصطفى سعيد في رواية أديبنا العليب صالح الذي انتهى به الأمر إلى أن يرمي نفسه في البحر (النيل) لا يدري إن كان الموج سيحمله شمالًا أم جنوبًا. رغم هذه القراءة المنصفة لأفكار طه حسين في "مستقبل الثقافة في مصر، وأديب، وشجرة البؤس" أراد الدكتور عبد الحميد إبراهيم أن يؤطر مشروعًا جديدًا للتوليف بين الحضارتين من بعد أن عجز في الماضي رفاعة رافع الطهطاوي وعلي مبارك عن تحقيق مشروع هجين سمّاه المحدثون الوسطية. أوما آن لنا أن نعتبر بعد تجارب الأسلمة المتعددة التي لم تنجب لنا غير أنظمة كهنوتية في إيران، وجماعات تسعى للعودة إلى ظلامية دامسة مثل داعش وبوكو حرام، وأخرى تسفه كل مكاسب الحضارة الإنسانية مثل طالبان والقاعدة التي قسمت العالم إلى فسطاطين، (فسطاط الكفر وفسطاط الإسلام)، ومشاريع حضارية في السودان لم تفلح بعد ربع قرن من التجربة إلا في إشادة نظام للحكم أخذ ينكره حتى بعض صانعيه. لا عجب، إن لم تنجح تلك الأنظمة والجماعات الإسلامية والمنكرون الإسلاميون في الانتقال الحضاري بأهلهم في مجالات الحكم والإدارة والعلم والاقتصاد بسبب إصرارهم على القطيعة التامة بين الحضارات.

اللقاء المباشر

فرصة اللقاء المباشر مع العميد واتتني في عام 1957م عندما سافرت إلى القاهرة في زيارة رسمية بصحبة عبد الله بيه خليل. خلال تلك الزيارة طلب وزير الخارجية محمد أحمد محجوب لقاء طه حسين، وجاء الرد من العميد بالإيجاب. استأذنت البيه لأتركه قليلًا مع صحبه من أهل السياسة لأصحب محجوبًا للقاء

عميد الأدب. وما إن فعلت هذا حتى طلب اثنان من مرافقي رئيس الوزراء: سكرتيره طه صالح وياوره العسكري عمر محمد الطيب السماح لهما بالمشاركة في ذلك اللقاء، ومَن ذا الذي تتاح له فرصة للقاء عميد الأدب ولا يهتبلها. ذهب ثلاثتنا مع المحجوب للقاء عميد الأدب في نادي محمد علي الذي لم يكن بعيدًا عن الفندق الذي كنا ننزل فيه. وفيما اتضح لي جليًّا أن ذلك اللقاء كان هو الأول بين دكتور طه والمحجوب. طه حسين، فيما ظن البعض، لم يكن مشغوفًا بحب السودان أو حتى بالانتماء الحضاري العربي. هذا الأمر لا يرضي أهلنا في الشمال الذين يكاد أغلبهم يحتسبون أنفسهم من نسل عدنان. تلك الفكرة الخاطئة عن رأي طه حسين في السودان قد استنتجها البعض من حديث عَرَضي أورده العميد في كتابه الصغير "شوقي وحافظ".

في ذلك الكتاب عزا العميد الطلاوة في شعر شوقي إلى نفيه للأندلس في حين نُفي حافظ إلى السودان الذي قال عنه العميد: **"حيث الشمس مشرقة دومًا ومحرقة أبدًا، وحيث الكد الدائم والتعب الذي لا يفيد"** والكد هو اشتداد في العمل بلا فائدة. ولكن حتى لا نظلم العميد نقول إنه لم يكن من الذين يبخسون الناس أشياءهم فقد كتب، مثلًا، مقدمًا لكتاب أديبنا الكبير عبد الله الطيب (المرشد إلى فهم أشعار العرب) "هذا كتاب ممتع إلى أبعد غايات الإمتاع، **ولا أعرف أنه أتيح لنا مثله في العصر الحديث"**. رسالة الدكتور طه لم تكن مقدمة لكتاب، بل كانت بحثًا عميقًا في أدب عبد الله الطيب نشرته جريدة الجمهورية ونقلته عنها جريدة الرأي العام في 19 مارس 1957. مقال العميد تلاه في اليوم التالي مقال يرد فيه عبد الله الطيب على رسالة العميد (الرأي العام 20 مارس 1957) وفي المقالين ما يمتع القارئ ويزيد الكثير إلى معارفه في اللغة والبيان.

أدباء مصر الذين اهتموا بأمر السودان -وإن كانوا قلة- هم ثلة من الجهابذ ضمت، إلى جانب الدكتور طه، العقاد وزكي مبارك والجغرافي محمد عوض محمد. فقد كتب زكي مبارك في بداية أربعينيات القرن الماضي يقول: "الحق أننا فرطنا في حق السودان كل التفريط من الوجهة الأدبية، وإن لم نغفل عنه من

الوجهة السياسية. **ولو أننا بذلنا في خدمة السودان أدبيًّا معشار ما بذلنا في خدمته سياسيًّا لوصلنا إلى نتائج باهرة في توحيد القلوب**" (الرسالة 21/ 1/ 1941). أما محمد عوض محمد، فيحمد له أنه أول مَن أنشأ معهدًا لدراسات السودان في جامعة القاهرة، وتبعه في قيادته العالم الجغرافي محمد الصياد. كان الدكتور عوض يزور السودان كثيرًا وفي واحدة من تلك الزيارات كتب للدكتور طه حسين من ملكال، حيث كان يقوم برحلة استكشافية للنيل في منابعه يدعوه لزيارة السودان قائلًا في تلك الرسالة: "أرجو أن يعود عبد القوي بك - عبد القوي أحمد مدير الري المصري - قريبًا من مصر **ويحضرك معه في عطلة نصف العام لكي يراك الجمهور السوداني ويأنس بك**". حديث عوض عن العميد يكشف عن أنه لم يكن في صدر العميد غل نحو السودان، ولعل الذي أوحى بمثل هذا الغِل المزعوم إشارات في كتابه المختصر عن شوقي وحافظ.

أيًّا كان الحال بدا لي أن الدكتور طه عند لقاء المحجوب كان يتوقع لقاءً مع سياسي ملكت السياسة أقطار نفسه، إلا إن ذلك السياسي أبى إلا أن يكشف للعميد عن صفحته الأدبية. فمنذ بدء اللقاء أخذ المحجوب يقرأ بعضًا من شعره ويستشهد في مواقع أخرى بشعر الآخرين، خاصة المتنبي. لم يدع العميد المحجوب يكمل حديثه، بل قال له معترضًا: "**مالك وهذا الشحاذ الذي تردد شعره، الشاعر أبو تمام**". لم يذهلني تعليق العميد إذ كان كتاب الدكتور طه: "مع المتنبي" هو الكتاب المقرر لنا في امتحان الشهادة في السنة الأخيرة بمدرسة وادي سيدنا، وحقًّا لم أقرأ تقريعًا للمتنبي وتبخيسًا من شعره مثل ما جاء به طه حسين في ذلك الكتاب. ومن المدهش أن يرى من هم أعلم مني بالمتنبي في نقد العميد لذلك الشاعر ما يبرره؛ فقد كتب، مثلًا، أديبنا عبد الله الطيب فيما هو مسجل رسالتين للعميد، واحدة منهما كانت التماسًا منه لطه حسين بكتابة مقدمة لكتاب "المرشد". في تلك الرسالة قال عبد الله الطيب: "**الكتاب سيلقى سوقًا إن صارت مقدمة مولاي بين يديه**". هذا الالتماس استجاب له العميد. أما الرسالة الثانية لطه حسين فقد بدأها عبد الله الطيب بالقول: "إلى سيدي ومولاي العظيم" ثم

جاء فيها: **"وإني لواجد في كتابك مع المتنبي عونًا أيما عون، وإني لأكبر لفتاتك البارعة الرائعة التي لا يتأتى مثلها إلا بتوفيق من الله وأريحية في الخيال والفكر"**.

مع كل ما أبديت من تقدير لأطروحات العميد المختلفة في الأدب والتأريخ والسياسة فإنني، رغم كل ما وصم به العميد شاعرًا عملاقًا مثل المتنبي، بل هو شاعري المفضل، سأبقى من المعجبين به إعجاب أبي الحسن الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" والثعالبي في مؤلفه "يتيمة الدهر". وقد وصف الثعالبي النقد والقدح الذي وجه نحو أبي الطيب بأنه كان جميعه تعبيرًا عن محسدة والمحسدة مفسدة. قال الثعالبي أيضًا: "ولما عمل الصاحب من عباد رسالته عما ظنه مساوئ للمتنبي خرج القاضي أبو الحسن الجرجاني فأحسن وأبدع، وأطال وأطنب، وأصاب الصواب واستوفى الأمر بفصل الخطاب، وأعرب عن تبحره في الأدب وعلوم العرب، ومكنته من جودة الحفظ وقوة النقد".

مهما يكن من أمر ثابر المحجوب في حديثه عن المتنبي على تقديره العميق لذلك الشاعر مبينًا أسباب هيامه به ومضيفًا إلى ذلك بضعة أبيات لأبي تمام كيما يبين للعميد أنه على دراية أيضًا بشعر أبي تمام. في تلك اللحظة قال العميد للمحجوب - وكأنه أدرك أنه أمام أديب أكثر منه سياسيًا - **"مالك والسياسة، بل مالك بالناخبين والمنتخبين؟! إن ديوان شعر واحد لأفضل لك من كليهما"**. تلك كانت فرصة للمحجوب ليعلن فيها تبرمه بالسياسة، وهو يعود مرة أخرى إلى المتنبي:

مَا مُقامِي بأرض نحلة ... إلا كمقام المسيح بين اليهودِ

أنا في أمة تداركها اللـ ... ـهُ غريب كصالح في ثمودِ

في ذلك اللقاء كان يتحدث رجلان -العميد والوزير- حتى سكرتير العميد اللصيق به أبدًا وصديقه المرافق له دومًا الدبلوماسي اللبناني رؤوف أبو اللمع،

ظلا يستمعان لجدل، بل على الأصح، حوار ممتع، إذ في الجدل مخاصمة. قلت لنفسي من بعد ذلك الحوار الممتع ليت المحجوب الأديب عمل بنصيحة العميد لكي يترك السياسة حتى يكسب الأدب محجوبًا، ولا تخسره السياسة كما حدث. كما ليت ذلك السياسي الشاعر الذي يُضمر حسب قوله كرهًا للسياسة قال:

أنا في أمة (تداركني الله)   غريب كصالح في ثمود

بدلًا من قول أبي الطيب "أنا في أمة تداركها الله".

الفصل السادس

6

الحياة العامة والمهنية

التدريب خلال الدراسة

كان طلاب السنتين الأخيرتين في كلية الحقوق يُلحَقون في فترة العطلة الصيفية إما بالمحاكم أو ديوان النائب العام للتعرف على سير العمل في هاتين المؤسستين باعتبارهما المَوقِعين اللذين ينضم إليهما الراغبون في العمل الحكومي من خريجي تلك الكلية. عملًا بهذه السُّنة قضيت فترة التدريب في عامي قبل الأخير في الكلية بمحكمة الدويم تحت إشراف القاضي مهدي شريف، وكان قاضيًا من أميز قضاة السودان. ولا يكون القاضي قاضيًا إلا إن كان قاطعًا للأمور ومُحكِمًا لها وطاهرًا مما يريب. ومن مآثر مهدي شريف استقالته من منصب عدلي رفيع كان يحتله (النائب العام) حين طلب منه تولي الاتهام في دعوى رُفعت ضد موظف صديق له وابن بلدته. ولئن فعل مهدي ذلك حتى لا يقع في مظنة، أو لعدم اقتناعه بالاتهام، أو حرصه على عدم التأثير على العدالة بحكم قرباه للمتهم، يكون قد قدم نموذجًا في الاستقامة المهنية (Professional integrity) افتقدناه -وا أسفاه- في الأزمنة الكالحة. أما في العطلة الصيفية التي تلتها فقد واتتني، وزميل الدراسة الراحل عبد الرحمن يوسف، فرصة للالتحاق بمكتب النائب العام. أقول واتتني لأن تلك السنة حفلت بأحداث جسام في البلاد لتوافقها مع فترة تحقيق متطلبات الحكم الذاتي ثم الإعداد لتقرير المصير.

«كلفتة» الدستور والرموز: أولى المهام في المجال القانوني

«كلفتة» الأمور هي عدم إتقانها، وعند التحاقي مع الصديق الراحل عبد الرحمن يوسف بمكتب النائب العام كان على رأس ذلك المكتب فطاحل ثلاثة: كل واحد منهم غزير العلم في مجاله، وواسع التجربة فيه: مبارك زروق الوزير المتابع لإنشاء وزارة الخارجية وكان واحدًا من ثلاثة من رجال القانون اختيروا لمتابعة تعديل الدستور، والنائب العام أحمد متولي العتباني، والمحامي العمومي عابدين إسماعيل. ذلك رهط من أهل القانون يستحق من عجز عن التمهر على يديه أن يوجع باللوم، إن لم يكن يجلد بالسوط. وعلى أي فما يعنينا من أمر في تلك الفترة هو إجماع القوى الوطنية على خيار الاستقلال وإعلانه من داخل البرلمان. وكانت اتفاقية الحكم الذاتي (الاتفاقية المصرية – البريطانية) قد نصت على إقامة جمعية تأسيسية لتضع دستورًا للسودان، ثم تنصرف من بعد إلى تقرير مصيره إما باختيار الاستقلال أو الاتحاد مع مصر. نتج عن ذلك الإجماع أمران: الأول هو إلغاء خيار الاتحاد الذي ظلت الأحزاب الاتحادية بقيادة الزعيم الأزهري تدعو له، والثاني هو المضي قُدُمًا بإعلان استقلال السودان من داخل البرلمان. وفي ذلك الزمان كان الوصف الذي يطلق على دعاة الاستقلال هو

الانفصاليون زراية بهم إذ إن الموقف الوطني الصحيح، في رأي الاتحاديين، كان هو الاتحاد مع مصر. مع ذلك ما فتئ بعض المتشدقين بالكلام يلوون ألسنتهم ويتفصحون في الحديث بأن الاستقلال كان هو هدف الاتحاديين منذ البداية.

وضع دستور جديد لسودان مستقل لم يكن أمرًا ممكنًا إلا بعد الإجماع السياسي بين الاتحاديين والاستقلاليين على إعلان الاستقلال في (1/ 1/ 1956). وبما أن الفترة بين الاتفاق على الاستقلال بين طرفي المعادلة السياسية في السودان، وبين اليوم المعين لإعلان الاستقلال لم تكن كافية لإعداد الدستور؛ كلفت الجماعتان تلك اللجنة الثلاثية (مبارك زروق، ومحمد أحمد محجوب زعيم المعارضة، وأحمد متولي العتباني النائب العام) بتعديل الدستور القائم الذي أعده للحكم الذاتي القاضي البريطاني ستانلي بيكر حتى يتوافق مع متطلبات الاستقلال. ذلك الدستور "الاستعماري" - دستور ستانلي بيكر - ظل هو الأساس لكل دساتير السودان المستقل حتى عام (1973) عندما أصدر نظام مايو ما سُمّي دستور السودان الدائم. فعند إعلان الاستقلال أصبح الدستور الذي أعده القاضي البريطاني ستانلي بيكر ليكون أساسًا لمرحلة الحكم الذاتي هو دستور السودان المستقل دون زيادة إليه أو نقصان منه إلا في بعض الأمور الإجرائية. من تلك الأمور تحويل سلطات الحاكم العام إلى السلطة السيادية الجديدة (رأس الدولة ورئيس الوزراء) أو إلغاء المادة التي تحرم على قضاة المحكمة العليا العمل بالمحاماة. وإن قلنا إن ذلك الدستور قد أُقِر على عجل عند الاستقلال، فما بال الدستور نفسه يصبح دستورًا لحكومة ما بعد نظام عبود وهي الحكومة التي ضمت أحزابًا وهيئات أقضت مضجع عبود ونعتت نفسها بحكومة الحداثة الثورية. كان من الواضح أن القوى الديمقراطية- بيمينها ويسارها - لم تكن قد أعدت للأمر عدته حتى بشأن الدستور الذي ستحكم به وتحتكم إليه، بل ارتضت مرة أخرى أن يكون دستور ستانلي بيكر قانونًا أسمى (supreme law) انعكس فيما سُمِّي (دستور 1956م معدل 1965م).

حتى لا نظلم أستاذنا الفقيه عتباني نقول إنه، رغم تبنيه وصاحبيه زروق ومحجوب لاتخاذ دستور ستانلي بيكر دستورًا لأول دولة سودانية بعد استقلال السودان، فقد استنجد بخبراء من خارج السودان لمراجعة ذلك الدستور، ومن أولئك الخبراء عالمان مشهود لهما بالخبرة والكفاءة: الفقيه الدستوري المصري عبد الرازق السنهوري والسير إيفور ديننق أستاذ القانون الدستوري في جامعة كامبردج. ومن المؤسف أن آراء هذين العالمين حول صناعة الدستور لم تلقَ ما تستحقه من بحث بين المنشغلين بالقانون الدستوري في السودان. أخمن بأن تعليقات السنهوري ودينيق مازالت متوافرة في وزارة العدل ولم يحق بها ما حاق بالوثائق المودعة في دار الوثائق، ولكن يُسعد المرء أن الحظ قد أدرك وثائق جننقز عندما سخر لها الله كلية لندن الجامعية (University College, London) لإجلائها على الناس في كتاب بعنوان "أوراق السير إيفور جننفز " صدر في عام 2014. ذلك الكتاب تضمن آراء العالم الدستوري في دساتير ثلاثة عشر بلدًا نشدت رأيه في دساتيرها: سيلان (سري لانكا)، أثيوبيا، جبل طارق، الهند، مالطا، ماليزيا (الملايو)، نيبال، نيوزيلندا، الباكستان، روديسيا، سنغافورة، جنوب أفريقيا، والسودان.

في أكثر من كتاب ومقال وصفنا ظاهرة حياكة الدساتير بـ"شُغل الترزية في يوم الوقفة"، وهو "تفصيل" شمل حتى الرموز. فعند الحديث عن العَلم كان من رأي بعض رجالات الأنصار أن يحمل علم السودان رمزًا يعبر عن الثورة المهدية لتأكيد الصلة بين دولة السودان المستقلة الأولى ودولته الثانية. ذلك الاقتراح (الأنصاري) لم يلق ترحيبًا من الختمية ومَن والاهم، إذ إن الطائفتين قد دقتا بينهما عطر منشم. لهذا اتفق الطرفان على راية تعبر عن الجغرافيا لا التاريخ: الماء، والصحراء، والزرع. ذلك هو أصل العَلَم الذي ظللنا نباهي في كل عيد من أعياد الاستقلال برفعه على ساريته. وقد ظلت صحافة السودان ووسائل إعلامه المسموعة والمرئية تنسب صنع العلم إلى سيدة فاضلة قد تكون هي التي اختاطت العلم، لا من حدد ألوانه ومواقعها على القماشة ودرجات التلوين فيها. فالاستهانة براية الوطن بهذه الصورة لا يشرف واضعيها ورافعيها، كما يبين جهلًا

مروعًا من جانب ناشري تلك الأقصوصة في أجهزة الإعلام بمكان العلم الوطني في تاريخ الشعوب. ذلك العلم استبدلته حكومة مايو بِعلَم آخر أصبح صنعه هو الآخر محل أكاذيب. فمن بين المؤرخين الهواة من نسبه إلى قرار من الجامعة العربية بتوحيد الأعلام العربية.. ولو رجعت إلى مضابط الجامعة قد لا تجد قرارًا واحدًا كهذا. فالعلم السعودي ما زال هو العلم السعودي الذي رفعه باني الدولة الملك عبد العزيز، والعلم المغربي هو العلم المغربي، والعلم اللبناني هو العلم اللبناني بأرزه المخضر. ولا يتوقعن أحد أن تبدل هذه الدول أعلامها بكل ما فيها من حمولات وطنية وتاريخية لأن الجامعة قضت بهذا. ولكن للحقيقة نقول أن أول تبديل لعلم الاستقلال وقع في بداية عهد مايو وفي مطلع المد الوحدوي. ذلك التغيير، خاصة في ألوان العلم استلهم أعلاماً ثلاثة: المصري والسوري والعراقي. وكان أكثر قادة النظام المايوي رغبة في تبديل العلم الجغرافي الذي اتفق عليه آباء الاستقلال هو السيد بابكر عوض الله – أمد الله في عمره – حتى يتوافق العمل الجديد مع أعلام الدول القائدة للوحدة العربية. وليس لأن قرارًا قد صدر بذلك من الجامعة العربية. وفي زيارته لنيويورك للمشاركة في اجتماع الجمعية العامة للأمم العربية أشرك عوض الله السفير فخر الدين في الأمر بحسبانه فنانًا فاقترح السفير الفنان إضافة المثلث الذي يتوسط العلم كرمز للنيلين الأبيض والأزرق ووافقه علي ذلك بابكر عوض الله.

كان ذلك أيضًا هو الحال بالنسبة للنشيد الوطني، فالأناشيد الوطنية عبر التاريخ تستلهم أمجاد الأمة التاريخية وتعبر عن طموحاتها الراهنة وأمانيها المستقبلية، وتحث حاكميها ومحكوميها على رعاية تلك الأمجاد والسعي لتحقيق هذه الطموحات. لأجل هذا ظلت الدول تكلف كبار موسيقييها وشعرائها بالتباري من أجل وضع نشيد يعبر عن كل هذه المعاني. فالنشيد الوطني الفرنسي صاغه الموسيقي الشاعر روجيه دي ليل (Roger de Lisle) وتبناه المؤتمر القومي الفرنسي في عام (1795) ليصبح نشيدًا للثورة؛ والنشيد الهندي (Jana Gana Marna) صاغه الشاعر رابندرانات طاغور باللغة السنسكريتية، وترجمه للغة

الهندية شاعر مسلم (عابد علي) لينشد للمرة الأولى في اجتماع حزب المؤتمر الهندي في كلكتا عام (1911) ثم ثبتته من بعد الجمعية التأسيسية كنشيد للهند عند الاستقلال في (24يناير 1950). أما آباء الاستقلال السوداني فقد عمدوا إلى منهج "ترزية يوم الوقفة" نتيجة للعجلة التي صحبت إعلان الاستقلال حين سطوا على نشيد "نحن جند الله، جند الوطن" الذي أعده الشاعر أحمد محمد صالح لجيش السودان، واقتطاع جزئه الأول ليكون نشيدًا وطنيًا في حين أُلغي الجزء الثاني الذي يقول:

نحن أسد الغاب أبناء الحروب   لا نهاب الموت أو نخشى الخطوب

نحفظ السودان في هذي القلوب   نفتديه من شمال أو جنوب

بالكفاح المر والعزم المتين   وقلوب من حديد لا تلين

ومن الغريب أن الآباء الأكرمين أنفسهم عندما أرادوا وضع نشيد للمؤتمر لم يذهبوا إلى «كلفتة» الأمر، بل طرحوا الأمر لمسابقة بين الشعراء وكلفوا لجنة مختارة لانتقاء النشيد المناسب. ودون سعي من جانبنا لتبرير ذلك الاختطاف للنشيد نقول إنَّ هناك سابقة في التاريخ لهذا الأمر هي نشيد العلم الأمريكي الموشى بالنجوم (Star- Spangled Banner). ذلك النشيد صاغه شاعر قانوني شاب لم يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين هو فرانسيس سكوت كِي (Frnacis scott Key) احتفاء بانتصار البحرية في الدفاع عن قلعة ماكهنري، وأضحى منْ بعد شعارًا للبحرية الأمريكية ثم حوله الرئيس ويلسون ليصبح نشيدًا قوميًا. وقد احتفلت الولايات المتحدة في أكتوبر 2014 بمرور مائتي عام على رد جيش التحرير الهجوم البريطاني عن تلك القاعدة العسكرية التي نسبت إلى جيمز ماكهنري، وهو جراح عسكري أيرلندي انضم إلى جيش التحرير وأصبح، فيما بعد، وزيرًا للدفاع في حكومتي جورج واشنطون وجون آدمز.

دورنا في هذه "الكلفتة" الدستورية كان مراجعة سلطات الحاكم العام في

دستور الحكم الذاتي وإحالتها إما لرئيس الوزراء، أو مجلس الوزراء، أو الإبقاء على السلطات السيادية لمجلس السيادة، وهو الاسم الذي أطلق على رأس الدولة. أغلب السلطات التي بقيت لمجلس السيادة كانت شكلية مثل ابتعاث السفراء السودانيين للخارج أو اعتماد السفراء الأجانب؛ ولهذا كانت مهمتنا غير عسيرة، خاصة بعد التوجيهات التي أمدنا بها النائب العام. ولكن قبل البدء في تلك المهمة جاءنا النائب العام عتباني ليقول: "يا أبنائي هناك مهمة أخرى يرى الوزير زروق أن تقوما بها، ألا وهي رصد القوانين الاستعمارية التي تسيء إلى السودانيين بهدف عرضها على الرئيس للموافقة على إلغائها". وعند سؤالنا عن ماهية تلك القوانين المسيئة أشار عتباني، كمثال، إلى قانون قديم مهجور كان يُحَرِّم بيع الخمور الإفرنجية للسودانيين باستثناء الأطباء وبعض كبار الموظفين. بموجب توجيهات النائب العام قمت وصديقي عبد الرحمن بمراجعة سلطات الحاكم العام، كما رصدنا القوانين التي قيل إنها سيئة السمعة، فأخذ عتباني حصيلة عملنا وحملها مع الوزير زروق إلى الرئيس الأزهري.

في انتظارنا لنتيجة الامتحان جاءنا عتباني، وهو يقهقه قائلًا: "أبو السباع (يعني الأزهري) إدانا اليوم درس". سألناه: "إن شاء الله ما نكون عملنا غلط". قال "ما غلطوش يا أبنائي ولكن غلط الوزير زروق". سألناه "ما الذي حدث؟"، فقال: لقد أجاز الرئيس كل المقترحات حول تعديل الدستور ولكن عند الحديث عن القوانين "المسيئة للسودانيين" التي اقترح زروق إلغاءها كان للرئيس رأي آخر، خاصة عندما شاهد من بينها القانون الذي يُحرم بيع الخمور الإفرنجية للسودانيين. فرغم أن ذلك القانون لم يعد يطبق رغم وجوده بين القوانين قال الرئيس للنائب العام، حسب رواية عتباني: "يا أحمد يا متولي يا عتباني إنت عاوز أول رئيس مسلم للسودان، ومش بس رئيس مسلم وإنما هو حفيد قاضي قضاة السودان وجده الأكبر هو السيد إسماعيل الولي أن يُحل شراب الخمر للمسلمين". مضي الأزهري للقول، حسب رواية عتباني: "أنا عارف القانون ده

لا يطبق؛ لأن ضباط البوليس البيلقو القبض على الجناة يشربون، والنائب العام يشرب، والوزير (مشيرًا إلى زروق) يشرب، والقاضي الذي يحاكم يشرب، اتركوا الحبش ما تركوكم". تركنا الحبش حيث هم، ولم تتم معالجة ذلك الأمر من بعد إلا بمهارة عُرف بها عتباني عندما أشرف مع مَن معه من القانونيين على إصدار القانون رقم 3 المتعلق بتعديل القوانين لتتطابق مع الدستور الذي أطلق عليه بالانجليزية (Sudan Law Adaptation Act) الصادر في 9 يوليو 1956م.

الوظيفة عبودية

بعد التخرج في كلية الحقوق قررت النأي بنفسي عن أي وظيفة حكومية (القضاء والنيابة العامة) وكنت في ذلك عقادي التوجه. ففيما يروى عن العقاد قوله عندما هجر كل الوظائف الحكومية **"الوظيفة هي رق القرن العشرين"**. قد لا تكون الوظيفة الحكومية بهذه الدرجة من القبح، فالقبح هو كل ما ينأى عنه الذوق السليم أو يُبعد الإنسان عن الخير؛ لهذا أعزي عزوفي عن قيود الوظيفة لطبيعتي المتمردة على كل القيود. يفسر هذا تململي من البقاء في أي وظيفة حكومية - على المستوى الوطني أو الدولي - بعد قضاء خمس أو ست سنوات في تلك الوظيفة. مصدر التململ هو أولًا أن خمس أو ست سنوات يقضيها المرء في وظيفة كافية لأن يُقدم فيها كل ما يقدر عليه من إنجاز، أو يأتي به من بدائع في مهنته. كما أن الوظيفة متى ما طال بها العهد تصبح روتينًا، وفي الروتين رتابة. ذلك القرار لم يُرض بعض أهلي الذين يعشقون التمرغ في تراب الميري، والميري كلمة تركية تشير إلى السلطة ولعلها مستجلبة من الكلمة الفرنسية (mairie) أي مقر العمودية. وقد أحسن الخال أمير الصاوي إليّ عندما استنجد بأحمد سليمان لكي يحول بيني وبين العمل بالمحاماة وإغرائي بالالتحاق بالقضاء. أقول أحسن إليَّ؛ لأن أحمد سليمان ظل يقول للخال شيئًا ويفعل غيره. كان أبو سلمون يقول للخال: **"الولد ده سيبه لي"**، في الوقت نفسه الذي كان يقول للولد: **"خالك ده سيبك منه"**.

كانت أمنيتي هي الالتحاق بمكتب الأستاذ أحمد متولي العتباني الذي افتتحه بعد إلغاء النص الوارد في دستور الحكم الذاتي والذي كان يُحرِّم على قضاة المحكمة العليا العمل بالمحاماة بعد تقاعدهم. تقديري للعتباني لم يكن فقط لمهنيته العالية وعلمه الواسع، بل أيضًا لروحه المرحة وقدرته على التفاعل مع كل الناس وفي كل الأعمار. توثقت علاقتي مع العتباني أيضًا بسبب صداقتي لابنيه فريد ولؤي، وكانت علاقتي بالثاني أمتن رغم ما عرف عنه من انطوائية. ولعل أسلوبي في التعامل مع لؤي قد أرخى قليلًا من عِنانه، وجعله يفصح لي بما لم يكن يفصح به لغيري. رغم ذلك جذبني الصديقان علي محمد إبراهيم والفاتح عبود للانضمام إليهما في مكتب أميل قرنفلي، وكان مكتبًا نشطًا يتولى الاهتمام بقضايا أهم الشركات الأجنبية والوطنية في السودان. كما أن قرنفلي لم يكن بعيدًا عن الشأن الوطني، إذ كان واحدًا من اثنين من مسيحيي الشمال الذين شاركوا في لجنة الدستور. وعقب انتهاء فترة التدريب في مكتب قرنفلي انتقلت للعمل في مكتب مشترك مع الفاتح عبود في عمارة كونتوميخالوس التي كانت تعرف بعمارة المحامين، إذ ضمت مكاتب الأساتذة أحمد خير بعد انتقاله من مدني للخرطوم ليكون على مقربة من لجنة الدستور التي أصبح واحدًا من أبرز أعضائها، ومبارك زروق الذي عاد إلى المهنة بعد تكوين ما عرف بحكومة السيدين وانتقال حزبه للمعارضة، وأحمد زين العابدين، وأحمد محمد فضل.

بحكم العلاقات التي نمت بيني وبين رجال الأعمال خلال الحياة العامة أو في الحقل السياسي كانت أغلب القضايا التي عهدت لي ذات طابع مدني، وكنت كلما استعصى عليّ أمر ألجأ إلى واحد من ثلاثة رجال: الأستاذ أحمد متولي العتباني أو الأستاذ أحمد خير إلى جانب الأستاذ قرنفلي أستمدد منهم العون في معالجتها. على رأس تلك القضايا قضيتان اكتسبتا أهميتهما من مكانة الشاكي (الإمام عبد الرحمن المهدي) ومكانة القاضي الذي أصدر فيها الحكم (رئيس القضاء محمد أحمد أبو رنات) ولنا إليها عود في الفصل السادس من هذا الجزء. ولكن ثمة قضيتين سأتناولهما في هذا الفصل: الأولى لأنها، رغم مأساويتها، تكشف عن عزة

النفس عند أهلنا العمراب، والثانية تكشف عن براعة مولانا رئيس القضاء محمد أحمد أبو رنات الذي لم يكن يرتهن أبدًا أحكامه للإجراءات بل يستهدي دومًا بالوجدان السليم. والوجدان أو الفطرة السليمة تعبيران فلسفيان عن الاستعداد النفسي للإصابة في الحكم أو التمييز بين الحق والباطل. فعقب المحاولة الانقلابية التي قادها ابن العم علي حامد في عام (1959) وصدر بعدها حكم بالإعدام على الرجل وبعض المشتركين معه في المحاولة، بعث إلى الجد خلف الله خالد يطلب مني لقاءه، وكان ساعتئذ في مكتب ابنه كمال الذي كان بقرب مكتبي في عمارة كونتو ميخالوس. ذهبت لزيارة الجد فقال لي: **"أنا عاوزك في موضوع أخوك علي"** (يعني علي حامد) فظننت في الحال أنه يريد الاستئناف ضد الحكم الذي صدر ضده ولهذا قلت له على التو: "الاستئناف لا يجوز في أحكام المحاكم العسكرية الإيجازية ". وكان علي حامد ورفاقه قد حوكموا بواسطة مجلس عسكري إيجازي انعقدت جلساته في (14 نوفمبر إلى 25 نوفمبر 1959) برئاسة الأميرالاي محمد أحمد التجاني وعضوية القائمقام إبراهيم النور سوار الذهب والقائمقام يوسف الجاك طه، ومثل الاتهام فيه البكباشي مزمل سلمان غندور. ذلك الحكم أقره المجلس العسكري العالي في (25 نوفمبر 1959).

سألني خلف الله إن كنت أعرف منزل السيد محمد الخليفة شريف، ولم أدرِ ساعتها ما الذي يجمع بين السيد محمد الخليفة شريف والحكم الصادر ضد علي حامد محمد عثمان. بل زادت دهشتي عندما مضى خلف الله في القول: "سمعت أن السيد محمد هو خال الضابط أحمد عبد الله حامد، وقد علمت أن ذلك الضابط من عقلاء النظام وقد يفهم رجائي". سألته عن رجائه فقال لي "ستعرف عندما التقي بالسيد محمد؟". قلت لنفسي لماذا يريد الجد تعذيبي بعد أن أبنت له غير الممكن في أمر القضية. ولكن نتيجة لإلحافه اتصلت بمنزل السيد محمد الخليفة شريف ولحسن الحظ كان موجودًا في منزله، وهو المنزل نفسه القائم في شارع السيد عبد الرحمن والذي آلت ملكيته لخليل عثمان. أبدى السيد محمد: استعداده لاستقبال خلف الله في الحال، وما إن وصلنا إلى الدار وتبادل الرجلان التحايا

حتى انبرى خلف الله بعد أن نحى جانبًا ما قدم له من شراب ليقول للسيد محمد: **"أنا سمعت أن ابن أختك عسكري حقاني وما جيتك لأطلب منك تدخل لإنقاذ ولدنا من الحكم. ولدنا لا رباط ولا كاتل رقبة ولكنه عسكري يشهد له بالشجاعة كل مَن عرفوه. ليه الحكم ضده يكون الشنق، ولدنا يضرب بالرصاص مثل أي جندي شريف. هذا ما أريد أن تطلب من ابن أختك أن ينقله لعبود"**. عرفت عن أهلنا العمراب أنهم قوم شديدو الاعتزاز بأنفسهم لدرجة المغالاة، مع ذلك شعرت بفخر بكبرياء الرجل وحرصه على كرامته وكرامة بنيه. تلك الكبرياء عبر عنها أيضًا حسن متوكل بعد أن ووري جثمان علي حامد في الثرى، فبعد أن شكر كل مَن هرع إلى العزاء عند الدفن أضاف حسن متوكل: "ابننا مات ظلمًا دون ذنب، فله الشهادة ولكم الشكر، تنتهي مراسم العزاء بدفن الشهيد" ثم توجه إلى مكتبه. أتدري أين كان مكتبه؟ كان حسن متوكل آنذاك وكيلًا لوزارة الزراعة. القضية الثانية هي تكليفي من جانب الصديق عبد الوهاب موسى، وكان ذا قربى بالمتهم الصادق محمد الطيب في القضية نفسها التي أدين فيها علي حامد. طلب مني عبد الوهاب موسى مصاحبة قريبه في المحكمة كصديق وهذه واحدة من سخافات القضاء العسكري الذي لا يبيح للمحامي الدفاع عن متهم، وإنما ينعته بالصديق حتى وإن لم يكن يعرفه من آدم. الصادق، مثل علي حامد، حكم عليه أيضًا بالإعدام، وكان ثابتًا لم يتلجلج في إفاداته.

براعة رئيس القضاء

أما مثولي أمام رئيس القضاء في مكتبه، فكان عندما اتصل بي أستاذي محمد توفيق، وكان مديرًا لمصلحة العمل وقتها ليبلغني إن قاضي بورتسودان، مبارك المدني. قد أصدر أمرًا بمنع أحد قيادات العمال الشيوعيين من السفر إلى جنيف للمشاركة في المؤتمر السنوي لمنظمة العمل الدولية لاتهامه في قضية تتعلق بنشاطه السياسي. وكانت مصلحة العمل يوم ذاك تعد العدة لتسفير العامل مع بقية أعضاء وفد السودان لحضور ذلك المؤتمر الذي يشارك فيه، حسب التقاليد

السائدة، ممثلون للعمال ولأصحاب العمل وللدولة. طلب مني توفيق السفر إلى بورتسودان لاستئناف قرار قاضي بورتسودان (مبارك المدني)، على أن يكون ذلك في خلال يومين حتى يلحق ذلك العامل بالوفد. وبدلًا من الامتثال لطلب توفيق قررت اللجوء إلى أبي رنات في مكتبه لأروي له ما حدث في بورتسودان، ثم أسأله إن كان هناك من سبيل لمعالجة الأمر حتى لا يتفاقم الموضوع سياسيًا، لا قانونيًا. وبفطرته السليمة قال أبو رنات قد يمكن أن نعالج الموضوع دون إجراءات قانونية؛ لأن مثل تلك الإجراءات تتطلب زمانًا مما لا يعين على حل المشكلة الراهنة. أمسك أبو رنات بهاتفه ليخاطب شخصًا (عرفت فيها بعد أنه اللواء محمد طلعت فريد). قال أبو رنات للواء: "المؤتمرات الدولية مهمة للسودان، وهناك قواعد دولية للمشاركة فيها. وفي حالة منظمة العمل الدولية لابد من أن يتكون وفد السودان من ممثل للحكومة وممثل لرجال الأعمال وممثل للعمال يختارونه بأنفسهم". وكان أبو رنات ساعتئذ على علم بأن العامل المذكور كان شيوعيًا. ذهب أبو رنات من بعد ليقول للواء: "**الحكومة ما في حاجة لمشاكل زيادة، وقد يقود منع الممثل الشرعي للعمال من المشاركة في مؤتمر العمل الدولي إلى خلق مشكلة للسودان هو في غنى عنها**". وبالفعل أصدر طلعت قرارًا بإيقاف كل الإجراءات التي مُنع بسببها العامل من السفر.

خيل لي أن أبا رنات كان على علم بحنبلية قاضي بورتسودان؛ إذ روى لي قصة أخرى عن حكم أصدره ذلك القاضي إبان توليه القضاء في النهود. تلك القضية كانت حول اعتداء إحدى القبائل على بهائم قبيلة أخرى والفرار بها ناهبين. ونسبةً لضعف الأجهزة الأمنية الرسمية في المنطقة قام رجال القبيلة المعُتدَى عليها بابتعاث "فزعة" لمطاردة الناهبين من القبيلة الأخرى. وعند لحاق الفزعة بهم وقعت مناوشات أدت لمقتل بعضهم مما حمل السلطة الرسمية على التدخل في الأمر والقبض على الجناة. وحال اكتمال إجراءات التحقيق التي اعترفت فيها القبيلة المُغيرة بالنهب واعترف فيها المتهمون بالقتل بارتكابهم لتلك الجريمة انتهى الأمر إلى القاضي المقيم الذي ما كان منه إلا أن أصدر حكمًا

بالإعدام على القتلة إزاء اعترافهم والاعتراف سيد الأدلة. وعند رفع الأمر إلى رئيس القضاة أيد إدانة القاضي للجناة، ولكنه قرر تخفيض حكم الإعدام للسجن مضيفًا في قراره أن الفزعة مؤسسة تقليدية يلوذ بها أهل المنطقة لحماية أنفسهم وأموالهم. وفي غيبة المؤسسات الإدارية الأمنية التي تحمي النفس والمال مثل البوليس تقوم بهذه المهمة مؤسسات أهلية، مثل "الفزعة". وأي حكم قضائي يمكن أن يُجهض دور مؤسسة تحمي النفس والمال في غيبة الأجهزة الرسمية التي توفر تلك الحماية يقود إلى انفراط في عقد الأمن والسلامة العامة.

وطالما نحن في موضع الحديث عن أحكام الإعدام يفيد أن نشير إلى ظاهرة مرعبة حول هذه الأحكام، لأنها تكشف عن استهانة بالغة بحياة الإنسان في هذا الزمان وأي زمان ومن ذلك تزايد عدد المنتظرين لتنفيذ أحكام الإعدام عليهم. وتقول المعلومات إن الذين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام ومازالوا في انتظار تنفيذ الحكم عدد ليس بالقليل مما يستوجب النظر في كيف كان القضاء في العهد الاستعماري "البغيض" يعالج هذا الموضوع. تداولت هذا الموضوع مع الدكتور محمد الفاتح حامد، كما طرحته على الخال أمير الصاوي لمدّي بمعلومات عن حالات انتظار تنفيذ الأحكام بالإعدام في الماضي، وكان أمير سباقًا إذ أستل من خزانته، أو سحارته لا أدري، منشورًا أصدره السكرتير القضائي السير توماس كريد لقضاة ومديري المديريات الست، يلزمهم بوصول أي حكم بالإعدام في السودان إلى مكتبه في فترة لا تتجاوز الأسبوع بعد صدور الحكم حتى يتسنى له عرض الحكم على الحاكم العام، إما للمصادقة عليه أو تخفيف العقوبة. رغم صدور هذا المنشور، أصدرت محكمة كبرى في الأبيض حكمًا بالإعدام على أحد مواطني كردفان وهو حكم توافق عليه قضاة ثلاثة: القاضي الانجليزي رئيس المحكمة والقاضيان الآخران: المأمور الفاتح البدوي وناظر البديرية. لم يتسنَّ لرئيس المحكمة إرسال الحكم في المدى الزمني الذي نص عليه المنشور، إذ إن أحد أعضاء المحكمة (ناظر البديرية) كان قد ترك الأبيض قبل التوقيع على الحكم في رحلة لديار أهله لم يعد منها إلا بعد فترة. وبما أن أحكام المحاكم كانت تبعث

بالقطار من الأبيض إلى الخرطوم مرة واحدة في الأسبوع؛ تأجل إرسال الحكم إلى حين اكتمال توقيع القضاة الثلاثة لأسبوعين. اقرأ معي ما أبرقه السكرتير القضائي لمدير مديرية كردفان وقاضيها البريطانيين عند استلامه الحكم بعد أسابيع ثلاثة من إصداره: "إشارة إلى القضية رقم........... التي صدر الحكم فيها يوم.............. أن بقاء أي محكوم عليه بالإعدام مهددًا بفقدان حياته لمدة أربعة عشر يومًا أمر يتعارض مع كل أصول المبادئ الإنسانية. هلا تكرمتم بإبلاغه أن حكم الإعدام لن يطبق عليه تحت أي ظرف من الظروف".

with reference to murder case no..... dated........It is against all canons of humanity that the convict remains in peril of his life for a complete 14 days. Will you please inform him **now** that under no circumstances shall the penalty of death be inflicted.

ما أراد السكرتير القضائي البريطاني قوله لمدير المديرية البريطاني ورئيس المحكمة الكبرى البريطاني أيضًا هو أن في بقاء المحكوم عليه بالإعدام أمدًا طويلًا في انتظار تنفيذ حكم الإعدام عذابًا إضافيًّا لا تبيحه أصول الأحكام؛ لهذا أوصى السكرتير القضائي للحاكم العام بإلغاء حكم الإعدام وإبداله بالسجن.

في رحاب الصحافة

إلى جانب المهنة التي أعددت نفسي للالتحاق بها، كانت لي رغبة للالتحاق بمهنة الصحافة. وكان وراء تطلعي للعمل في ذلك المجال إدماني لقراءة الصحف المصرية منذ عهد الدراسة الابتدائية، كما كان من وراء ذلك التطلع تشجيع خفي من الخال الفاتح الصاوي الذي كان يصطحبني معه لجريدة صوت السودان التي كان يعمل فيها. زيارات تلك الصحيفة أتاحت لي التملي في طابعات ذلك الزمان التي كانت تدور بصوت صاخب، تشممت معه حبر المطابع، إن جاز القول بأن في رائحة الحبر عبير يتشممه الإنسان. على أن دخولي مجال الصحافة من بابها الواسع كان عندما قدمني الأستاذ بشير محمد سعيد إلى صديقه عبد الرحيم الأمين

الذي درج أصدقاؤه على تسميته "المعلم". المعلم في اللغة ليس هو فقط من يمتهن التعليم بل أيضًا هو الملهم للصواب، كما من معاني الكلمة المجتهد الذي يستفرغ جهده في العلم، وكان عبد الرحيم الأمين جامعًا لكل هذه الصفات. استقال عبد الرحيم من وظيفته كمعلم بمدارس السودان لينضم إلى ركب الاستقلاليين، وكان أول إسهام له في الحقل الصحفي مقالًا نشرته صحيفة الحادي الأسبوعية التي كان يصدرها محمد أحمد عمر. ذلك المقال كان نقدًا مقذعًا لمصر وسياستها في السودان، اختار المعلم عنوانًا له "مهر البغي"؛ مما عرض كاتبه للمحاكمة بتهمة إثارة الفتنة. في الوقت ذاته التحق عبد الرحيم بمدارس الأحفاد؛ مما جعل صديقه علي حامد رئيس تحرير المؤتمر ينعته في تعليقاته بتلك الصحيفة بـ"بطل الجهاد في مدارس الأحفاد".

رب سائل يقول ما الذي دفع بفتى نشأ في حمى أسرة عانى آباؤها من غلواء الخليفة، وظلوا أوفياء لورثة الحسن أب جلابية أن تكون الصحيفة الأولى التي يلتحق بها ذلك الفتى للتمهر في مجال تاقت نفسه إليه هي الصحيفة الناطقة باسم (الأنصار) لا تلك الناطقة باسم الطائفة الأخرى (الختمية). ذلك السؤال ليس بطارئ فقد طرحه بوجه آخر ذات مرة على الخال مصطفى الصاوي صديق الأسرة حسن أحمد عثمان الكد قائلًا "**أنت ود أختك ده ما حكيتوا ليه قصة خليفة المهدي مع أولاد السارة؟**" (الفصل الأول). رد الخال على صديقه بالقول "ما حكيت ليه القصة أنا بس، حكاها ليه جده الصاوي وعمه خليل ولكن رأسه قوي". لم تغضبني التهمة بـ"قوة الرأس" إذ حسبتها تعبيرًا عن الاعتداد بالرأي. ولكن في الواقع، عندما التحقت بجريدة النيل كأول صحيفة عملت معها لم أكن أبحث عن صحيفة، بقدر ما كنت أنشد العمل مع صحفي معلم يتكثر به الإنسان، وتنمو معارفه بالقربى منه، وكان ذلك المعلم هو عبد الرحيم الأمين.

كان للحركة الاستقلالية يومذاك صحيفتان: الأمة الناطقة باسم حزب الأمة، والنيل الناطقة باسم الأنصار وكانتا تصدران من مبنى حديث في الخرطوم، أطلق عليه اسم دار الصحف الاستقلالية. إلى جانب هاتين الصحيفتين أنشأ أب

الصحف أحمد يوسف هاشم صحيفة مستقلة استقلالية التوجه سمّاها "السودان الجديد". كما كانت لصحيفتي الأمة والنيل هيئتا تحرير مستقلتان، فحين كان الشاعر المهندس يوسف مصطفى التني -وكان صديقًا حميمًا لعبد الله خليل- يتولى تحرير جريدة الأمة، توالت في الإشراف على تحرير جريدة النيل مجموعة ضمت يعقوب عثمان، زين العابدين حسين شريف، عبد الله نقد الله، وحسن محجوب. حسن محجوب رجل لا يمكن نسيانه أو إغفاله؛ إذ كان خزانة للمعلومات، ومجادلًا ينقطع نفَسه ولا ينقطع جداله. وعند تخلي يوسف التني المفاجئ عن رئاسة تحرير جريدة الأمة آلت القيادة لعبد الرحيم الأمين. وفيما رُوي، كان وراء تخلي عمنا "العمرابي" يوسف التني عن وظيفته سببان: الأول هو انضمامه للحزب الجمهوري الاشتراكي؛ لظنه بأن حزب الأمة يسعى لإقامة نظام ملكي يتوج فيه السيد عبد الرحمن ملكًا على السودان. ذلك ظن ساد حتى في أوساط بعض المناصرين لحزب الأمة مما حمل السيد عبد الرحمن المهدي لإصدار بيان يعلن فيه عدم رغبته في أن يكون ملكًا على السودان. التبرير لتخلي التني عن رئاسة تحرير جريدة الأمة بأنه كان احتجاجًا على رغبة الإمام عبد الرحمن في أن يكون ملكًا على السودان يبدو غريبًا، إذ كان للتني موقف آخر حول المهدوية. فبعد أن أصبح التني واحدًا من أوائل السفراء الذين عينوا بوزارة الخارجية كُلِّف بتمثيل السودان في الحبشة. وعند تقديمه لأوراق اعتماده للإمبراطور هيلاسلاسي قال لنجاشي الحبشة " **يسرني يا مولاي أن أقف أمامكم لتقديم أوراق اعتمادي لجلالتكم كسفير لدولة السودان المستقلة الثانية، كما وقف عمي محمد عثمان حاج خالد ليقدم نفسه لسلفكم العظيم يوحنا كأول مبعوث لدولة السودان المستقلة الأولى** ". يبدو ذلك الزعم غريبًا أيضًا بعد أن أعلن الإمام عبد الرحمن المهدي في الجريدة الناطقة باسم الأنصار ما يلي: "أود أن يعرف عني بجلاء وحقيقة قاطعة أنني لا أقصد من خدمتي للسودان طلبًا للملك، ولم يساورني شك في ذلك" (النيل 13/ 4/ 1952) لهذا أرجح أن السبب الحقيقي لتخلي التني عن رئاسة تحرير صحيفة الأمة هو حصوله على بعثة دراسية في كلية رسكن في أكسفورد،

وفرها له مكتب العمل، الذي أصبح التني بعد إكمال الدراسة في تلك الكلية مديرًا له، الكلية التي التحق بها التني نُسبت إلى العالم الاجتماعي العمالي جون رسكن، وتم إنشاؤها ككلية جامعية ملحقة بأكسفورد، دون أن تكون جزءًا منها، لتتيح الفرصة للكبار الذين حُرِموا من فرص التعليم العالي لعدم حيازتهم للمتطلبات الأكاديمية التي تؤهلهم للالتحاق بتلك الجامعة. لهذا كان إنشاء تلك الكلية إضافة أخرى لجهود حزب العمال لتمكين القادرين من أبناء الطبقة العاملة الذين لم تتوافر لهم فرص التعليم العالي من الالتحاق بذلك التعليم.

أعود لأتابع قولي إن «بشير محمد سعيد» هو الذي قدمني لعبد الرحيم "المعلم" الذي عرض عليَّ العمل في فترة العطلات في جريدة النيل التي كان يتولى تحريرها. ورغم أن دوري الأساسي في الصحيفة كان هو تتبع أخبار المحاكم وجلسات المجلس التشريعي، كنت أيضًا، بتشجيع من المعلم، أكتب بعض المقالات السياسية. تلك مهمة ظللت أقوم بها خلال العطلة الصيفية في السنة الأخيرة في الثانوي والسنتين الأوليين في الجامعة. وقد أعفاني بشير محمد سعيد من تكلفة الانتقال إلى الخرطوم، إذ أتاح لي أن أرافقه كل صباح من داره إلى الخرطوم، حيث كان هو وصديقه وأستاذي محمد إبراهيم خليل يعملان في تحرير صحيفة انجليزية قبل إنشاء دار الأيام. كنت أفد كل صباح من دارنا القريب من دار بشير لألتقي هناك بثلة من العلماء: عبد الرحيم الأمين، أحمد الطيب أحمد، محمد إبراهيم خليل، وبرفقتهم رجل ينادونه الزنجباري. وقد علمت من بعد أن الرجل عربي من زنجبار كان يدرس في قسم الآداب بالمدارس العليا التي كانت نواة لجامعة الخرطوم وقد ارتحل عند الحرب الأهلية في زنجبار إلى سلطنة عمان، حيث أصبح فيما بعد وكيلًا لوزارة التربية. تلك كانت جماعة لو نلت وهمًا من علمها لكفاك. غمرتني أيضًا سعادة بالغة عندما ضم المعلم إلى فريق التحرير صديقًا لي أصبح ذا صيت هو الأستاذ صلاح أحمد فكسبته الصحافة، وكان ذلك قبل التحاقه بالإذاعة السودانية.

المعلم كان رجلًا فذًا في كل شيء، كان ذكي الفؤاد، حاضر البديهة، و"عليًا

بأسرار الديانات واللغة". ورغم استمساكه القوي بمواقفه السياسية، كانت للمعلم علاقات حميمة مع صحبه في الجانب الآخر من الخندق (الاتحاديين)، وعلى رأس هؤلاء كان الأستاذ علي حامد. كان المعلم وعلي حامد يجلسان في بهو فندق السودان في الأمسيات مما يجذب إليهما الغادين والرائحين، ومن أولئك كان هناك مَن عرفوا بدكاترة "العلم". والعلم صحيفة يومية أنشأئها مجموعة من المثقفين الاتحاديين الذين تعلموا في مصر، وابتعثتهم مصر لنيل الدكتوراه في فرنسا: محيي الدين صابر، عقيل أحمد عقيل، أحمد السيد حمد. وقد دأب أولئك "الدكاترة" متى ما حلوا على مجلس عبد الرحيم وعلي حامد على الحديث باللغة الفرنسية؛ مما أمض الرجلين. وذات يوم سأل علي حامد المعلم أن كانت هذه الجماعة تتحدث فعلًا باللغة الفرنسية فقال له "كلا، بل يتحدثون لغة اتفقوا عليها في أسوان عند اقترابهم من السودان". ومنذ ذلك اليوم أخذ علي حامد يقول للمعلم كلما شهد الدكاترة يقدمون على مجلسهم: **"الجماعة بتاعين اللغة المتفق عليها وصلوا"**. وبالطبع لم يكن فيما وصف به أولئك الدكاترة الأجلاء شيء من حقيقة، ولكن مباهاتهم بالحديث بلغة لا يلم بها جلساؤهم هو الذي أوقعهم في محنة مع أولئك الجلساء.

المعلم أيضًا كان صاحب طُرف ملاح، علّمني أروي بعضها، فذات يوم كان من بين رواد مجلس فندق السودان السيد إبراهيم جبريل الذي كان يحتل وقتها موقع رئيس المراسم بالقصر. وفي منتصف الجلسة وقف إبراهيم جبريل ليستأذن الجمع للمغادرة. سأله المعلم "لماذا تتركنا يا أبا خليل والليل مازال في بداياته". ليت جبريل لم يُفضِ بما هو عازم عليه، عندما قال للمعلم **"أنا رايح المطار لاستقبال ضيف عابر على السودان باسم الرئيس الزعيم"**. وما إن أبلغ "أبو خليل" المعلم أن الضيف العابر هو مكاريوس قائد النضال في قبرص حتى قال لي: "هيا بنا". قلت: "إلى أين؟". قال: "سأدلك على الطريق". خرجت من ذلك المجلس الذي كنت كثيرًا ما أتوق للمشاركة فيه متوجهًا حسب تعليمات المعلم إلى المطار. وعند وصولنا، فوجئ إبراهيم جبريل بوصول المعلم فسأله عما أتى به

للمطار. رد المعلم: جئت بوصفي مساعدًا للأمين العام لحزب الأمة لأحيي رائد الاستقلال في قبرص باسم حزب الأمة الرائد الحقيقي لاستقلال السودان.

الطرفة الثانية كانت خلال وجودي مع المعلم في إحدى الليالي بحدائق المقرن. وفي هدأة الليل تَسَمَّعَ المعلم أصواتًا على مقربة من مجلسنا تردد أغنية مما يسمونه غناءً هابطًا هذه الأيام، وكانت الأغنية تقول: "أزهري يتعلا والتاني حسين عوض الله". هذا أمر لا ينبغي أن يثير غضب أحد، ولكن الأغنية انحدرت من بعد إلى الإساءة إلى خصوم الأزهري. وما إن بلغت المغنية تلك المرحلة حتى انتفض المعلم واقفًا ليقول لي: "هيا بنا إلى البيه". وكان البيه يومذاك رئيسًا للوزراء. ورغم محاولتي إثناءه عن تلك الزيارة إذ كان الوقت قد قارب منتصف الليل قال لي المعلم: "عليك بالسمع والطاعة لمعلمك". تحركنا إلى أم درمان حتى بلغنا منزل البيه وكعهدي به لم يكن الباب موصدًا فدخلنا. كان البيه لحظتئذ يستعد للنوم في مسطبة داره ففوجئ بزائر الليل فقال لنا عندما تبين مَن نحن: "إن شاء الله خير". فروى له المعلم القصة، فما كان من البيه إلا أن طالبني بأن أحضر له من داخل المنزل بدفتر التليفونات بتليفون إبراهيم حسن خليل، وكان إبراهيم وقتها حكمدارًا لبوليس الخرطوم. في تلك اللحظة كاد المعلم أن يصعق وهو يهمس لي: **"يا للهوان أويساء إلينا في دارنا ونحن الأعلون"**. وعندما جئت برقم التلفون للبيه قال لي المعلم، مرة أخرى: هيا بنا. اعتذرت للبيه وخرجنا والمعلم غاضب. وما إن بلغت السيارة حتى أندفع معلمي يكرر: "يا للهوان. فقد ظننت أن في بيت البيه لائحة ذات أزرار: يضغط على الزر الأخضر فتتأهب الشرطة، ويضغط على الأصفر فيصبح الجيش في حالة استعداد، ويضغط على الأحمر فتستعد البوارج". كان المعلم ذا قدرة فائقة على التهويل من الأمور إن أراد، وفي هذا كانت له خطرات لا ترد في بال الآخرين ولا تهجس في نفوسهم.

أما الطرفة الثالثة، فكانت في خارج السودان، فعندما ترك المعلم السياسة في عهد عبود انتدبته اليونسكو كمستشار فني لمشروعاتها في "الأونوروا"، حيث استقر به المقام في رام الله. وكشأن الأمم المتحدة مع موظفيها الذين يعملون في

مناطق الشدة كانت تتيح لهم دومًا الفرصة للاستروح في مناطق رخية مثل القاهرة وبيروت. صادفت زيارتي للمعلم في القاهرة زيارة كان يقوم بها الدكتور عبد الحليم محمد، فطلب مني المعلم أن أصحبه للمطار لاستقبال الشيخ الحكيم. وبعد وقوفنا فترة من الزمان خرج فيها أغلب ركاب الطائرة الوافدة من الخرطوم، اندفع المعلم، ولحقت به، ليقتحم الصالة، خاصة بعد أن رأى الدكتور حليم واقفًا بقامته الشامخة يطل وهو في انتظار قرار ما. وما إن اندفع المعلم حتى وصل إليه يوزباشي ليسأله: "إنت مين؟ عاوز إيه؟" تلك الكلمات أغضبت المعلم؛ فارتفع صوته قائلًا "أنا عبد الرحيم الأمين هاساي، الأمين العام المساعد لحزب الأمة الذي حرر السودان من الاستعمار المصري. أما الرجل الذي جئت لأستقبله فقد كان رئيسًا للدولة السودانية حتى قريب". وبالطبع كان يشير إلى عضوية حليم في مجلس السيادة إبان الفترة الأكتوبرية. وعندما طلب اليوزباشي من المعلم أن يريه جواز سفره أخرج المعلم جوازه الأممي. في تلك اللحظة وقع هرج ومرج بين جماعة من حرس المطار، من بينهم اليوزباشي. وسط ذلك الهرج تسمعنا قول اليوزباشي لصحبه: "البيه ده من بتوع الأمم اللي جايين يساعدونا في حل القضية". وثائق السفر والعبور التي تصدرها الأمم المتحدة لا تميز بين الموظف في السكرتارية العامة وذلك الذي يعمل في اليونسكو أو اتحاد البريد الدولي. ومن الواضح أن اليوزباشي لم يعنه موقع المعلم في حزب الأمة -إن كان قد سمع بذلك الحزب أصلًا- أو رئاسة حليم لجمهوريتنا السنية، وإنما عنته "منظمة الأمم" التي كان بعض إخوتنا في مصر يعولون عليها كثيرًا لحل "القضية". رحم الله المعلم النابه، فعندما جاءني نبأ غيابه السرمدي قضيت كل عبرتي وأنفدت كل دموعي حزنًا عليه، فقد أفاض عليَّ مننًا كثيرة لا تنكر، وأهمها ما تعلمت على يديه من حرص على التمييز بين جيد اللغة ورديئها.

التعرف على عبد الله خليل عبر الصحافة

صلتي بعبد الله بيه خليل نشأت عندما اتخذ لنفسه - باعتباره سكرتيرًا لحزب

الأمة - مكتبًا في دار الصحف الاستقلالية التي كنت أعمل فيها تحت إشراف المعلم عبد الرحيم الأمين، بل إن المعلم هو الذي قدمني إليه. وكان مكتب البيه خلية نحل إذ كان يغشاه الرائح والغادي. من هؤلاء زعماء القبائل الذين تعرفت من بينهم على أشياخ فضلاء تقول عندما تتلقاهم وتبادلهم أطراف الحديث: "على الخبير وقعت". من هؤلاء أذكر الناظر يوسف العجب، الناظر محمد أحمد أبو سن، الناظر سرور رملي. كما كان من رواد مكتبه الصحفيون على امتداد ألوان الطيف السياسي يتزاحمون لتسقّط الأخبار أو الحصول على التصريحات. وإن قال قائل ان اليمين واليسار - أيًا كان معنى الكلمة - كالماء والزيت لا يلتقيان، فطالما التقيا في رحاب البيه. كان من بين هؤلاء شيوعيون مثل أحمد سليمان وعبد الرحمن عبد الرحيم الوسيلة، خاصة في الفترة التي تحالف فيها الشيوعيون مع حزب الأمة، فامتزج الزيت بالماء دون أن أزعم أن مزاجهما كان كافورًا. عن امتزاج الماء بالزيت عبر الوسيلة في لقاء سياسي بدار الأمة بالقول: **"معنا العمال والمزارعون وجماهير الأنصار ذات البأس الشديد"**، أو قوله عندما سأله أحدهم مستنكرًا تعاون الحزب الشيوعي مع الطائفية: **"اسمع في السودان السيد علي والسيد عبد الرحمن وبوث ديو وما عندنا طريقة إلا أن نتعاون معهم"**. بوث ديو هو نائب دائرة الزراف، وكان من أنشط نواب حزبه في العمل السياسي الوطني، كما كان من ألصقهم بساسة الشمال حتى إنه سَمَّى أحد أبنائه "شنقيطي" نسبة إلى محمد صالح الشنقيطي.

الصحافة السودانية المعاصرة والضوابط المهنية

مع عشقي للصحافة قلت في مقدمة هذا الكتاب إن انحدارًا سحيقًا قد لحق بتلك المهنة. ذلك الانحدار كان نتاجًا للتحلل الأخلاقي من كل قيد معنوي أو أخلاقي تفرضه المهنة. وعندما يقع مثل هذا الخطأ من صحفيين مرموقين يصبح الخطأ خطأ مع سبق الإصرار، وعندما ينشر على صفحات صحيفة ذات شأن يصبح النشر مصدر قلق. فقد قرأت مثلًا خمسة تحقيقات لم أتوقف عند الأول منها

كثيرًا، ولكني آليت على نفسي ألّا أغض الطرف عنه عندما نشرته صحيفة ذائعة. أما الثاني والثالث والرابع فجديرة بالتأمل لأن كاتبها صحفي مخضرم. المقال الأول نشرته صحيفة ذات حضور إعلامي كبير في باب قصص الدنيا (آخر لحظة 20/ 6/ 2014) وكان عنوان المقال: **"الأزهري يلقن البريطانيين درسًا قاسيًا"** متمنيًا، حسب قوله: **"رصد مثل هذه المواقف المشرفة لنا"**، وأي شرف في نشر الأكاذيب. روى الكاتب أنه عند دخول الأزهري لقصر بكنجهام لملاقاة ملكة بريطانيا وأعضاء مجلسها الوزاري، كانت تتوسط القاعة الفخمة الضخمة طاولة اجتماعات بطول القاعة، وفي صدر القاعة كرسي متميز خصص لجلالتها، وكان على الوفد السوداني أن يجلس بروتوكوليًّا على يمين الملكة. ولكن الرئيس الأزهري "جلس عامدًا **وإتوهط كمان** (وهذه كلمات الكاتب) في كرسي جلالتها". وعندما جاء مندوب البروتوكول لينبهه إلى خطئه قال له الرئيس الأزهري: **"لا يا أخي أنا لم أرتكب خطأ بروتوكوليًّا كما زعمت، بل تعمدت الجلوس على عرش مملكتكم لكي أثبت لكم أيها البريطانيون أنكم لا تطيقون مجرد الجلوس على كرسي يرمز لعرشكم، بينما منحتم أنفسكم حق الجلوس على عرش بلادي خمسة وخمسين سنة دون وازع أو ضمير"**، ثم قام ليجلس على الكرسي المخصص له بعد أن دوت القاعة بالتصفيق من الجانبين السوداني والبريطاني. "لم يفصح الكاتب عن الأسباب التي حملت البريطانيين على التصفيق، **فلربما صفق السودانيون إعجابًا بما فعله رئيسهم.** ليت الكاتب وقف عند ذلك، بل أضاف أنه في اليوم التالي صدرت الصحف البريطانية وسمّاها الكاتب بأسمائها (التايمز، الجارديان، والديلي ميرور) لتكتب في عناوينها بالخط العريض **"السودانيون يلقنون البريطانيين درسًا قاسيًا"** هذه القصة المنسوجة هي نكتة سخيفة، ويكمن "سخفها" في أنها لا تتفق مع الوقائع ولا تتوافق مع التقاليد.

زيارة الرئيس الأزهري لبريطانيا كانت في (نوفمبر 1954) ولمّا يستقل السودان بعد. ولاشك في أن الهدف من تلك الزيارة كان هو البحث عن سبل التعاون مع بريطانيا في المرحلة القادمة. خلال تلك الزيارة التقى الأزهري وزير

الخارجية أنطوني إيدن، ولعله أوحى لإيدن خلال لقائه معه برغبة حزبه في التحول من الاتحاد للاستقلال. فالمرة الأولى التي كشف الأزهري فيها عن مثل هذه الرغبة كانت خلال زيارته هذه للندن؛ إذْ صرح للصحفي المرافق للوفد (بشير محمد سعيد) بأن حكومته "**لم تقرر بعد إن كانت ستتوجه إلى الاتحاد مع مصر أو الاستقلال**". أما اللقاء مع الملكة فقد تم عند استقبالها للأزهري في قصر باكنجهام بحضور رئيس الوزراء ونستون تشرشل ووزير الخارجية أنطوني إيدن، وليس مجلس الوزراء بأكمله كما زعم الكاتب. وأي شخص يلم بالأعراف في بريطانيا وغيرها من الممالك يدرك أولًا أن الملك أو الملكة لا يستقبلان ضيوفهما في قاعة العرش حتى يجلس عليه الأزهري، كما يدرك ثانيًا أن رئيس الوزراء البريطاني لا يصحب معه وزراءه للقاء الملكة؛ لأن الملكة تسود ولا تحكم (she reigns but does not rule)، ومن ثَمَّ يصبح الحديث عن "**اصطفاف مجلس الوزراء البريطاني للقاء الملكة وضيفها الزائر**" حديثًا لا يصدر عن أي شخص يلم بالمراسم في القصور. مثل هذه الحكاوي يمكن أن تردد في ونسة الحيشان لا على صفحات الصحف لأن نشرها يسيء إلى الناشر قبل الكاتب، كما يسيء إلى الأزهري الذي عرف الناس عنه احترامه للتقاليد في لقاءاته المتعددة مع الرؤساء. فلماذا يريد كاتب، أو تبيح صحيفة لكاتب، وصم الزعيم الأزهري بما وصم به. كل هذه أمور لا داعي لها، خاصة عندما لا تضيف جديدًا للخبر أو المقال إلا إن كان هدف الكاتب هو التظاهر بالإلمام بالتاريخ، والتاريخ وقائع مثبتة لا توهم وافتراضات. ولعلني على يقين، أن أيًّا من رؤساء تحرير الصحف في الماضي ما كان ليسمح لمثل هذه الأخطاء أن تسوِّد صفحات إصداراته حتى قبل توافر كل وسائل التواصل الاجتماعي المتوافرة اليوم والتي تعين الصحفي على الوصول للحقائق والتثبت من الوقائع.

نجيء من بعد إلى الصحفي المخضرم وتحقيقاته الأربعة، وعلّنا لا نتوقف كثيرًا عن تعليقيه الأول والثاني؛ لأنه ربما حمله عليهما ما يعاني منه أهل السودان جميعًا ألا وهو متلازمة العراقة الأسرية. ففي السودان يُنسَب الأشخاص

لبيوتاتهم: أولاد المهدي، وأولاد الميرغني، وأولاد أبو العلا، وناس عبد المنعم. ولكن فيما أعلم (وفوق كل ذي علم عليم) ليس في بريطانيا أولاد روبرتسون، أو ناس براون. ففي المقال الأول نسب الكاتب السير جيوفري هاو عندما أصبح وزيرًا الخارجية بريطانيا في عام (1989) إلى السير روبرت جورج هاو حاكم عام السودان (1947 - 1954) في حين لم يعرف لروبرت هاو غير ابن واحد من زوجته ميري هسكت التي رحلت عن الدنيا في سبعينيات القرن الماضي. أما في المقال الثاني فقد نسب الصحفي المؤرخ نفسه الوزير البريطاني جورج روبرتسون عند تعيينه وزيرًا للدفاع في حكومة بلير الأولى إلى السير جيمس ويلسون روبرتسون السكرتير الإداري في الحكم الاستعماري بالسودان. ذلك منصب لم يبقَ فيه الوزير جورج روبرتسون طويلًا، إذ صار بعد فترة وجيزة في الوزارة الأمين العاشر لمنظمة حلف الأطلسي في (يناير 1999 إلى 2004).

ما لا يغتفر للصحفي المحترم هو ذهاب الكاتب في صحيفة أخرى (التغيير) إلى تدبيج مقال تجاوزت فيه الأخطاء عدد الكلمات. المقال كان حول "حكيم العرب" الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وكان بحق رجلًا عظيمًا ذا مآثر كثر على السودان، وما أكثر الحقائق التي كان يمكن للكاتب، أو غيره، روايتها عنه لتأكيد حب زايد للسودان وأهله دون حاجة لتلوين التاريخ. في ذلك المقال زعم الصحفي المؤرخ أن أول زيارة قام بها زايد للسودان كانت في عهد عبود وأن عبود كان يصطحب كل صباح الشيخ زايد لتناول القهوة على الطريقة السودانية في حديقة المقرن. هذه تحابيش لا ضرورة لها ولا فائدة منها عندما نعلم أن الشيخ زايد لم يصبح حاكمًا لأبي ظبي إلا في أغسطس عام 1966 أي بعد عامين من سقوط نظام عبود، كما لم يصبح رئيسًا لدولة الإمارات إلا في 2 ديسمبر 1972 أي بعد ثماني سنوات من خروج عبود من الحكم. وفي واقع الأمر لم تطأ قدما الشيخ العظيم السودان إلا في عهد مايو، حيث بقي فيه قرابة الأسبوعين، زار فيها أجزاءً من القطر شملت الجنوب، وكان بذلك الرئيس العربي الوحيد الذي زار الجنوب وقضى فيه وقتًا.

أما المقال الرابع فيعنينا، بوجه خاص، ليس فقط لما فيه من أخطاء في الحقائق الموردة في المقال، بل أيضًا لمـا فيـه مـن إيحـاءات تفقـد المقـال الحـد الأدنـى مـن الموضوعية. ذلك المقال نشره المؤرخ الصحفي في جريدة التغيير في 23 أغـسطس 2015 تحت عنوان رئيس "الجنوبيـون نفـذوا الإرهـاب الـدموي في أغـسطس 1955 وأغـسطس 2005: ذبحـوا وبقـروا بطـون الأمهـات وقتلـوا المعلمـين والإداريين والفنيين" قتل الأبرياء – حتى في الحروب – أمر تنهـى عنـه الـشرائع السماوية والوضعية، ولا يمكن لإنسان سَويّ أن يبرره، ناهيك عن أن يدافع عنه. الذي يدفعنا لتضمين هذا المقال بين المقـالات التـي اتخـذناها نموذجًـا للإخـلال بأصول الصحافة التاريخية والاستقصائية هو أولًا إغفالـه لهـذه الأصـول، وثانيًـا للعبث بالحقائق التاريخية المثبتة. وعلنا نتناول هذا في أطر ثلاثة: اقـتراب الكاتـب من القضايا الكبرى التي أثارها الجنوبيون قبل وبعـد حـوادث أغـسطس 1955 (السودنة والفيدريشن) وموقف الحاكم العام البريطاني من الأحـداث كـما أبانهـا تقرير لجنة التحقيق. فعقيب انتهاء لجنة السودنة مـن مهمتهـا التقـى عـضو لجنـة السيادة سيرسيو إيرو بـالرئيس الأزهـري (13 يونيـو 1955) ليبلغـه أن حـزب الأحـرار الجنـوبي سـيعقد مـؤتمرًا في جوبـا ليبحـث فيـه موضـوعين: الـسودنة والفيدريشن. وكان ذلك المؤتمر هو الثالث في جوبا بعد مؤتمر جوبـا الأول في 15 ديسمبر 1948 الذي أقر مبدأ مشاركة الجنوبيين في إدارة السودان، التي تمظهرت في مشاركة الجنوبيين في الجمعية التشريعية 15 ديسمبر 1948، ثـم مـؤتمر جوبـا الثاني في 18 – 21 أكتوبر 1954 الذي دعا له حزب الأحرار الجنوبي للتداول في مستقبل الجنوب في فترة الحكم الذاتي. ماذا كان رد الأزهري عـلى الرسـالة التـي أبلغه لها سيرسيو إيرو. قال: " نحن حكومة انتقالية ولدينا الاتفاقيـة (المـصرية – البريطانية) حول السودان، التي سنحرص على تنفيذ نصوصها. وتنص الاتفاقية كما نص قرار مؤتمر جوبا 1947 على أن السودان "وحدة" لا يتجـزأ. وسـتعمل الحكومة كل ما لديها من قوة ونفوذ لتنفيذ الاتفاقية نصًا وروحًا. ولن تتساهل من هذه الناحية، فلديها جيشها وقوة بوليسها وكل طاقتها" (تقرير قطران).

في هذا البيان التحذيري ثمة تناقضان وإساءة تفسير متعمدة لما طالب به الجنوبيون، كما فيه تعارض فاحش مع موقف الزعيم بعد ما يقل عن نصف العام من تأريخ ذلك البيان. التناقض الأول تجلى في تجاهل الأزهري لمطالب الجنوبيين حول السودنة بالرغم من البيان الذي صدر من الحزب الوطني الاتحادي بتوقيع رئيسه، وجاء فيه: "إن معالجتنا لمسألة السودنة ستكون عادلة وديمقراطية ولن **نعطي الأسبقية للجنوبيين في الجنوب فحسب وإنما أيضًا سنشجع استخدام الجنوبيين في الشمال خاصة في الحكومة المركزية**". وكان حزب الأحرار قد تقدم لحكومة الأزهري بقائمة محددة حول مطالبهم في السودنة، تكاد تكون كلها في مجال الإدارة. تلك القائمة تضمنت تخصيص الوظائف التالية للجنوبيين: 3 مديرين، 3 نواب مدير، 6 مفتشي مركز، 8 مساعدي مفتش مركز، 12 مأمور، 3 ملاحظي سجون، 1 قمندان بوليس، 3 ملاحظي بوليس. عدم الاستجابة لهذه المطالب المحدودة من جانب حكومة الأزهري قاد إلى أمرين: الأول هو استقالة العضوين الجنوبيين من مجلس الوزراء (داك دي وبولين إلير)، وكان كلاهما ينتميان للحزب الوطني الاتحادي، كما استقال مع الوزيرين 9 آخرون هم: جون ماجوك، وفامون ماجوك، وأكيج رزق الله، وميخائيل فيفيان، وندوهو أكيميش، وعبد النبي عبد القادر مرسال، وقوردون أيوم، وروسو أونز ، وكوسموس ربابا . ومن الغريب أن ترفض حكومة الأزهري ذلك الطلب بالرغم من أنه كان أمامها معيار موضوعي لقياس الأمور ألا وهو المعيار الذي حُددت به نسبة تمثيل الجنوبيين في البرلمان إذ كان عدد ممثلي الجنوب 22 نائبًا أي ربع مجموع أعضاء مجلس النواب.

أما إساءة التفسير المتعمد لمطلب الجنوبيين للفيدريشن، أو ربما الجهل بمعنى كلمة فيدريشن، فكلاهما مؤسف، فعندما يتذرع الأزهري بأن الفيدريشن يناقض مفهوم وحدة أراضي السودان الذي أكدته الاتفاقية يجانف كل المفاهيم الدستورية؛ لأن الفيدريشن لا يعدو أن يكون تنظيمًا دستوريًا وإداريًا داخليًا تحكم به دولة السودان الموحدة. فالإقليم الجنوبي لن يصبح بموجب وضعه الولائي

دولة مستقلة. زاد من الحيرة قول الأزهري لسيرسيو إيرو إنه يريد السودان: "وحدة لا تتجزأ على أساس قرار مؤتمر جوبا 1947". ولا أحسب أن الذين أعدوا بيان رئيس الحزب الوطني الاتحادي قد استذكروا ولو لمرة واحدة أن مؤتمر جوبا 1947 هو المؤتمر نفسه الذي وصفه ذلك الحزب بالمؤامرة البريطانية؛ ولهذا رفضوا مخرجاته حتى "إن جاءت مبرأة من كل عيب". الأمر الذي يعسر قبوله هو قول الزعيم الأزهري إنه **ملزم بالاتفاقية المصرية – البريطانية نصًا وروحًا.** تلك الاتفاقية وضعت لتؤسس لفترة انتقالية تنتهي باستفتاء شعب السودان حول مستقبل بلاده: أهو الاستقلال أو الاتحاد مع مصر؟ وبلا شك فإن ذلك النص هو النص الرئيسي في الاتفاقية. ولكن عندما قرر الحزب الوطني الاتحادي الانحياز للاستقلال، وتوافق على ذلك مع حزب الأمة الداعي للاستقلال، تجاوز الأزهري ذلك الإلزام في الاتفاقية "المقدسة" وذهب إلى العمل على إلغاء ذلك النص عبر البرلمان كيما يُعلن الاستقلال من داخل البرلمان. أوليس من الغريب، إذن، أن يرى الأزهري في تجاوز نص رئيسي في الاتفاقية يتعلق بممارسة أهل السودان جميعًا لحق تقرير المصير أمرًا مشروعًا في حين ينكر حق الجنوبيين لا في تقرير مصيرهم، وإنما في إدارة مناطقهم لتعارضه مع وحدة السودان التي نصت عليها الاتفاقية وفق قراءة مغلوطة لذلك النص؟

نجيء من بعد إلى دور الحاكم العام في التعامل مع أحداث الجنوب كما رواه الصحفي المحقق. قال: إن حكومة الأزهري **"تعاملت بحكمة بالغة (إذ) رفضت للحاكم العام البريطاني السير روبرت هاو طلبه باستدعاء القوات البريطانية في شرق أفريقيا للسيطرة على الأوضاع في الجنوب"** واستمرارًا في التخرص حدد الكاتب دول شرق أفريقيا بأوغندا وأثيوبيا، رغم أن أثيوبيا ليست واحدة من ممتلكات التاج حتى يكون لبريطانيا جيوش في أراضيها. في هذه "الحدوتة" -إذ لا أجد لها وصفًا آخر- أكثر من خطأ. ففي البدء لم يكن حاكم عام السودان عندما وقعت الأحداث هو السير روبرت هاو الذي تقاعد قبل إكمال مدته، وكان في تلك اللحظة يعيش في بريطانيا. في الوقت نفسه لم يكن خلفه السير نوكس هيلم

موجودًا بالسودان، بل في عطلة ببلاده عندما وقعت أحداث توريت. وما إن وصلته أنباء الأحداث في الجنوب حتى عاد نوكس هيلم مباشرة إلى السودان، وبعث بالرسالة التالية المؤرخة 25 أغسطس 1955 للمتمردين: "لقد وصلت الخرطوم اليوم من انجلترا وقد صدمت صدمة شديدة بتمردكم. عندما زرت توريت في شهر مايو الماضي كنت مسرورًا جدًّا من مقدرة وروح جنود الفرقة الجنوبية، وما كنت أظن أنه بعد مضي ثلاثة أشهر أنكم ستجلبون العار والفضيحة لاسم القوات الجنوبية، وذلك بحنثكم بالقسم الذي قطعه كل واحد منكم بأن يخدمني بإخلاص وصدق، وأن يطيع أوامر رؤسائه الضباط القانونية. وأني كقائد أعلى لقوة دفاع السودان آمركم الآن لتطيعوا هذا الأمر المباشر مني. وبمواجهتكم كرجال نتائج أعمالكم ستساعدون في إيقاف سفك دماء أخرى، وستقللون من فضيحة تمردكم. لقد أخبركم رئيس وزراء السودان بمعنى التسليم كما أعطاكم ضمانه الخاص بخصوص تحقيق شامل ومعاملتكم كأسرى حرب إذا سلمتم وأنا أيضًا أعطيكم التأكيد نفسه. فإذا كنتم على استعداد لإطاعة أمري طاعة تامة ودون سؤال، فإني سأرسل المستر لوس (مستشار الحاكم العام) الذي كان نائب مدير للاستوائية في 1950 – 1951 كمندوبي الخاص إلى توريت ليخبركم بتفاصيل ترتيبات تسليمكم. أرجو أن أتسلم ردكم في خلال 24 ساعة".

على تلك الرسالة رد المتمردون بما يوحي برفض طلب الحاكم العام، إذ جاء في الرد ما يلي: "إنا جميعًا نشكرك قلبيًّا، وإنا مسرورون لعودتكم من انجلترا لتنتهي هذه الاضطرابات. ونكون شاكرين إذا أمرت القوات الشمالية الموجودة في جوبا لتجلو عنها إلى الشمال أو لمسافة بعيدة قبل أن نسلم أسلحتنا. وإلا فإنا لنرجوك أن ترسل قوات بريطانية في الحال لتحمي القوات الجنوبية عند تسليم أسلحتها". على تلك الرسالة رد السير نوكس هيلم بوصفه القائد الأعلى لقوة دفاع السودان: "تسلمت رسالتكم بخيبة أمل عظيمة. يجب أن تفهموا جليًّا أن القوات الشمالية لا يمكن أن ترحل عن جوبا، وأن القوات البريطانية لن ترسل إلى الجنوب. ولكنني أعطيكم ضماني للمرة الثانية إذا سلمتم بسلام، فإن القوات

السودانية لن تصيبكم بأذى عندما تقبض عليكم. إن القائد بنفسه سوف يباشر تسليمكم وسوف يتأكد أن أوامره للقوات الشمالية سوف تنفذ بدقة، وسيكون المستر لوس أيضًا موجودًا ليراقب التسليم كمندوبي الخاص. ويجب عليّ أن أوضح لكم أنه إذا لم تفيدوني حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا غدًا 27 أغسطس بأنكم ستطيعون إطاعة كاملة ودون سؤال أمري بالتسليم، فإنه يجب عليكم أن تتحملوا النتائج المترتبة على رفضكم. وإذا أرغمتمونا على هذا الموقف، فإن ذلك سيكون موضع أسفي وأسف حكومة السودان العميق. **هذه هي رسالتي الأخيرة لكم**". وبالفعل وافق المتمردون على الاستسلام في الوقت الذي حدده الحاكم العام البريطاني في رسالته: هل كان الكاتب يسعى عن عمد لتزييف الحقائق؟ الجواب بالنفي، ولكن نرميه بعدم التدقيق فيما ينشر وبثقته المفرطة إما على ذاكرته أو فيما يرويه الراغبون في بطولات مزعومة، وربما أيضًا في رغبة آخرين في تلويث التاريخ. فأيّ قراءة عابرة لتاريخ تلك الفترة كانت كافية لتبين أن الجهة الوحيدة التي دعت لعودة القوات البريطانية (والمصرية أيضًا) للسودان هو الصاغ صلاح سالم. فعندما تبين لصلاح سالم أن الذين آزرهم في الانتخابات قد قلبوا له ظهر المجن بالتحول إلى الاستقلال أراد أن يضع العصى في ماكينة التحول نحو الاستقلال، ولكن الطرف البريطاني اعترض على اقتراحه.

في إيراد التاريخ، سواء أكان ذلك في مبحث علمي أكاديمي أم استقصاء صحفي، أول ما ينبغي على الكاتب أن يفعل هو العودة للوثائق للتدقيق في الأحداث والتواريخ والأسماء، خاصة عندما تتبع رواية التاريخ أحكام قيمية حتى لا يصيب قومًا بجهالة. هذه المسؤولية لا تقع فقط على عاتق الكاتب مهما كانت ثقة الناشر في معرفته بالأحداث التي يروي، وإنما أيضًا على الناشر. لهذا السبب قلنا من قبل إن لأي دار نشر في العالم محررين، أو على الأقل مراجعين لما تنشره الدار في الأدب والتاريخ والرياضة والفن والسياسة. ولو توفر على مراجعة هذا المقال أي عليم بالموضوع لاكتشف أن أول القصيدة كان كفرًا بدءًا بإيراد الأسماء: اسم حاكم عام السودان الذي تولى الإشراف على معالجة الأزمة؛ واتهام

الحاكم العام بالرغبة في استخدام الجيش البريطاني في حين أنَّ العكس كان هو الصحيح، ووصف رئيس لجنة التحقيق قطران بقاضي المحكمة العليا في الوقت الذي كان رئيس اللجنة هو القاضي توفيق قطران قاضي محكمة جنايات الخرطوم وليس عمه ميشيل قطران قاضي المحكمة العليا. كما أن زعم الكاتب بأن حكومة الأزهري قد أبلغت الحاكم العام بأن القيادة العامة لقوة دفاع السودان "قادرة على الاضطلاع بمهامها في استعادة الأمن وإعادة الأمور لمسارها الطبيعي؛ ولهذا كلفت الفريق إبراهيم عبود ونائبه اللواء أحمد عبد الوهاب لتنفيذ تلك التوجيهات" حسب قول الصحفي المؤرخ كان كذبًا صراحًا. ففي واقع الأمر لم يكن الضابطان (عبود وعبد الوهاب) من بين مَن كُلف بتقدير الموقف بل عُهدت تلك المهمة إلى لجنة تتكون من الفريق أحمد محمد باشا قائد الجيش، والأميرالاي إسماعيل سالم قائد الفرقة الجنوبية، والأميرالاي محمد الحسن بك حامد قائد الشرقية، والقائمقام أحمد عبد الله عثمان قائد الهجانة بالنيابة، والقائمقام محمد مجذوب البحاري قائد المدفعية.

المؤرخ الموضوعي لا يتناول التاريخ من الحكاوي السماعية، بل من المصادر الموثوقة (أي التي لا يتشكك الناس في صدقها). ومن أهم هذه المصادر حول أحداث الجنوب (1955) تقرير القاضي قطران الذي سمَّاه الكاتب الصحفي "التقرير القضائي"، وليس هناك ما يعرف بالتقرير القضائي، بل هو ببساطة تقرير لجنة تحقيق ترأسها قاضٍ. كيف تعامل الصحفي المحقق مع ذلك التقرير. قال إن التقرير كشف عن ملابسات ووقائع متواصلة أحاطت بأحداث (التمرد الدموي) أو (الإرهاب الدموي الأسود)، ولكن تظل من العوامل المباشرة سياسات الإدارة البريطانية والكنائس التي أوغرت صدور الجنوبيين ضد الشماليين دون مبرر وجنحوا للعنف الدموي كما لو أنهم أرادوا تصفية الشماليين (جملة اعتراضية من الصحفي أن هذا لم يرد في النص) كما أن الفوارق الدينية والثقافية والاجتماعية والعرقية صنعت بدورها التباعد وعدم الثقة. الموضوعية في أي بحث علمي أو مقال استقصائي يلزم الكاتب بالأمانة فيما ينقل عن الآخرين حتى لا يخلط رأيه

بآرائهم أو يفسر قراءة اللجنة للأحداث تفسيرًا خاطئًا. تقرير قطران تناول جوانب متعددة حول عدم ثقة الجنوبي في الشمال، منها ما صدر من المصريين (وعود صلاح سالم للجنوبيين بأنهم سيحتلون أرقى المواقع بعد خروج الانجليز، ومنها ما صنعته الأحزاب فيما بينها، دعايات الاتحاديين وسط الجنوبيين بأن حزب الأمة هو حزب الأنصار الذين كانوا يسترقون أبناءكم وبناتكم في المهدية). أهم من كل ذلك ما أورده تقرير قطران حول النظرة الدونية التي كان ينظر بها الشمالي للجنوبيين. حول ذلك الموضوع ذكر التقرير: **"من الصحيح أن كثيرًا من الشماليين، خاصة غير المتعلمين، يعدون الجنوبيين سلالة من البشر أدنى مرتبة منهم، ويشترك في هذا "الجلابة" في الجنوب مع غيرهم من الشماليين. وعندما يشير "الجلابة" للجنوبيين كثيرًا ما يصفونهم بالعبيد وهي بالتأكيد كلمة تدل على الاستهانة كما تذكر الجنوبيين بأيام تجارة الرقيق الغابرة التي يود الجميع نسيانها".** هذا ما أورده المحقق توفيق قطران. فما الذي تريد الصحافة حقيقة أن تعلمه للأجيال الجديدة؟ أهل هو أن كل ما يقدم لهم هو تاريخ ملوث وأكاذيب؟

الصحافة مهنة مقدسة

يخطئ مَن يظن أن الصحافة المقروءة مهنة، بل هي رسالة مقدسة، وقد سمّاها الصحفي الأمريكي المرموق والتر ليبمان (Walter Lippman) بـ"الوسيط" (middle man) بين المواطن القارئ وصناع القرار. وكما تعارف على ذلك أهل الصحافة يقتضي أداء تلك المهمة التزام معايير مهنية وأخلاقية معينة أهمها الموضوعية في إيراد الخبر، والدقة في روايته، والحيدة في التعليق، والاستعداد للمحاسبة أمام الذين يلحقهم أذى من النشر، إما بالاعتذار أو المثول أمام المحاكم. لهذا تحرص كل صحف العالم ضمانًا لمصداقيتها واحترامًا لقرائها أن يكون لها مراجعون لكل ما تنشر. ففي تلك الصحف محرر للأدب، ومحرر للسِّيَر، ومحرر للاقتصاد، ومحرر للرياضة. مهمة هؤلاء ليست هي فقط مراجعة ما يكتبه المساهمون الخارجيون، بل أيضًا ما يسطره الكتاب الراتبون. كما ينبغي أن تكون

للصحف أدوات للتصحيح الذاتي، ومثال ذلك ما تفعله النيويورك تايمز، إحدى كبريات الصحف الأمريكية، إن لم تكن أكبرها، ففي الصفحة الثانية من جريدة نيويورك تايمز باب دائم تحت عنوان تصويبات (Corrections). في هذه الصفحة تورد الجريدة كل صباح خبرًا تصحح فيه نبأ خاطئًا نشرته بالأمس، مهما كانت درجة أهميته بالنسبة للقراء، فالخبر الكاذب أو غير الصحيح لابد أن يصحح في عرف تلك الصحيفة. دعني أتناول، مثلًا، خبرين أوردتهما الصحيفة في الأسبوع الأول من نوفمبر 2014 (الخبر الأول وصف الدكتور إيريك مانهايمر الذي تولى علاج الأمريكي الذي أصيب بداء الإيبولا في مركز بيلفيو الصحي (Bellevue Medical Center) بمدير المركز في حين كان هو كبير الأطباء بالمستشفى؛ ولذا لزم التصحيح. أما الخبر الثاني فكان متعلقًا بالرياضي الجنوب أفريقي/ أوسكار بيستوريوس المُقعَد الذي أدين لقتله صديقته. أوردت الصحيفة خبر إدانة الرياضي ووصفته بأنه أول عَدَّاء مُقعَد ينال قصب السبق في منافسة ضد منافسين كاملي الصحة والأهلية. التصويب هو أن أوسكار لم يكن هو أول مقعد ينتصر على منافس سليم الجسم؛ إذ سبقه إلى ذلك نفر سمتهم بأسمائهم.

اهتمام الدولة والمجتمع بالتزام الصحافة بالقيم المعيارية التي تحكم الكتابة والنشر، لا يعلو عليه اهتمام، أولًا للدور الذي تؤديه الصحافة في المجتمع. وثانيًا لحماية سمعة المواطنين. ففي عام (1993) أصدر البرلمان الأوروبي قانونًا يحدد مسؤوليات الصحافة وواجباتها نحو المجتمع. أما في بريطانيا فقد وقع حدث لم تهتز له الصحافة فقط، بل خدش ثقة الناس في صحافتهم خدشًا بالغًا، وكانت له نتائج مدمرة لبعض الصحف. ذلك الحدث هو اتهام واحدة من صحف ملك الصحافة روبرت ميردوخ بالتنصت على هواتف بعض المسئولين في البوليس وبعض أفراد الأسرة المالكة للحصول على معلومات تدعم بها الصحيفة بعض أخبارها. التحقيقات التي تلت ذيوع ذلك الخبر دفعت ميردوخ للاعتذار عما قامت به بعض صحفه وعلى رأسها الصحيفة التي كانت أكثر ممارسة لذلك الفعل المذموم ألا وهي "نيوز أوف ذا ويرلد"، أوسع الأسبوعيات البريطانية انتشارًا.

وكانت تلك الصحيفة شقيقة لصحيفتين أخريين واسعتي الانتشار: التايمز والصن. أوتدري ما العقاب الذي فرض على الأسبوعية الأوسع انتشارًا في بريطانيا من جانب مالكها وليس من جانب السلطة؟ إيقاف إصدارها في يوليو 2011 إلى الأبد.

لم يقف الأمر عند هذا، بل أنشأ رئيس الوزراء كاميرون لجنة ملكية برئاسة القاضي اللورد ليفيسون للتحري في الأمر بهدف وضع ضوابط لضمان التزام الصحافة بالمعايير الأخلاقية فيما تنشر، ومن ذلك وسائل وصولها للمعلومات. آثار الهزة التي أحدثتها صحافة ميردوخ لم تقف عند بريطانيا بل تعدتها عبر الأطلسي إلى الولايات المتحدة وكندا، وعبر المحيط الهادي إلى أستراليا حيث لميردوخ صحافة في كل هذه الدول. وكان أقسى وصف لما فعل ميردوخ هو مقاربة كارل بيرنستين أحد الصحفيين اللذين كشفا عن فضيحة ووترجيت قوله: "إن الحدثين: تنصت نيكسون في ووترجيت وميردوخ في صحفه اللندنية سيبقيان معنا لزمان طويل، **فكلاهما يعبر عن فساد في أعلى المستويات، وكلاهما يتناول تستر المسؤول الكبير على جرائم العاملين تحت إمرته** " (الجارديان أكتوبر 2011). أوَترى إلى أي حد يوجب العالم على مسؤولي الصحف الإشراف على ما تنشره صحفهم، كما إلى أي حد يذهب دهاقنة الصحافة عبر العالم إلى نبذ الممارسات التي تحط من قدر الصحافة؟

أمر آخر لا يخلو من الفساد أخذت صحافتنا تفعله بلامبالاة، ألا وهو انتهاك حقوق النشر بإعادة طباعة مقال أو بحث دون إحالة القارئ إلى المصدر الرئيسي للمقال أو البحث. فرغم إلحاح أغلب ممتهني الصحافة عندنا في الحديث عن حرية التعبير، وهو إلحاح ضروري ومرغوب، فإن هؤلاء لا يعنيهم في شيء أن هناك حقوقًا أخرى سبق اعتراف العالم بها وتأطيرها قانونيًا مجموعة قوانين حقوق الإنسان. مثال ذلك حق الملكية الفكرية الذي بدأ الاهتمام به منذ ظهور المطبعة. الاهتمام بالحقوق الفكرية وضرورة حمايتها، أثارته إعادة نشر كتاب اللورد ماكولي

عـن تـاريخ انجلـترا (The History of England from the Accession of James the Second) عن طريق القرصنة، التي تم عبرها نـشر عـشرة أضـعاف الكتاب الذي نشره مؤلفه. الآثار الفكرية التي يحميهـا القـانون تـشمل مـا كتبـه المؤلفون من كتب أو مقالات، أو لحنه الملحنون من مقطوعـات غنائيـة، أو زينـه الرسامون والناحتون من أعمال فنية بحسبانها جميعًا ثـروة غـير ماديـة لأصـحابها يتمتعون وحدهم بعائدها المادي.

تمليك هذا الحق يعود إلى قانون انجليزي كان مرتبطًـا بالـصحافة، ألا وهـو قـانون تـرخيص الـصحافة (Licensing of the Press Act) الـصادر في عـام 1662. وبعد استقلال الولايات المتحدة تضمن دسـتورها في عـام 1786 مـادة تمنح المؤلفين والمخترعين حقًا في الكسب المادي من أعمالهم الفنية لا يشاركهم فيه أحد (exclusive right) مع تحديد أمد زمني يحق للآخرين بعده إعادة النشر على الطريقة التي ينشدون. وفي القرن التاسع عشر أصـبح قـصر حـق الملكيـة للآثـار الفنية (كتابة، رسمًا، نحتًـا) محكومًـا باتفاقيـة بـيرن (1886) حـول حـق الملكيـة للأعمال الإبداعية (Copyright of Creative Works). وبـالطبع كانـت هنـاك استثناءات تبيح النقل مـن تلـك الأعـمال، إمـا لنقـدها مـن جانـب الناقـدين أو لأغراض التعليم. ومن بعد توالـت الاتفاقيـات الدوليـة التـي تـشرح مـضمون الملكية الفكرية وتضبط استخداماتها. مثال ذلك الاتفاقية الدولية للملكية الفكرية (Universal Copy-right Convention) في عام 1932، اتفاقية الملكية الفكرية التي أصدرتها منظمة الملكية الفكريـة العالميـة (WIPO) في عـام 1996. وحتـى اليوم فإن الصحف العربية الكبرى التي كثيرًا ما ننقل عنها أخبـارًا وتعليقـات أو مقالات دون الإشارة لمصادرها تحرص دومًا مـن جانبهـا عـلى تـذييل مـا نـشرته بإشارة إلى المصدر المنقول عنه مثل "من خدمات النيويورك تـايمز أو "نقـلًا عـن الواشنطن بوست" وهو في أغلب الأحوال نقل مـدفوع الـثمن. لهـذا فـأن إيـراد صحيفة محلية لمقال أو تحقيق نشرته الشرق الأوسط، مثلًا، والاكتفاء بما ذيلت بـه تلك الصحيفة المقال والتعليق بتعبير "من خدمات نيويورك تايمز" هو تحايل غير

كريم لما يوحيه بأن تلك الخدمة كانت مشاعة أو قدمت أيضًا للصحيفة المحلية الناشرة، في حين أن الصحيح هو القول: "نقلًا عن الشرق الأوسط بتاريخ....... من خدمات "النيويورك تايمز". من جانب آخر كثيرًا ما تعنى الصحف الكبرى، كان ذلك في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة، بأن تبين للقارئ في ذيل المقال مَن هو الكاتب حتى وإن كان اسمه هنري كيسنجر أو جيمي كارتر. وعندما تفعل ذلك تلك الصحف لا تفعله لأنها تفترض جهل القارئ، وإنما لأنها لا تريد إضاعة وقت النابهين من القراء في قراءة مقال عن الاقتصاد كتبه خبير بيطري، أو مقال عن الدبلوماسية كتبه آخر ينم اسمه أو ينم عنوان مقاله عن أنه خبير في السياحة. مهنة الصحافة، إذن، ليست، ولا ينبغي لها أن تكون "فنجطة" إعلامية، بل هي مهنة تحكمها قوانين دولية، والتزامات أخلاقية، ومسؤوليات نحو القارئ، خاصة القارئ الباحث. وليس من المنطق في شيء أن تطالب الصحافة السودانية بحقوق التعبير والنشر التي أرستها المدونة السلوكية لحقوق الإنسان التي أعليت رأيتها بعد الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي تنتهك فيه تلك الصحافة قوانين تعود إلى القرن التاسع عشر.

الفصل السابع

7

في حضرة الإمام ورفقة البيه

الإمام عبد الرحمن المهدي لم يكن رجلًا واحدًا، بل كان رجالًا في رجل. كان الإمام رجل دين ورجل سياسة، ومشجع الأدب وراعي الفن، ونصير التعليم وداعم الصحافة، كما كان أيضًا الأب الروحي لتأديب البنين وتهذيب البنات. تلك الفضائل كانت كلها خيرًا منى الله به الإمام. وهي فضائل تترى بل تتسابق. وما ذكرت هذه الفضائل المتسابقة إلا وذكرت قول العقاد في الحسين بن علي: "أكان في شجاعته أشجع، أم في كرمه أكرم، أم في إيمانه وغيرته على الحق بالغًا تلك المناقب".

سيرة الإمام تناولها كثيرون بالكتابة، ولعلني أشير إلى ثلاثة من مدوني سيرته إما لقرباهم منه أو لأمانتهم في التوثيق. من الأقربين أشير إلى ما سجله الباحث الراحل إسحاق محمد الخليفة شريف في مقالات بجريدة «آخر لحظة» في عام 1967 تحت عنوان "عبد الرحمن المهدي من المهد إلى اللحد". ومن الموثقين الذين لا يكتبون إلا بإحكام لما يبحثون المجموعة التي سجلت تاريخ الإمام في الذكرى المئوية لرحيله، وكان فيما سجلوا مسح كامل لحياة الإمام حتى رحيله. ففي ذلك السفر كتب محمد إبراهيم أبو سليم عن السيد عبد الرحمن والإمامة، وكتب محجوب محمد صالح عن دور الإمام في نشأة وتطور الصحافة السودانية، وكتبت

محاسن عبد العال وسارة نقد الله عن دعم الإمام للحركة النسائية، وكتب كامل منصور عن دوره في التنمية الزراعية، وكتب محمد هاشم عوض عن ريادته في التمويل بالصيغ الإسلامية. جميع هذه البحوث مسجلة في مداولات ندوة الإمام في الذكرى المئوية لميلاده والتي أشرف على تحريرها الأساتذة يوسف فضل حسن، ومحمد إبراهيم أبو سليم، والطيب ميرغني شكاك. سعدت أيضًا بآخره عند اطلاعي على رسالة أعدها الباحث الطيب آدم الزاكي قبل عام أو يزيد عن الدور الاجتماعي والاقتصادي للإمام عبد الرحمن المهدي في تاريخ السودان الحديث كشف فيه عمّا لم يفطن له الباحثون، كما دافع فيه عن بعض صحب الإمام الذين انتابتهم سهام الحاسدين.

رغم ارتباطي الوثيق بسكرتير عام حزب الأمة ومداومتي العمل في الصحف الاستقلالية لم يُتح لي لقاء الإمام عبد الرحمن المهدي منفردًا خارج إطار اللقاءات الجماعية في المناسبات مثل ذكرى27 رجب والأعياد. اللقاءات الجماعية التي أشير إليها تم أغلبها في أواخر عهد الطلب بالجامعة وكان مرتبها هو الأمير عبد الله نقد الله. ومن بين كل زعماء حزب الأمة كان الأمير أكثرهم حرصًا على توثيق العلاقة بين الإمام والشباب على اختلاف مذاهبهم. فقد يدهشك، مثلًا، أن

تعلم بأن من أحب الطلاب إلى الأمير يومذاك كان الشريف الطيب حسب الرسول الذي كان في ذلك الزمان شيوعيًا أحمر، بلشفيًا كان أو منشفيًا لا فرق. وذات مرة أبلغني الأمير خلال عملي بدار الصحف الاستقلالية برغبة الإمام في اللقاء مع بعض طلاب جامعة الخرطوم، طالبًا مني تهيئة ذلك اللقاء. وبما أني لم أكن من المسؤولين عن التنظيم الشبابي للحزب، أيقنت أن الإمام لا يريد لقاءً حزبيًا، بل لقاء مع طلاب مختلفي الميول فلو أراد الأمير تنظيم لقاء مع شباب حزب الأمة أو الأنصار لأوعز بتلك المهمة إلى واحد من القيادات الحزبية الشبابية الناشطة مثل عمر نور الدائم ويوسف محمد إبراهيم من طلاب حزب الأمة للتشاور معهما في اختيار الطلاب من غير المنتمين لحزب الأمة أو لطائفة الأنصار لتجنيدهم للحزب. تجنيد الطلاب للأحزاب تعبير سكه أهل اليسار كناية عن تحويل الطلاب إلى عسكر في تنظيم حزبي. وفي ذلك التعبير استحقار للكتائب المجندة بقدر ما فيه من استعلاء غير مبرر ممن يجندهم. لهذا وجهت الدعوة لأصدقائي من الطلاب المستقلين... وقد لبّى الدعوة منهم: عبد الرحمن عبد الله، جعفر بخيت، عبد العزيز صغيرون، الرشيد عثمان خالد، عبد العزيز شدو، وكانوا جميعًا على مِرسٍ واحد. صدق حدسي إذ لم يتطرق الإمام في حديثه إلى السياسة، بل ركز الحديث كله على أمرين: الأول هو التحري عن حال أهل الطلاب والمناطق التي جاؤوا منها. والثاني هو التعليم الجامعي وأهميته لنهضة البلاد ولتعويل أهلها على إسهام خريجي الجامعة في بناء السودان. وبإجماع رأي الوفد الطلابي كان اللقاء مع الإمام لقاءً مع رجل كبير لم يَحُل انشغاله بكبريات الأمور عن اللقاء مع الصغار حتى يعرفوا عنه شيئًا ويتعلموا منه أشياء.

الإمام والسياسة

في فبراير 1945 قرر مناصرو التيار الاستقلالي الذين كان يسميهم خصومهم السياسيون "الانفصاليين" باعتبار أن الوحدة مع مصر هي الأساس للعمل السياسي، إنشاء حزب استقلالي هو حزب الأمة. ذلك الحزب اتخذ شعارًا

له (السودان للسودانيين) وكأنه يقتفي في ذلك خطى السياسة المصرية، أيْ إطلاق أحمد لطفي السيد الذي انشأ حزبًا استقلاليًا سمّاه "حزب الأمة" وجعل شعارًا له "مصر للمصريين". الاجتماع التأسيسي لحزب الأمة السوداني ضم نخبة من الخريجين إلى جانب زعماء العشائر، وكانوا على الوجه التالي: إبراهيم أحمد، وعبد الله خليل، ومحمد علي شوقي، ومحمد عثمان ميرغني، ومحمد صالح الشنقيطي، وعبد الكريم محمد، وأحمد يوسف هاشم، وأحمد عثمان القاضي، وعبد الله الفاضل، ومحمد الخليفة شريف، وصديق عبد الرحمن المهدي، والسلطان محمد بحر الدين، وإبراهيم موسى مادبو، وسرور محمد رملي، ومحمد محمد الأمين ترك، ومحمد إبراهيم فرح، والزبير حمد الملك، بابو عثمان نمر، وأيوب بيه عبد الماجد، الملك حسن عدلان، وعبد الله بكر، في ذلك الاجتماع تم اختيار عبد الله خليل كأمين عام للحزب، ويلاحظ المرء أنه لم يكن من بين العشرين الذين تكونت منهم اللجنة التأسيسية للحزب من أسرة المهدي غير ثلاثة أشخاص: عبد الله الفاضل، ومحمد الخليفة شريف، وصديق المهدي.

ذلك الوضع حمل الشيخ سرور رملي لتوجيه سؤال للإمام عبد الرحمن عن الموقع الذي يريد احتلاله في التنظيم، فرد الإمام: **"أنا جندي في الصف، وقد وهبني الله إمكانيات لم تتيسر للكثيرين منكم سأهبها كما سأهب صحتي وولدي وكل ما أملك للسودان"**. لهذا ظل عبد الله خليل الرجل الأول في الحزب حتى فبراير (1949) عندما انتُخب صديق المهدي رئيسًا لحزب الأمة، واستمر كلاهما في موقعيهما حتى انقلاب عبود وحل الأحزاب. لهذا دهشت وتحيرت عندما استمعت إلى السيد الصادق المهدي في لقاء بثته قناة الجزيرة في برنامج "شاهد على العصر" يصف الرجل الذي ظل أمينًا عامًا لحزب الأمة لعقدين من الزمان باختطاف حزب الأمة. وممن؟" من رئيس حزب الأمة (والد الصادق) وآل المهدي". هذا الشاهد على العصر كان، دون شك، يشهد على عصر آخر غير ذلك الذي قال فيه مؤسس الحزب: **"أنا جندي في الصف، وقد وهبني الله إمكانيات لم تتيسر للكثيرين منكم، سأهبها كما سأهب صحتي وولدي وكل ما أملك**

للسودان". وعند إكمال الإجراءات التنظيمية للحزب كان الإمام أول مَن ورد اسمه في سجل عضوية الحزب عندما بعث اشتراكه إلى عبد الله خليل لا لأحد غيره (**الملحق 1**).

ليت السيد الصادق يفكر فيما يقول حتى يجعل كلامه دُبُرَ الأذن، ولكنه دومًا يتمتع بقدرة فائقة على إطلاق الرصاص على قدمه. اتهم الصادق عبد الله خليل بشيئين: اختطاف الحزب، وفشل حكومته. فعند سؤاله عن اختطاف عبد الله خليل للحزب، سأله المحاور في ذلك اللقاء: "ممن كان الاختطاف؟" قال: "من والدي ومن أسرة المهدي". ذلك حديث يوحي بظن الصادق، بل يقينه، بأن حزب الأمة هو ملك لأسرة وإن كان ذلك هو الحال فلاشك في أن الحزب الذي تحدث عنه الصادق ليس هو، بحال، الحزب الذي قال عنه مؤسسه: "**أنا جندي في الصف، وقد وهبني الله إمكانيات لم تتيسر للكثيرين منكم، سأهبها كما سأهب صحتي وولدي وكل ما أملك للسودان**". ما جهله الصادق أيضًا هو ما كان يدور خلف كواليس حزب الأمة من حديث حول قيادة الحزب بين راعي الحزب (الإمام عبد الرحمن) وأمينه العام (عبد الله خليل). ففي رسالة للدبلوماسي الأمريكي سويني لوزارة الخارجية في 10 أبريل 1953 - أي قبل خمس سنوات من انقلاب عبود - أبلغ عبد الله بيه الدبلوماسي الأمريكي أن صحته لن تسمح له بالاستمرار في العمل وقد يرضيه فقط، إن دعا الحال، أن يشغل وزارة الدفاع لأنه عسكري صميم. وعندما سأله سويني عن البديل الذي يرشح للأمانة العامة لحزب الأمة رد عبد الله بيه بلا تلكؤ: "**عبد الرحمن علي طه؛ لأن عمره يناهز الخمسين، ولأنه رجل كامل التأهيل والتعليم، ولأنه يسوس الأمور بدبلوماسية**". ومن الواضح، إذن، أن الإمام الصادق لم يتعلم من تاريخ الإمام المهدي أن إمامة الأنصار لا تورث وإلا فَلِمَ ورث المهدي خليفته التعايشي، كما لم يحرص على أن يتعلم من مواريث حزب الأمة أن قيادة الحزب محكومة أيضًا بتقاليد من بينها الالتزام بالتعاقب الجيلي، كما أفاد تقرير المبعوث الأمريكي لوزارة الخارجية الذي سنورد الإشارة إليه في الملحق(2) للجزء الرابع من هذا الكتاب.

مثل راعي حزب الأمة، إذن، لم يكن بالرجل الذي يختار صحبه السياسيين اعتباطًا واختباطًا، بل كان كمنتقي الجواهر لا يختار منها إلا الجياد، وأصدق تعبير عن ذلك هو دعوة الإمام لعبد الرحمن على طه لينضم إلى ركبه السياسي، ففيما روت ابنة الأستاذ الكبير فدوى أن الإمام عبد الرحمن إبان زيارة له للدويم أرسل لوالدها من يبلغه أنه يود زيارة المربي الكبير ليتناول الإفطار في داره، ولو طلب الإمام من الأستاذ الكبير الحضور للقائه حيثما كان لاستجاب الأستاذ احترامًا للإمام. ما الذي دار في ذلك الإفطار؟ قال الإمام للأستاذ عبد الرحمن: "يا عبد الرحمن الشعب السوداني ناصر الإمام المهدي حتى انتصر وانتزع الاستقلال من الغاصبين. أنا مدين لهذا الشعب بأشياء كثيرة، أهمها نصرته لوالدي، ولن تكون مكافأتي له غير استرداد استقلال السودان، ولكني أريد رجالًا أعول عليهم فهل أعول عليك؟". على ذلك السؤال رد الأستاذ "يا مولاي لولا أن المسألة قد تخرج بي عن حدود الأدب واللياقة لقلت لسيادتك إن استقلال السودان هو أملي الوحيد في هذه الحياة، ولكني أريد رجالًا أعول عليهم فهل أعول عليك؟ "فضحك الإمام ولم يرد". (فدوى عبد الرحمن علي طه: مداولات ندوة الإمام في الذكرى المئوية).

الإمام وأهل الفن

رغم همومه السياسية والدينية والاقتصادية كاد الإمام أن يكون هو الوحيد من بين القادة السياسيين والزعماء الدينيين الذين أولوا الشعر والغناء مكانًا بارزًا في حياتهم. كان الإمام، مثلًا، يحتفي من بين أهل الفن والغناء بصالح عبد السيد (أبو صلاح)، وسيد عبد العزيز، وعمر البنا، وكرومة، وعبد الرحمن الريح، وعبيد عبد الرحمن، وإبراهيم العبادي، وخالد عبد الرحمن أبو الروس؛ لهذا بكوه بعيون هموعة سيالة عند رحيله. هؤلاء كانوا يتوافدون على داري الإمام في ودنوباوي والعباسية، ينشدون الشعر ويغنون القصيد، وكان الإمام يتابع مسيرتهم في أوقات الرخاء كما في أزمان الشدة. مثال ذلك خفته لنجدة الحاج

محمد أحمد سرور عندما أودع في سجن أم درمان بالسعي لدى السكرتير القضائي لإطلاق سراحه. وما إن خرج سرور من السجن حتى توجه أول ما توجه إلى دار الإمام لينشد:

كفى الشاهد مـآثرك ومـا بنـاه أبـوك — وإن نـسيوك ترجـع نـسبتك لنبيـك
هذا الـشعب مـن الـصميم حابيـك — على زعماء الأمم يا زعيمنا نفخر بيك
سليل المهدي لا شك ربنـا مـصفيك — غفــران الإلــه وجلالــه حافيــك
اتلاقــت بحــار الفــضل في كفيــك — يا غوث النفوس موضع ثقتهم فيـك
ابــن المهــدي ســاعة ضـيقة بناديـك — ترى رب العباد زي ما تـدور يـديك

وعند رحيله هرع الشعراء وأهل المغنى يرثون الأيام بـدموع هموعـة، وكـان على رأس هؤلاء الشيخ عبد الله البنا الذي أنشد:

جـرى القـضاء بـما قـد سـطر القلـم — فانهض بحملك لا ضعف ولا سـأم
أنتم بنو الموت فرسـان الحيـاة وقـواد — الجهــاد ومــن إن جــادلوا عزمــوا
المطمئنــون إلى الــسراء إن غمــرت — والصامدون لذى الضراء إن دُهمـوا
أمـا الـذي خمـدت بـالأمس جذوتـه — لم يقض لكن قضت من فقده الأمم
مــضى يــشايعه مــن وَجــد أمتــه — فــيض مــن الـدمع إلا أنــه ديـم

والشاعر كرف الذي قال:

لم تخــبُ شــعلتك التــي تتــألق — يفنـى الزمـان ونـور هـديك يـشرق
دانــت لــك الأرض التــي أحببتهـا — لولائهــا وجثــا الــتراب الأعيــق
وكــأن موطنــك الكــريم بوجههـا — قُبــل وغرســك في ثناهــا مونــق
أجنيتهــا ثمــر البطولــة بعــدما — فــل الحــسام بهــا وعــز المنطــق
ونــذرت لله الــشباب وقــد سـمت — لــك في المــشيب عزيمــة لا تلحــق

الحديث عن الإمام لا يكتمل دون الإشارة إلى خصيصة ميزته عمن سواه؛ فتمامًا كما وهب الإمام نفسه وما ملك لتحرير السودان، سَخَّرَ أيضًا كل ما يملك لرعاية الفن، ودعم التعليم، وعون الرياضة، وإنقاذ المحاريج. ما ذكرت ذلك الإمام الفحل إلا وذكرت عملاقين آخرين، كل واحد منهما في مجاله: الخليفة المعتصم في مجال السياسة والحرب، وأبو تمام (حبيب بن أوس الطائي) في نظم القريض مدحًا ورثاءً، ففي مدح المعتصم قال أبو تمام:

أجلْ أيها الربعُ الذي خفَّ آهِلهْ ... لَقَدْ أَدرَكَتْ فيكَ النَّوَى ما تُحاوِلُه
هُوَ اليَمُّ مِنْ أَيِ النَّواحي أتيتَهُ ... فلُجَّتُه المعروفُ والجُودُ سَاحِلُهْ
تعوَّدَ بسط الكفِّ حتى لو أنَّه ... ثناها لقبضٍ لمْ تُجبهُ أنامِلُهْ
ولو لم يكنْ في كفِّهِ غيرُ روحِهِ ... لجادَ بها، فليتقِ اللهَ سائلُهْ

الإمام، كما عرفه الجميع، كان خصيبًا عظيم الجدا ويقولون: "إن أدركت الخصيب فهرول". كما يقولون "حيث الجدا يُلقي المجتَدون عصيهم". ولكن عند الإمام لم يكن هناك مَن هو بحاجة إلى الهرولة نحو رجل يرتجل العطاء كحال مَن قال فيه ابن حمديس الصقلي:

جوادٌ بما قد شئت من بذل نائلٍ ... ومن كرمٍ مَحضٍ، ومن حَسبٍ عدٍّ
يجود ارتجالًا بالمُنى لا رويَّة ... فلا حُكْمُ تسويفٍ عليه ولا وعد

هذا الجود الارتجالي الذي عُرف به الإمام أبدع في وصفه شاعر قل نظراؤه في بلادنا هو عُكير الدامر. وقد نُسب الشاعر للدامر تمييزًا له عن عُكير آخر هو المعلم النابه محمد عبد القادر عكير "الكسلاوي". قال عُكير الدامر مشيدًا بجود الإمام:

وِكتًا تطرى

أيدك تترى

زَي المَطـــــرا

ساعـــة النتـره

كما قال في عزيمة الإمام:

عهدنا فيكَ كِنداب حَربة ما بتتسلخ

صُرة عين جمــل ملــوية ما بتتفلخ

من المَسكة كان إيدينـا يـوم تتملخ

السما تتكي وجلــد النمل يتسلـخ

الكنداب اسطوانة من الحديد توضع كالخاتم في مؤخرة قناة الرمح.

لقاءات على انفراد مع الإمام

بعد تخرجي في الجامعة توالت لقاءاتي بالإمام منفردًا إلا بصحبة مَن قادني إلى مجلسه. ففي أحد أيام العطلة الأسبوعية (الجمعة) بعث إليّ الأمير عبد الله نقـد الله في منزلنا بأم درمان القريب من دار أهلي بأم درمان يطلب مني الالتحاق به لأمـر مهم. ظننت أن الأمير يدعوني للإفطار فتوجهت إليه ولكن عند بلوغي الدار لم أر أي استعداد للإفطار؛ فتساءلت: **"وين الفطور يا أمير؟"**. قال الأمير **"هيا بنـا إلى السيد الإمام لنتناول طعامًا أشهى"**، وكان الإمام سـاعتئذٍ في باخرتـه "الطـاهرة" التي ترسو على شط النيل قريبًا من صهريج المياه بأم درمـان. سـألت الأمـير عـما وراء اللقاء من موضوع، فقال: "إن هناك قضية تشغل بال الإمـام"، وقـد طلـب مني تكليف أحد المحامين بمتابعتها. تعجبت للرد لأن دائرة المهدي كانـت تلجـأ دومًا إما لمكتب المحجوب حتى بعد هجرانه المهنة إلى الوزارة، أو لمكتب الأسـتاذ أحمد جمعة. ذلك التعجب الذي كان يبدو واضحًا في وجهي، جعل الأمير يضيف أنه أبلغ الإمام بأنه من واجبنا تشجيع أبنائنا الناشئين من المحامين ولهذا دله عـليّ، ووافق الإمام على اقتراحه.

ما إن جلسنا للإفطار حتى قال الإمام: "**أنا عندي محامين كتار لكن عاوز أتيح الفرصة لأولادنا الدخول في مجال المحاماة لتولي موضوع عام يهمني بوجه خاص**". ثم استطرد يروي قصة القضية التي تستهمه (بوجه خاص) فحدثني عن أن الحكومة (الحكومة التي يرعاها) قررت نزع أراضي المهاجرين في منطقة الهدى بالجزيرة الزرقا. وشرح لي نقد الله أن المهاجرين هم الأنصار الذين ارتحلوا من الجزيرة آبا إلى قلب الجزيرة ويطلقون عليها وصف الجزيرة الزرقا أما للتمييز بينها وبين الجزيرة آبا وإما للون تربتها. قال الإمام: "**الجماعة ديل مساكين لم يسمعوا بنزع الحكومة لأراضيهم لتوزيعها كحواشات في مشروع المناقل الجديد إلا بعد انتهاء الموعد المحدد للمطالبة بالتعويضات. ولكن الإداري المسئول عن التعويضات (حسن النور سوار الذهب) رفض قبول تظلماتهم بعد انقضاء ذلك الموعد**". هنا قلت للإمام: "الأمر بسيط؛ لأنه في يد وزير العدل زيادة أرباب الذي يمكن له تمديد الموعد". قال الإمام "**يا ولدي الناس ديل عندهم حقوق قانونية وشيتن ما بديني ليه القانون ما عاوز زيادة يديني ليه**". وكأن الإمام قد أراد أن يقول لي "أنا لست بحاجة لوساطتك مع زيادة، بل أريد أن أثبت حقًّا كفله القانون للمواطنين، والقانون ينبغي أن لا يظلم أحدًا". كلما ذكرت هذا الحادث وتلك الكلمات كدت أدمع وأقول لماذا لم يَعُد الكبار كبارًا ولماذا لا يصبح الحديث عن حكم القانون شعارًا يهرف به مَن لا يدرك مبناه، أو يعرف معناه حتى في أعلى المستويات؟

عند خروجي من مقر الإمام أخذت أقلب الأفكار حتى الصباح فهداني الله إلى التوجه إلى مكتب الأستاذ أحمد خير والذي كان مكتبي مع الفاتح عبود يجاور مكتبه، وما حملني على اللجوء إلى الأستاذ خير، إلا تقديري لمعارفه القانونية. ودون انتظار رويت القصة للقانوني الكبير، وهو يستمع لي باهتمام إلى أن فرغت. أخذ أحمد خير يهرش ذقنه، كما كان يفعل دومًا عندما يفكر في أمر، ثم قال لي: "عيد لي الكلام تاني"، ففعلت. فما كان من أحمد خير بحسه السياسي الحاد إلا أن قال: "**حكومة حزب الأمة تصادر أراضي أنصار ود المهدي، والله ناس حزب**

الأمة ديل ما بيعرفوا سياسة". لم أدرك في البدء ما عناه خير، ولاسيما أننا كنا نتحدث عن قضية قانونية؛ لهذا قلت لخير ما علاقة هذا الأمر بالقضية؟ فقال لي: "يا غبي أنت ما شايف في مصادرة حكومة ود المهدي الموصوف بأنه أكبر إقطاعي في السودان لأراضي أتباعه شيئًا مدهشًا؟ دي والله لو لقاها يحيى الفضلي كان دق بيها طار". تجاوزت وصف خير للإمام بالإقطاعي، أو بالأحرى قول من نُسب إليه ذلك الوصف، فالإقطاع في أدبيات السياسة لا يعني إلا استغلال مالك الأرض لفالحيها وتحويلهم إلى أقنان. قلت للأستاذ ما تقوله قد يكون صحيحًا، ولكني جئتك لهداية قانونية. في تلك اللحظة أشار أحمد خير إلى كتابين في مكتبته لأناوله إياهما، وكانا يتعلقان بما يُسَمَّى عند القانونيين (Writs) أي الأوامر الملكية أو القضائية التي تمكن القضاء من إلغاء أي أمر إداري سبب أذى لشخص أو أشخاص، أو أضر بحق مشروع لهم. اوعز لي خير بإعداد مذكرة لرئيس القضاء أورد فيها الحقائق، واستند في "الطروحات والدفوعات" على سوابق وردت في المرجعين اللذين هداني إليهما.

وفي غياب أبي رنات تولى الفصل في الموضوع نائبه القاضي محمد إبراهيم النور، ومما هو معروف أن القاضي نور وأسرته كانوا من اللصيقين بالأنصار وبإمامهم، رغم ذلك أصدر نور حكمًا في الاستئناف الذي رفعته له لا يَسعَد له أي محامٍ: "لا أرى سببًا للتدخل". ولاشك في أن القاضي نور قد قضى في الأمر بما يوحي به ضميره دون أن يعنيه من هو وراء الدعوى. ذلك أمر يحسب له، لا عليه، إذ لاشك في أن القاضي نور لم يضع أي اعتبار لاهتمام الإمام بالموضوع أو قرباه منه عندما أصدر حكمه ذلك. عدت إلى أحمد خير مهمومًا، فأبلغته بما حدث، فنصحني بأن أقدم الطلب من جديد لرئيس القضاء. اهتبلت الفرصة في واحدة من لقاءاتنا في دار الثقافة لأحدث أبا رنات في موضوع وصفته بـ"الخاص". فأنصت الرجل إليّ وكأني سأحدثه عن موضوع شخصي. لكن ما أن فرغت من حديثي حتى قال لي: "يا ابني القضايا لا تناقش في الأندية وإنما في المحاكم. من حقك أن تقدم لي ما شئت تقديمه بالطرق المعروفة". ذلك كان

درسًا لا أنساه في أدبيات المهنة، ترى كم هي الدعاوى التي لا يتردد بعض القضاة في الأزمنة الكالحة في التداول في أمرها في حفلات الزفاف أو عند "الدافنة" في المقابر دون أن يخطر ببالهم أن مثل هذه الممارسات تتنافى مع شروط المهنة؟ مهما كان من أمر، أعددت مذكرتي، وضمنتها كل المراحل التي مرت بها القضية، ودفعت بها إلى أبي رنات. وفي خلال أسبوع واحد أصدر أبو رنات قراره بالانجليزية في صفحة واحدة. في تلك الصفحة حكم أبو رنات بصحة القرار الذي أصدره نائبه؛ لأن الموضوع قد استنفد كل مراحله ولكنه أضاف: "بما أن ذلك القرار الإداري ألحق ضررًا كبيرًا بحق مجموعة من المواطنين، فإن ذلك يفرض مسؤولية أخلاقية على الحكومة برفع الضرر والمسؤولية الأخلاقية للحكومة تعدل المسؤولية القانونية".

(The moral responsibility of a government is as good as a legal responsibility)

كان ذلك هو المدخل الذي جعل وزير العدل ومدير التسجيلات يفتحان الباب لتمكين (المهاجرين) من نيل حقوقهم.

أحداث جوده وغضب الإمام

أما القضية الثانية التي حملتني إلى لقاء الإمام، فقد كانت حول موضوع لم يُقلقه فحسب، بل أغضبه. ففي إحدى أيام الجمع (والجمعة هو اليوم الوحيد الذي كنت لا أغشى فيه منزل عبد الله خليل) طلب مني البيه أن أنضم إليه لكي أصحبه إلى اسطبلات الخيل في الخرطوم، وكان للبيه مَخيلة كبيرة في الطرف الجنوبي من المدينة. ولكن ما إن وصلت دار البيه حتى قال لي بعد الإفطار لنتوجه أولًا إلى مقر الإمام على شاطئ النيل؛ لأن هناك مهمة قد نكلفك بها. هذه المرة كان الإمام غاضبًا على مقال كتبته جريدة "الصراحة" رمت فيه السيد صديق المهدي بالمسؤولية عن أحداث جودة، بالرغم من أن تلك الأحداث وقعت في زمان لم يكن فيه لحزب الأمة أو رئيسه سلطان، بل كان رئيس الوزراء ووزير الداخلية في

تلك الفترة هو الزعيم إسماعيل الأزهري. ومما ضاعف من غضب الإمام على الصحيفة نعتها للسيد صديق المهدي بـ"**صديق أفندي المهدي**". قال الإمام إن المزرعة التي يعمل بها المزارعون الذين أودي بهم ليست من مزارعه، وان كان أغلب الذين كانوا ضحايا الحادث من أنصاره فكيف يتهم ابنه بقتلهم؟ ثم أضاف لماذا يوصف "**ابني صديق**" **بالأفندي؟ "الأفندي دي يا ولدي كلمة تركية ولم يرد ما يرادفها في الكتاب إلا قوله تعالى:** ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: 94]. كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها بالآية؛ ولهذا لجأت من بعد خروجي من مجلس الإمام إلى شيخي المعلم عبد الرحيم الأمين سائلًا إياه عن مضمونها. لم يكتفِ المعلم بشرح معاني الكلمة، بل أخذ في شرح الآية قائلًا: عندما خرجت العير من مصر متجهة إلى كنعان أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام. أما تعبير "أن تفندون" فتعني تجهلوني أو تتهموني بالخرف أو الفساد، والمعنى الأخير، كما أفاد المعلم، جاء به النابغة الذبياني في معلقته:

يا دار مَية بالعلياء فالسندِ — أقوَت وطال عليها سالف الأبدِ

إلى أن قال:

إلا سليمان إذ قال الإله لهُ — قُمْ في البرية فاحددهَا عَلَى الفَنَد

فغضب الإمام من الصحيفة، فيما اعتقدت بعد حديثه، كان يعود إلى إطلاق نَعتٍ تركي على ابنه، وبين الترك والأنصار ما صنع الحداد. وعلى أيّ رد رئيس الوزراء على الإمام بقوله وهو يشير - لكاتب الصراحة - :"**هذا شخص سفيه وإن أردت فلنكلف ولدنا ده (مشيرًا إليّ) برفع قضية قذف ضده في المحاكم نيابة عن السيد صديق**". رد الإمام للبيه كان قاطعًا: "**أنت قلت سفيه (أي أنا لم أطلق ذلك النعت على كاتب المقال) فهل من المصلحة أن يقف صديق أمام سفيه**".

أحداث جودة كانت لفداحتها من القضايا التي شغلت الناس، فكتبوا فيها

شعرًا ونثرًا، إذ راح ضحيتها ثلاثمائة شخص في الوقت الذي كان فيه النزاع بين المزارعين وأصحاب المشروع نزاعًا مشروعًا (مطالبة المزارعين بحقوقهم، ومنها رواتبهم قبل تسليم القطن الذي قاموا بزراعته). كانت "الصراحة" هي أكثر الصحف التي أولت الموضوع اهتمامًا، ورغم ذلك لم يجرؤ كاتب على أن يُلقي التهمة على شخص بعينه، خاصة على مَن هم خارج دائرة المسؤولية المباشرة مثل صديق المهدي. فمن الذين أثارهم الموضوع، مثلًا، الأستاذ حسن الطاهر زروق الذي كتب في الجريدة نفسها (الصراحة) التي كانت تحسب اللسان المعبر عن اليسار مقالًا في عددها الصادر في 26 فبراير 1956 تحت عنوان "يدفنون الجريمة سرًا". في ذلك المقال كتب زروق: "أبرقنا مجلس السيادة نطلب وضع المتصلين بمذبحة كوستي في الحراسة وهم رجال الإدارة والبوليس والإدارة الأهلية، فهم- على الأقل- وبكل احترام متهمون بالتسبب في موت مائتي شخص اختناقًا. ولكن مازال هؤلاء مطلقي السراح، وهم يعملون بكل نشاط لتبرئة أنفسهم وإعدام ما يدينهم أو إخفائه على الأقل حتى تلقى التبعة على غيرهم". زاد زروق في مقاله: "**ماذا يعني هذا الموقف الحقير من جانب حكومة أزهري؟ إنه يعني أن الجهاز الإداري الذي أراق أنهارًا من الدماء لحماية سرقات الإقطاعيين يحمي نفسه بكل الوسائل، ويبعد نفسه من أن تمتد له يد العدالة**". كان في مقدور صاحب "الصراحة أن يحلل أحداث جودة وينقد المسؤولين المباشرين عنها كما فعل زروق بدلًا من إطلاق التهم على عواهنها دون دليل، خاصة أن الاتهام صحبه قلة حياء. أما عبد الله خليل الذي صار رئيسًا للوزراء بعد بضعة أشهر، فلم يلجأ إلى "ترسانة" الأوامر الإدارية ليصدر أمرًا بمحاسبة الصراحة، فالترسانة الوحيدة التي كان يعرفها هي القضاء الذي أوعز للإمام باللجوء إليه، فتأبى الإمام؛ لأنه لا يريد لابنه الوقوف أمام "سفيه".

بنفور عبد الله بيه عن اتخاذ أيّ إجراءات إدارية ضد مَن سماه "سفيهًا"، وعَزمُ الإمام على أن لا يقف ابنه صديق شاكيًا لذلك الصحفي تولى ثلاثة من شباب الأنصار الرد على عبد الله رجب بالاعتداء عليه في مكتبه، وهم يرددون

"الزيك أنت يصف السيد صديق بالأفندي". كانت القضية لتمر دون تعقيد إذ إن الشبان الثلاثة اعترفوا بفعلتهم، وقدموا للمحكمة بموجب المادتين 391 (التعدي الجنائي) والمادة 278 (تسبيب الأذى) أمام قاضي جنايات الخرطوم توفيق قطران. في تلك القضية مثل الاتهام يحيى حسين علي نور مأمور جنايات الخرطوم والأستاذ الرشيد نايل المحامي. ثمة مفاجأة وقعت عندما طلب أحد ممثلي الاتهام إضافة متهم جديد، وكأن اعتراف المتهمين الثلاثة لا يكفي لإدانة الجناة وكنت – يا للهول- المتهم الجديد بدعوى التحريض. لهذا بدلًا من مثولي أمام المحكمة كمحامٍ عن المتهمين وجدت نفسي متهمًا. في هذا الشأن، روى شاهد الاتهام أحمد طيفور وهو أحد الذين كانوا يعبرون بمكتبي بين الفينة والأخرى لتسقط الأخبار أنه استمع إليّ وأنا أتحدث مع شخص يجهل ماهيته قائلًا: "نعم قرأت الصراحة في مكتب رئيس الوزراء، وقرأت فيها عبارة صديق أفندي المهدي؛ مما يعني أن ما فيش حكومة في البلد". أضاف الشاهد قولًا مزعومًا نسب لي ألا وهو "أنا كنت مع رئيس القضاء وتحدثت معه في هذا الخصوص إلا أنه قال لي أن ليست للسيد صديق صفة رسمية، وليس من حق الحكومة أن ترفع قضية ضد الصراحة". أضاف الشاهد إلى ذلك أنني وجهت الشخص الذي كنت أتحدث معه "لازم تأخذوا حقكم باليد". هذه الشهادة تنبي عن مكر بليد، فما معنى قرأت "الصراحة" في مكتب رئيس الوزراء وكأن مكتب رئيس الوزراء هو مقهى شناكة. بالطبع ما كان ذلك الاتهام ليجوز على حاجب محكمة ناهيك عن قاض ذي مراس؛ ولهذا شطب قطران الاتهام وأخلى سبيلي. هذه الممارسات ستظل دليلًا على أن في مجال القانون زرافة من القانونيين لا تتورع عن تصفية حساباتها السياسية باستغلال دور القضاء للوك أعراض الناس، وما لهذا صيغت القوانين وأنشئت دور الحكومة بين المتقاضين.

الأمين والأمير

رجلان أكون مقصرًا في حقهما عليَّ، بل متخلفًا عن أداء واجبي نحوهما، إن لم

أسجل في هذه المذكرات تقديري لهما: أمين التوم والأمير عبد الله عبد الرحمن نقد الله؛ ولعل قربى الجوار في الحي جعلت علاقتي مع الرجلين علاقة أسرية أكثر منها سياسية. صلة أمين بعبد الله بيه كانت متينة للحد الذي جعلت منه أقرب الوزراء إليه، خاصة عندما أصبح وزيرًا لمجلس الوزراء. وعند هجرتي الأولى آثرت ألّا أترك مكتبي في عمارة المحامين لزميل في المهنة، بل تركته دون مَنّ للعم أمين. شاءت الأقدار ألّا أعود من هجراتي المتتالية إلا بعد أن غادر أمين الفانية من بعد أن ترك وراءه أبناء وحفدة يفخر بهم كل أب أو جد. ترك أمين أيضًا شيئًا جديرًا بالمباهاة به، ألا وهو مذكراته التي لم يَزْوَرّ فيها عن نقد أخطاء أبناء جيله من داخل وخارج حزبه. أما الأمير، فمننه عليَّ كثر، ومنها ما روينا في هذا الفصل. وفي خلال فترة مايو قبل رحيل الأمير كنت أزوره في داره بين اعتقال واعتقال. في واحدة من تلك الزيارات روى لي الأمير قصة تتحدث عن صلابة معدنه. كان الأمير يجلس دومًا في ديوانه على الأرض، فوفد عليه واحد من أبناء الأسرة ليقول له إن ضابطًا يحمل كلاشنكوف في الخارج لمقابلته. روى لي الأمير قوله للرسول دعه يتفضل، فأنا مستعد للقائه. وعند وصول الضابط ورؤيته للأمير جالسًا في ديوانه حافي القدمين فعل شيئين: خلع نعليه، ثم أودع سلاحه في الأرض قبل أن يقدم على الأمير ويناديه عند وصوله إليه بـ"عم نقد الله" فما كان من الأمير إلا أن رد التحية بأحسن منها قائلًا: "أنا كنت متوقعكم" ثم رفع مخدة كانت بجانبه ليكشف عن غدارة تحتها، كما أشار إلى شنطة في الديوان وقال: "وهذه هي ملابسي أعددتها للسجن". إن أردت أن تعرف مَن هو الضابط، قلت لك هو العقيد علي نميري الذي أضحى فيما بعد رئيسًا لجهاز الأمن القومي. هذه قصة لا تحكى فقط عن الأخلاقيات التي يجب أن يتمتع بها مسؤول الأمن عند التعامل مع الكبار من خصوم النظام المُكلف بحمايته، بل تحكى أيضًا قصة أخرى هي:

إِنَّ الأَمِيرَ هُوَ الَّذِي ... يَضْحَى أَمِيرًا يَوْمَ عَزْلِهِ

توافق عام (2011) مع الذكرى الأربعين لرحيل عبد الله بيه خليل بعد ثمانية وثمانين عامًا حافلات. وعندما طلب مني أبناء فريق السيد المكي في ذكرى مولد السيد أن أكشف عما أعرف عن عبد الله خليل قبلت ذلك طواعية، وحمدت للمحتفين بالمناسبة حرصهم على أن تكون ذكرى السيد مناسبة لاستذكار حياة مَن نبغ من أهل الحي في عديد من المجالات ومنهم عبد الله خليل، وعبد الخالق محجوب، والفنان عبد الكريم كرومة. في تلك الذكري قلت إن اختزال تاريخ رجل كعبد الله بيه في كلمات أمر عسير، خاصة أنه من نمط الرجال الذين يصفهم الفرنجة بأنهم أوسع من الحياة (Larger than life). الذين يعرفون عبد الله بيه لا يعرفون عنه إلا إنه السياسي الذي تولى رئاسة مجلس وزراء السودان عقيب إعلان الاستقلال، أما جل الناس - صغارًا وكبارًا - فلا يعرفون عنه حتى هذه الحقيقة. فلو سألت فتي يحمل أسفارًا مما يشي بأنه طالب علم مَن هو عبد الله خليل لأجاب: "**ده صاحب محطة البص البعد محطة الاسبتاليه، مُش**". وليس أسوأ من الجهل بالرجال إلا فهاهة التعبير. ولئن تركنا الصغار فما بالك بكبار لا يستغفرون الله أن يكونوا من الجاهلين. من أولئك قاضٍ أراد لي الحظ العاثر أن أقف أمامه شاكيًا. ودون أي علاقة لعبد الله خليل بموضوع الشكوى سألني محامي المشكو منه عن علاقتي بعبد الله خليل فنبهه مُحامٍ، نبيل أديب، أن ليس للسؤال علاقة بموضوع التقاضي. استجاب القاضي لاعتراض المحامي، ولكنه أضاف متسائلًا: "**عبد الله خليل ده مش الكان رئيس جمهورية**". في تلك اللحظة قلت لنبيل: "لِنَنْسَ الموضوع"، أي موضوع القضية. فكيف لي أن أطمئن لقاضٍ ينبغي أن يكون قد درس تاريخ بلاده في مرحلة الدراسة الثانوية، ومع ذلك لا يلم بحكامها وسياسييها، ودرس القانون الدستوري في المرحلة الجامعية ولم يتعلم شيئًا عن دستور بلاده. فالدولة السودانية لم تعرف منذ إنشائها إلا رئيسين للجمهورية أولهما يُسَمَّى جعفر محمد نميري، والثاني يُدعى عمر حسن أحمد البشير.

عبد الله بيه : الرجل الجامع للنبل

عبـد الله خليـل كـان رجـلًا جامعًـا لنبيـل الـصفات فهـو: عبـد الله خليـل العسكري، عبد الله خليل الوطني الثائر، عبد الله خليل الحزبي المؤسس والفاعل، ثم عبــد الله خليل رجل الدولة الذي يحـترم قـوانين تلـك الدولـة ومؤسـساتها، وعبد الله خليل الرجل الذي حرص طيلة حياته على ألا يجعل السياسة حائلًا بينه وبين صحبه على الضفة الأخرى من النهر. وعبد الله خليل الذي لم تجعله السياسة يبيت بضغينة ضد أحد. ثم قبل كل هـذا كـان عبـد الله خليـل الإنـسان البـسيط المتواضع الذي في بساطته نبل وفي تواضـعه كبريـاء. ولـج عبـد الله خليـل مجـال العسكرية عقب تخرجـه في قـسم الهندسـة بكليـة غـردون التذكاريـة بالالتحـاق بالمدرسة الحربية في عام (1908) التي تخرج فيها بعد عامين. ويكشف التاريخ أن عبد الله خليل كان منذ صباه مشاغبًا- إن جاز التعبير- إذ تطوع وهو مـلازم مـع غيره ممن حملتهم الغيرة الإسلامية للوقوف إلى جانب تركيا في حربها ضد روسـيا عام (1910). وفي رتبة اليوزباشي عمل في عـام (1912) بالأشـغال العـسكرية المصرية؛ مما أتاح له خلق علاقات وثيقة مع الضباط المصريين، كما مكنه مـن ذرع أرض السودان شمالًا وجنوبًـا يمـسح الأرض، ويحـدد المواقـع، ويـدرب ناشـئة العسكريين على فنون المساحة والهندسة. ولعل الذي لا يعرفه الكثيرون عن عبـد الله بيه أنه لم يقصر استخدام تمهره العسكري على المجالات الوظيفية، بل سـخرها أيضًا للعمل الثوري، إذ أصبح، مع قلة مـن زملائـه مـنهم عـلي البنـا، وعبـد الله النجومي وعبد المجيد مرسال وإبراهيم عبود، عضوًا في اللجنة العسكرية لحركـة اللواء الأبيض. تلك المرحلة من حياة البيه كان لها أثر كبـير عـلى مـستقبل حياتـه السياسية بعد تقاعس "الأورطة المصرية بالـسودان" عـن نجـدة مناضـلي اللـواء الأبيض عندما أمطرهم الجيش الانجليزي بوابل من الرصاص. منذ تلك اللحظة قلب عبد الله خليل وآخرون ظهر المِجَن لساسة مصر، وكان كلما سئل لماذا يكـره مصر؟ رد بقوله: **"أنا لا أكرهها ولكنني أعرفها جيدًا"**. مع ذلك لم يذهب عبد الله خليل مذهب رفاق له في اللواء الأبيض في الحنق على مصر، مثل الـشاعر صـالح

عبد القادر الذي أنشد وهو يستذكر قصيدة أبي الطيب المتنبئ في هجاء كافور الإخشيدي التي جاء فيها (نامت نواطير مصر عن ثعالبها) قائلًا:

أبا الطيب اسمعني فما أنت مخطئ ولا أنا من ترديد شعرك أسأم
نواطير مصر ما تغير وضعها وها هي مازالت تغط وتحلم
وما زال ذاك الشعب يجهل نفسه وما زالت الدنيا به تتبرم

تجاوز الضابط عبد الله خليل المرحلة المأساوية التي مر بها وارتقى في المجال العسكري رتبًا لم ينلها أحد قبله من الضباط السودانيين مما أهَّله للقيام بدورٍ قيادي في قوة دفاع السودان إبان الحرب العالمية الثانية في الصحراء الليبية. أداؤه في تلك الحرب أهَّله للترقي كأول ضابط سوداني إلى رتبة الأميرالاي، إذ كانت أعلى الرتب التي حازها الضباط السودانيون حتى ذلك التاريخ هي رتبة القائم مقام. رغم ذلك لم تلهِ العسكرية عبد الله بيه عن، أو تلجمه من، السعي لأداء دور في الحركة الوطنية. ففي بداية عهدها انضم عبد الله بيه إلى مجموعة العشرة الأوائل الذين سعوا لإنشاء أندية الخريجين كملتقى يتشاور فيه الخريجون في أمور بلادهم. ولكن سرعان ما نبهه رؤساؤه في الجيش لتعارض نشاطه الاجتماعي مع المهنة العسكرية، ولهذا تم نقله إلى القيادة الاستوائية حتى يكون بعيدًا عن تلك المناشط، ونحسب أن ذلك هو السبب الذي يفسر غياب اسم عبد الله بيه، بل وأسماء رفاقه في الجيش، عن التنافس في المؤتمر على مواقع لجانه الستينية والتنفيذية. ولكن عند اشتداد الوطيس في الصراع السياسي بين توجهين: استقلال السودان عن مصر وبريطانيا، والوحدة مع مصر، قرر عبد الله خليل ترك موقعه في أعلى رتبة بلغها ضابط سوداني (الأميرالاي) لينخرط في السياسة. رغم ذلك ظل اعتزازه بالرتبة العسكرية يحمله على الحفاظ في مدخل داره بأم درمان على لافتة نحاسية تقول "منزل الأميرالاي عبد الله خليل" تلك اللافتة بقيت في مكانها حتى بعد أن أصبح عبد الله وزيرًا للدفاع ورئيسًا للوزراء.

من جانب آخر درج معارضو حزب الأمة على وصف حزب الأمة بالحزب

الذي أسسه البريطانيون ليكون ترياقًا ضد الحركة الوطنية، ولعل هؤلاء لم يعرفوا، أو يكلفوا أنفسهم بأن يعرفوا، كيف رفض البريطانيون الاعتراف بذلك الحزب كحزب في بداهة عهده. فعند تقديم عبد الله خليل للسكرتير الإداري طلبًا للتصديق على إنشاء حزب جاء الرد من مدير مديرية الخرطوم بالتصديق لنادٍ وليس لحزب. امتعض عبد الله خليل من ذلك القرار وعند مجابهته للسكرتير الإداري وإبلاغه أن النادي ليس حزبًا، وأن التصديق من مدير الخرطوم لا من السكرتير الإداري يعني أن محور نشاط النادي سيظل محصورًا في الخرطوم. في الرد على ذلك التساؤل لاذ السكرتير الإداري بالادعاء بأن ذلك القرار قد اتُخذ لأنه ليس في السودان قانون ينظم الأحزاب. آخرون ما انفكوا يصورون عبد الله خليل كعميل للاستعمار دون أن تشفع له عندهم مواقفه الثورية في اللواء الأبيض أو الرسالة التي بعث بها عبد الله خليل إلى الحاكم العام عند الإعلان عن مؤتمر سان فرانسيسكو الذي أُقر فيه ميثاق الأمم المتحدة. في تلك الرسالة كتب عبد الله خليل يذكر الحاكم العام بأن ميثاق الأطلسي يعترف بالدور الذي قامت به الدول في محاربة النازية، وينص على حق تقرير المصير للشعوب، ثم أضاف: "بما أن السودان قد أسهم إسهامًا معروفًا في الجبهة الشرقية والشمالية في أفريقيا؛ فهو يدعو إلى مشاركة السودان في مؤتمر سان فرانسيسكو لتوضيح قضيته بما فيها موضوع تقرير المصير الذي أقره ميثاق الأطلسي". الرد على تلك الرسالة جاء مقتضبًا من السكرتير الإداري قال فيه "إن دور السودان في الحرب مشكور غير منكور ولكن مؤتمر سان فرانسيسكو ليس هو المكان الذي تعالج فيه قضية السودان".

رد السكرتير الإداري كان ردًّا فيه تشاطر، إذ وجه السؤال نفسه غاندي للحكومة البريطانية عندما قررت إعلان الهند دولة من دول الحلفاء (أي الدول المتحالفة ضد دولتي المحور: ألمانيا وإيطاليا). كتب غاندي للحكومة البريطانية ما يؤكد وقوف بلاده ضد الفاشية التي كانت تمثلها دولتا المحور، ولكنه أضاف أن شعب الهند لن يقبل أن يُنسب للحلفاء إن لم تعلن بريطانيا استقلال الهند. وهذا

هو ما فعله رئيس وزراء بريطانيا كلمنت أتلي عند عودة وزير خارجيته السير ستافورد كريبس إلى لندن من زيارته للهند. وتجدر هنا الإشارة إلى أن السير ستافورد قد توقف في السودان عند عودته من الهند وبدلًا من أن تتيح له حكومة السودان لقاءً مع السياسيين الذين لم تكن تعترف بهم حتى ذلك الوقت، رتبت له لقاءً مع اثنين من الصحفيين: أحمد يوسف هاشم وإسماعيل العتباني، لتلمس رغبات السودانيين بعد الحرب. وبعد ذلك اللقاء وعد كريبس السودانيين خيرًا وهو يقول: "إن تأدية السودان دورًا مشهودًا في الحرب ضد المحور سيكسبه مكانًا في العهد الجديد الذي يأمل أن يراه في العالم عندما يفرغ من قوى الشر".

وعندما عُرضت قضية السودان أمام مجلس الأمن (1947) شارك في الاجتماع عبد الله خليل بوصفه أمينًا عامًّا لحزب الأمة ومحمد أحمد محجوب ممثلًا للجبهة الاستقلالية، ولم يكن المحجوب قد أصبح بعد عضوًا في حزب الأمة. استمع المجلس لرئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي وهو يقدم أطروحة طويلة، فحواها أن السودان جزء من مصر بموجب الفرمانات الخديوية وشكك في أهلية السودان للمطالبة بحق تقرير المصير". على تلك الدعوى رد المندوب البريطاني السير ألسكندر كادوقان منكرًا دعاوى مصر حول السيادة على السودان ولكنه أضاف أيضًا: "إن السودانيين راضون عن الإدارة الحالية، ولا يريدون لها بديلًا". ماذا كان رد عبد الله خليل بوصفه ممثلًا لحزب الأمة على حديثي النقراشي باشا واللورد كادوقان؟ قال **"إن السودانيين تواقون للاستقلال، ويطالبون مجلس الأمن بإنهاء الحكم الثنائي فورًا وإعلان استقلال السودان عن مصر وبريطانيا"**. وقد عبر عبد الله خليل عن هذا الموقف في مقال نشرته مجلة الاسبكتاتور (The Spectator) في إحدى إصداراتها الأسبوعية 22/ 11/ 1964 وكان ذلك عقب إعلان رئيس الوزراء المصري إسماعيل صدقي باشا عقب عودته من لندن وعقده اتفاقًا مع وزير الخارجية البريطانية إرنست بيفين.

ما الجبهة الاستقلالية التي كان يمثلها عبد الله خليل والمحجوب في اجتماع مجلس الأمن؟ عن تلك الجبهة كشف خطاب لأستاذي المعلم عبد الرحيم الأمين

ألقي في يناير (1968) احتفاءً بذكرى الاستقلال وذكـرى الإمـام عبـد الـرحمن. ذلك الخطاب الذي كاد أن يندثر، أمـاط عنـه اللثـام الكاتـب المستقـصي للأمـور فيصل عبد الرحمن علي طه. وحسب فيصل تحدث في ذلـك الحفـل مـن أصـدقاء الإمام: عبد الرحمن علي طه، وعبد الله عبد الرحمن نقـد الله، وأحمـد المهـدي، كـما قُرئ خطاب المعلم الذي حَالَ المرضُ دون مشاركته، فأعـد خطابـه وهـو طـريح الفراش لمرض القلب. قال المعلم في الخطاب الـذي قـرئ نيابـة عنـه: "تعـود بي الذاكرة إلى يوم من شهر أكتوبر (1946) وكنت عندئذٍ في عنفوان الشباب أستعد للسفر موفدًا من كلية غردون لأحصل على الدكتوراه وأعود أستاذًا للغة العربيـة بها. وكما تقوم الساعة، ماجت الأرض فجأة، في الـسودان وجـاء التـصريح بـأن صدقي باشا (إسماعيل صدقي رئيس وزراء مصر آنذاك) قد أعلن في محطة القاهرة بأنه جاء من إنجلترا بالسيادة على السودان. وأذكر أنني قضيت ليلتي تلك أتقلب من الهم حتى انبلج الصبح فأسرعت إلى الصديقين الأسـتاذ بـشير محمـد سـعيد والدكتور محمد الحسن أبوبكر فإذا حالهما كحالي، فاجتمعنا بالأصدقاء محمد أحمـد محجوب، والدكتور عبد الحليم محمد، ومحمد إبراهيم خليل، وشرعنـا في تكـوين الجبهة الاستقلالية مـع إخواننـا في حـزب الأمـة والحـزب الجمهـوري وحـزب القوميين الذي كان يرأسه الأستاذ أحمد يوسف هاشم". الجبهة الاستقلالية هـذه هي التنظيم الذي كان يدعو لاستقلال السودان عن بريطانيا ومصر وكان الطرف الآخر يدعو لوحدة السودان مع مصر في كل عهودها من عهد إسـماعيل صـدقي والنقراشي والنحاس ومحمد نجيب. ولهذا كان الاتحاديون حتى عهد عبد النـاصر ينعتون دعاة الاستقلال بالانفصاليين. أما موقف الجبهـة الاسـتقلالية فلـم يكـن حديث عهد، بل هو موقف أقره مؤتمر الخريجين منذ نهاية الأربعينيات مما قـاد إلى خروج حزب الأمة من المؤتمر. ففي 27 مارس 1945 وقعت الأحزاب الاتحادية الثلاثة (الأشقاء، والاتحاديون، والأحرار) عـلى ميثـاق مـشترك يـدعو إلى "قيـام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت تاج واحد". على ذلـك الميثـاق وقع إسماعيل الأزهري، ويحيى الفضلي، ومحمد نور الدين، وأحمد محمد يـس عـن

الأشقاء، وعن الاتحاديين عبد الله ميرغني، خضر حمد، وحسن أحمد عثمان، وإبراهيم يوسف سليمان "وعن الأحرار أحمد محمد علي علي السنجاوي، ومحيي الدين البرير، والطيب محمد خير، وعبد الرحيم شداد". اتفاق هذه الأحزاب الثلاثة وإقرار المؤتمر له أدى إلى خروج حزب الأمة من المؤتمر. ومن الغريب قبول الاتحاديين لذلك النص بالرغم من أن شعارهم الأعلى كان هو الاتحاد مع مصر وليس الوحدة، ناهيك عن أن تكون تحت تاج واحد.

الدَّلَس والولَس في الأخبار، وقع أيضًا في أمر إعلان الاستقلال، الحدث الأهم في تاريخ السودان المعاصر . ذلك الاستقلال ما كان ليتحقق لولا الوفاق الذي تم في اجتماع مهم انعقد في الفترة ما بين 8-18ديسمبر 1955 في قاعة مجلس الشيوخ عندما استقر رأي الحزب الوطني الاتحادي على إعلان الاستقلال من داخل البرلمان دون الالتزام بما نصت عليه الاتفاقية المصرية - الانجليزية حول تقرير المصير للخيار بين الاتحاد مع مصر واستقلال السودان. ذلك القرار صحبته شروط أربعة:

1. الاتفاق على دستور الدولة السودانية.
2. تكوين حكومة قومية.
3. وضع الجنوب.
4. تكوين الهيئة التي ستحل مكان الحاكم العام.

في ذلك الاجتماع شارك ميرغني حمزة (حزب الاستقلال الجمهوري)، ويوسف العجب (الحزب الجمهوري الاشتراكي)، حسن الطاهر زروق (الجبهة المعادية للاستعمار)، ومحمد نور الدين (الجبهة الاتحادية). ومثل الحزب الوطني الاتحادي: مبارك زروق، وإبراهيم المفتي، وخضر حمد، وعلي عبد الرحمن. كما مثل الجنوب ستانسلاوس بياساما، وبنجامين لوكي عن الأحرار. ومثل حزب الأمة عبد الله خليل. إشارتنا لدور عبد الله خليل في هذا المقام لا نهدف منها غير الإفصاح عن موضوعيته. فعند الحديث عن الحكومة القومية رأى عبد الله خليل

أن رئاسة الأزهري لتلك الحكومة يجب أن تكون أمرًا مفروغًا منه بحكم حصول حزبه على العدد الأكبر من المقاعد في مجلس النواب "شريطة ألا يكون لذلك الحزب أغلبية طاغية في الحكومة". في ذلك الاجتماع أقر عبد الله خليل بأحقية الأزهري بالرئاسة في الوقت ذاته الذي اعترض فيه محمد نور الدين على رئاسة الأزهري داعيًا إلى إقصائه من الرئاسة، موقف نور الدين -رفيق الأزهري في النضال- لم يكن بسبب إنكاره لما دعا له البيه، ولكن ربما كان لعدم إفاقته من الصدمة التي اعترته بسبب تخلي أزهري عن الوحدة مع مصر.

البيه في حياته الخاصة

في الجانب الشخصي من حياة البيه أبدأ بالقول إنني طوال ترددي على داره لم أشهد باب الدار موصدًا، والدار التي لا يُرتج بابها يغشاها الغادي والرائح. تلك الدار لم تتسع للأسرة وحدها فقط، بل تراحبت لتضم الوافدين إليها من أصدقاء البيه وأبنائهم الذين جاؤوا إلى المدينة ينشدون العلم، ومن هؤلاء أذكر الشاعر أبو آمنة حامد. أثار اهتمامي أيضًا أن تلك الدار ظلت دون رقيب من العسس حتى عندما كان صاحبها رئيسًا للوزراء ووزيرًا للدفاع. ومع حرص عبد الله خليل على أن لا يغلق الباب الخارجي لمنزله كان أيضًا رجلًا شديد الخصوصية في حياته لا يفصح عن ذاته إلا لصحبه الأقربين، خاصة مَن كان يُزجي معهم أوقات الفراغ في لعب الورق. أغلب هؤلاء لم يكونوا من السياسيين بل من قدامى زملائه في الجيش أو الهندسة ومنهم الأمين حميدة العجباني،، يوسف مصطفى التني، عبد الرزاق علي طه، والمهندس عبد القادر حميدة العجباني أو من مخالفين له في السياسة إلا إن نفسه كانت تستريح إليهم مثل: الدرديري أحمد إسماعيل، مبارك زروق؛ زين العابدين صالح أبو قاضي. أو من موظفي الخدمة العامة الذين كان ينشد رأيهم: عبد الحليم علي طه، الدرديري نقد، إبراهيم عثمان إسحاق، أحمد متولى العتباني. كان أيضًا من بين الذين يفدون على منزل البيه كل صباح عبد الخالق محجوب قبل أن يتكاثر عليه زوار الصباح، وكان عبد الخالق يخاطب

البيه دومًا بعم عبد الله لما بين البيه ووالد عبد الخالق من صلة، أو بـ"سعادة البيه". كلا الوصفين كانا حبيبين إلى نفس عبد الله خليل. كثيرون كانوا يستغربون العلاقة القائمة بين البيه والدرديري أحمد إسماعيل داعية اندماج السودان ومصر من ناحية، ومن ناحية أخرى مع مبارك زروق قطب الوطني الاتحادي الذي كان رغم انتمائه الحزبي ممن حباهم الله بقدرة فائقة على التمييز بين الخاص والعام. وتعبيرًا عن وفائه لصاحبه اعتذر مبارك زروق عن تولي الاتهام في القضية التي رفعها الحزب الوطني الاتحادي في دائرة أم كدادة للطعن في ترشيح عبد الله خليل للانتخابات في تلك الدائرة، وأحال الأمر لأحمد سليمان المحامي إلا إن الحزب قرر أن يتولى الدفاع عن سكرتيره العام محمد أحمد محجوب. الطعن في البيه جاء لاتهامه بإقامة ولائم باذخة للناخبين صُورت كعملية إفساد لأولئك الناخبين. ذلك "البذخ" أتاح الفرصة لمحاميه محمد أحمد محجوب أن يبدع شعرًا ونثرًا في الكرم الذي اتصف به البيه حتى عرفه القاصي والداني جوادًا لاينفد عطاؤه. وقد قارب المحجوب في بداية دفاعه ذلك البذخ "المزعوم" بجود أهل طرفة بن العبد وهم يفاخرون بكرًا:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر

ولقد تعلم بكر أننا ... آفة الجزر مساميح يُسر

ولقد تعلم بكر أننا ... واضحو الأوجه في الأزمة غُر

ولقد تعلم بكر أننا ... فاضلو الرأي وفي الروع وقر

يكشفون الضر عن ذي ضرهم ... ويبرون على الآبي المُبر

الجَفلَى هم الناس جميعًا دون تمييز، والآدب هو صاحب المأدبة، والانتقار هو عدم التمييز بين المدعوين. فالجود الذي قصد طرفة أن يصف به ممدوحه هو بذل الخير للناس بغير عوض. لا أدري إن كانت محكمة أم كدادة هي المكان المناسب للاستشهاد بشعر طرفة، ولكن ذلك هو المحجوب.

من الناس مَن وصم عبد الله خليل –بالتكبر– دون دراية بأن عددًا كبيرًا من صحابه كان من مدربي وسياس الخيول في الاسطبلات. فعلى رأس كل أسبوع كان البيه يقضي أغلب وقته مع هؤلاء وذات مرة قرر واحد منهم اختصام عبد الله خليل بعد تركه الوزارة أمام المحكمة حول ملكية أرض ادعاها. أذكر اتصال الفريق الراحل الفاتح بشارة بي –وكان وقتها سكرتيرًا للرئيس عبود– ليتساءل عما يجب أن يفعل، ولعل تلك المبادرة كانت بإيعاز من الرئيس عبود. قلت له لا تحاول إذ علمت من البيه أن الرجل لا يريد إلا الابتزاز، ولهذا ظل يقول للوسطاء: "لو كان الرجل في حاجة لأكثر مما طلب لأعطيته له طواعية مما أملك، أما الابتزاز فلا". تلك قصة أرويها لتداعياتها، ففي محكمة الخرطوم جنوب جاء الشاكي ولحق به المشكو ضده فنهض القاضي مأمون محمد السيد واقفًا وطلب من حاجب المحكمة إحضار مقعد للبيه. وبعنف ملحوظ قال عبد الله خليل للقاضي – وكان واحدًا من أبنائه الذين يزورونه الفينة بعد الفينة– "اجلس! أنت القاضي فكيف تريد من المشكو ضده الجلوس في حين يظل الشاكي واقفًا؟ "كان للبيه أيضًا حس بالغ بوجود الآخر مهما صغر سنه. اذكر ذات مرة أن كان في زيارته واحد من أهله النوبيين الذين كانوا يزورونه للتحية أو لحاجة. وظل الرجل يتحدث بلغة النوبيين في حين ظل البيه يستمع إليه على مضض. وفجأة قال البيه لزائره بالنوبية: "**أحسن نتكلم بالعربي عشان ولدنا المعانا ده يشارك في الكلام**". رد الرجل على البيه بالنوبية ردًا جعل البيه يضحك مليًا قبل أن يقول لي: "**'نت عارف عمك ده قال إيه؟ قال لي أنا ما كنتش أعرف إن ابنكم هذا عجمي**". قلت لنفسي نحن نحيا في بلد كل قوم فيه بما عندهم فرحون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

بيع السودان للأمريكان

في إحدى المرار استقبلت عبد الخالق محجوب وهو خارج من دار البيه في الصباح الباكر، وعندما بلغت البيه وجدته مبتسمًا، وبادرني بالقول: "**إنت تعرف**

الود محجــوب قال إيه؟" وكان البيه في بعض الأحيان، كما سلف الـذكر، يـدعو عبد الخالق باسم والده. قلت له: "ماذا قال لك؟" قال: "الشارع كلو زعلان مني لأني بعـت الـسودان للأمريكـان"، وكـان ذلـك إبـان مناقـشة مـشروع المعونـة الأمريكية. سألته عن رده فأجاب: قلت له: "بلدكم مفلـسة وأنـا عـاوز أعمرهـا عشان كده بعت جزءً منها للأمريكان وأنا مستعد أبيع الجزء البـاقي للـروس لـو دفعوا زي ما دفع الأمريكان". ولمعرفتي بالبيه أيقنت أنه لم يكن يستهزئ وإنما كان صادقًا فيما قال وإن كان في قوله سخرية. الشارع التهيم حسبما قال عبد الخالق هو نفسه أمين عام الحزب الشيوعي الذي رأى من باب الأدب أن يرمي بالتهمة شيئًا مجهولًا مثل الشارع. أما بيع السودان فكان، بلا شك، إشارة إلى قبول حكومة عبد الله بيه للمعونة الأمريكية في الوقت الذي كان فيه الحزب الشيوعي يُفتي بأن أزمة السودان الاقتصادية تُعزى إلى التبعية لأمريكا. عن ذلك الـرأي عـبرت صـحيفة الكادر (العدد 61) التي كان يصدرها الحزب الشيوعي عندما كتبت: "مشكلات الاقتصاد (السوداني) تعزى إلى سياسة التبعية للمعونة الأمريكيـة والاحتكـارات الإنجليزية والألمانية التي جعلت التطور مستحيلًا والحجر على حرية التعامل مـع المعسكر الاشتراكي"، والأخير هو بيت القصيد. وإن عرفنا أن المعونة الأمريكيـة يوم ذاك تمثلت في أول تطوير لسكك حديد السودان منذ عشرينيات القرن الماضي حتى وصلت إلى دارفور(نيالا)، وجنوب كردفان (بابنوسة)، وجنـوب الـسودان (واو)، كما تمثلت في بداية إنشاء طريق السودان - بورتسودان الذي توقف بنـاؤه عند الجيلي بعد. قطع العلاقات مع أمريكا وما زال يُنعـت حتـى اليـوم بــ"شـارع المعونة"، وفي ابتعاث أول طلاب سودانيين للولايات المتحدة في مجالات الزراعـة المختلفة، يصبح من العسير وصف تلك الإنجازات الكبرى بالتبعيـة. المـضحك المبكي في الأمر أن أول مَن بدأ مشروعات التعاون مع الاتحـاد الـسوفييتي الـذي قيل إن حرية السودان في التعاون معه قد حجرت عليه كـان هـو الجنـرال عبـود، الرجل الذي وصف الشيوعيون مجيئه إلى الحكم بالمؤامرة الأمريكية.

ترهيب الشيوعيين للناس بالخطر الأمريكي الداهم لا يهدف إلا لإثارة الفزع

بينهم، ولكن لم أكن أظن أن ذلك الداء مازال قائمًا بيننا حتى اليوم، فبآخره قرأت مقالًا أو مقالات لكاتب لم أحظَ بشرف التعرف عليه، وإنما أتابع ما يكتب بشيء من التقدير. عنوان المقالات هو "سقوط حكم الفرد القمعي" (الأيام - محمد علي خوجلي مارس - أبريل 2014). ورغم أن تلك المقالات، في جانب منها كانت محاولة جريئة لتحليل الأنظمة القمعية، وفيها الكثير مما نتفق عليه مع الكاتب، فإن الذي أفسدها هو رواسب الهوس القديم، وغير قليل من البلاغ الكاذب. عاد الكاتب المحقق بقرائه إلى عهد عبود ليروي عن وفود استخباراتية دخلت السودان تحت مظلة خبراء تحت قيادة أمريكي من أصل أفريقي، ثم أضاف أقصوصة كان يتداولها الناس حول طلب أمريكي للسماح لطائراتها بالإقلاع والهبوط على طريق عطبرة، والذي قال الكاتب إن الحكومة رفضته. القيادي الأمريكي من أصل أفريقي هو روبرت كتشن ممثل المعونة الأمريكية في الخرطوم، وكان موظفًا بوزارة الخارجية الأمريكية في وقت كانت فيه إدارة المعونة الأمريكية ملحقة بتلك الوزارة. ولا يفيد في شيء نسبته لأجهزة الاستخبار الأمريكية؛ لأن لكل موظف في السفارات، أمريكية كانت أم سريلانكية، واجب استخباري يؤديه كواجب وطني. ولكن ما هو أشد دهوًا هو تكرار فرية لا تقوم على ساق ألا وهي طلب أمريكا السماح لطائراتها بالإقلاع والهبوط من شارع عام؛ لأن ذلك لا يتأتى لطائرة رش.

رجل أفدحته الودائع وأنهكته المسؤوليات

ظل كثر ممن تطوعوا بكتابة سيرتي يتحدثون عن منصور خالد، سكرتير رئيس الوزراء عبد الله خليل. هذا شرف لا أدعيه، فسكرتارية رئيس الوزراء منصب رفيع في الدولة؛ ولهذا فلابد أن يكون شاغله موظفًا بتلك الدولة. هذا ما لم يكن يجوز لمحامي مسجل يباشر عمله من مكتبه الخاص. فالمحامي قد يكون عضوًا فاعلًا في حزب، أو قياديًا فيه، أو مستشارًا له، أما الوظيفة الدائمة فلا تجوز في عُرف الخدمة العامة. وبالفعل كان للبيه سكرتير من موظفي الدولة ظل يؤدي

واجبه حتى أحيل للتقاعد ألا وهو "العم" طه صالح، وكان واحدًا من جماعة الأبروفيين. أقول العم حتى أبين أنه ليس بحال صديقي الكروي المريخي العتيد طه صالح، هذا تنوير ضروري في بلد يتلقف فيه البعض القول كما يلقفون الطعام لقفًا -أي يبتلعونه دون مضغ- ليقول لطه المريخي: **"أتاريك كنت سكرتير لعبد الله خليل"** . في الواقع لم أكن سكرتيرًا للبيه، بل كنت أكثر من ذلك، كنت ابنًا له يكلفني بما يفوق ما يكلف به الآباء أبناءهم. ولا أملك الادعاء بأنني كنت مستشارًا له فمن الوقاحة أن يزعم من كان في سني وخبرتي المحدودة أن يكون مستشارًا لرجل كان أصفياؤه السياسيون هم: عبد الرحمن علي طه، ومحمد صالح الشنقيطي، وإبراهيم أحمد، والشيخ يوسف العجب، وعلي بدري، ومن الجيل الذي تلاهم أمين التوم، وعبد الرحيم الأمين، وحسن محجوب، وأحمد عبد الوهاب.

على كل، يسرت لي القُربى من البيه أن أرى فيه خصالًا ما كان المرء ليلم بها لولاها. من ذلك ثباته عند رأيه متى ما استقر عليه لا يحيد عنه أبدًا، وسعيه لإغاثة الملهوف في صمت دون مَن أو أذى، وسماحته في البذل في العُسر واليُسر، ثم أداؤه الأمانات لأهلها دون أن تدري يساره ما تفعله يمناه حتى أفدحته الودائع، وفي قول الشاعر:

إِذَا أَنْـتَ لم تَـبْرَحْ تُـؤَدِّي أَمَانَـة   وَتحمِلُ أخْرَى أفْدَحَتْكَ الوَدَائِعُ

دار البيه: كما قلنا، كانت دارًا لا يُطرق بابها، وكيف يُطرق باب مفتوح المصراعين؟ ففي الصباح يولم البيه في مائدة الإفطار للعشرات من السياسيين والصحفيين وطالبي الحاجات من أهل السياسة والصحافة، ونذكر من الأخيرين: حسن محجوب، وأمين التوم، وفتحي علوب، ويحيى عبد القادر، وصالح عرابي، ومحمد مكي محمد. وذات مرة التقى حسن محجوب بيحيى عبد القادر في وليمة إفطار البيه اليومية فانفجر هائجًا، لا على يحيى بل على البيه نفسه. قال حسن **"يا سعادة البيه نحن غِلِبنا معاك حيلة. أنت ما عارف يحيى ده**

بقى يربي أولاده بشتيمتك". وكان يحيى، فيها قدر كثيرون، يتأرجح بين حزب الأمة والاتحاديين، وبين السيد علي والسيد عبد الرحمن رغم انتمائه للطائفة الهندية. انتهر البيه حسن محجوب بالقول: "**إذا الراجل مش قادر يربي أولاده إلا بشتيمة عبد الله خليل ما تخليه يشتمه، إنت مالك**".. هذا التأرجح المظنون في مواقف يحيى عبرت عنه مبارزة صحفية مشهورة بينه وبين صالح عرابي. كان في العاصمة يوم ذاك ساعتان مشهورتان: ساعة المحطة (أي محطة السكك الحديدية) وهي ساعة مضبوطة على اتجاهين وساعة الكنيسة الملحقة بقصر الحاكم العام، وكانت مضبوطة على اتجاهات أربعة. في تلك المبارزة وصف يحيى صالح عرابي بالرجل المضبوط على الاتجاهين، مثل ساعة المحطة، فرد عليه عرابي -وكان وقاد القريحة-: " نعم أنا مضبوط على اتجاهين أما أنت فمضبوط على الاتجاهات الأربعة كساعة الكنيسة". أيا كان الحال أدت تلك اللقاءات إلى تعرفي على بعض رجالات الصحافة من غير الحزبيين؛ مما مكنني من الإسهام ببعض المقالات -بل صياغة الافتتاحيات- لبعض الصحف مثل جريدة الناس لمحمد مكي وصحيفة المستقبل التي كان يصدرها يحيى عبد القادر، وكان من ورائها الشريف حسين الهندي. ويؤكد دعم الشريف لتلك الصحيفة اختياره ليحيى عبد القادر ليكون أمينًا عامًّا للحزب الوطني الذي كان يرعاه الشريف إبراهيم الهندي.

كان البيه أيضًا، رغم ما يبدو من عبوس في وجهه، رجلًا صارمًا فقط في مجابهة مَن ألدرا به في الخصومة لحد الطعن في كرامته. في وجه كل مَن عداهم، أذكر ذات مرة أن نقل إليه خبر اتهام وجهه له أحد كبار بيت المهدي وفحواه أن رئيس الوزراء لا يهتم بأمر الأنصار، فما كان منه إلا أن قرر مجابهة هذا الكبير في اجتماع لقيادة حزب الأمة. وعند سماع عبد الرحمن علي طه لهذا الموضوع قرر التصدي للرجل طالبًا من عبد الله بيه أن لا ينبس ببنت شفة في الاجتماع خشية من أن يُفجِّر الموقف في سورة غضبه تلك. وعندما تم الاجتماع برئاسة السيد الصديق المهدي ابتدر عبد الرحمن علي طه الحديث بالقول إن أي اتهام يوجه لرئيس

الحكومة حول أدائها لواجباتها هو اتهام للحكومة كلها، كما أكد للمجتمعين حقائق جديرة بأن لا ينساها الناس:

- أن الحكومة التي يقودها عبد الله خليل هي حكومة السودان، وليست حكومة الأنصار.
- أنه رغم وجود أنصار في تلك الحكومة فإن عددًا غير قليل من أعضائها جاءوا إلى تلك الحكومة بحكم استقلاليتهم وانتمائهم إلى حزب الأمة رائد الاستقلال، لا لأنصاريتهم.
- أنه إن كانت تلك الحكومة لا تهتم بمصالح الأنصار بحكم مواطنتهم لا أنصاريتهم، فليحدد الشاكي ماهية عدم الاهتمام ذلك.

وحرصًا منه على أن لا يتفجر الموقف تدخل رئيس الحزب، صديق المهدي بعد فراغ عبد الرحمن علي طه من استعراضه ليطلب من الكبير الذي وجه الاتهام إما نفي صدور الاتهام منه، أو اعتذاره عنه، فاختار الأولى.

في الحديث عن صبر البيه على البلوى للحد الذي لا يفصح فيه عن بلواه حتى للأقربين تطرأ على ذهني حادثة غريبة. بعث إليّ البيه في مكتبي مَن يدعوني للحاق به في منزله، وكان مصدر الغرابة في الأمر خروج البيه من المكتب إلى داره قبل انتهاء ساعات العمل. هرعت إلى دار البيه وعند وصولي الدار وجدت الرجل مستلقيًا على سريره وبدا لي أنه كان يتألم من شيء دون أن يفصح عنه. قال لي: "بسرعة هات لي حليم (دكتور حليم)". وفي زمن لم يتوفر فيه التليفون النقال كان لابد من استخدام التليفون الثابت في دار حليم بالخرطوم؛ لأبلغه بالحالة التي كان عليها البيه، ولحسن الحظ وجدت حليمًا بالدار. طلب مني حليم أن أصف له تلك الحالة التي كان عليها البيه فنقلت إليه ما شهدت، لا كشخص ذي معرفة بالطب والمرض وإنما كشخص يصف حالة شاهدها. وبعد سماعه لما قلت طلب مني أن أبلغ البيه بأنه في الطريق إليه، ولكن لما تمضِ نصف ساعة حتى قال لي البيه: "فين حليم لو ما جاش في العشر دقائق الجايه أنا عندي علاج آخر هو

البندقية اللي هناك دي". لحسن الحظ كان حليم بالباب عندما أصدر البيه تلك الكلمات المنذرة. وبعد كشفه على البيه وإعطائه بعض الأقراص، لعلها لتهدئته، انتقل به فورًا إلى القسم الجنوبي من مستشفى الخرطوم. وبعد أن أبلّ عبد الله بيه من مرضه رويت لحليم كلمات البيه المنذرة، فقال لي عمك كان يعاني من مغص كلوي، وهو مرض لا يُصاب به أحد إلا تأوه، ولكن عمك لم يكن مستعدًا للتأوه أمامك أو أمام أفراد أسرته".

البيه والخدمة المدنية

من مناقب البيه أيضًا حرصه على استقلال الخدمة المدنية والعسكرية وحمايته لها. وفي ذلك ترد إلى الذهن حوادث خمسة. الأولى كانت عندما قررت وزارة الداخلية ترقية اثنين من نواب المدير إلى وظيفة مدير مديرية. وكما هو التقليد عُهد أمر الاختيار للجنة ترأسها وكيل المالية. وقبيل الاختيار أوعز وزير الداخلية (علي عبد الرحمن) لوكيلها (مكاوي أكرت) بأن ينظر بعين الاعتبار لشخص سماه أوصى عليه مولانا السيد علي الميرغني. ولسوء حظ الموصى عليه لم يقع عليه الاختيار من جانب اللجنة. وعندما أرسلت الأسماء للوزير غضب غضبًا بالغًا لتجاوز الوكيل لتوصية الميرغني وقرر الاحتفاظ في درج مكتبه بالقرار الذي بعث به إليه الوكيل. وبعد بضع أيام اتصل الوكيل بالوزير متسائلًا عن أن كان قد اطلع على القرار، فرد الوزير: "نعم اطلعت عليه ولكن لن أوافق عليه". هنا قال الوكيل لوزير، "اقرأ رسالتي جيدًا يا شيخ علي. أنا لم أطلب منك الموافقة، بل كتبت بخط يدي إن الرسالة للعلم والمباركة" ثم خرج مكاوي من مكتب الوزير ليعلن الترقيات. ذلك الموقف زاد من غيظ الوزير كثيرًا على وكيله، فاتصل بعبد الله خليل رئيس الوزراء لإبلاغه بأنه لا يستطيع احتمال ذلك الوكيل. وعندما تساءل البيه عن السبب روى له الوزير القصة، فكان ردُّ رئيس الوزراء على وزير الداخلية باتًّا. قال للوزير: "اسمع يا شيخ علي فيه حاجة اسمها الخدمة المدنية لا أستطيع أنا ولا أنت ولا السيد علي ولا السيد عبد الرحمن التدخل في شؤونها. لو

في أي ظلامة ضد قرارات الخدمة المدنية فما فيش طريقة إلا أن يروح المتظلم عند عبد الماجد أحمد"، وكان عبد الماجد وقتها رئيسًا للجنة الخدمة المدنية.

الحادثة الثانية كانت عند تكوين البيه لحكومته بعد الانتخابات، التي كان عازمًا على أن يرشح فيها عبد الرحيم الأمين وزيرًا للمعارف، وكان أهلًا للمنصب بكل المقاييس. ولكن في مجالس الخرطوم التي لا يحفظ فيها سر رُوي عن المعلم أنه قال بعد استيثاقه من أمر ترشيحه للوزارة: "**خلي عبد الحليم (عبد الحليم علي طه) وجماعته يبلوا رأسهم**". عبد الحليم كان وكيلًا للوزارة ولا أدري من هم جماعته هؤلاء؟ وما إن علم البيه بذلك الحدث حتى استدعى المعلم ليبلغه بسحب اسمه من الترشيح وهو يقول: "**أنا مش عايز وزرا يبدو شغلهم بتحطيم الخدمة المدنية**". أما الثالثة فكانت تتعلق بابنه أمير، حيث كان الابن راغبًا في الالتحاق بالجيش ولهذا تقدم لامتحان الكلية الحربية..وقبل إعلان النتائج باحت والدة أمير للبيه بما كان لا ينبغي أن تبوح به أو دون تفكر في النتائج التي ستترتب على إباحتها به: أبلغته أن أمير قد نجح بتفوق في الامتحان، وأضافت "**كتر خير الضابط فلان الوراه الامتحان**". وحال دخوله إلى غرفته تناول البيه وزير الدفاع التليفون ليقول للواء حسن بشير نصر شيئين: الأول هو سحب الضابط الذي كشف لابنه عن الامتحان من فريق حراسته، والثاني هو سحب اسم ابنه من قائمة المقدمين للكلية الحربية. دهش حسن بشير لطلب رئيس الوزراء وزير الدفاع بسحب اسم ابنه من تلك القائمة؛ لأنه كان يحتل فيها موقعًا متميزًا، فأراد أن يثنيه عن موقفه، ولكن رد البيه على حسن بشير كان حازمًا وحاسمًا "**أنا بقول اسحب الاسم يعني اسحب الاسم**". وما إن سمع البيه صوت ابنه حتى ناداه وتناول مطفأة سجائر نحاسية رماه بها وهو يقول: "**إنت عاوزني أبني الجيش السوداني بحرامية**". من ساعتها ولى أمير هاربًا من دار أبيه واختبأ حتى هدأ غضب الأب عليه. وحمدًا لله مرتين، الأولى أن الله قد نجى أميرًا من المطفأة التي لو أصابته لأعاقته إعاقة كبيرة، والثانية منجاة أمير من الالتحاق بالكلية الحربية، لا لمعابة في الخدمة العسكرية، ولكن لأن الله وفقه للالتحاق بجامعة براغ (بعون

من عبد الخالق محجوب) وإكمال دراساته الزراعية فيها حتى بلـغ شـأوًا رفيعًـا في ذلك المجال ليس فقط في السودان، بل في المنظمات العالمية.

الحادثة الأخيرة تتعلـق بـالخلاف الـذي دب بـين رئـيس الـوزراء (عبـد الله خليل) من جهة، وبين نائبه (ميرغني حمزة) ووزير ماليته (إبراهيم أحمد) من جهة أخرى. كان البيه عازمًا كوزير للدفاع ورئيس للوزراء على خلق رتبة فريـق لأول مرة في الجيش السوداني حتى يُرقى لها اللواء أحمـد محمـد قبـل إحالتـه للمعـاش. وعندما رُفع الأمر لوزير المالية (إبراهيم أحمـد) أحالـه للوكيـل (حمـزة ميرغنـي) لتدارس الأمر. وبجد عرف به الوكيل قام بدراسة الوضع في الجيـوش الأخـرى، خاصة في الدول حديثة العهد بالاستقلال مثل الهند والباكـستان، وخَلُـص إلى أن حجم الجيش السوداني وطاقته العسكرية لا تستوجبان خلق تلك الرتبة. وعندما تسرب نبأ هذا القرار إلى قيادات الجيش أبدوا امتعاضـهم، وذهبـوا للتعبـير عـن ذلك الامتعاض بمقاطعة أحد الأعياد الوطنية التي يحتفي بهـا مجلـس الـسيادة في القصر الرئاسي. وبخلاف كل زملائه استقبل نائب رئيس الوزراء ميرغنـي حمـزة الحادث بغضب شديد، واعتبره عصيانًا قال عنه بالانجليزية

(The invitation of the head of state, especially to the army corps is a command, not a request of company)

أي إن دعوة رئيس الدولة، خاصة للعسكريين، هي أمر وليست دعوة.

في ذلك الجو المتوتر بين رئيس الوزراء المتعاطف مع رفاقه في السلاح ونائبـه ميرغني حمزة المؤمن بضرورة انصياع الجيش للسلطة المدنيـة القائمـة، مـن جهـة، وكبار ضباط الجيش والسلطة المدنية من جهة أخرى، طلب مني البيه بعد الفـراغ من الإفطار معه أن ألحق به في مكتبه. تلك كانت هي المرة الأولى التـي أزور فيهـا مكتب رئيس الوزراء أو يدعوني لزيارته. ومن المفارقات أن يصبح ذلك المكتـب بعد عقد من الزمان مكتبًا لي عندما خُصص مبنى رئاسة الوزراء القديم لإسـكان وزارة الشباب التي صرت أول وزير لها في عهد مايو. كنـت متوجـسًا خيفـة مـن

تلك الزيارة غير المسبوقة لمكتب رئيس الوزراء رغم ترددي اليومي على داره. وما إن دخلت المكتب حتى طلب مني البيه الجلوس في مقعد أمامه ليُملي عليّ شيئًا ثم طلب مني بعد أن أملى عليّ ما أراد الجلوس في منضدة الاجتماعات لصياغته. لم يراودني شك في أن البيه كان يريد عرض تلك الرسالة على مجلس الوزراء، وقد فعل. في تلك المذكرة تحدث البيه عن إسهام الجيش في حماية البلاد منذ الحرب العالمية الثانية، والتضحيات الجسام التي ظل يقوم بها للحفاظ على سلامة أرض الوطن، مضيفًا في الختام: "إنه سيجد من العسير عليه قيادة حكومة لا تقدر تضحيات جيش بلادها". كانت تلك إشارة، فيما تبادر إلى ذهني، لاستعداد البيه للتخلي عن منصبه إن لم يقر المجلس ترقية اللواء أحمد محمد.

في الوقت نفسه أعلمني البيه باعتراض وكيل المالية (مضيفًا صاحبك) على خلق رتبة فريق بالجيش، ووقوف والده ميرغني حمزة نائب رئيس الوزراء، وإبراهيم أحمد وزير المالية خلف توصياته. سألت البيه هل يسمح لي بالاتصال بـ"صاحبي" للاستعلام عن جلية الأمر، فرد بالإيجاب. ذهبت توًّا إلى حمزة ميرغني بوزارة المالية ولم أخفِ عنه شيئًا من غضب البيه دون أن أفصح عما كان ينتوي، أو ظننت أنه كان ينتوي فعله. قال حمزة: "أنا سعيد بالعمل في حكومة تحترم رأي مستشاريها، ولكن الذي يجب أن يعرفه البيه هو أننا في الخدمة المدنية لا نصدر قرارات، وإنما نوصي بما يجب أن يكون عليه القرار. وفي النهاية فأي قرار يصدر هو قرار سياسي تحكمه اعتبارات موضوعية". هذا هو ما نقلته لرئيس الوزراء، وفي النهاية تقدم عبد الله بيه بالمذكرة التي أملاها عليَّ وتم إجماع عليها في المجلس دون تحفظ من جانب أي من وزرائه. تتبادر إلى الذهن عدة أسئلة: كم هو عدد الفرقاء في جيشنا اليوم، وكم هو حجم الجيش الفاعل بالقياس إلى جيوش نيجيريا، وإثيوبيا، وجنوب أفريقيا؟ ومن هو الوكيل الذي يوصي بقرار يعلم أنه لن يرضي رئيس الحكومة؟ ومن هو الوزير المدني الذي يصر على محاسبة قيادات الجيش لعدم انصياعها لأوامر رأس الدولة حتى إن كان عدم الانصياع ذلك في موضوع غير جوهري؟!

مع البيه في رحلاته الخارجية

لأسباب هو أدرى بها اصطحبني البيه في كل رحلاته الخارجية في البلاد العربية: مصر، والأردن، وسوريا، والعراق، ولبنان، والمملكة العربية السعودية، والكويت التي لم تكن قد استقلت بعد، وفي أوروبا إلى فرنسا وبريطانيا وسويسرا. من بين هذه الأقطار نعمت للمرة الأولى بزيارة المملكة العربية السعودية، وسوريا، العراق، ولبنان، والأردن. في كل واحدة من هذه الرحلات تكشفت لي جوانب في شخصية البيه لم أكن أعلمها، فالسفر يعلمك ما لم تكن تعلم. كلفني البيه في تلك الرحلات بمتابعة ما تنشره الصحف عن الزيارة وتلك مهمة أعانني عليها دبلوماسيو السفارات المختلفة في البلاد التي زرنا، كما بإعداده للمؤتمرات الصحفية التي كان يعقدها خلال كل زيارة، وتحسب الأسئلة التي يحتمل أن توجه إليه. مصاحبتي للبيه في تلك الرحلة لم تمر دون زوبعة في الخرطوم إذ وجه أحد الرفاق سؤالًا في إحدى الصحف عن الصفة التي رافق بها "منصور خالد المحامي" رئيس الوزراء في رحلته، وكان الرد أن ذلك المحامي هو أيضًا صحفي تنشر مقالاته في الصحف، وأنه أكثر دراية من غيره بأفكار البيه، وهذا مؤهل كافٍ.

على رأس أغلب تلك السفارات كان هناك سفراء من الآباء المؤسسين للدبلوماسية السودانية: عوض ساتي في لندن، وبشير البكري في باريس، وجمال محمد أحمد في العراق ولبنان، ومحجوب مكاوي في المملكة العربية السعودية. وعلني أكشف عن بعض جوانب في شخصية البيه ومواقفه خلال تلك الرحلات أثارت تساؤلًا لدى السفراء. فمثلًا في بدء الزيارة للندن وفد السفير عوض ساتي وبرفقته الدبلوماسي حسن محمد حسن وهو واحد من معلميَّ في مدرسة وادي سيدنا يحملان برنامج الزيارة الذي أعدته السفارة. نظر البيه إلى البرنامج وتوقف قليلًا عند رغبة بعض البنوك والبيوتات التجارية في الاحتفاء برئيس الوزراء: بنك باركليز، شركات متشل كوتس، جيلاتلي هانكي، سودان ميركنتايل، وكلها من المؤسسات الاقتصادية البريطانية التي كانت تهيمن على المال والتجارة في

السودان. استل البيه قلمه وشطب أسماء كل الشركات باستثناء واحدة: متشل كوتس. كان من الطبيعي أن يسأله عوض ساتي: "ولماذا كوتس يا سعادة البيه؟"؛ فلو ألغى البيه من برنامج الزيارة كل تلك الشركات لما تساءل عوض ساتي. قال البيه لأن متشل كوتس هي الشركة الوحيدة التي عينت سودانيًا في إدارتها العليا، وكان بذلك يشير إلى تعيين القاضي أحمد بدري بعد تقاعده كأحد مديري تلك الشركة والذين كانوا جميعًا من البريطانيين. تكرر الشيء نفسه في باريس عندما تقدم إليه السفير بشير البكري ببرنامج الزيارة محتويًا على دعوات من بعض المؤسسات المالية والتجارية الفرنسية، فأبقى على واحدة منها هي بنك الكريديه ليونيه (صار فيما بعد بنك النيلين). ودون أن ينتظر سؤالًا من السفير قال له عبد الله بيه: **"ده البنك الوحيد اللي يجب أزوره لأنه أول بنك من البنوك الأجنبية قام بتمويل مشروع زراعي في السودان"**.

خلال الرحلة اللندنية جاءني زائرًا الصديق محمد إبراهيم الشوش، ولما علم البيه بذلك طلب مني أن أصحب معي الشوش لتناول الشاي معه. كان البيه، فيما بدا لي، متحمسًا للقاء طالب سوداني يدرس في الجامعات البريطانية على نفقة الحكومة، ولهذا كان أول سؤال وجهه إلى الشوش هو: **"إنت بتدرس إيه يا ابني في لندن؟"**. قال الشوش بثقة، وربما اعتزاز: "أنا أدرس اللغة العربية". **"بتدرس إيه؟"** سأل البيه. وبسلامة نية كرر الشوش: "اللغة العربية" وكأنه ظن أن البيه لم يسمع ما قال. وهنا قال البيه: **"والله يا ابني كنت أظنك بتدرس طب أو هندسة أو زراعة. مش كان أحسن تروح لدار العلوم في مصر لتدرس العربية وتوفر فلوسنا لغيرك"**. من الواضح أن البيه لم يستنكر بقوله ذلك تعليم اللغة العربية بقدر ما كان مستغربًا لرحيل الفتى السوداني إلى لندن لتعلمها. صمتُّ كما صمت الشوش، فلربما منعنا الحياء من أن نقول للبيه أن أوروبا قد أنجبت من بين رجالها فقهاء في اللغة العربية وفي الحضارة الإسلامية منهم في بريطانيا وحدها "هـ.أ. جبز، مونتجمري وات، وسبنسر ترمنجهام، ورتشارد بيرتون".

التسامح مع الخصوم

في القاهرة استبانت لي صفة أخرى في عبد الله خليل، ألا وهي التسامح مع الخصوم. فخلال وجوده في القاهرة أبلغ البيه الرئيس جمال عبد الناصر برغبته في زيارة محمد نجيب وصلاح سالم، وكان كلاهما في المحبس. ولئن كانت زيارة نجيب أمرًا طبيعيًا للعلاقة الوطيدة بين البيه مع محمد نجيب وشقيقه علي (كان ياورًا للحاكم العام) فإن صلاح سالم كان ينبغي أن يكون آخر من ينشد البيه زيارته. فصلاح سالم هو الرجل الذي ما ترك وسيلة إلا طرقها لإسقاط عبد الله خليل في الانتخابات السودانية. دعم صلاح سالم للاتحاديين وتركيزه على دوائر انتخابية معينة على رأسها تلك التي ترشح فيها البيه (أم كداده) كشف عنه أمين صندوق الحزب الوطني الاتحادي خلف الله خالد. ففي إحدى المحاكمات أورد خلف الله تفاصيل الأموال التي تسلمها الحزب من صلاح سالم في الحملة الانتخابية، والدوائر التي أوصى بالتركيز عليها ومنها دائرة أم كدادة. رغم ذلك استجاب ناصر لطلب البيه، وأوفد معه ضابطًا كبيرًا من ضباطه. وعند وصول البيه إلى الدار المهجورة التي أودع بها نجيب استغرق الرجلان في حديث طويل عن الماضي ولكن ما إن انقطع حديث الذكريات ذلك حتى ذهب نجيب للحديث عن غدر "الضباط الأحرار" به وبثهم العيون عليه في محبسه ذلك. لم يتحفظ نجيب حتى عن القول لعبد الله خليل: "**الضابط المرافقك ده بعتوه عشان يتجسس علينا**". علاقة نجيب بعبد الله خليل تعود إلى عهد زمالة الرجلين في الجيش المصري بالسودان، وقد روى محمد نجيب جزءًا منها في مذكراته (كنت رئيسًا لمصر) التي لم تنشر إلا في عام 1984.

اللقاء مع صلاح سالم كان أكثر دراماتيكية، إذ إن الرجل لم يكن يتوقع أن يزوره من بين كل السودانيين الرجل الذي عمل كل ما في وسعه لإيذائه، في حين لم يقدم واحد ممن آزرهم من زعماء السودان الذين أنفق الأموال لإنجاحهم في الانتخابات على زيارته في حبسه. في واقع الأمر اغرورقت عينا سالم بالدموع وهو

يقول: **"عجيبة إنك تسأل عني بعد كل اللي عملته وياك. هل تتصور يا عبد الله بيه أن زُملاتي في مجلس الثورة ما زارنيش منهم غير زكريا محيي الدين وعبد اللطيف البغدادي حتى العملتهم وزرا وسفرا من اللي كانوا معاي في السودان ما زارونيش"** (ومن الواضح أنه كان يشير إلى عضو لجنة الحاكم العام "حسين ذو الفقار" الذي صار نائبًا لوزير الخارجية وعبد الفتاح حسن العضو المصري في لجنة السودنة الذي صار سفيرًا لمصر في الأمم المتحدة بجنيف). ومضى سالم يقول: **"انتو فيكم شي لله يا سودانية، أنت تعرف الراجل الوحيد اللي استمر يزورني غيرك هو برضه من السودان: جمال الدين السنهوري"**. جمال كان من الإخوان المسلمين وظل لصيقًا بسالم إبان الحملة الانتخابية.

الفصل الثامن

8

في المجالين الاجتماعي والثقافي

على ضفاف شيخ الأندية

إلى جانب العمل المهني (المحاماة) والإعلامي (الصحافة) فقد هيأ الله لي اقتحام النشاط الاجتماعي الندوي في الخرطوم وأنا في سِن باكرة. في ذلك الزمان كانت المراكز الرئيسية للنشاط الاجتماعي والثقافي في السودان هي أندية الخريجين، وكان أقدمها نادي أم درمان الذي كان يُنعت بـ"شيخ الأندية". ورغم أن السن التي كنت عليها في تلك المرحلة لم تكن تسمح لي بالمشاركة في الأنشطة الاجتماعية في تلك الأندية فإنني عرفت عنها أشياء رسخت في الحافظة. كانت، مثلًا، أكثر المناشط الاجتماعية ذيوعًا في شيخ الأندية بأم درمان الاحتفال بعيد ميلاد الرسول ويوم التعليم الذي أدَّى دورًا في توسيع التعليم الأساسي في السودان. وكان من أكثر رجال الأسرة المشاركين في أنشطة أندية الخريجين في ود مدني ثم أم درمان الخال مصطفى الصاوي، كما ظل والده الشيخ الصاوي يبعث بالتهاني نظمًا إلى الخريجين في كل عام. ففي عام 1345هـ كتب الشيخ الصاوي للخريجين عندما وجهت له الدعوة للمشاركة في الاحتفال الحولي بالمولد النبوي:

تشرفت بالدعوى ولا زال صيتكم ينادي وأنباء الزمان بكمو تعلو
ولا زالت الأفواه تهدي تهانئًا اليكم ولا زال الهنا بكمو يحلو
فلا برح العام الذي عاد بالهنا يعود وسعد الوقت في شرف يتلو

كما بعث للخريجين في العام الذي تلاه (1346 هجرية) تهنئة بمطلع العام الهجري الجديد:

محرم جاء بالعيد الجديد وأقبل بالسرور وبالأريج
فوائحه تفتَّح كل خير وتبعدنا عن الأمر المَريج
لهذا أصبح النادي ينادي بفتح العام هيا للحجيج
فيا أم درمان باهي ثم هني جميع القطر بالعام البهيج

ومن المناشط الثقافية التي كان الخريجون يحتفون بها المهرجانات الأدبية في نادي الخريجين بأم درمان، والتي كان يُدْعَى لها الأدباء والشعراء من مصر، ومنهم نذكر عباس العقاد ومحمد الههياوي وعلي الجارم. عن تلك المهرجانات الأدبية في

ذلك النادي تعلمت الكثير من أستاذي بشير محمد سعيد الذي كان يلقننا في فصول الدراسة بعض القصائد التي كانت تلقى فيه، ومن ذلك قصيدة عباس العقاد "ليلة الوداع"، وقصيدة علي الجارم التي ألقاها بنادي الخريجين في عام 1941 و جارى فيها نونيتي شوقي "يا نائح الطلح أشباه عوادينا" وابن زيدون "أضحى التنائي بديلًا من تدانينا". وقد ألزمنا الأستاذ بشير بحفظ ما ينيف على العشرة أبيات من قصيدة الجارم التي جاوزت الثمانين بيتًا، وما زلت أذكر تلك الأبيات:

يا نسمةً رَنَحت أعطاف وادينا ... قفي نُحييك أو عوجي فحيينا
مرَت مع الصبح نَشوى فيَّ تكسُّرها ... كأنها سُقيت من كف ساقينا
كأنها روضةٌ في الأفق سابحةٌ ... تمُج أنفاس مسراها الرياحينا
هبت بنا من جنوب النيل ضاحكةً ... فيها من الشوق و الآمال ما فينا
قف يا قطار فقد أوهى تصبُّرنا ... طول السفار و قد أكْدت قوافينا
جئنا إليها و في أكبادنا ظمأ ... يكاد يقتلنا لولا تلاقينا
جئنا إليها فمن دارٍ إلى وطن ... ومن منازل أهلينا لأهلينا
يا ساقيَ الحي جدِّد نشوة سلفت ... وأنت بالجبنات الحمر تسقينا
اصدح بنونية لما هتفت بها ... تسرَّق السمعَ شوقي وابن زيدونا
وأَحكم اللحن يا ساقي و غنِّ لنا ... إنا محيُّوكِ يا سلمى فحيينا

"الجبنات الحمر" في قصيدة الجارم إشارة إلى جبنة القهوة السودانية ألا وهي تلك المستحلبة من البن لا كالقهوة التي كان يَعبُّ منها أعشى قيس.

نازعتهم قُضُب الريحان مُتكئًا ... وقهوة مُزة راووقها خِضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة ... الآ بهات وأن علوا وأن نهلوا

ذلك النشاط الأدبي والفكري خبت ناره وخفت صوته عندما تحول شيخ

الأندية إلى معقل سياسي، بل حزبي، تتبارى الأحزاب للهيمنة عليه واستخدامه لأغراض السياسة لا الثقافة. تلك كانت هي المرحلة التي وُئد فيها حلم أحمد خير في أن يكون مؤتمر الخريجين وناديه بأم درمان هما مركز التوجيه والإلهام للحركة الوطنية السودانية.

نادٍ على الشط الآخر من النيل

في الشط الآخر من النيل كان هناك نادي الخريجين بالخرطوم وإلى جانبه ناديان يهيمن عليهما البريطانيون: الأول هو نادي السودان الذي كان يرتاده كبار الموظفين البريطانيين، وكان مقره في المبنى الذي آل للاتحاد الاشتراكي بعد قيام "ثورة مايو" ثم صار من بعد مقرًا لوزارة الخارجية السودانية. أما الثاني فهو نادي الخرطوم الذي كان مخصصًا لصغار الموظفين البريطانيين، ثم تحول من بعد إلى دار الثقافة السودانية، وبتقلص الاهتمام بالثقافة تحولت دار الثقافة إلى منزل صغير في الخرطوم. نادي الخرطوم ظل حتى الاستقلال يفتح أبوابه للمتعلمين السودانيين لحضور المحاضرات التي كانت تُلقى فيه بين الفينة والأخرى. جزء كبير من تلك المحاضرات ضمنها القاضي دونالد هولي (المسجل العام للقضاء إبان الحكم البريطاني والسفير بوزارة الخارجية البريطانية فيما بعد) في كتاب اختار عنوانًا له "حكايات كانتربري" اقتفاء لمجموعة الأقاصيص التي كتبها في القرن الرابع عشر جوفري تشوسر. نشر ذلك الكتاب رجل الأعمال محمود صالح عثمان صالح الذي كرس جزءًا كبيرًا من ماله وجهده للحفاظ على التراث، ومن ذلك التراث الوثائق البريطانية عن السودان التي جاءت في اثني عشر مجلدًا.

من أهم المحاضرات التي ألقيت في ذلك النادي محاضرة المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي بعنوان "بين النيجر والنيل" (Between the Niger and the Nile) قدمها سكرتير الدار، أستاذي محمد توفيق. تلك محاضرة لو وعتها النخبة السياسية، أو حرص أبناء ذلك الجيل على الاستماع إليها، لأصبح الحال في السودان غير الحال. ولربما كان للجهل بالمقام الأكاديمي للمحاضر علاقة بإغفاله

وإغفال محاضرته. بروفيسور توينبي لم يكن هو فقط العالم الأكاديمي الذي علم التاريخ في كلية باليول بأكسفورد، وشارك في وفد بلاده لمؤتمر السلام بعد الحرب العالمية الأولى، وأصبح من بعد أستاذًا لتاريخ الحضارتين الهيلينية والبيزنطية في جامعة لندن، بل هو أيضًا المؤرخ الذي أنجز اثنى عشر جزءًا في كتابه "دراسة التاريخ" (Study of History) شملت تحليل صعود وانهيار اثنتي عشرة حضارة وتحليله لأسباب صعود وانهيار تلك الحضارات. فعلى خلاف النظرة الماركسية للتاريخ التي كانت سائدة في ذلك الزمان عزا توينبي الانهيار والصعود لأسباب روحية (دينية) لا مادية حسب النظرة الماركسية.

زيارة المؤرخ للخرطوم سبقتها زيارات قام بها لمصر وسوريا وليبيا لتقصي عوامل الربط والانفصام بين شعوب هذه الدول التي كانت، مثل السودان، تعاني من صراعات أو توترات متنوعة: دينية بين الأقباط والمسلمين في مصر، وعرقية بين العرب والكرد في سوريا و العرب والزنوج الصحراويين في ليبيا. ولإدراكهم لمكانة توينبي العلمية قرر بعض أساتذة الجامعة (مكي شبيكة وعبد الله الطيب وسعد الدين فوزي) دعوة الأستاذ الزائر لإلقاء محاضرة بدار اتحاد الطلبة، إلى جانب محاضرته في دار الثقافة . ولكن بدافع من وطنيتها الجياشه قررت لجنة الاتحاد الاعتراض على إلقاء المحاضرة في دار الاتحاد بدعوى أن الرجل جاء إلى السودان في ضيافة الرئيس عبود الذي يكرهونه كرها جمًا. لم يسأل الطلاب أنفسهم يومذاك عن هل كانت زيارة ذلك العالم لمصر بدعوة من عبد الناصر، أو كانت زيارته لسوريا بدعوة من شكري القوتلي، أو زيارته لليبيا بدعوة من الملك السنوسي حتى يقال إن وفوده على السودان كان بدعوة من عبود. ويقيني أنه ليس من بين الطلاب، أو مَن أوحوا لهم بمنع ذلك العالم الكبير من إلقاء محاضرة على الطلاب، مَن قرأ جزءًا واحدًا من بين الأجزاء الاثني عشر التي أغنى بها توينبي الفكر الإنساني. تلك المحاضرة التي كان سيلقيها توينبي في دار الاتحاد قدمها في قاعة محاضرات صغيرة بالجامعة للراغبين في أن يمتحوا من علم الرجل.

في محاضرته بدار الثقافة التي نشرتها ككتاب دار النشر بجامعة أكسفورد قال المؤرخ إن مستقبل الوحدة الأفريقية رهين بنجاح السودان الذي سماه "أفريقيا المصغرة" (microcosm of Africa) في توحيد شماله مع جنوبه وحدة قائمة على الرضى. ولتقريب الأمور لإدراك مستمعيه وقرائه السودانيين استعاد المؤرخ الكبير حدثًا في التاريخ الانجليزي قريب الصلة بأوضاع السودان آنذاك ألا وهو موقف هيروارد ذا ويك (Hereward the Wake) إبان الغزو النورماندي لانجلترا في القرن الحادي عشر. ويروي التاريخ كيف تحصن هيروارد بالمستنقعات الوعرة (Ferns) في مناطق شمال كامبردجشاير وجنوب لنكولنشاير وغرب نور فولك للدفاع عن أرض بلاده. قال توينبي للسودانيين: إن في يدكم أنتم توحيد أفريقيا، إن أفلحتم في توحيد أفريقيا التي في داخل بلادكم، كما في أيديكم الخيار بين الحرب والسلام؛ لأن الحرب مع أهل السدود في المستنقعات، مثل حرب هيروارد مع وليام النورماندي، ستطول إن اخترتم طريق الحرب. ثم قال:"**أيها الوطنيون السودانيون أنصتوا إليّ من فضلكم لا تخلقوا قطيعة بينكم وبين جيرانكم الجنوبيين. فإن استثرتموهم لإشعال مقاومة شاملة ستكون منطقة السدود إلى جانبهم، ومَن ذا الذي سيقاوم السدود؟ كونوا عقلاء ذوي شهامة وتعلموا من أخطاء الآخرين قبل فوات الآوان**" (Between the Niger and the Nile,33). تلك كانت نصيحة من صديق للسودان، وليست من أي صديق بل صديق درس التاريخ وتملى فيه ووعى دروسه. النخبة السياسية السودانية لم تستهدِ قبل الاستقلال بالنصيحة التي قدمها توينبي في فترة الحكم الذاتي حول التعامل مع الجنوب، أو أكدها في منتصف ستينيات القرن عندما نشر الكتاب.

وعند تقلص وجود الموظفين البريطانيين بالسودان، خاصة في المستويات الوسيطة، آل نادي الخرطوم إلى كبار الموظفين الوطنيين ووجهاء المدينة، والتعبير الأخير كان يطلق على طائفة من رجال الأعمال السودانيين، سمِّها إن شئت كما يسميها آخرون البرجوازية الصغيرة. كونت أيضًا جمعية لإدارة النادي من بعد أن تحول اسمها إلى "دار الثقافة" وكان أول سكرتير لها أستاذي محمد توفيق أحمد، كما

أصبح أمين المكتبة بالدار أحمد عمر عبد الرحمن الذي بدأت معرفتي به منذ عهد الدراسة في وادي سيدنا حين كان مشرفًا على مكتبتها.

دعاني توفيق وأنا في سني الدراسة بالجامعة للالتحاق بالدار وقبلت دعوته بكثير من الغبطة لسببين؛ السبب الأول هو ما يتوافر في مكتبة الدار من كتب وما يرد إليها من إصدارات. وكان توفيق وأحمد عمر لا يضنان علي بكتاب، بل كان توفيق يسألني دوما عما قرأت وتعلمت من قراءته وكأنه ما زال أستاذًا يمتحن طالبه. أما السبب الثاني فهو أن الدار لم تكن ناديًا ثقافيًّا فحسب، بل كانت أيضًا مجمعًا للنابهين من رجال ذلك الزمان. كان من رواد الدار الدائمين، مثلًا، محمد صالح الشنقيطي، والتيجاني الماحي، ومكي شبيكة، ومحمد أحمد أبو رنات، وجمال محمد أحمد، وإبراهيم عثمان إسحاق، ومأمون بحيري، وسعد الدين فوزي، ومنصور محجوب، وداؤود عبد اللطيف، ومحمد عثمان يس، وبشير البكري، وصالح محمود إسماعيل، ومكاوي مصطفى، ومحمد حسن عبد الله. كل واحد من هؤلاء كان يحكي عن تجاربه العملية وعن دراساته وقراءاته، كما كان يتداول الرأي مع الآخرين حول الأحداث. ومن الطريف الذي أذكر نقاشًا دار حول كلمة قصيرة وجهها مكي شبيكة للسيد علي الميرغني في جريدة الرأي العام إبان الصراع المحتدم بين فرق الاتحاديين التي كان يرعاها جميعًا زعيم الطائفة الختمية. دعوة مكي للميرغني كانت لحثه على قيادة تلك الحركة بنفسه، وكان عنوانها "قُد السفينة يا مولاي". تلك الرسالة القصيرة كانت محل تعليق بين رواد الدار في حضرة كاتبها شبيكة، وكان ألطف تعليق على نداء مكي شبيكة للميرغني هو ما جاء به داؤود عبد اللطيف الذي اشتهر بسخريته، قال لمكي: "**أخشى يا دكتور أن يقرأ مولانا كلمة "قد السفينة بكسرِ القاف لا بَضمّها"**. ولعل سخرية داؤود كان نبوءة من بعد أن شهدنا تلك السفينة تغور في شبر ماء.

ونحن نتحدث عن رواد الدار عسانا نتوقف مرة أخرى عند "محمد أحمد أبورنات"، فهو رجل يطيب ذكره لمن يعرفون أقدار الرجال. التقيت الرجل ذات

مرة خارج الدار في مكان لم أتوقع وجوده فيه: المركز الفرنسي لتعليم اللغة. وكان لابد لي عند تلك المفاجأة من سؤال قاضينا الشيخ: "ما الذي أتى بك يا مولانا لهذا المكان؟". قال: "أتى بي طلب العلم يا ابني، فكثيرًا ما تعبر بي في القانون كلمات فرنسية ذات أصل لاتيني، فأردت التعرف على جذور هذه الكلمات". يا لذلك من تواضع معرفي، فالعالم الحقيقي هو الذي يعرف أن الإنسان والمعرفة الكاملة خطان متوازيان لا يلتقيان إلا في اللانهاية. وبعد سنوات تذكرت تلك الحادثة عندما قرر العالم الجليل زكي مصطفى عند توليه أمر وزارة العدل والنيابة العامة -من بين أعمال أخرى سنشير لها في موقعها- إنشاء مركز تدريسي يلحق به العاملون في حقل القانون (القضاء ووزارة العدل) لصقل مواهبهم ولتعريفهم بما استجد على فروع القانون المختلفة من تطور. كم كان زكي حزينًا عندما ثار في وجهه بعض القضاة رغم تجاوب شيخيهما خلف الله الرشيد ودفع الله الرضي مع اقتراحه قائلين: **"زكي عاوز يعلمنا القانون من أول وجديد"**. ما أضيق ماعون كل مَن رأى أنه بلغ العدوة القصوى من العلم، فالعلم بحر لا ساحل له.

دار الثقافة لم تكن وقفًا على الكبار الأكابر -إن جاز القول- بل كان يرتادها من أبناء جيلي وبصورة دائمة: محمد عمر بشير، ومحجوب محمد صالح ، والسفيران النور علي سليمان وسر الختم السنوسي، والإداري محمود حسين عثمان، عبد الوهاب موسى، وعبد الرحمن يوسف.كان أيضًا من بين رواد الدار كل مساء شاب ظل يلفت الأنظار بما يتزيأ به من أحسن الملابس، ولكنه يبقى صامتًا طوال جلساته. ذلك الشاب هو بشير جودة وكان غسالًا وكواءً للملابس في دكان صغير قبالة مديرية الخرطوم. ومن الواضح أن بشيرًا كان ذا طموح كبير في أن يتعلم، ولهذا أحبه أهل الدار. كانت الدار أيضًا ملجأ ثقافيًا لغير السودانيين من السفراء والدبلوماسيين الذين يغشونها إما للاطلاع، أو استلاف بعض الكتب المبثوثة في مكتبة الدار، أو متابعة الصحف الأجنبية التي ترد إليها. غير أن الرجل

الذي يرد على خاطري من غير السودانيين، هو العضو البريطاني في لجنة الحاكم العام السير لورانس قرافتي سمث.

في صحبة السير لورانس

كان السير لورانس يتردد دومًا على مكتبة الدار للاطلاع على الإصدارات الحديثة الواردة إليها. وللتعريف بلجنة الحاكم العام نقول إن من إبداعات اتفاقية الحكم الذاتي (الاتفاقية المصرية الانجليزية) خلق لجان مستقلة عن الإدارة البريطانية تتولى الإشراف على التحول الدستوري المرتقب في السودان. من تلك اللجان لجنة للانتخابات كان على رأسها رئيس لجنة الانتخابات في الهند: سوكومار سن، ولجنة السودنة التي ترأسها محمود الفضلي، وضمت من السودانيين الطبيب عثمان يوسف أبو عكر وإبراهيم يوسف سليمان، ومن غير السودانيين ممثلين لحكومات بريطانيا ومصر وأمريكا، ولجنة الحاكم العام التي ضمت خمسة أعضاء: سودانيان (إبراهيم أحمد والدرديري محمد عثمان) إلى جانب مصري (حسين ذو الفقار صبري)، وبريطاني (السير لورانس قرافتي سمث) في حين كان رئيس اللجنة هو القانوني الباكستاني ميان ضياء الدين، وهو من أهل بيشاور، وقبل تعيينه رئيسًا للجنة الحاكم العام بالسودان عمل ضياء الدين كعضو في لجنتين للأمم المتحِدة، أشرفت واحدة منهما علي دراسة وضع أريتريا، والثانية على دراسة الوضع الكوري، وفيما بعد صار سفيرًا لبلاده في اليابان. اختارت بريطانيا قرافتي سمث ليمثلها في تلك اللجنة، فيما أقدر، لسببين: الأول هو معرفته بالعربية، والثاني لأنه من الكادر الدبلوماسي الذي عمل في البلاد العربية والإسلامية، إذ كان وزيرًا مفوضًا في جدة (1945)، ومن بعد مندوبًا ساميًّا لبريطانيا في الباكستان (1947- 1949).

لتنشيط معرفته باللغة العربية طلب قرافتي سمث من محمد توفيق قراءة الصحف معه لإعانته على إدراك معاني المفردات التي ترد فيها، خاصة وقد مضى

عليه زمان دون أن يقرأ أو يتخاطب بالعربية. وكانت الصحف التي يقرؤها الرجل ثلاثًا: الرأي العام، والأيام، والسودان الجديد. ويقول إن قراءة الصحف الحزبية تُعشي بصيرته (it blurs my vision). وظل توفيق يتولى هذه المهمة إلى أن طلب مني ذات يوم (ربما بسبب الملالة التي أصابته من أداء تلك المهمة التي اعتبرها مضجرة) أن أتولى المهمة نيابة عنه حتى أعفي أستاذي من الضجر. قبلت تلك المهمة شاكرًا، وزاد شكري لتوفيق بسبب ما تعلمته فيما بعد عن خبرات الرجل الدبلوماسية، وعن الصراعات التي كانت تدور خلف الكواليس في السودان. حدثني قرافتي سمث، مثلًا، عن علاقات العمل (working relations) الجيدة التي نشأت بينه وبين الإمام عبد الرحمن والزعيم الأزهري، وعن التوتر الذي كان يصيبه كلما التقى بجيمز روبرتسون السكرتير الإداري الذي لم يكن يطيقه فيما بدا لي، ثم عمّا سمّاه "زئبقية" السيد علي الميرغني والتي وجد لها مبررًا في أن زعيم الختمية كان يقود فريقين متناقضين: أحدهما الفريق الاتحادي بقيادة إسماعيل الأزهري والثاني الاستقلالي بقيادة ميرغني حمزة. وفي كتابه المختصر عن تاريخ حياته وصف قرافتي سمث حوارات الميرغني معه بالرتيبة المبهمة (monotonously delphic). سعدت كثيرًا، فيما بعد، بالإشارات التي أوردها عني السير لورنس في سيرته الشخصية القصيرة التي نشرها في عام 1975م تحت عنوان "أوراق اللعبة" (Hands to Play) والتي أهداها إلى أصدقائه الذين ولدوا في 16 أبريل وهو يوم ميلاده، وكل مَن ولد في ذلك اليوم.

ومن ألطف ما قرأت في ذلك الكتاب انطباعات قرافتي سمث عن زياراته لجنوب السودان ودارفور حول الطبيعة والعادات والتقاليد، ودور رجال الأعمال (مشيرًا كمثال إلى ما قام به جورج حجار في مجال الزراعة في ذلك الإقليم)، وغرابة أطوار المفتشين البريطانيين، والآمال المرتجاة من الإداريين الشماليين الذين عُينوا حديثًا في الجنوب، خاصًا منهم بالإشادة مفتش مركز يي الفاضل الشفيع. كما روى لي قرافتي سمث أيضًا موقفه ضد تجاوز لجنة السودنة لسلطاتها التي

حددها الأمر المؤسس لها في سودنة الوظائف في الإدارة والبوليس وقوة دفاع السودان باعتبارها الوظائف التي قد تؤثر على ممارسة السودانيين الحرة لحق تقرير المصير. وبعودتي للمادة الثامنة من الاتفاقية تكشف لي صحة رؤية السير لورانس، إذ تقول المادة: "لإيجاد الجو الحر المحايد اللازم لتقرير المصير تنشأ لجنة للسودنة تتكون من..........."، وفي فقرة أخرى تحدد المادة واجبات لجنة السودنة بـ"**إكمال سودنة الإدارة والبوليس وقوة دفاع السودان وأي وظيفة أخرى تؤثر على حرية السودانيين في تقرير المصير**، كما تستعرض اللجنة وظائف الحكومة بغرض إلغاء غير الضروري منها أو الوظائف الفائضة التي يحتلها موظفون بريطانيون أو مصريون". وعندما شهد قرافتي سمث في قائمة الذين أوصت اللجنة بسودنة وظائفهم أسمى مدير الآثار والإخصائي الائتماني (actuarian) في وزارة المالية أبلغ الحاكم العام ولجنته أن في ذلك القرار خروجًا من جانب اللجنة عن سلطاتها. ولكن، لسوء حظ السير لورانس لم يجد صوته ذلك صدى عند الحاكم العام أو أعضاء اللجنة الآخرين رغم صحة افتراضه. وفي واقع الأمر لم تجد الحكومة الجديدة من بين موظفي المالية الوطنيين شخصًا واحدًا مؤهلًا في ذلك التاريخ لشغل منصب الإخصائي الائتماني (أيًا كان معنى الكلمة) فاستعانت بالرياضي عوض ساتي لملء المنصب إلى حين، كما عينت في محل مدير الآثار البريطاني فرنسيًا هو فيركوتير. دون شعور بالزهو سعدت كثيرًا بالأسطر التي سجلها قرافتي سمث في مذكراته عَمَّن وصفه بـ"خريج شاب من جامعة الخرطوم أعانه بصبر غير محدود على إزالة الغبار عن معرفته باللغة العربية حتى أصبح صديقًا للأسرة". وعلى كل كان القرار الذي أقلق السير لورانس ولم يثر ثائرة الحاكم العام السير روبرت هاو هو إقصاء الأزهري وحزبه من لجنة الحاكم العام من تلك اللجنة للسيد إبراهيم أحمد وبصورة مستفزه إذ ورد على الوجه التالي: "لا يوافق هذا المجلس على تعيين السيد إبراهيم أحمد كعضو في لجنة سعادة

الحاكم العام تحت المادة الرابعة من الاتفاقية الإنجليزية المصرية 1953 حول السودان".

في الوسط الدبلوماسي

كما سلف القول كان من بين الذين يختلفون إلى دار الثقافة نفر من ممثلي الدول الخارجية: السفير السعودي عبد الرحمن الحليسي، والممثل الفرنسي بول كارتون، والممثل الأمريكي جورج سويني. الأخيران نعتا قبل الاستقلال بضباط الاتصال (Liaison officers)، إذ لم يكن من الممكن لدولهم ابتعاثهم كسفراء لبلد لم يستقل بعد. ضباط الاتصال هؤلاء ضموا ثلاثة: البريطاني والفرنسي والأمريكي. وكان الفرنسي بول كارتون أكثرهم حيوية ورغبة في التعرف على السودان، ولاسيما أنه كان يجيد العربية بحكم انحداره من أم لبنانية. وقد أصبح كارتون فيما بعد سفيرًا لفرنسا في الكويت، ثم رئيسًا لمعهد العالم العربي في باريس ولعلني أحفظ لكارتون الجميل في ثلاثة أشياء: الأول هو عوني على أن أكون من أوائل الملتحقين بالمركز الفرنسي الذي أنشأته السفارة لتعليم اللغة الفرنسية في السودان لشيوخ وشباب لم يلموا بنحوها وصرفها، والثاني هو تحقيق أمنيتي عندما قلت لنفسي وأنا أعبر باريس: "لي عودة لذلك المكان" أما الثالث فهو تقديمي للمستشار الثقافي لوزارة الخارجية الفرنسية آنذاك، جاك بيرك وهو رجل ذاع صيته في الآفاق فيما بعد عند احتلاله لكرسي الدراسات الإسلامية في الكوليج دي فرانس (College de France) وهو موقع لم يفارقه إلا عند رحيله من الدنيا. وقد أصبح بيرك وصديقه ماكسيم رودانسون أكبر علماء فرنسا في التاريخ الاجتماعي للعالم الإسلامي إلى حين رحيلهما. في ذلك الزمان كان بيرك يزور السودان كثيرًا ليتابع الأنشطة الثقافية للسفارة، وأهم من ذلك للبحث عن المواريث الإسلامية في السودان خاصة في مجال التصوف. وقد نمت لهذا السبب علاقاته مع كثير من متصوفة السودان وعلمائه. وفي واحدة من زياراته أوصى

بيرك بتوفير منح دراسية في فرنسا لثلاثة طلاب كنت واحدًا منهم، أما الآخران فهما إسحاق الخليفة شريف وشفيق شوقي. كان ثلاثتنا -مع آخري- نُدعى دومًا للقاء بيرك عند زيارته للسودان ولسوء حظيهما وأسفي لم يستجب شفيق وإسحاق للدعوة لظروف تخصهما، رغم أن إسحاق كان أكثرنا إلمامًا بالفرنسية إذ كان حتى في تلك المرحلة الباكرة من العمر يروي أشعار فيرلين وبودلير.

لم يكن المبعوث البريطاني (شابمان أندروز)، الذي صار أول سفير لبريطانيا في السودان، من رواد الدار، وحسنًا فعل إذ كان رجلًا ثقيل ظل متعجرفًا. أما المبعوث الأمريكي "سويني" فقد كانت زياراته للدار قليلة رغم أنه كان كثير الاحتفاء بالسودانيين في داره في حفلات يدعو لها دبلوماسيي الخارجية والسياسيين والصحفيين وموظفي الدولة. ما واتتني فرصة للمشاركة في حفل دعا له سويني إلا وذهبت، إذ إن تلك المشاركة كانت تتيح لي الفرصة للإلمام بما يدور في المدينة مما يعينني في مهامي الصحفية، ويوسع من مداركي في الشأن العام، كما يضيف إلى شبكة معارفي. جوزيف سويني هو الرجل الذي شُغل به بعض أهل الخرطوم في عام (2007) حينما وقعت يد أديب كان ينبغي أن يكون أريبًا (والأرب هو الفطنة)، على وثيقة تحتوي على مذكرة أعدها سويني لوزارة الخارجية برقم (w.0018-853745) وبتاريخ (31-3-1953) وكانت كما أشار عنوانها موجهة لوزارة الخارجية وليس لوكالة المخابرات كما زعم الأديب لأن تلك الوكالة لا تفرج أبدًا عن وثائقها مهما طال بها الزمن.

الإفراج عن تلك الوثيقة (declassification) تم في 30- 9 - 2005 وتضمنت تقريرًا عمّا توافر لسويني من معلومات حول النشاط الشيوعي في السودان بين الطلاب والعمال. الدبلوماسيون في كل أرض -بمن فيهم السودانيون- لا يستمدون معلوماتهم في الغالب الأعم من عملاء يكرونهم -أيْ يستأجرونهم- وإنما من أصدقاء يعرفونهم، أو موظفين في الدولة من ذوي الدراية بالموضوعات التي تهم السائل، أو من سياسيين يشاركونهم الرؤى حول

الأحداث. تقرير سويني تضمن معلومات عن الحزب الشيوعي السوداني، والمصادر التي حصل منها على هذه المعلومات حول تنظيمات العمال، الطلاب، والصحافة الموالية للحزب، والمنظمات النسائية، وتمويل الحركة الشيوعية، وقوة دفاع السودان، وخطة الشيوعيين للانتخابات، وتنظيم البوليس، وسياسة حكومة السودان وقوانينها تجاه الشيوعيين، موقف دولتي الحكم الثنائي من الشيوعية بالسودان. ولئن ظن ظان بأن أمريكا لم تكن تُعنَى بأمر النشاط الشيوعي في تلك الفترة الملتهبة رغم أنها كانت تسمَّى مرحلة الحرب الباردة، فلاشك في أنه لا يعيش مع الناس في هذا الكوكب.

ألحق سويني بتقريره ذلك تفصيلًا لمصادر معلوماته من الصحافة كما ختمه بلائحة ضمت ثلاثة عشر شخصًا استمد منهم المعلومات الواردة في التقرير. من بين الثلاثة عشر ورد اسمي في الرقم ٩، وغابت أسماء الاثني عشر الآخرين ليس فقط عن عيني ناقل الكفر، وإنما أيضًا عن عيني صحفي غير فطن وصف الناقل بالباحث الفتاش. أقول غير فطن، فلو كانت به فطانة لأدرك أن التفتيش فحص واستقصاء، ومن الاستقصاء البحث عن أسماء العملاء الآخرين. تلك الأسماء الواردة في المصدر الذي انتقي منه الناقل واحدًا لينعته بـ"العميل رقم 9" (أيْ شخصي)، ضمت حسب ترتيب سويني، عبد الله خليل سكرتير عام حزب الأمة، وعبد القادر يوسف هاشم نائب مدير مصلحة العمل، ويوسف مصطفى التني ضابط العلاقات الصناعية بمصلحة العمل، وسعد الدين فوزي أستاذ الاقتصاد بجامعة الخرطوم، وفضل بشير الصحفي العمالي، ومحمد خير البدوي رئيس تحرير صحيفة الوطن، ومحمد خليل جبارة ناظر مدرسة بيت المال الوسطى، وعثمان حسين عثمان قائد سلاح المفرقعات، والأخيران هما إبراهيم حسن خليل حكمدار البوليس بالخرطوم وبابكر الديب نائب مدير البوليس. رغم توافر هذه المعلومات لم أشأ أن أنغمس في أيّ جدل مع كائن مَن كان، إذ كفاني عن ذلك تصدي عدد من الكتاب، منهم مَن أعرف ومنهم مَن لا أعرف كما لم يترجَّ واحد منهم جزاءً مني ولا شكورًا. رغبة هؤلاء الذين تصدوا للباحث "الفتاش" كانت هي إما

مجابهة الزيغان، أي "الغش"، أو "الزوغان" أي الميل عن القصد. وقد أحسنوا في ذلك فعلًا. وأقول اليوم إن كان عبد الله خليل ويوسف التني وعبد القادر يوسف هاشم وسعد الدين فوزي الذين جاءت أسماؤهم في أعلى القائمة، عملاء فمرحى بالعمالة. ولو أحسست بأي مدعاة للمزيد من التعليق على ذلك الجور لأصليت القادحين نارًا "لا يصلاها إلا الأشقى".

الأسرة النوبية وصحبها

علاقتي بجمال محمد أحمد وداؤود عبد اللطيف ومحمد توفيق، قربتني كثيرًا من الأسرة النوبية، بل جعلت البعض يظنون، بسبب صحبتي الدائمة لهم، " أنني من عندياتهم ". كان هذا الثالوث يحرص على دعوتي إلى دورهم: جمال محمد أحمد في منزله الجامعي المطل على شارع غردون (الجامعة حاليًّا)، وداؤود في مسكنه الحكومي الذي كان مجاورًا للجامعة، وتوفيق في منزل مستأجر في بري. وبعد التخرج كان من الأماكن التي أغشاها حلواني الخرطوم في عمارة "أبو العلا" لألتقي بعض الصحفيين بحكم عملي في بعض الصحف، وبالمحامين بحكم المهنة. عدد ليس بالقليل من كتاب الصحف الراتبين كانوا من النوبيين: صالح عرابي، ومحمد عثمان جودة، وصالح محمود إسماعيل، ومحمد مكي محمد. في ذلك الزمان كان بعض أهل المدينة من الذين سَفَّه الجهل حلومهم ينعتون النوبيين بالبرابرة، وربما كان ذلك بسبب الجهل بمصدر ذلك الوصف. فالبرابرة وصف أطلقه الرومان أولًا على القبائل الجرمانية والمغولية التي هاجمت الإمبراطورية الرومانية في القرنين الرابع والخامس الميلادية حتى اكتسحهم الرومان في عام 476. كما سَمَّى الرومان، من بعد، كل أهل المنطقة الواقعة في الشمال الأفريقي غرب مصر أرض البرابرة (Barbary). وعند غزوهم لتلك المنطقة استباح العرب أهل تلك المنطقة ممن سموهم البربر واتخذوهم عبيدًا. ومن بعد، اختلطت الدماء بين أهل المنطقة ونشأت من ذلك الاختلاط أجيال من الخلق حكمت أفريقيا الشمالية مثل الأغالبة والمرابطين والموحدين. أما فيما يتعلق بالسودان، فقد روى المؤرخون أن قائد المائة من الكُشاف الرومان (Centurion)

الذين بعث بهم القيصر للكشف عن المناطق التي يلزم غزوها جنوب مصر على شاطئ النيل أبلغ القيصر أن في جنوب الشلال أرضًا لا تستحق أن تُغزى (does not deserve to be conquered). فإن كان أهل وسط السودان يحسبون أهل حلفا برابرة، فعليهم أن يدركوا أيضًا أن كل مَن سكن جنوب الشلال في ذلك الزمان لم يكونوا في عُرف الرومان برابرة فحسب، بل أيضًا قوم لا تستأهل أرضهم أن تغزى. جهلُ ذلك الكشاف الروماني بحضارة السودان النوبية لا يختلف كثيرًا عن جهل الورثة الافتراضيين لتلك الحضارة في السودان العربي أو المستعرب. فمملكة كوش التي جهلوا أمرها، أو سعوا لتغييبها عن الوعي الجمعي، امتدت من ملتقى النيلين حتى مصر (سوبا إلى أسوان)، كما أصبح رجال الأسرة الخامسة والعشرين من حكامها أباطرة في واحدة من أهم إمبراطوريات العالم القديم، إذ امتدت من كوش إلى جنوب تركيا عبر حملات قام بها قائداها العظيمان: طهراقة وبعانخي.

أعود للحديث عن الأسرة النوبية التي عشت بينها زمنًا رغدًا لأقول إنه عند عودتي للسودان بعد طول غياب عقب توقيع اتفاقية السلام أحسست بفرح غامر عند زيارتي لأرملة جمال في دارها قبل رحيلها من منزلها في شارع 21 الذي آثر جمال أن يسميه "سره شرق" وهي القرية التي وُلد فيها وترعرع . ففي سره شرق وُلد جمال، ومنها نقل إلى مثواه الأخير عند وفاته، يا للوفاء للأهل ولمرابع الصبا. فما إن عدت إلى تلك الدار بعد سنوات من الهجرة، أبلغها حين وصولي للمنزل ابنها عارف بأنني في الدار لزيارتها فقالت له (وكانت تتحدث العربية بلكنة نوبية): "ده منصور خالد بتاعنا، بتاع زمان". ساعتها تذكرت قول قيس بن الملوح:

وَقَدْ زَعَمُوْا أنَّ المحبَّ إذا دَنَا — يُمَلُّ وأن النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الوَجْدِ
بِكُلٍّ تداوينا فلم يُشف ما بنا — عَلَى أن قربَ الدار خيرٌ من البُعْدِ
عَلَى أن قرب الدارِ لَيْسَ بِنَافعٍ — إذا كَانَ مَن تَهْوَاه لَيْسَ بِذِي وِدِ

فالحب الذي يظل يانعًا في قلوب الأوداء بعد طول غياب، حب صادق.

ارتحل داؤود وجمال وتوفيق فيما بعد إلى دورهم الخاصة: داؤود إلى الخرطوم (2)، وتوفيق وجمال إلى الامتداد. الامتداد هو الحي الذي أنشأه الرئيس عبود لكبار موظفي الدولة وكان من أنظف أحياء المدينة حتى جاء زمان أصبح فيه اسم الحي "العمارات" وهو اسم على غير مُسَمَّى. فالعرب تقول أنزلك الله معمر صدق أي منزلًا مرضيًا معمورًا بناسه، فكيف الحال بذلك الحي بعد أن أصبح معمورًا بالمطاعم والمقاهي والحوانيت والفيران والقطط حتى رحل عنه كثير من ساكنيه واستقذره مَن بقي منهم في ذلك الحي. مهما كان من أمر أصبحت دار داؤود نديًّا لأصدقائه على اختلاف أعمارهم ومهنهم وتباين آرائهم. كانت دار داؤود، مثلًا، منزلًا للشيخين عبد إله أبو سن ومحمد أحمد المرضي كلما وفدا للمدينة من الأقاليم القصية، حيث المحاكم التي كانا يعملان بها. علاقة الشيخ عبد إله بداؤود تعود إلى زمان سحيق حين كان الشيخ يعمل قاضيًا شرعيًّا في حلفا، وكان داؤود محاسبًا بالمركز. ومنذ ذلك التاريخ كان عبد إله ينعت حلفا بـ"وادٍ غير ذي زرع" في حين كان داؤود الذي يسخر حتى من نفسه يطلق عليها "أرض الزيزفون". والزيزفون، لمن لا يعرف، شجر خَرجي يزهر ولا يثمر. لا أدري مماذا استلهم داؤود الاسم، أهو من إعجابه بجرس الكلمة أم من كتاب المنفلوطي "تحت ظلال الزيزفون" الذي كان شائعًا بين متعلمي ذلك الزمان.

من العجيب أن الشيخين الاتحاديين لم يجدا مستقرًّا تأنس نفساهما إليه في الخرطوم غير منزل صديقهما الذي كان يقف في الضفة الأخرى من نهر السياسة (حزب الأمة)، رغم أن في العاصمة كثرًا من رفاقهما في السياسة الذين كانوا يطمعون في استضافتهما، وقد كان "الأشقاء" يطلقون على الشيخين وثالثهما علي عبد الرحمن، الآباء الروحيين للحزب. من الرجلين كان عبد إله وثيق الصلة بالخال أمير الصاوي حيث عملا معًا في القضارف: الشيخ كقاضي المدينة الشرعي وأمير كمفتش للمركز، وتلك قربى مكنتني من التعرف على امتلاك عبد إله

للحكمة وحسن الدعابة، والأخيرة كانت صفة قلما تتوافر للقضاة الشرعيين ومن بين من عُرف بها منهم الشيخ عوض الله صالح فأقاصيصه يتداولها الناس في المدينة. أما الشيخ المرضى فقد خبرته في دروب السياسة والحياة، فلم أرى فيه إلا رجلًا جريء الرأي، طاهر الذيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222] "فعندما لحق رفيق دربه علي عبد الرحمن بنظام عبود وصور ذلك النظام للناس بأنه المنقذ للبلاد والعباد تلفت المرضي يمينًا ويسارًا ليرى عددًا كبيرًا من صحبه الأقربين في الحزب "الديمقراطي" الذين كان ينبغي أن يكونوا رأس الرمح في النضال من أجل استرداد الديمقراطية إما الولوج في ميدان الأعمال أو المهن الحرة أو الانضمام إلى العصبة النافذة. تلك هي الفترة التي قال لي فيها المرضي: **"الله يسترنا من بهدلة الكُبُر"**. "بهدلة الكُبر" أصبحت في زماننا هذا رياضة يمارسها لقاء ثمن بخس دراهم معدودة كبار كانت لهم "شنة ورنة" في عهد الديمقراطية ومع ذلك لا يذكرها مؤرخو الديمقراطية السودانية عندما "يتحكرون" للكتابة عن ذلك التاريخ.

في دروب الحياة أيضًا التقيت المرضي في أكثر من موقع: مرة عند حلوله في داري بباريس في طريقه إلى الدار البيضاء للانضمام إلى الرئيس الأزهري وهو يقود وفد السودان إلى أحد مؤتمرات القمة، والثانية في مكتبه في الخرطوم بعد أن أضحى وزيرًا للتجارة، وهي الوزارة التي قيل إن رجالات الحزب الوطني الاتحادي كانوا يتقاتلون مع غيرهم للحصول عليها بحسبانها وزارة الرخص التجارية. كانت لي جلسة طويلة مع مدير مكتبه، صديقي الاقتصادي المتميز محمد المأمون. سألت ود المأمون عن تعامل الوزير معه فقال لي: "لا أدري ما الذي كان يدور من قبل في هذه الوزارة، ولكن في عهد الشيخ ما إن جاء طلب لرخصة إلا ودفع به إليَّ الوزير للتشاور في أمره مع الوكيل وتنفيذ القرار الذي نتفق عليه دون عودة إليه". هذه جذاذة من سيرة رجل عظيم يفخر به صحبه، كما يجب أن تفخر به بلاده.

دار داؤود، أيضًا، كانت منتدى يلتقي فيه صحبه من الصحفيين والأكاديميين والموظفين ورجال الأعمال: محجوب محمد صالح، ومحمد عمر بشير، وأمير الصاوي، وأمين حسون، وأحمد محجوب، وعبد الخالق محجوب، ويحيى عبد المجيد، وجمال محمد أحمد، ومحمد توفيق، والمهندس عبد الله محمد إبراهيم، وعثمان محمد الحسن، ومحمد نور السيد، ومصطفى كبارة. تلك الدار كانت في بعض الأحيان تضيق بالناس على رحابتها؛ فتبعث زوجته فتحية "بنت العمدة" لبعض جاراتها لإمدادها ببعض المقاعد وهي قائمة لا تقعد، تهيئ الفول لمن أراد أن يتفول، والطعمية لمن أراد أن يستطعم، إلى جانب شواء شرشر، أي يتدفق دهنه. ذلك الشواء لم يكن ينعم به صاحب الدار أو أصدقاؤه إلا قليلًا، عندما يبقي لهم محمد نور السيد شيئًا منه. يا ويح قلبي رحلت عنا تلك السيدة المعطاءة وأنا أعد هذا الكتاب وبكاها الكثيرون من أصدقاء داؤود؛ بكوا سيدة تنوعت أكروماتها، إذ لم يغالبها في الجود كثير، وتأنقت في العمل الصالح دون أن ترتقب عن عملها عِوضًا.

كان جمال وتوفيق، في تلك الأسرة، يحثاني على إصدار صحيفة تملأ ما حسباه فراغًا في الصحافة السودانية، وهو أمر لقي مني قبولًا. وبالرغم من أن الحديث عن موضوع الصحيفة كان يدور مع أستاذيَّ جمال وتوفيق، فإن داود فاجأني ذات مرة بسؤال بدون مقدمات: **"عملت إيه في موضوع الجريدة؟"** قلت له مازلت أفكر، كما أنني لا أملك المال لذلك". مدعاة التفكير هو أنني كنت في تلك الفترة أعد نفسي للسفر للخارج لمواصلة تعليمي. قال داود: **"ما فيش داعي للتفكير، موضوع الفلوس اتركه لي"**. وبالفعل أعد الطلب لإصدار التصديق وكان يتصدره اسمان: محجوب محمد أحمد صاحب الامتياز ومنصور خالد رئيس التحرير. تقديم ذلك الطلب كان قبيل استيلاء الجيش على الحكم، ولكن البت فيه تم من جانب وزير الداخلية الجديد أحمد عبد الوهاب فأجازه رغم اعتراض ممثل الصحفيين: بشير محمد سعيد؛ بحجة صغر سن رئيس التحرير.

كنت آمل أن يقول بشير الذي تعلمت منه أكثر من حرف "أن هذا الشبل من ذاك **الأسد**".

أيًّا كان الحال، صدور التصريح بإنشاء الجريدة توافق مع أفلاح عتباني في الحصول لي على بعثة دراسية، وكان لي أن أختار بين أمرين أحلاهما مر: تولي الإشراف على صحيفة يكون من كتابها الراتبين أستاذاي جمال وتوفيق، أو السفر للخارج لإكمال تعليمي. وبحس فطري آثرت الرحلة العلمية، بل كنت سعيدًا بالتخلي عن مسؤولية تولي تحرير صحيفة في بيئة أيقنت أنه لن يتوافر فيها الحد الأدنى من الحرية، ولا يقدم على إصدار صحيفة في مثل ذلك الجو إلا شخص متناهي الحموقة. وقد أثبتت الأيام صدق حدسي إذ اعتقل توفيق وحمل على ترك وظيفته كمدير للعمل؛ لقيادته مظاهرات الحلفاويين احتجاجًا على إغراق أرض أهلهم التاريخية بسبب بناء السد العالي وترحيلهم إلى مناطق نائية، كما تعرض داؤود لأذى من الحكم العسكري لمواقفه الجهيرة في نصرة أهله حتى أودع السجن لفترة قصيرة، ثم حمل على طلب الإحالة للمعاش. هل أخطأ داؤود عندما قال عن ثورة عبود: **"دي مش ثورة إلا إذا كانت كلمة ثورة تعني مؤنث ثور؟"**.

الحديث عن الأصدقاء في الأسرة النوبية لا يكتمل دون الإشارة لأسرة كريمة وخدن كَرِم. الأسرة هي أسرة مصطفى القاضي وعقيلته آمال اللذين كانت دارهما ملاذًا نلجأ إليه هروبًا عندما نستوعر حياة الخرطوم في رفقة صحب أفاضل نذكر منهم المحامي أحمد فضل وزوجته، والمصرفي حسن بليل وزوجته، والصديق الراحل عثمان محمد الحسن والسفير المصري سعد الفطاطري (رحم الله جميع مَن رحل منهم). أما الخِدن الكَرِم فهو مصطفى كُبارة الذي لم أعرف رجلًا يستهين بالحياة مثله. استهانة مصطفى بالحياة عبر عنها باختصارها كلها في قنينة، أما عن إخلاصه للأهل والصحاب، فقد كان فيه جوادًا يبذل الخير دومًا لغير عوض. تعرفت على ذلك الشاب في منزل محمد توفيق، وهو من ذوي قرباه، وكان مصطفى رجل أعمال مبتدئًا، ولكنه أضحى شريكًا فاعلًا في واحدة من

كبريات شركات الخرطوم التجارية: فرانكو بنتو الإيطالية. كلفني محمد توفيق ذات نهار بمعونة مصطفي، من خلال مكتبي للمحاماة، في مهمة تتعلق بشركة فرانكو بنتو الإيطالية. وبعد لقائي بمصطفي علمت أن الشركة تريد إعادة تكوينها بضم سودانيين لها كشركاء هما الشيخ إبراهيم هباني ومصطفى نفسه. في ذلك الوقت كانت سياسة وزير التجارة، حماد توفيق، تتجه إلى تقليص الشركات التجارية الأجنبية. قبلت المهمة واتصلت توَّ فراغي من إعداد الوثائق اللازمة بإبراهيم عثمان إسحاق، وكيل الوزارة. وكعهدي به، كان إبراهيم خير عون لي، إلا إنه طلب مني لقاء الوزير؛ لأن له موقفًا متشددًا في موضوع تسجيل أو إعادة تسجيل الشركات التجارية الأجنبية. وعند لقائي بالوزير شرح لي الأهداف من سياسته الجديدة، كما سألني على وجه التحديد عن كُبارة؛ فأبلغته أنه صديق لي ورجل أعمال سوداني ناشئ. أجاز حماد توصية الوكيل وهو يقول: "أنا غير مقتنع بأن هباني رجل أعمال فهو شيخ قبيلة، ولكني سأوافق تشجيعًا لصاحبك رجل الأعمال الشاب لأن الهدف من سياستي هو تشجيع الناشئين من رجال الأعمال الوطنيين". صلتي بالعم حماد لم تنقطع إذ كان خلًا مداومًا للخال مصطفي الصاوي إذ جمعت واد مدني بينهما حيث عملا سويًا، كما وثق من تلك العلاقة انتماؤهم لحزب واحد هو حزب الاتحاديين. ورغم أن النوي قد شتت بنا نتيجة لتسفاري بين ضفتي المتوسط والأطلسي (نيويورك، الجزائر، وباريس) حرصت في كل زيارة لي للسودان أن تكون زيارة العم حماد علي رأس قائمة تحركي. وفي احدي زياراتي للخرطوم هرعت إلي زيارة العم الفاضل في مستقره آنذاك كمدير للبنك الزراعي فرحب بي ترحيبًا حارًا وهو يقول: "الله جابك لي ياولدي في الوقت المناسب". لم يدر بخلدي أن مشكلة هذا الرجل الذي يتوسد المال بحكم موقعه وينتمي لأسرة موفورة الحال هي مشكلة مالية. لم يترك لي حماد فرصة لأتخيل ما كان عليه مدير البنك الزراعي هو مشكلة مالية وزاد من أساي مضي الرجل ليقول: "أبني يدرس في جامعة تشيسلوفاكيا وعلى أن أحول له مبلغ

ثلاثمائة دولار لمواصلة تعليمه وقد جمعت له حتى الآن ثلث المبلغ من بيع أثاث المنزل بما فيه جهاز فوتوغراف". وإن علمنا أن الجنيه السوداني يومذاك كان يساوي ثلاثة دولارات أدركت أن ما كان يلزم مؤسس مؤتمر الخريجين، ورئيس حزب الاتحاديين 70 دولارًا للإيفاء بمصاريف تعليم ابنه. حقًّا مهما نقمنا على ذلك الجيل عجزهم عن القراءة الصائبة والتحليل الصحيح للمشكل السوداني فأمثال حماد من بينهم كان من ناحية السلوك كبني عوف في قول امرئ القيس:

ثياب بني عوف طهاري نقية وأوجههم عند المشاهد غُران

أعود إلى الحديث عن مصطفى كباره السمح الجواد لأقول إنه بعد سداد أتعاب العمل القانوني أضاف إلى ذلك إهدائي واحدة من أربع سيارات أمريكية فارهة (كرايزلر) استجلبتها الشركة للمرة الأولى في السودان. اقتنائي لتلك السيارة. اقتنائي لتلك السيارة وتجوالي بها عبر المدينة انشغل بهما الفارغون من عمل الدنيا والآخرة، أكثر مما انشغل بهما صاحبها. أذاع هؤلاء بينهم أن تلك السيارة كانت هدية من الاستعمار الجديد لعميله في الخرطوم. ولئن سألت عن الثلاث الفارهات الأخرى فقد تملك واحدة منها تاجر إغريقي بالخرطوم، وآثر نفسه بالثانية مدير شركة فرانكو بنتو، أما الثالثة فقد اشتراها الخبير الحَشَري بشير الشفيع، أو لعلها كانت عطية له من الاستعمار الجديد تقديرًا لجهوده العظيمة في مكافحة الجراد.

الغناء السوداني.. هل له من حارس؟

أوردت في فصل سابق حديثًا عن بدايات اهتمامي بالموسيقى الكلاسيكية؛ لهذا من حق القارئ أن يسأل عما هو موقع الغناء السوداني في نفسي.

أبدأ القول بأن الغناء في الأسرة التي نشأت فيها لم يكن أمرًا مألوفًا، بل كان منبوذًا. فحتى في الأفراح كان الطرب الذي يهز الناس هو إنشاد المادحات، وأذكر منهنَّ أم الحسن الشايقية التي كانت تستجيد الغناء والمديح في الوقت نفسه.

الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كان عمًا لي يحب الغناء ويُحسنه: عبد الرزاق محمد عبد الماجد الذي عمل في النقل الميكانيكي وكان ينعته صحبه بـ"أبو الطرب". وعند تخليه عن العمل في النقل الميكانيكي، آثر العم أن يتفرغ في دار أبيه لمهمتين الأولى هي صناعة البرانيط في النهار لتسويقها بين صحبه من النظاميين وكنت وابن عمي محمد موسى نعاونه كلما احتاج إلى معونة. والثانية هي الطرب، إذ كان العم يترنم ويشدو خلال عمله بما حفظ من أغانٍ رسخ أغلبها في ذاكرتنا. وما إن يحل المساء حتى يطل على الدار أصدقاء العم الأقربين: الصادق مهدي المحاسب القدير، وخالد عبد الرحمن أبو الروس الشاعر والروائي المشهور، وعثمان صالح خال الرئيس نميري، لصحبته إلى حيث تستريح أنفسهم. وقد انتقل العم الحبيب، ونحن لما نزل في سورة الشباب، إلى واد مدني حيث طاب له المقام وابتنى بإحدى فتياتها وأصبح من أقرب صحبه في تلك المدينة إبراهيم الكاشف وعلي المساح. أقول وأنا أستعيد ذلك التاريخ لعل ذلك العم الطروب لم يقرر النزوح إلى مدني إلا هربًا مما حسبه مبعث كآبة في حوش الفكي محمد. بالرغم من أنه كان يواظب على صلواته ويحسن الترتيل.

على أن المرة الأولى التي أتيح لي فيها الاستماع مباشرة للغناء الحديث كان عبر جهاز الفونوغراف الذي أدخله في الأسرة الخال عبد الهادي الصاوي عند زواجه. وبما أني أكتب لجيل ربما لا يدرك الكثير عن أدوات التسجيل الصوتي في الماضي أقول إن كلمة فونوغراف كلمة ذات أصل يوناني، وتعني الكتابة (graph) والصوت (phono)، أيْ التسجيل الصوتي. الصوت في ذلك الجهاز كان ينبعث من اسطوانة ذات أخاديد حلزونية عندما يُنقَر عليها بإبرة خاصة، وكان الصغار ممنوعين منعًا باتًا عن مسه. ومنذ سماعي لما يصدره ذلك الجهاز من أغانٍ رسخت في ذهني أغنية اسطوانية ربما كانتْ هي السائدة في ذلك الزمان ألا وهي "الهواكم بقا لي جريمة" لأحمد عبد الرحيم العمري، وكان يغنيها أولاد بري، والعمري هو واحد من أبناء العمراب الكثر الذين تمهروا في الشعر الغنائي وغير الغنائي.

أما السماع للأداء الغنائي المباشر فلم يتهيأ لي إلا في منتصف فترة الدراسة الأولية حين اصطحبني الخال أمين الصاوي بعد نجاحي في الانتقال من المرحلة الثالثة إلى الرابعة في مدرسة أبي روف الأولية لمشاهدة رواية (الاسم الذي كان يطلق على المسرحيات) لخالد أبو الروس في نادي الزهرة. تلك كانت جائزته لي لو أحرزت مركزًا متقدمًا في ذلك الامتحان. مقر النادي آنذاك كان في شارع في الحي يبدأ من شارع ود عبد الماجد وينتهي في محطة الترام أمام منازل آل البنا، هو منزل العم أمين إسماعيل والد عثمان أمين وإخوته. تلك "الرواية" تخللتها أغانٍ للفنان إبراهيم عبد الجليل ما زلت أستذكر منها أغنية "غزال البر يا راحل" التي تمكنت من وجداني حتى ظللت أطلب الاستزادة منها كل ما أطل علي حسين شندي قائلًا له: "ابدأ يا حسين"بغزال البر واختم بـ"حليل زمن الصبا الماضي" وكلتا القصيدتين للشاعر المبدع عبيد عبد الرحمن. رعى الله الاقتصادي الفنان مكاوي مصطفى لاختياره "زمن الصبا" عنوانًا لما جمعه من أشعار خاله عبيد. وفيما بعد علمت أن إبراهيم عبد الجليل الذي كان يلقب في زمانه بـ(عصفور السودان) كان هو المطرب المفضل عند عبد الله بيه خليل فزاد إعجابي به. وكان البيه من بين الذين شجعوه وأعانوه على السفر إلى مصر لتسجيل أغنياته في اسطوانات فونوغرافية.

اهتمامي بالغناء السوداني دفعني للسعي إلى الحصول على ذخائره منذ عهد الدراسة الثانوية، وكيف لي أن لا أفعل عندما يكون من صحبي في العنبر بداخلية كتشنر الشاعران حسين بازرعة والسر دوليب. على أن الاعتراف بالجميل يقضي أن أذكر ثلاثة رجال في ذلك الزمان ساعدوني في بناء مكتبتي من المنوعات الغنائية، أولهم الأستاذ محمود الفكي مدير الإذاعة في أول حكومة وطنية عندما أبلغه أستاذي محمد توفيق وكان مديرًا لمكتب وزير الإعلام يحيى الفضلي برغبتي تلك. مدير الإذاعة لم يحقق مطلبي إلا بعد تقريع؛ سألني: "**شنو الأغاني العاوز نسجلها ليك، اوعى تكون داير أغاني الشباب النايصة**"؟ و"الصوت النايص" هو الضعيف. رددت على سؤال العم التجريمي بسؤال من شخص يَدَّعِي أنه لم يدرك

ما كان يهدف إليه السائل: "زي شنو يا عم محمود؟". قال مثل **"تجرحني ليه وأنا كلي جراح"**. لم أترك العم محمود وحاله وإنما مضيت للسؤال: "طيب الأغاني العاوزني أستمع ليها شنو؟" فرد بالقول: **"أغانينا زي الجرحو نوسر بي غَوَّر في الضمير"** أي غار الجرح وعمق في القلب. حسنًا أن العم الصنديد لم يكمل الأغنية بـ**"يا ناس الله لي"** فلو فعل ذلك لكان ما استدل به من غناء أكثر نياصًا، أو نوصانًا (أيهما كان الأصح) من قول القائل "تجرحني ليه وأنا كلي جراح". الصديقان الآخران اللذان أعاناني في بناء مكتبتي الموسيقية هما صلاح أحمد محمد صالح عندما التحق بالإذاعة، وكانت له فيها صولات، ومحمود أبو العزائم عندما أصبح مديرًا لها. وكان أبو العزائم قبل التحاقه بالإذاعة يزورني دومًا في دار الأسرة بأم درمان للمشاركة في جلسات السماع، ولعل أثمن ما أتحفني به، ومازلت أحتفظ به، تسجيلاته الغنائية وحواراته مع إبراهيم العبادي.

مع أهل المغنى

انفعالي بالغناء السوداني وتفاعلي معه حَملني على مصاحبة كُثر من أهل المغنى وعلى رأس هؤلاء خمسة: حسن عطية الذي كان يكنى بـ"أبو علي" وعبد العزيز محمد داؤود وأحمد المصطفى وعبد العزيز الكابلي. حسن عطية حظي وهو في سن باكرة بتشجيع كبير من ذوي الدربة في اللعب بالمعزف كما من أهل السماع ذوي السُمعة، أي الصيت. ففي الحالة الأولى أصبح "أبو علي"، بلا مراء، فنان الصفوة في الخرطوم بعد أن قدمه الدكتور عبد الحليم محمد لزميليه في المهنة: محمود حمدي والنور عبد المجيد في وقت كان "أبو علي" يعمل فيه كفحيص بمستشفى الخرطوم. أما في مجال العزف والغناء، فكان لذلك الفتان الناشئ لقاء مع خليل فرح وسط الأسرة الخرطومية التي كان الشاعر المغني يواظب على زيارتها. تلك الأسرة التي تبنت الفنان الناشئ، وطاب له المقام بينها هي أسرة عبد القادر سليمان الشقيق الأكبر لحسن سليمان المعروف بـ"الهاوي". وإن كان للأسرة الطبية فضل كبير في تبني حسن عطية كالفنان الأول للصفوة الخرطومية، فقد كان أيضًا

للأسرة التي عاش في كنفها دور لا ينكر في صقل مواهبه خاصة وقد أخذ "أبو علي" العزف على العود من الفنان الهاوي، وربما تفوق على معلمه وأقرانه في تلك الصناعة. في كنف تلك الأسرة أيضًا كان "أبو علي" حظيًّا بلقاء خليل فرح صديق الأسرة؛ فوقع بين الرجلين إعجاب مشترك، ذلك الإعجاب عبر عنه الخليل بتكليفه "أبو علي" بغناء واحدة من خرائد الشعر العربي التي نظمها عمر بن ربيعة ولحنها وغناها الخليل:

أعبدةُ ما يَنسى مَوَدَّتَكِ القَلبُ ... وَلا هُوَ يُسليهِ رَخاءٌ وَلا كَربُ

تلك هي القصيدة التي أوعز الأستاذ توفيق البكري بالقاهرة للخليل بتلحينها وغنائها ففعل، وكان ذلك في الوقت نفسه الذي قدم فيه الخليل أغنيته الوطنية، بل نشيده الوطني، " عازه في هواك".

قدم حليم من بعد حسن عطية لصالون المحجوب، فأعجب القانوني الشاعر بتجويد المغني لأداء شعر أبي ربيعة؛ مما حمله على إهدائه القصيدة الوحيدة التي غنيت للمحجوب، ألا وهي قصيدة القمر الأخضر (verde luna). وهي قصيدة نظمها المحجوب عقب زيارة له لإيطاليا استمع فيها لتلك الأغنية، وكانت ذائعة الصيت في ذلك البلد. وفي معرض بحثي لتسجيل تلك الأغنية في دار الإذاعة السودانية كدت أن أيأس من العثور عليها حتى انبرى للأمر الأستاذ السر قدور، فسعى لاقتنائها لي من أضابير إذاعة ركن السودان بالقاهرة. تقول قصيدة المحجوب:

غنني من لحنك العذب الحنونا ... رب لحن يملأ النفس شجونا

واذكري البدر على خضر الربا ... يانعًا غضًا على مر السنينا

فضفض الماء فضجت حوره ... تتغنى يا حبيبي فيردي لونا

فانتشي يخطر في الروض تَثنٍ ... يبعث الفتنة فيه والفتونا

وينــاغيـــــه بألحـــــان الهـــــوى ويـــوشي زهـــره و الياســـمينا
فتمــــوج الطـــير في أغـــصانه تتغنـي يـا حبيبـي فـيردي لونـا

زاد من حبي لحسن عطية تخيره لأغاني عبد الرحمن الريح: أنت حياتي، وحرمان، ولو أنت نسيت، وأنا سهران يا ليل، ويا ماري عند الأصيل، وأقول أنت نور. عبد الرحمن الريح وصديقه عتيق صناجتان وليسا فقط شاعرين. وتسمي العرب الشاعر الذي ينظم شعرًا جيدًا وصالحًا للغناء في الوقت نفسه صناجة؛ ولهذا سموا الأعشى صناجة العرب. أما عتيق فما قولك عن شاعريته عندما تعلم أن بين مَن كانوا يهتزون طربًا لأغانيه الشاعر المجيد محمد سعيد العباسي.

تكشفت لي، إلى جانب شعر عبد الرحمن الريح وعتيق، خصلة نادرة هي الوفاء للصحاب وإيثارهم على نفسيهما وهما رقيقا الحال. كان كثير من شعراء الغناء يزورون عمر الحاج موسى عندما أصبح وزيرًا للإعلام، وكان عمر يتوق كثيرًا إلى لقاء اثنين منهم هما إبراهيم العبادي وعبد الرحمن الريح. وفي إحدى المرات وجدت عبد الرحمن الريح في صحبة عمر وكانا يتجادلان. قلت لهما فيم تتنازعان؟ قال عمر: "لن تصدق، حصلت على تصديق من الرئيس بتخصيص أراضٍ مجانية لعدد من كبار أهل الفن ومنهم عبد الرحمن الريح وعتيق فأصرا على أن تذهب القطعتان إلى اثنين سمياهما لأن لهما أسرًا (زوجة وأطفال)". قلت لعمر عبد الرحمن الريح وصاحبه ليسا شاعرين فحسب، بل هما ممن قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ والخصاصة هي الفقر وسوء الحال.

حسن عطية فنان كنت لا أهوى سماعه إلا في داري عندما استقر بي المقام في الخرطوم بصحبة رفيق أو قلة من الرفاق ممن يجيدون السماع، ومن أولئك كان السفير الأمين محمد الأمين، والدكتور علي فضل، والدكتور أحمد عبد العزيز والأستاذ عثمان محمد الحسن، أو في دور بعض صحبي الأخيار: الأستاذ حسن

محمد علي بليل، والـدكتور زاكـي الـدين أحمـد، أو في منتجعـين بحلفايـة الملـوك أحدهما لحسن محمد صالح الملك، والثاني لزكي سر الختم. وعند ارتحـالي إلى لنـدن آثرت أن يكون افتتاح الدار التي أويت لها في تلك المدينة على يد "أبي عـلى" وهـو يصدح وينقر على عوده الحنان. ضيوفي في ذلك الحفل كـانوا جميعًـا مـن صـحبي هـواة غناء ذلك الفنان المبدع: دكتور زاكي الدين أحمـد وزوجته، دكتـور أحمـد عبد العزيز، التجاني الكارب، حسن بليل، وعثمان محمد الحسن.

أحببت أيضًا الكابلي في صحبة أهل القانون، خاصـة مَـن تعـرف علـيهم في مروي إبان عمله بالمحاكم. لهذا كان لقائي الكـابلي في أغلـب الأحـوال في منـزل مولانا أحمد بدري في صحبة أماجد من رجال القانون: أحمد خير، وعثمان الطيب، وصلاح حسن. لهذا لئن كان "أبو علي" هو فنان الصفوة في الجيل الأول من أهل المغنى الحداثيين، فقد أصبح الكابلي هو فنان الصفوة في الجيل الذي تلاه. أمسيات الكابلي في منزل "مولانا" كانت تزهو أيضًا، بين الفينة والأخرى، بزيارات محمـد عوض الكريم القرشي عند وفوده إلى المدينة من مكـان كنـا نطلـق عليـه عـروس الرمال، وأتمنى أن لا تكون عروس الرمال تلك قد اندرست وانمحى أثرها تحت الكثبان. وكم من مرة صحب القرشي إلى منزل مولانا مغنيه الشفيع، وكم من مرة استمتعت في دار عثمان محمد الحسن بأغاني القرشي من الشفيع بصحبة فنان ناشئ هو خوجلي عثمان. وعندما ارتحلت من السودان في واحدة من هجراتي المتعـددة لم أملك نفسي عندما جاءني نبأ مصرع خوجلي عثمان عـلى يـد رجـل أفـين قيـل إنـه مجنون و"ما هو بمجنون " بل هو نتاج لثقافة الهوس الديني التي أطلق زمامها مَن لا يرعون لله إلًّا ولا ذمة. مع ذلك، إن نسيت كل شيء فلن أنسى أبناء الحي أولاد البنا بدءًا بكبيرهم الفرجوني الذي علمهم السحر، والسحر ليس دومًا هو التمويه المودي لخبال العقل، بل من معانيه أيضًا اللطف والاستمالة؛ فقد يسحرك البعض بالكلام، فما بالك بالغناء والتطريب.

جمعتني الحياة العامة أيضًا مع فناني الأثـير الآخـر "أبـو داؤود" عنـدما كـان يعمل صفيفًا بمطابع دار الصحف الاستقلالية حيث كنت أعمل. ورغم أن "أبـا

داؤود" كان في بداهة عهده بالغناء، فإن بعض صحبه العاملين بالدار ومنهم: الشاعر قرشي محمد حسن وعلي آدم ابن الخياط يصطحبانه لحديقة الجندول ويدعواني مع بعض أصدقائي للسماع إليه. من أولئك أذكر القانوني: مأمون محمد السيد والدبلوماسي الناشئ الطاهر مصطفى. وذات مرة جاءني أبو داؤود مغمومًا لينبئني برغبته في التخلي عن العمل في المطبعة، إذ بُلّغ أن بعض أفراد الأسرة (أسرة الإمام) يرغبون في تفرغه ليكون فنان الأسرة في مناسباتها. أبدى الفنان تأبيًا للعرض بدعوى أنه فنان في أول الطريق وقد بدأ في تكوين معجبين بغنائه. وما أن بلغ الإمام عبد الرحمن الخبر حتى استدعى "أبا داؤود" ليقول له: **"أنا ما بقدر أحرمك من هواة طربك أو أحرمهم منك، فلتستمر في عملك ولتغني لمن شئت أن تغني في وقت فراغك"**.

في ذلك الزمان أيضًا أخذ أبو داؤود يشيع بيننا (أنا وصحابي) طربًا باسقًا، ولاسيما بعد لقائي بعلي الملك. ومنذ لقائي الأول به أضحى علي الملك خير خليل، وأنبل خدين. ذلك كان مكسبًا كبيرًا للمرء في بلد يتعثر فيه الإنسان كل صباح بقوم فارغين لا يتحلون بأدب، أو يتحفلون بعلم، أو يشيعون بين الناس مسرة. سعيت وعلي الملك لجمع ما سماه المائة أغنية الخالدة من أغاني الحقيبة، على الرغم من أن في رقم المائة تعسف إذ إن انتقاء تلك الأغاني كان وفق معايير ذاتية من جانب مَن قام بالاختيار. من تلك الأغنيات سجلنا الكثير "لأبي داؤود" برفقة صنوه برعي دفع الله، وعندما يُستطرب الرجلان يلتقي صوت صيدح بوتر نَغوم. كما قام علي الملك أيضًا بالتعاون مع الراحل حسين شريف بتسجيل بالصوت والضوء لبعض أغاني عبد العزيز آثرت السيدة شامة صديق المهدي (أرملة حسين) وضعها في حرز أمين. من جانبي قمت بالتعاون مع الأستاذ أحمد الفرجوني بتسجيل غير قليل من تلك الأغاني، وكثيرًا ما كان حسن عطية يقول لي إن أقرب صوت من أصوات المؤدين المعاصرين لصوت كرومة هو صوت الفرجوني. أسهم في تلك التسجيلات إلى جانب الفرجوني، وعاصم البناء وحسين شندي، وسمية حسن، كما أعان السر قدور في اختيار بعض الأغاني

ولعل فكرة برنامج "أغاني وأغاني"، خاصة فيما يتعلق بأغاني الحقيبة، قد استمدت من ذلك الجهد. حصيلة ذلك الجهد كلها أودعتها عند صديق محب للفن هو الأخ أحمد النفيدي وعله يفرج عنها لتصبح في متناول محبي ذلك النمط من الغناء السوداني. أيًا كان الأمر برحيل علي الملك وحسين شريف وانهماكي في العمل السياسي الوطني والكتابة أخذ مشروع الأغاني الخالدة يحتل مكانًا أدنى في سلم أولوياتي، ورغم ذلك كانت سعادتي غامرة عندما احتفت هيئة الإذاعة والتليفزيون بالذكرى الستين لبرنامج حقيبة الفن، وكان ضيف الشرف في ذلك الحفل الصديق الكبير صلاح أحمد محمد صالح، وهو الرجل الذي وُلد على يديه ذلك البرنامج. كان ذلك اختيارًا موفقًا من جانب الهيئة. وزاد من سعادتي بتكريم صلاح اكتشافي للعناية التي ظلت توليها الهيئة للحفاظ على تلك الثروة الفنية.

أما أحمد المصطفى فقد حببه إلى نفسي، إلى جانب رخامة صوته، أدبه مع الجميع، ثم حسن اصطفائه للمجموعات التي كان يغني لها. أغلب لقاءاتي مع ذلك الفنان الحيي المؤدب كانت إما في منزل البيه عبد الله خليل، إذ كان هو فنان الأسرة المميز، أو عند سعد أبو العلا خصيب الوجه والقري. وعندما جاءني نعي أحمد المصطفى وأنا في جدة في ضيافة الأخ صلاح إدريس حثني صلاح على تسجيل رثاء للراحل لينشر في الخرطوم التي لم أكن أعيش فيها تلك اللحظة بجسدي، رغم أنها كانت تتملكني بكل أحاسيسي. أمسكت بقلمي على التو في مكتب صلاح بجدة، إذ لم أكن ساعتئذٍ في حاجة إلى تحثاث. رثائي لأحمد كان في البدء رثاءً لمن لم يُتح لي رثاؤهم، وأنا في المهجر فكتبت أقول: "رحل عنا أبو داؤود ثم رحل أبو علي وكانا – وأحمد – واحة نرفأ إليها في بيداء السياسة نسترق اللحيظات هربًا من وعثاء الحياة وسخائمها لننعم بما يعيد للنفس توازنها. وكنا نفعل ذلك مع ثلة من الأصدقاء لا يستحي المرء من أن يُعَري روحه في رفقتهم بعيدًا عن غلاظة المغالين وسماجة المتوغلين". ما ذكرت أحمد المصطفى إلا وقفزت إلى ذاكرتي أغنية له دخلت التاريخ لسببين. السبب الأول هو أنها الأغنية الوحيدة التي كان من بين المستمعين لها حاكم عام السودان السير روبرت هاو،

والثاني هو ترجمتها كاملة للغة الانجليزية. فقبيل مغادرة الحاكم العام للسودان قرر الأستاذ محمد توفيق سكرتير دار الثقافة آنذاك إقامة حفل وداع للحاكم بدار الثقافة بالخرطوم تقدم فيه مفاجأة للرجل وهو يعد نفسه للرحيل. تلك المفاجأة كانت فاصلًا غنائيًا يقدمه أحمد المصطفى ورقصة شعبية لم يختر لها توفيق واحدة من رقصات أهله النوبيين، بل اختار رقصة من وسط السودان الذين لا يُعنى "أولاد البلد" برقصهم وغنائهم وفنونهم الشعبية تاركين لهم حرية الاستئثار بتلك الفنون في مناطق سكناهم في أطراف مدينة لم تكن تعنى بهذا الضرب من الفنون. أما الأغنية المنتقاة لأحمد المصطفى فكانت "في سكون الليل" التي أبدع مكاوي مصطفى في ترجمتها للانجليزية واختار لها عنوانًا (In the still of the night).

أمر آخر يتعلق بأهل المغنى الذين التحقوا بالكوكبة الزاهية من العمالقة الأوائل: حسن عطية، وأبو داؤود، وأحمد المصطفى، وكابلي. أولئك فتية برعوا وأجادوا في فنهم، ومنهم أذكر: عثمان حسين، ومحمد وردي، وإبراهيم عوض، ومصطفى سيد أحمد، وكمال ترباس، وحسين شندي، وعبد الوهاب الصادق، وخوجلي عثمان، وعوض الكريم عبد الله. وراء لقائي مع كل واحد من هؤلاء كانت هنالك قصة عثمان حسين، مثلًا، خرج على الناس، أول ما خرج، بقصائد نظمها خيرة أصحابي (قرشي محمد حسن في دار الصحف الاستقلالية وحسين بازرعة رفيقي في وداي سيدنا الثانوية)، وإبراهيم عوض الذي كان الفنان المفضل لواحد من أصدقائي الأحباء الذين لم يكونوا مولهين بالغناء السوداني: الأستاذ أحمد محمد فضل. ولولهه بإبراهيم عوض أخذنا نُسَمِّي أحمد فضل أحمد عوض، وَنُسَمِّي إبراهيم عوض إبراهيم فضل. أما ترباس الصَيِّت فقد أدنى غناءه إلى سمعي السفير عبد الله الحسن وصديقه عثمان أحمد ياسين شيخ الجزارين بالخرطوم، وكان ترباس وقتها لا يغني مع الآلات المستحدثة إذ كفاه صوته ففي تموجاته أكثر من آلة. لم أحبب ترباس بقدر ما أحببته وهو يغني قصائد محمد بشير عتيق. شكري لعلي الملك والشكر عرفان وثناء، إذ كان آخر ما فعل قبل رحيله هو

إعادة نشر ديوان عتيق في عام (2004) من بعد نشر صاحبه له في طبعة متواضعة في عام (1986). أما وردي فهو جدير بالوقوف عنده لسببين: الأول هو إثراؤه للتعبير الغنائي السوداني بالشجن النوبي وبإلهاب الشعور الوطني: "أصبح الصبح"، "وطنًا باسمك كتبنا ورطنًا"، والثاني هو تجربه ذاتية كشفت عن الحس الوطني المتأصل عند الفنان. ففي إحدى المرار التقيت الأستاذ محمد وردي في أديس أبابا عندما وفد إليها بدعوة من الدكتور قرنق. وعقب اللقاء مع قائد الحركة الشعبية طلب الفنان أن تتاح له الفرصة للغناء لمناضلي الحركة. ذلك أمر لم يكن يتوقعه قرنق إلا إنه سعد بطلب الفنان أيما سعادة. وبالفعل انتقل وردي وفرقته الصغيرة إلى معسكرات الجيش الشعبي على الحدود الأثيوبية - السودانية ليغني للمحاربين الذين جاؤوا جميعًا لسماعه. وقبل الغناء خاطب وردي مناضلي الحركة قائلًا: "أنا نوبي من شمال السودان لي مثلكم لغتي التي أتحدث بها ومواريثي الثقافية التي أعتز بها، ولكني أغني بالعربية حتى أطرب مواطني الذين لا يتحدثون النوبية".

لو كان ساسة الشمال يبصرون هذه الظلال في تنوع السودان الثقافي، كما أبصرها وردي، لما أوقعوا أنفسهم وبلادهم في هلكات.

الحديث عن أهل الفن يصبح ناقصًا إن لم تتبعه إشارة إلى رجلين: أولهما عثمان وقيع الله والثاني هو الفنان النوبي العازف حمزة علاء الدين. وعندما أصف عثمان بالفنان المتكامل، فلأنه كان يرسم بريشته، ويخط بقلمه، ويصدح بصوته الطروب. عثمان وقيع الله لم يكن فحسب حافظًا للأغاني خاصة تلك التي تغنى بها سرور إلا إنه كان ضنينًا بصوته إلا على نفسه وصحبه الأقربين، ولا يضنن المرء إلا بما هو نفيس. من أولئك الأقربين كان السفير عبد الله الحسن في لندن الذي كان ضِنٌّ لعثمان من بين أخوين. وكان من أجمل الأغاني التي يغنيها عثمان فريدة عبيد عبد الرحمن (صفوة جمالك صافي الماء على البلور) التي ما كان الفنان يكمل أداءها حتى يسأل المستمع: "مَن الأحرى بالثناء الشاعر أو المغني؟". ردي دائمًا كان: "هما صنوان في إجادة النظم والغناء وفي التواضع". أوليس عبيد هو الذي

ختم قصيدته تلك بالقول: "أفرح وأقول يا ليل وأشرح وأحـاكي سرور" فلـولا سرور لما تجاوزت، الأغنية منظومة صاغها شاعر يجيد صنعته، ولولا كلمات عبيـد لما كان لسرور أن يجد ما تدق له الدفوف. أما حمزة فقد تعرفت عليه في عهد عملي بالأمم المتحدة في مرحلة بدأ فيها الفن الأفريقي يحتل مكانًا في مـسرح الموسـيقى والغناء في الولايات المتحدة خاصة في نيويورك. تلك هـي الفـترة التـي ذاع فيهـا صيت المغنية مريم ماكيبا (جنوب أفريقيا) وحمزة علاء الدين (النوبي الذي تمهـر في العزف في معهد فـؤاد الأول للموسـيقى بالقـاهرة). لم تـتح لي الظـروف بعـد عودتي للسودان، أن أقدم حمزة للمـستمع الـسوداني، ولكـن أتاحـت لي ظـروف العمل في السودان (وزارة الخارجية) ليس فقط لتوجيه الدعوة لمريم ماكيبا لزيارة السودان، بل لاستعراض فنها أمام مؤتمر القمة الأفريقية بعاصمة بلادنا.

تـذكرت كـل هـذه التجـارب ذات مـرة عنـد اطلاعـي عـلى رأي للمـؤرخ الأكاديمي الأمريكـي جـون فـول (John Vol) وهـو باحـث اختـار موضـوعًا لرسالته للدكتوراه "الطريقة الختمية في السودان". وفي بعض ما كتب قال الكاتب المؤرخ: "لو ترك توحيد السودان للشعراء والمغنين لكانوا أقدر عـلى تحقيقـه مـن السياسيين". وما كان ذلك المؤرخ الأمريكي العليم بتاريخ السودان ليصدر ذلك الحكم لولا إدراكه أن الشعراء والمغنين أرهف حسًا نحو أخيهم الإنسان من أهل السياسة. تلك حقيقة أثبتها في أشعارهم وأجلاها في نظمهم البديع العبادي، عبيد عبد الرحمن، محمد عوض الكريم القـرشي، وبـآخره محجـوب شريـف، وحميـد، والقدال.

ابتذال أمجاد الماضي والاستهانة بمآسيه

إلى جانب التسجيل الغنائي السينمائي الذي لم يرَ النور، كان لحسين شريـف إسهام سينمائي آخر هـو فـيلم "انتـزاع الكهرمـان" (Dislocation of Amber) الذي احتفى فيه حسين بسواكن. ذلك الفـيلم القـصير، وإن دار في سـواكن فـإن حسينًا لم يكن مشغولًا فيه بالأثر المعماري للمدينة بقدر ما كـان مهمومًـا بـصفحة

أخرى من تاريخ السودان يتمنى المؤرخون السودانيون أن لا يذكّروا بها ألا وهي تلك التي تتعلق بالرق السلعي. وكما هو معروف كانت سواكن هي الميناء التي ينقل عبرها الرقيق السوداني إلى تركيا ومصر. التعبير عن ذلك الفعل المنكر كان هو امرأة ترقد عارية على ساحل البحر الأحمر فوطئتها سفينة، أيًا كان معنى الوطء. ذلك الفيلم كاد أن يكون صامتًا لولا ترداد قصيدتين كخلفيتين للفيلم: البردة النبوية التي كان يشدو بها عبد العزيز محمد داؤود، وأغنية الفاكهة الشاذة (strange fruit) التي كانت تتغنى بها المطربة الأمريكية بيلي هوليداي. تلك الأغنية بكائية صاغها المدرس "الزنجي" أبل ميروبول (Abel Meeropole) وغنتها زوجته في حدائق ميدان ماديسون بنيويورك في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي في إحدى التظاهرات ضد الميز العرقي. وقد ذكر ميروبول كيف استوحى موضوع قصيدته من المحاكمات الغوغائية (lynching) التي مارسها البيض ضد السود، خاصة المحاكمة التي أعدم فيها "الزنجيان" توماس شيب وإبراهام سمث في السابع من أغسطس 1930. ولذلك لا يغيب عن أي ذهن فطن ما أراده حسين من تضمين تلك البكائية في الفيلم. ومما يبعث السرور أن حسينًا قد تصدى بعمله الفني ذلك إلى إماطة اللثام عن واحدة من سوءاتنا الاجتماعية، بل أكبرها: الرق. ولئن يكون مَن أماط اللثام عن تلك السوءة وعراها هو حفيد حسين شريف الذي وصف أبناء "الأرقاء" حتى إن كانوا من مفجري الثورات الوطنية بـ"أبناء الشوارع" يتوجب علينا أن لا نكتفي بالسرور من جسارة هذا الفنان، بل نعد حسينًا واحدًا من قادة التنوير في بلادنا.

طرأ على ذهني وأنا أشاهد : "اقتلاع الكهرمان" موضوع عدم اهتمام النخبة السودانية بآثار بلادها. فقد أشرنا من قبل لإغفال تلك النخبة للآثار النوبية لما رسخ في عقلها الباطن من يقين بأن في تلك الآثار وثنيات. ولكن ما بالهم يغفلون آثار السودان الإسلامية مع شدة وجدهم المزعوم بآثار العرب والمسلمين. فالمباني المرجانية في سواكن هي أهم الآثار الإسلامية المعمارية في البلاد، بل لعلها الأثر

الوحيد الذي ظل باقيًا. ومن حسن حظ السودان أن كان به نصارى من غير بنيه يدركون قيمة المواريث المعمارية الإسلامية ويسعون للحفاظ عليها. على رأس أولئك كان منشئ كلية الفنون الجميلة جان بيير قرينلو الذي قرر أن يقوم بتسجيل كل آثار سواكن على الصورة التي كانت عليها. ولقلة موارده، أو عدمها على الأصح، لجأ قرينلو لرئيس المجلس القومي للبحث العلمي وديع حبشي في عام 1976 فوفر له مبلغًا من المال لم يكفِ إلا لإصدار طبعة رديئة من العمل الفني العظيم الذي سعى لتوثيقه. وذات يوم فاجأني ناشر كتبي باللغة الانجليزية (Kegan Paul Int.) طالبًا مني إعداد مقدمة لذلك الكتاب إزاء إلحاح المهتمين بالفنون الإسلامية عبر العالم بإعادة نشره. ولحسن الحظ صدر الكتاب عام 1995 ورقم تسجيله (ISBIYD- 7103-0489-7) لمن يريد الحصول عليه. تضمن ذلك الكتاب خرائط تفصيلية لمدينة سواكن: قصة سواكن، الحياة المنزلية، المباني التركية، تغليف المنافذ، المباني ذات الطابع المصري، المباني الحربية، طريقة البناء، الأعمال الخشبية. في مقدمتي للكتاب في نسخته الجديدة أشرت إلى أهمية الكتاب من النواحي الأثرية والفنية والتاريخية وحثثت اليونسكو على المضي في الحفاظ عليه بعد أن اعتبرته واحدًا من الآثار الحضارية الإنسانية التي ينبغي على العالم رعايتها. يا لها من نخبة تلك التي لا تكتفي بالعبث بحاضر البلاد، بل تتبع ذلك العبث بابتذال أمجادها الماضية. وبآخره وقع بين يدي تلخيص لمبحث قامت به باحثة سودانية (شادية طه) حول سواكن وتاريخها المنسي. راقني في ذلك البحث الأسلوب الشمولي الذي انتهجته الباحثة في تناول الموضوع ليس فقط من ناحيته الأركيولوجية والتاريخية، بل أيضًا من جوانبه الاجتماعية ووسائل الحفاظ على مثل تلك الدرر المنسية في تاريخنا. كما أسعدني بالقدر نفسه الجهد الذي يقوم به المعماري عبد الرحيم سالم في إعادة الحياة لقصور سواكن وإجلائها على الناس في كتابه "أسرار سواكن" الذي قام بتدشينه في الخرطوم في السادس من فبراير 2016.

أوحى لي إصدار فيلم انتزاع الكهرمان عبر مؤسسة آرثر رانك في لندن الاستعانة بها لإنقاذ بعض الآثار التاريخية السينمائية التي كانت في حوزتي من أجل حفظها من الضياع. حيازة الأفلام اهتمام غرسه في نفسي الأستاذ الخير هاشم، وفي خلال زياراتي لبعض السفارات اكتشفت وجود أفلام تاريخية عديدة لأحداث مهمة في تاريخ السودان كانت ترقد في مخازن تلك السفارات. تلك الآثار ضمت زيارة نهرو وبرجنيف للسودان، وجلاء القوات البريطانية، وإعلان الاستقلال ورفع علمه على سارية النصر، وزيارات الأزهري لربوع السودان، وافتتاح نادي المريخ، إلى جانب أفلام أخرى حرصت على الحصول عليها من الإذاعتين المصرية والبريطانية. أغلب هذه الأفلام كانت مسجلة على بكرات (reels) أخذت في الجفاف مما هدد صلاحيتها للاستعمال، وعند عرضي الأفلام على حسين مأمون أبلغني بأن آرثر رانك ليست قادرة فحسب على إعادة الأفلام لحالتها الأولى عبر ما يُسَمَّى (wet - gating)، بل أيضًا على نقلها وتسجيلها على نظام الفيديو المنزلي (video home system) الذي يعرف اختصارًا بـ(VHS). ذلك النظام اخترعه اليابانيون في عام (1976) ولعل هناك من الوسائط ما تجاوزته مع التطور اللاهث في هذا المجال. وعندما اكتمل التسجيل على النحو الذي توافقت عليه مع آرثر رانك اتصلت بوكيل الإعلام الفاتح التجاني مقترحًا عليه استنساخ صور من تلك الأفلام لإهدائها للوزارة ولكني صعقت عندما قال لي الفاتح - ربما رأفةً بي- "أرجو ألا تقدم على ذلك، فلو كانت الوزارة على علم بما انتاب تلك الآثار أو مدركة لأهميتها لما اضطررت أنت إلى القيام بما قمت به". أوَترى ما الذي يفعل القنوط الذي يحيق بالإداريين بسبب أخطاء أهل السياسة؟

جمعي لتلك الآثار لم يكن بهدف اقتنائها، وإنما لرغبتي في أن تكون مادة خامًا لإعداد أفلام تسجيلية عن تاريخ السودان المعاصر بعد أن نضم إليها بعض الآثار السينمائية الأخرى. لم يكن حديث الفاتح التجاني وحده الذي أثبط همتي، بل تواترت التجارب من بعد وترًا وترًا تؤكد صدق حدسه، وتزيد من يأسي من

نخبة السودان التي تحب وطنها حبًّا جمًّا باللسان مما تكشف عنه أغانيهم "سوداني الجوه وجداني". ذلك الحب يبقى دومًا حبًّا لفظيًّا. ليتنا كنا كأهل مصر الذين يعشقون بلدهم ويسمونها أم الدنيا وهم بها فخورون، فخورون بممثليها وحكائيها وشعرائها. وفي قصة رواها سوداني مغترب عن جدل بينه وبين مصري، قال المصري **"نحن بنعبد مصر، بس ما بنحبش بعض كثير، ولكن إنتو ما بتحبوش بلدكم، ولكن تحبوا بعض خالص"**. قلت له: **"صدق المصري في قولته الأولى ولم يصدق في الثانية"**. ولربما رأى ذلك المصري في الاهتمام الشكلاني للسوداني بالسوداني الآخر عند الكوارث مثل بكائهم الميت بدمع سخين، أو مواراته الثري، وهم يرددون "البقاء لله" ترداداً تصحبه عبرات نشج. ولكن ما يجهله المصري أن ذلك الحب لم يكن يتبعه في الغالب الأعم أدنى اهتمام بما خلف الميت من ورائه من مشاكل تبهظ أهل الميت ويشق عليهم حلها. وفي الأثر "لعن الله الناس يبكون الميت ولا يقضون دينه". ما سماه المصري حبًّا هو حب كاذب مفتعل، ولا يعبر افتعال الحب إلا عن نفاق. ولئن ظننت أن النفاق بين أهل السودان مقصور على أهل السياسة والدين، فأنت مخطئ، فالنفاق في هذا الزمان تعدى السياسة والوظيفة ليشمل التناصر الاجتماعي. هذه واحدة من الخصائص الخُلقية التي جعلت من السودان بعد ما يربو على نصف القرن من الاستقلال وطنًا كسيحًا تهيض عظامه.

الفصل

التاسع

9

الهجرة الأولى

وما تعلم منها الكاتب

أتباعد عنكم لأسافر فيكم

ما لم أُفضِ به لأكثر أصحابي إلا لاحقًا هو رغبتي في الارتحال إلى الخارج لكسب المزيد من المعرفة في المجال الذي انتويت اتخاذه مهنة: القانون الدولي والسياسة الدولية. ورغم أن الموضوعين لم يكونا من الموضوعات التي يُعنى بها كثيرًا طلاب أو خريجو كلية الحقوق فلربما حملني على ذلك التوجه اهتمامي بالأحداث الخارجية ومتابعة تطوراتها. تلك كانت خطتي من الهجرة وهدفي الأول والأخير، إذ لم يكن حالي كحال ابن الوردي الذي أمله وأضجره القبوع في وطنه لما في ذلك من "عجز ظاهر". قال ابن الوردي في اللامية:

حُبُّك الأوطان عجز ظاهر　　　فاغترب تلقى عن الأهل بدل

فمكوث الماء يبقى آسنًا　　　وسرى البدر به البدر اكتمل

بعيدًا عن استبدال وطن بوطن كانت لي في الهجرة إلى أمريكا حاجات أطانيب قد ينقضي العمر ولا تنقضي. من تلك الحاجات كسب معارف جديدة، وصقل ما اكتسبت من علوم، ثم المزيد من الاستكشاف لتجارب الآخرين إذ في تلك الكسوب والتجارب ما يوسع ماعون الفكر ويضيف بذلك إلى المتعلم

قدرات في الاستخراج العقلاني للأحكام. نعم، لم تكن من خطتي في الهجرة الأولى، وما تلاها من هجرات، البحث عن وطن بديل أستقر فيه، أو أرض جديدة أتطن بها، ناهيك عن السعي وراء جنسية أخرى غير السودانية، فحيثما ارتحلت ارتحل الوطن معي في صور الأهل والصحاب وفي تسجيلات الموسيقى والسينما توقراف. ولئن اضطرت عوامل السياسة كثيرين من أهل بلادي في حقبات تالية للنزوح عن وطنهم إلى أوطان أخرى آملين في أن توفر لهم تلك الأوطان فرص العمل بعد أن ضاقت سوقه في وطنهم، أو إمكانات التعليم النافع لهم ولأبنائهم من بعد انحطاط التعليم في بلادهم وتحوله إلى تعليم تلقيني مشدود من خاصرته إلى ماضٍ ظلامي، فغايتي من السفر كانت هي المزيد من الإحاطة بالمعارف والمهارات التي بزت فيها الولايات المتحدة أقرانها كيما أفيد من تلك المعارف والخبرات عند العود إلى الوطن. تلك حالة مزاجية لا أجد تعبيرًا عنها أبلغ مما قال الشاعر المصري المبدع محمد أبو دومة في ديوانه (أتباعد عنكم لأسافر فيكم). كتب أبو دومة:

" آه... وآه علينا فحين ارتحلنا وقلنا هربنا من العشق يا وطني واسترحنا

نفضنا عن القلب ثقل الندوب العريقة، كفَّ نشيجُ الضلوع....

فلا الناس كالناس، لا الأرض كالأرض... لا خجل الابتسام كجرأته، ولا أعين يسكن الدفء فيهن مثل التي تقشعر دموعًا وراء غلاف البرودة،

قلنا نجونا

وهذا زمان التفيؤ بالبعد عنك، إذ إن الضياع هو الملجأ الرغد في ظلمات التغرب...

قلنا سنبدأ وقت الإفاقة نخلع جلدًا لينبت جلد جديد،

نبدل صحبًا بصحب، ولونًا بلون، ونطقًا بنطق، ونحذر داء التودد،

نرفع محرمة الانزواء... وقلنا، وقلنا،

وقلنا سدًى ما حسبنا، فلن يهرب العرق من دمه أو يغادر طير جناحيه

آه على الشعراء إلى حيث يرتحلون ترافقهم لعنة العشق، يتبعهم الابتلاء،

فلا بالبقاء نجاة ولا بالهروب مفر".

وفيما تلى من سنين انتابني عجب من أن تصبح الولايات المتحدة من بين كل بلاد العالم هي الملجأ الرغد والملاذ الآمن للسودانيين، خاصة لمن تقطعت حبالهم الصوتية بالصريخ في ماضي زمانهم ضد تلك الأرض "النجسة" إما بحسبانها واحدة من دول الاستكبار التي دنا "عذابها"؛ أو ممن ظلت غايتهم في الحياة الدنيا هي الحط من منزلتها بهتاف داوٍ "تسقط تسقط الولايات المتحدة (Down Down USA). قلت: "سبحان مغير الأحوال" وكم تمنيت لو كان هؤلاء المحتالون في ظُرف وكياسة صديقي الساخر صلاح أحمد محمد صالح. قال لي صلاح ذات يوم إنه ينتوي السفر إلى بلد بعيد لزيارة ابنه، وبدلًا من أن يحدد اسم البلد الذي ينتوي السفر إليه قال: **"أنا مسافر سفرة تخدِر"**. قلت له: "أين هذا البلد؟" فأجاب على سؤالي الغبي: **"في بلد فيهو كرتا أخدر (Green card) غير أمريكا"**.

مَا أكثر الذين سافروا (سفرة تخدر) إلى ذلك البلد وصحيباته في أوروبا وما فتئوا يصفونه بدولة "الاستكبار" في قول، والاستعمار الجديد في قول آخر. يقولون ذلك في الوقت نفسه الذي ينعمون فيه، وينعم أبناؤهم وبناتهم، بخدمات صحية مجانية، وتعليم مجاني، ورعاية اجتماعية مجانية يمولها جميعًا دافع الضرائب المستكبر. كما من بينهم مَن بلغت وقاحته الحد الذي أعلن فيه أنه مازال ثابتًا على ماركسيته، ولا غرو في ذلك فالماركسية هي واحدة من قمم النظريات الغربية في الاقتصاد والاجتماع، ولها أنصار كثر بين مفكري أمريكا. بيد أن عاشقي الكرت الأخضر الذين يباهون بماركسيتهم عبر الأطلسي لا يفعلون ذلك إلا تبرئة لأنفسهم أمام رفاقهم الذين خلفوا وراء ظهرهم في السودان زاعمين أنهم ما زالوا على العهد ثابتين، ولكن ناسين أن العهد عند ماركسيي السودان هو الانقضاض على الاستعمار الجديد حتى القضاء عليه. أولا ترى معي أيها القارئ الكريم مدى تمزق الذات عند البعض؟! لهذا أثلج صدري كثيرًا مقال للبطل اختار له عنوانًا بليغًا "يا أمة ضحكت من كذبها الأمم" (السوداني 18 نوفمبر 2014). قال- لا فض فوه - "ما ذلك الشيء الشديد المركزية في قلب الثقافة السودانية العربية الإسلامية الذي يجعل من أشق الأمور وأمضها على نفس الإنسان السوداني أن يقول بصفاء وتجرد أن تجربة الهجرة تجربة عظيمة، وأن هذا البلد المتقدم أعطاني وأعطى أبنائي ما عجزت عنه بلادي الأم". السودانيون المتعلمون ظل أغلبهم على مدى نصف قرن من الزمان يعيشون في ظل كذبة افتعلوها وصدقوها، أو ربما خداع للنفس ابتدعوه واستمرؤوه. "الحياة في ظل كذبة" تعبير أطلقه الأديب السياسي التشيكي هافيل عن الجنة التي وعد بها ماركس ولينين العالم، أما نحن فكنا، وما زلنا، صانعي كذبتنا: تصديقنا وإيماننا بأنّا خير مَن وطئ الثرى من بعد آدم. هذا الإعجاب بالنفس وما يولده من استكبار هو نتاج طبيعي لأنا ظللنا نعيش منذ استقلالنا في بهو كله مرايا صنعناها بأيدينا. وفي مثل هذا البهو لا يرى الإنسان، أنّى نظر، غير وجهه.

التمهيد للهجرة

كان أول مَن نقلت إليه رغبتي في السفر للخارج لمواصلة تعليمي الأستاذ أحمد متولي العتباني الذي لم يكتفِ فقط بتشجيعي، بل أضاف وعدًا بإعانتي على المشاركة في ندوة تنعقد صيف كل عام في مقر محكمة العدل الدولية بلاهاي لناشئة الدبلوماسيين والقانونيين، وقد فعل. **محكمة العدل الدولية** -يا أحباب- هي المحكمة الدولية المنشأة بموجب ميثاق الأمم المتحدة والمنصوص عنها في الباب الرابع عشر من ذلك الميثاق. ذلك توصيف لستُ بحاجة إليه للذين يلمون بظاهر الأمور ناهيك عن باطنها، ولكن ما أكثر الذين يتوغلون في بواطن أمور يجهلون حتى ظواهرها. لهذا دفعتني الخشية من أن ينبري واحد من أولئك ليقول: "لقد اعترف منصور في مذكراته بأنه تدرب في **المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي**"، ربما بجامع الدولية، أو لاهاي في كلٍّ. في حين أن ما سجلت قبل بضع سطور هو أولًا أن الندوات كانت تعقد في مقر محكمة العدل الدولية، ولم أقل إنني تدربت في تلك المحكمة، وثانيًا أن محكمة العدل الدولية ليست هي المحكمة الجنائية وإن كانت كلتاهما في لاهاي، وكانت الأخيرة في ذلك الوقت نطفة في رحم الغيب. وإن تركنا جانبًا الذين يهرفون بما لا يعرفون نقول إننا اكتسبنا فوائد جمة، من تلك الفترة التدريبية القصيرة في لاهاي ليس فقط في تطوير معارفنا في القانون الدولي، بل أيضًا في إقامة شبكة من العلاقات مع كثير من المحاضرين والطلاب.

وعند العودة للسودان من لاهاي أبلغني عتباني بأنه ربما أتيحت لي فرصة للالتحاق بإحدى الجامعات الأمريكية عبر زائر مهم للبلاد هو البروفيسور نورمان بالمر أستاذ العلوم السياسية بجامعة بنسلفانيا. تلك الجامعة أعارت أستاذها المرموق للأمم المتحدة لإعداد برنامج لتدريب الدبلوماسيين الأفارقة بعد أن نالت أغلب الدول الأفريقية استقلالها، وكان السودان في طليعتها. وبالفعل أكمل بالمر في السودان إعداد مشروع لتدريب الدبلوماسيين الأفارقة واختار للإشراف عليه وكيل وزارة الخارجية السودانية محمد عثمان يس الذي ظل

يدير البرنامج من مقر الأمم المتحدة بجنيف، دون أن يتخلى عن منصبه في السودان. أبلغ عتباني بالمر برغبتي في الحصول على بعثة لجامعة أمريكية لنيل درجة الماجستير في القانون، كما هيأ لي لقاءً مع الأستاذ الزائر. وكم كانت مفاجأتي عظيمة عندما أبلغني عتباني بعد أسبوع من ذلك اللقاء ليس فقط بالحصول على بعثة دراسية بجامعة بنسلفانيا، بل على أول بعثة من بعثات فلبرايت تمنح لسوداني. ومنذ ذلك التاريخ حصل على بعثة فلبرايت عدد من السودانيين في مجالات مختلفة منهم في المستويات العليا الدكتور حماد عمر بقادي الذي لم يكمل دراسته إذ استهوته السياسة، كما منهم عبد الله جلاب، ومصطفى البطل.

برنامج فلبرايت الذي أنشأه السيناتور وليام فلبرايت في عام 1946 يعتبر واحدًا من أميز برامج البعثات الأمريكية وقد طُبق منذ إنشائه حتى هذا العام في157 قطرًا، كما ظل يقدم كل عام (8000) منحة حتى بلغ عدد البعثات التي منحت في إطاره حتى عام (2010) ثلاثمائة ألف بعثه منها (114.000) في الولايات المتحدة وما تبقي منها تقاسمته أقطار العالم الأخرى. وكان من بين الذين حظوا ببعثة فلبرايت شامشاد أخطر محافظ بنك باكستان، وس.م كرشنا وزير خارجية الهند الأسبق، وفولزميريز شيمو سقنر رئيس وزراء بولندا، ورتشارد ديبز مؤسس بنك مورقان ستانلي، وجون اتا ميلز رئيس غانا، وأولارا أوتونو وزير خارجية يوغندا الأسبق، والشاعرة الأمريكية سيلفيا بلاث، وزاهي حواس عالم الآثار المصري، وخافيير سولانا الأمين العام السابق للناتو، وجوزيف ستيقلنز الاقتصادي الأمريكي الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، وآرون كوبلاند المؤلف الموسيقى الأمريكي المعروف، ومحمد يونس مؤسس بنك الفقراء (بنك قرامين) في بنجلادش.

في جامعة فرانكلين

حملتني تلك البعثة إلى جامعة بنسلفانيا وهي واحدة من أقدم الجامعات في الولايات المتحدة إذ أنشأها في عام 1740 بنجامين فرانكلين، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية ومن رجال الثورة متنوعي المواهب. كان

فرانكلين دبلوماسيًا متميزًا (عمل كسفير في باريس ولندن)، وفيلسوفًا سياسيًا أثرى الثورة بأفكاره المتنوعة، وعالمًا في الفيزياء إذ اخترع النظارة ثنائية البؤرة (bifocal) كما اخترع في الكهرباء مانعة الصواعق (lighting rod). ومثل كل الجامعات القديمة أصبحت جامعة بنسلفانيا واحدة من عصبة الجامعات اللبلابية (Ivy League Universities)، أي التي يحيط بها ويتسلقها اللبلاب مما يعبر عن عراقتها. ومنذ نشأتها ركزت تلك الجامعة على الدراسات العملية لا النظرية وعلى الدراسات المتنوعة (multi – disciplinary studies)، كما أنشئت بها أول كلية للطب في الولايات المتحدة في عام (1765) وأول مدرسة للأعمال في عام (1881) وقد تطورت الأخيرة فيما بعد لتصبح مدرسة هورتون للاقتصاد. وبما أن الجامعة تتيح الفرصة لطلاب المدارس المختلفة للالتحاق بمدرسة أخرى لتناول مادة ذات صلة بما يدرسون فقد اخترت، إلى جانب دراسة القانون، الالتحاق بمدرسة هوارتون للاقتصاد لا لحبي لعلم الاقتصاد، أو رغبتي في التخصص فيه، وإنما لإدراكي أن الجهل المطبق به أمر ضار أيًا كان المجال الذي اختار المرء للتخصص فيه. وأقدر أنني أحسنت اختيار هوارتون للدراسة الإضافية ليس فقط لما تعلمت فيها وصحبت من زملاء، بل أيضًا للتطور الذي عبرت به حتى أصبح لها فرع (campus) في الساحل الباسفيكي (سان فرانسسكو) وفرع في الصين (بكين). كما أتاحت لي تلك المدرسة أيضًا الالتقاء بالكثير من الطلاب العرب الذين بلغوا شأوًا بعيدًا في مجالات عملهم في بلادهم وفي المنظمات الإقليمية والدولية. من هؤلاء أذكر نبيل شعث من فلسطين، وحازم الببلاوي في مصر، والذي أصبح نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا للمالية في الحكومة الثانية التي تم تكوينها بعد سقوط الرئيس مبارك برئاسة الجنزوري، ثم رئيسًا للوزراء في الحكومة التي أعقبت ولاية مرسي. بتلك المدرسة التحق أيضًا نفر من الاقتصاديين السودانيين منهم المصرفيان حسن محمد علي بليل وعوض الكريم عثمان والاقتصاديان الطيب حسب الرسول وتوفيق القوصي، وفي فترة لاحقة انضم لتلك الكوكبة من الطلاب السودانيين المؤرخ الفني صلاح حسن الذي أصبح أستاذًا لتاريخ الفن في جامعة كورنيل.

أكثر ما أثار انتباهي في طرائق التعليم في جامعة بنسلفانيا، وهي من الجامعات الأمريكية التي لم تلتزم بالنهج الانجليزي، ثلاثة أشياء: العلاقة بين الطالب والمعلم، طرائق التدريس، ثم الثقة الكاملة للأستاذ في أمانة طلابه. ففي السودان تعودنا على أن لا تكون الدراسة (المحاضرات والدروس لطلاب محدودي العدد tutorials) إلا في الفصول المعدة للدرس، ولكن كثيرًا ما كان الأساتذة في جامعة بنسلفانيا (والجامعات الأمريكية الأخرى) يدعون الطلاب إلى محاضرة تعقد في دورهم حول حفل شواء (barbeque) في حديقة الدار، أو في منتزه خلوي مما كانوا يطلقون عليه الخلوة الأكاديمية (academic retreat). أما فيما يتعلق بثقة الأستاذ في الطلاب وتربيتهم على ذلك فتؤكدها تجربة فريدة مررت بها. فقبيل الامتحانات في عامي الأول بمدرسة الحقوق في الجامعة وجه إليّ قانوني التقيته في لاهاي إبان الندوة الصيفية التي وردت الإشارة إليها دعوة لحضور محاضرة في جامعة ييل (Yale) حيث كان يدرس. تلك المحاضرة استمدت أهميتها من أن المحاضر كان هو البروفيسور مايرز ماكدوقل، أستاذ القانون الدولي بتلك الجامعة، والذي كان يُعَدُّ في زمانه أكبر علماء ذلك القانون في الولايات المتحدة.

صادف تاريخ تلك المحاضرة موعد أول امتحان حَوْلي، فكدت أن أعتذر لصديقي، وقد ركبني غَم وحُزن، ولكن ذلك الغم زال في اللحظة التي التقيت فيها أستاذي كوفي أوليفر، وأبلغته بالمأزق الذي أنا فيه. قال لي الأستاذ أن المهتمين بالقانون الدولي يقطعون المسافات للاستماع إلى محاضرات ماكدوقل. قلت له "وماذا عن الامتحان؟". قال "الأمر بسيط، عليك أن توقع وثيقة الالتزام الأخلاقي (Honour's undertaking)". سألت البروفيسور أوليفر عن ماهية تلك الوثيقة فقال: "هي تعهد من الطالب بأن لا يحاول الاطلاع على ورقة الامتحان حتى بعد كشفها للطلاب الآخرين، وأن لا يسعى لذلك مع زملائه الذين اطلعوا على الامتحان أو شاركوا فيه". جامعة بنسلفانيا هي من أوائل

الجامعات التي طبقت نظام وثيقة الشرف، ومن الغريب أن جامعة هارفارد، وهي واحدة من أكبر الجامعات الأمريكية -أن لم تكن أكبرها- لم تبدأ في تطبيق هذا النظام إلا في عام 2013. ولربما كان السبب لهذا الإغفال أن الجامعتين الأمريكيتين هارفارد ورصيفتها ييل اللتين أنشئتا على نسق الجامعات البريطانية (هارفارد علي نسق كامبردج وييل على نسق أكسفورد) آثرتا تطبيق النهج الإنجليزي. وعلى أي، فتجربة وثيقة الشرف تجربة لا عهد لي بها في السودان بل عرفت فيه، بدلًا منها، تجارب في سرقة الامتحانات أصبحت لها ثقافة مثل تبادل ما يُسَمَّى "البخرات". لذلك سألت الأستاذ: "وماذا لو فعل الطالب ما نُهي عنه؟"، قال"هذا ما لا يدور بخلدنا لأنا نفترض أن الطالب الذي يصل إلى مستوى الدراسات العليا لا يرغب إلا في تجويد معارفه بالصورة التي تعينه على تطوير نفسه في مجال تخصصه، والنجاح في المهنة التي يريد أن يمتهن، وهذان أمران لا يتحققان بالاحتيال". قلت لنفسي: "لله دركم أيها الأمريكان، هذا سبب آخر للإعجاب بكم ولو كرهكم البعض، وكرهني بعض آخر لقولي الحق عنكم".

خلال فترة الدراسة للماجستير كنت أتلقى العلم عن طريق أساتذة أعلام في ميادينهم: البروفيسور لويس هينكن في القانون الدستوري الذي أصبح فيما بعد أستاذًا للقانون الدولي بجامعة كولومبيا، الأستاذ كوفي أوليفر في القانون الدولي وكان قانونيًا ناشطًا وسط الديمقراطيين؛ فكافأه الرئيس كنيدي عند توليه الحكم بتعيينه سفيرًا للولايات المتحدة في جمهورية كولومبيا ثم مساعدًا لوزير الخارجية لشؤون أمريكا اللاتينية، والبروفيسور (السير) أوتو كان فروند (Kahn Freund) في القانون المقارن، وكان أستاذًا زائرًا للجامعة من موقعه كأستاذ في نفس العلم وزميل في كلية بريزنور بجامعة أكسفورد. وقد اشتهر كان- فروند فيما بعد بدوره في صياغة قوانين العلاقات العمالية التي أعدتها اللجنة الملكية لمراجعة العلاقات بين النقابات العمالية واتحادات المخدمين (1965).

أولى الخطى نحو الأمم المتحدة

قبيل إكمال دراستي للماجستير سألني البروفيسور كوفي أوليفر إن كنت أنتوي الاستمرار في الدراسة لنيل الدكتوراه من الجامعة أو أفضل الالتحاق بالإدارة القانونية بالأمم المتحدة. استغربت السؤال لأنني لم أر وقتها رابطًا بين الموضوعين. إزاء ما ظنه استغرابًا من جانبي قال لي أوليفر: "لقد اتصل بي أوسكار شاختر مدير الإدارة القانونية بالأمم المتحدة طالبًا مني ترشيح قانوني من أفريقيا لمنصب في تلك الإدارة، ففكرت فيك خاصة، وقد لمست من أوراقك البحثية اهتمامًا بالأمم المتحدة". لم أتردد في قبول اقتراحه لسببين: الأول هو رغبتي في الالتحاق بالأمم المتحدة، والثاني هو عزمي في مرحلة لاحقة على نيل الدكتوراه من فرنسا، وقدرت أن العمل في الأمم المتحدة قد يتيح لي تلك الفرصة.

لهذا ما إن حصلت على إجازة الماجستير من جامعة بنسلفانيا حتى التحقت بالإدارة القانونية بالأمم المتحدة، وكانت وقتها تضم عددًا من القانونيين الأمريكيين، وسيدة صينية، وقانونيًا من الفلبين، وأفريقيًا واحدًا هو جورج أوفوسوهاما من غانا؛ مما جعل مني الأفريقي الثاني الذي يلحق بتلك الإدارة. غمرني فرح شديد عند التحاقي بالأمم المتحدة ليس فقط لتحقيق واحدة من أمانيّ، وإنما أيضًا للقائي عددًا من السودانيين في المنظمة، وكان من بينهم أصدقاء وأقرباء. كان هناك مكي عباس (نائبًا للأمين العام وممثلًا شخصيًا للأمين العام في الكونغو)، وحمزة ميرغني (مديرًا للإدارة العامة)، بشير محمد سعيد (موظفًا بإدارة الإعلام بالمنظمة)، الرشيد عثمان خالد الذي التحق بالإدارة الاقتصادية بعد إكمال دراسته العليا في كندا، أمين عبد الصمد مساعدًا لأمين مكتبة همر شولد (مكتبة الأمم المتحدة)، كما كان في بعثة السودان بالأمم المتحدة ابن العم سر الختم السنوسي. صحبة أولئك كانت تبعث على البُشرى والمسرة، ولكن ما لم يكن يبعث على المسرة هو تقاعس حكومتنا عن تبني ترشيح مكي عباس ليصبح أمينًا عامًا للأمم المتحدة عند الرحيل المفاجئ للأمين العام السويدي، داغ همرشولد عقب انفجار الطائرة التي كان يستقلها بين الكونغو وروديسيا الشمالية (زامبيا).

من الجلي أن العالم يوم ذاك كان يأخذ الأمم المتحدة مأخذ جد؛ لهذا طلب الرئيس كينيدي من جواهر لال نهرو أن يصبح الأمين العام الخَلفَ للمنظمة بعد رحيل همرشولد. اعتذر نهرو عن قبول المنصب، ولا عجب، فالدور الذي كان يؤديه في الهند أكثر أهمية له ولبلاده ولحركة عدم الانحياز من الموقع الدولي السياسي، على أهميته. في تلك اللحظة رشحت المجموعة الآسيوية مندوب بورما "يوثانت" كخلف لهمرشولد وهو كمكي عباس، كان معلمًا في بلاده. ومما شجع ثانت والمجموعة التي تسانده على الترشيح اتفاقية الشرف (gentleman's agreement) بين الدول الكبرى على أن لا يكون الأمين العام للمنظمة من الدول الأعضاء الدائمين بمجلس الأمن: الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، الاتحاد السوفييتي، فرنسا، الصين. في الوقت نفسه قررت بريطانيا دعم مكي عباس للوظيفة أن تبنت دولته (السودان) ترشيحه، خاصة وقد كان هو الأفريقي الوحيد الذي يحتل مركزًا متقدمًا في المنظمة. لهذا السبب كلفت بريطانيا شخصًا ذا ثقة (علي حسن عبد الله) لينقل الاقتراح إلى الخرطوم إلا إن الخرطوم لاذت بالصمت عن لا أو نعم مما قاد إلى إجماع علي ترشيح ثانت. وحتى هذه اللحظة لا أدري السبب الذي دفع الخرطوم -وعلى وجه التحديد وزير الخارجية- لاتخاذ ذلك الموقف، أهي الغيرة أم الخلط بين القيم، بل ربما يكون كلاهما إذ تعرضت لاحقًا لتجربة نظيرة، كما سنروي. ودون إصدار حكم قيمي على موقف أحمد خير وزير الخارجية آنذاك، انتابني ظن بأن الأمور قد اختلطت على الرجل بين حكمه السياسي على مكي عباس إبان صراعات الحركة الوطنية وبين ترشيح مكي عباس المواطن السوداني لأهم موقع دولي بعد ست سنوات من استقلال السودان. مبعث ذلك الظن هو تشكيك أحمد خير في صدقية دعوة مكي عباس للجمهورية الاشتراكية. كتب خير في "كفاح جيل" أن عباس "نادى بالجمهورية الاشتراكية، فخرج بالجمهورية عن الملكية وغموض حزب الأمة بشأنها، وبالاشتراكية عن حنبلية الجمهوريين إطلاقًا. لكن الجماهير، وهي بفطرتها ناقد

مرهـف الإحـساس، لم تجُـز عليهـا براعـة صـاحب الرائـد، فقابلتـه بالـصمت والإهمال". إن صح تخميني فذاك وأيم الحق كـان خلطًـا بـين القـيم مـن جانـب سياسي مرهف الحس.

لم يبقَ مكي عباس طويلًا في نيويورك، إذ أصبح أول سكرتير تنفيذي للجنـة الاقتصادية للأمم المتحدة بأفريقيـا (ECA)، ووراء اختيـار مكـي عبـاس لموقعـه كأول نائب للأمين العام للأمم المتحدة من أفريقيا قصة رويناها ولا نسأم إعادتها. فعند زيارة همرشولد للخرطوم عقب إعلان الاسـتقلال التقـى بعـدد مـن كبـار رجال السياسة والخدمة العامة: عمدة الخرطوم الدكتور عبد الحليم محمـد الـذي أقام حفـلًا عـلى شرفـه في حـدائق المقـرن، ومحمـد عـثمان ياسـين، وكيـل وزارة الخارجية، ومحمد أحمد محجوب وزير الخارجية، وزعـيم المعارضـة مبـارك زروق الذي كان محجوب يحرص دومًا على اصطحابه في تلك اللقـاءات. في واحـد مـن اللقاءات أبلغ همرشولد المحجـوب برغبتـه في اختيـار زروق ليكـون أول نائـب أفريقي للأمين العـام فكـان رده مكـان دهـشة مـن جانـب الأمـين العـام. قـال المحجوب للأمين العام: "زروق يتمتع بأكثر من الصفات التـي ذكـرت لتؤهلـه لأن يكون نائبًا لك ولكن السودان يضن بـه عـلى الأمـم المتحـدة لأنـه في حاجـة لزعيم معارضة رشيد ". اتفق الأمين العام ووزير الخارجية وزعيم المعارضة عـلى ترشيح مكي عباس، ولاشك لديّ في أن قدر الرجلين قد علا أمام الأمين العـام. كما تأكد أيضًا حدس الأمين العام بأن السودانيين هم حقًّا بروسـيو أفريقيـا (the Prussians of Africa). البروسيون جيل من البشر نشأ في دول البلطيق وتمدد في منطقـة برانـدنبرج في أرض الجيرمـان حيـث أدّوا دورًا مهـمًّا في توحيـد ألمانيـا في القرنين الثامن والتاسع عشر في عهد الإمبراطور فريدريك الثـاني وصـعود أوتـو فون بسمارك إلى منصب رئيس الوزراء. وعندما يتحدث المتحـدثون عـن الـروح البروسية (Prussian Spirit) فإنما يتحدثون عن شـخص ذي ميـزات متناقـضة فهـو مـن الناحيـة الإيجابيـة شـخص منـتظم يراعـي المواعيـد وقـدير وأمـين (disciplined, punctual, competent and honest)، أما من الناحيـة الـسلبية

فهو قليل الخيال رغم اتزانه، وتلك سمة لا ينجو منها مَن تستعبده اللوائح البيروقراطية. هل هذه هي اللعنة التي حاقت بآباء الاستقلال الذين لم يُربِّهم الاستعمار إلا على أن يكونوا بيروقراطيين؟ ربما.

الأمين العام المثالي

كان داغ همرشولد سكرتيرًا عامًا لم تأتِ الأمم المتحدة حتى اليوم بنظير له، رغم محاولات السوفييت وصمه بالعمالة للاستعمار، ومساعي بعض المعلقين لاتهامه بالتستر على من هم وراء مقتل لوممبا. ففي الفترة التي سبقت صعود همرشولد إلى قمة المنظمة كان على رأسها أمين عام نرويجي: تريجفي لاي، التوت عليه الأمور منذ بدايات الصراع بين الخمسة الكبار في مجلس الأمن (الولايات المتحدة، الاتحاد السوفييتي، بريطانيا، فرنسا، الصين). ذلك الصراع كان حول عدة أمور كلها من تداعيات الحرب الباردة مما هدد المنظمة بالانهيار. من تلك التداعيات الحرب الكورية وإصرار الولايات المتحدة على بقاء ممثل حكومة الصين الوطنية ممثلًا للصين بدلًا من أن يمثلها سفير من الصين الشعبية التي فرضت سيطرتها على مجمل الأراضي الصينية باستثناء فورموزا. في تلك الأيام المضطربة أيضًا كانت المنظمة بؤرة للتجسس بين الدولتين العظميين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ولاسيما أن تلك هي الفترة التي علا فيها سلطان السناتور مكارثي الذي عرف بخوفه المرضي من الشيوعية. وعندما حُمل تريجفي لي على الاستقالة جيء برجل مجهول للعالم رغم أنه كان نائبًا لوزير خارجية السويد اسمه داغ همرشولد. وعقب انتخابه بالإجماع للمنصب، كان من أوائل قرارات همرشولد التطبيق الصارم لميثاق الأمم المتحدة الذي يُخضِع كل العاملين بالمنظمة لسلطة الأمين العام. ذلك القرار مكن الأمين العام الجديد من أن يُقصي من سكرتارية الأمم المتحدة كل العناصر التي ثبت تخابرها مع الدولتين الكبريين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي) والدول التي كانت تدور في فلكيهما، أو كان هناك شك معقول في عدم حيادها في أداء واجباتها الأممية، وبالطبع لم يثلج القرار صدري الدولتين الكبريين.

واتت همرشولد أيضًا الفرصة لإثبات براعته التفاوضية عندما قامت الـصين بأسر عدد من الطيارين الأمريكان الذين قبض عليهم خلال الحـرب الكوريـة. لم تعترض الولايات المتحدة على مبادرة همرشولد لظنها بأنه سيفشل ويضع نفسه في حرج، كما كان الاتحاد السوفيتي أيضًا غير مرتاح لإقدام الأمين العام على الـسعي للإفراج عن أسيرين أمريكيين. ولتخطي الدولتين الكبريين تجرأ همرشولد وطلب موعدًا مع رئيس الوزراء الصيني شوين لاي بوصفه أمينًـا عامًـا للأمـم المتحـدة وليس ممثلًا لمجلس الأمن، وذلك حق يكفله له الميثاق. ولعل الذي سهل من لقاء همرشولد مع حكومة الصين، على أعلى المستويات (رئيس الوزراء شـوين لاي)، أن السويد كانت هي الدولة الغربية الأولى التي اعترفت بالصين الشعبية في وقت كان فيه همرشولد نائبًا لوزير خارجيتها. نتيجة لكل هذه الاعتبارات وعد شـوين لاي الأمين العام بالإفراج القريب عن الأسرى تعبيرًا عن صـداقته مـع الـسويد ومع الأمين العام للأمم المتحدة.

حدثان آخران جديران بالذكر هما موقف همرشولد من العدوان الثلاثي على مصر، وموقفه حول الكونغـو الـذي أودى، في النهايـة، بحياتـه. فحـول حـرب السويس (أكتوبر 1956) عجز مجلس الأمـن عـن اتخـاذ قـرار بإدانـة العـدوان الثلاثي (بريطانيا، وفرنـسا، وإسرائيـل) لممارسـة دولتـين مـن أعـضائه الـدائمين (بريطانيا وفرنسا) حق النقض (فيتو). تفاديًا لتداعيات الموقـف اقـترح المنـدوب الكندي لستر بيرسون تكوين قـوة لحفـظ الـسلام تابعـة للأمـم المتحـدة وتبنـي همرشولد الاقتراح إلا إنه اعترض على مشاركة فرنـسا وبريطانيـا في تلـك القـوة باعتبارهما دولتين معتديتين مما أغضب عليه الدولتان، وعلى كل أصبح همرشـولد باتخاذه ذلك القرار هو أول مَن وضع الأسس التي تتدخل بموجبها الأمم المتحدة لحفظ السلام. في الوقت نفسه قامت دولـة كـبرى أخـرى (الاتحـاد الـسوفييتي) بتهديد السلام الدولي باحتلالها للمجر، إلا إن القمع السريع الذي قام به الجـيش الأحمر لتلك الثورة لم يترك مجالًا للأمم المتحدة للتدخل.

أمّا دور همرشولد في الكونغو فقد أثار لغطًا كبيرًا، وسال حوله مداد تدفق ماؤه وجاش بحره. ومما لا شك فيه إن صعود لوممبا للحكم أقض مضاجع بلجيكا والدول الغربية: بلجيكا لأنها كانت تحسب نفسها مالكًا حصريًّا للكونغو، خاصة أن الكونغو في بداية استعمارها لم تكن مستعمرة تابعة لبلجيكا وإنما كانت أرضًا مملوكة ملك عين لأميرها ألبرت؛ أما الدول الغربية الكبرى (الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا) فقد رأت في مغازلة لوممبا للاتحاد السوفييتي بادرة سيئة. لهذا كان همرشولد يسير في رمال متحركة، أو بالأحرى يمشي فوق حبل مشدود. بدأت الدول الغربية الكبرى في حياكة مؤامرات تهدف كلها إلى القضاء على لوممبا وليس فقط إزاحته من الحكم. في ذلك الجو الملبد بالغيوم كان همرشولد يتأرجح في المواقف: موقفه في الاعتراف بلوممبا والتعاون معه بحسبانه حاكمًا شرعيًّا تسلم السلطة باختيار شعبه، ومداهنة تشومبي الذي أنشق عن لوممبا ووقفت معه كل القوى الغربية لا حبًّا في زرقة عينيه (أو حمرتها لا أدري) وإنما لأنها تحتوي على كنوز من المعادن لا تفني ومالكها الوحيد ليس هو شعب الكونغو بل شركة المعادن البلجيكية (Union Miniere).

قرر همرشولد، للمرة الأولى في تاريخ الأمم المتحدة، وضع قوات لحفظ السلام في الكونغو وكاتنقا وذلك أمر رفضته الدول الغربية فعليًّا برفضها إمداد هذه القوة بدعم لوجستي، في حين اعترض الإتحاد السوفيتي على الفكرة نفسها. إزاء تمنع الدولتين الكبريين عن دعم أي تدخل للأمم المتحدة في الكونغو، أقنع همرشولد بلده السويد بتوفير الدعم اللازم للقوة الأممية وصحب بنفسه تلك القوة إلى كاتنقا. في الوقت نفسه ناشد همرشولد كوامي نيكروما بإمداد الأمم المتحدة بقوات أفريقية يقودها أفريقي. وقبيل تكوين تلك القوة أقنع همرشولد دولتين من الشمال: السويد وأيرلندا، كما أقنع من دول العالم الثالث الهند وأثيوبيا للمشاركة في تلك القوة. وقد توالى على قيادة هذه القوة التي تجاوز همرشولد في تكوينها مجلس الأمن قائد سويدي، ثم قائد أثيوبي (الجنرال كبيدي قبري) ومن بعد جنرال نيجيري (الجنرال أقويما إيرونسي) وهو العسكري الذي قاد من بعد أول انقلاب عسكري في نيجيريا. وقد قرر همرشولد اصطحاب الطليعة من تلك

القوات إلى الكونغو، ولكن عند بلوغ تلك الطليعة أجواء كاتنقا، وهي تنقل جنودًا من السويد وايرلندا والهند طلب قائد الطائرة إذنًا بالهبوط لأربع طائرات (طائرة الأمين العام وثلاث أخريات كن يحملن القوة المصاحبة). فجاء الرد بالموافقة على هبوط طائرة الأمين العام وحدها. لهذا هدد همرشولد بالعودة أدراجه وإعلان الأمر على الجمعية العامة للأمم المتحدة مما جعل تشومبي يرضخ للأمر ويسمح للطائرات الأربع بالهبوط. مبادرة الأمين العام تلك قوبلت بالرفض من جانب الكتلة الشرقية؛ لأنها تمت دون إذن من مجلس الأمن وسكتت عنها أمريكا وبريطانيا في حين اعترضت عليها جنوب أفريقيا وفرنسا ودول شرق أوروبا.

ذلك الحدث دارت فيه -وما زالت تدور- أقاويل كثيرة حول موت همرشولد. على رأسها اتهام مخابرات إحدى الدول الغربية بالعمل على التخلص منه بسبب إصراره على التحقيق في مقتل لوممبا. فقبل عامين (2011)، مثلًا، أعادت الكاتبة سوزان وليامز في كتاب صدر تحت عنوان "مَن قتل همرشولد؟" النظر في نتائج التحقيق الذي قامت به الأمم المتحدة وأثارت حوله غير قليل من الشك. التقرير المعنى هو تقرير عن الرحلة الثانية التي قام بها همرشولد في طريقه من الكنغو إلى روربسيا الشمالية (زامبيا). ذلك التقرير أغفل شهادة لمواطن زامبي روى فيها أن طائرة صغيرة كانت تطير على مقربة من طائرة الأمين العام أطلقت أعيرة نارية على طائرته فتحولت إلى كتلة من اللهب وأخذت تتهاوى إلى الأرض. تلك المعلومات دفعت صحيفة الجارديان البريطانية في أغسطس 2011 للمطالبة بتحقيق جديد، وقد أثار مقال القارديان وكتاب ويليامز اهتمامًا بالأمر، خاصة بين القانونيين والمهتمين بالموضوع في بلاد الشمال. ففي البدء أنشئت لجنة من خبراء مرموقين لتقييم الحقائق الجديدة التي أثارت شكوك الصحيفة والكاتبة. تلك اللجنة ضمت من الأعضاء اللورد العمالي ليا أوف كروندال، النيجيري إيميكا إنياوكو السكرتير العام للكومنولث، وكارل جوستاف هامر كبير أساقفة السويد. وتبع تقرير أولئك الخبراء تكوين لجنة تحقيق جديدة لمراجعة الأمر بما في ذلك

استنطاق الشهود الذين تجاوز تحقيق الأمم المتحدة شهاداتهم... وقد رأت لجنة التحقيق أن في الأدلة المقدمة ما يوجب النظر فيها حتى تنقض بدليل. تلك اللجنة ترأسها قاضي محكمة الاستئناف البريطانية السير ستيفن سيدلي، والقانوني رتشارد غلادستون من جنوب أفريقيا، والسفير السويدي بالأمم المتحدة هانس كوريل والقاضية الهولندية ويلهيلمينا توماسين. طالب أيضًا بإعادة التحقيق في مقتل الأمين العام ابن أخيه كنوت همرشولد.

نجاح همرشولد في تأكيد استقلال الأمين العام، واستقواؤه بالجمعية العامة أكثر من مجلس الأمن، دفعا خروتشوف في عام (1960) للمطالبة بالحد من سلطات الأمين العام واستبدال الوظيفة بثلاثي (ترويكا) يضم ممثلًا للكتلة الغربية، وممثلًا للكتلة الشرقية، وممثلًا لدول العالم الثالث. وعند طرح اقتراحه على الجمعية العامة قال خروتشوف الذي كان يشارك في اجتماعاتها: "إن الأمين العام لا يملك الشجاعة على أن يستقيل". على ذلك رد همرشولد بالقول: "ليس الاتحاد السوفييتي ولا أي من الدول العظمى في حاجة للأمم المتحدة، الذين في حاجة إليها هم بجميع الدول الأخرى". ثم ذهب للقول: "على هذه الدول اعتبار المنظمة منظمتهم في المقام الأول. وسأبقى في موقعي في الأمم المتحدة لما تبقى لي من زمن خادمًا لتلك الدول ما داموا يريدون مني ذلك". ختم الأمين العام قوله بأنه " من السهل جدًا أن ينحني المرء أمام رغبات قوة عظمى، ولكنه أمر آخر أن يصمد في وجهها". في تلك اللحظة بدأ خروتشوف ووزير خارجيته أندري قروميكو في الضرب بحذاءيهما على المنضدة لإغراق التصفيق الحاد الذي قوبل به خطاب همرشولد. تصرف خروتشوف كان تصرف فلاح فج وهو تصرف لم تكن له سابقة في المنابر الدولية ولم تتبعه لاحقة، ولكن ما بال مستشاره الدبلوماسي قروميكو الخبير بآداب الدبلوماسية ينقاد لرئيسه الفج؟

•

أيًا كان الأمر، لم يعش همرشولد طويلًا بعد انتصاره التاريخي في الجمعية العامة بل صُرع لتحقيقه انتصارات لم ترضِ الشرق والغرب.

انفتاح على السياسة الدولية

الكونغو

قبيل التحاقي بالإدارة القانونية بالأمانة العامة للأمم المتحدة أصبحت قضية الكونغو القضية الأولى للأمم المتحدة خاصة بعد تراضي مجلس الأمن في الثاني عشر من يوليو 1960 على إنشاء قوة لحفظ السلام في الكونغو. وبعد يومين من ذلك القرار أصدر المجلس، باقتراح من همرشولد، قرارًا آخر يطالب فيه بلجيكا بسحب قواتها من الكونغو. ذلك القرار أيدته ثمانٍ من الدول بمن فيهم الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. وعند تكوينه لتلك القوة حرص همرشولد على أن يكون قوام القوة من دول محايدة أو بعيدة عن الصراع. لهذا ضمت القوة تسع كتائب من السويد إلى جانب فرق من الهند، وأيرلندا، وكندا، وأثيوبيا، وغانا، والسودان. وكان على رأس القوة السودانية أحمد حسن العطا. رغم ذلك لم تنتهِ أزمة همرشولد مع الاتحاد السوفيتي عند اغتيال لوممبا الذي كان من ورائه بلجيكا والولايات المتحدة. وقد تضافرت الأدلة على صحة اتهام الولايات المتحدة بمقتل لوممبا، بل أكدته فيما بعد التحقيقات التي قادها في مجلس الشيوخ الأمريكي السيناتور شيرش. تلك الأزمة لم تخمد إلا بعد رحيل همرشولد.

كان من الطبيعي أن تكون على رأس واجباتي في الإدارة القانونية مع زميلي الأفريقي الآخر جورج أوفوسوهاما، متابعة الجوانب القانونية في أحداث الكونغو وانعكاساتها عندما ولي الأمر في سكرتارية الأمم المتحدة الدبلوماسي البورمي يوثانت. وكان على رأس ما كلف به الأمين العام الإدارة القانونية متابعة القضايا المرتبطة بشركة المعادن البلجيكية (Union Minieres) وهي الشركة التي كانت تسيطر على كل شيء في الكونغو. ولئن سئلت عن أهم درس تعلمته خلال تناولي ذلك الموضوع لقلت هو الحرص على التثبت من أي شيء أقول أو أسجل، واصطحاب كل ادعاء بحجة فاصلة، وكل زعم ببرهان. فالرأي مهما كانت درجة

خطئه وصوابه هو رأي يحتمل أن يكون هذا أو ذاك و"من الخواطئ سهم صائب" كما يقول المثل. أما الحقائق فلا تعبر إلا عن أمر صح وقوعه. أذكر مثلًا، إعدادي تقريرًا للمستر شاختر (مدير الدائرة القانونية) لرفعه للأمين العام أوردت فيه وقائع لم أتثبت منها حول مناشط الشركة البلجيكية. بسبب ذلك الإهمال -أو بالأحرى عدم التثبت من الحقائق- تعرض الأمين العام الجديد: يو ثانت لنقد حاد من السفير البلجيكي لم يملك معه يوثانت إلا الاعتذار. لم يذهب ثانت مذهب بعض الرؤساء الذين خبرت من بعد، فهؤلاء كانوا دومًا سعداء بأن ينسبوا لأنفسهم أيّ عمل ناجح يحققه مرؤوسوهم، أما مَن يخطئ منهم فلأمه الهَبَل. تصرف ثانت كما يتصرف معلم عندما أبلغ مدير الإدارة بما حدث وأضاف "قل لمن أعد هذه المذكرة من موظفيك إنني أنسب لنفسي كل عمل ناجح ينجزه أي من مرؤوسي كما أن أي خطأ يرتكبه أحد مرؤوسي هو في رأي العالم خطأي وحدي. لهذا على موظفيك أن يدركوا أن أخطاءهم هي مجرد أخطاء، أما خطأ الأمين العام فهو خطأ فادح".

"Their mistakes are mistakes, but the mistake of the Secretary General is a blunder"

• لاوس

كلفت أيضًا مع زميل فلبيني بمتابعة أحداث لاوس التي كانت امتدادًا لصراع الشرق والغرب في القارة الآسيوية. ويدعو للحيرة إن ذلك الصراع كان صراعًا بين إخوة أعداء في حين كانوا في الواقع إخوة بالدم: الأمير سوفانا فوما والأمير سوفانا فونق. واحد من الأخوين كان يناصر التيار اليساري (باثيت لاو) والآخر التيار اليميني الملكي. لهذا كان شعار الأميرين عند الصراع فيما بينهما هو **"صوت لليمين وصوت لليسار لتفادي الحرب الأهلية"**: يا للشطارة. في كلا الحالتين لم يكن الصراع بين الأميرين صراعًا محليًّا بقدر ما كان امتدادًا للحرب الباردة إذ ظل أحد الفريقين يستقوي بالاتحاد السوفيتي والصين وفيتنام

الديمقراطية، في حين استند الآخر على الولايات المتحدة واتخذ من مملكتي تايلاند وفيتنام مرتكزين خلفيين لحروبه. وإلى حين انتهاء حرب فيتنام وانتصار هوشيه منه كان نزاع لاوس محل تفاوض في جنيف ترعاه الدولتان المنظمتان للمؤتمر (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) في حين اقتصر دور الأمم المتحدة فيه على تسهيل (Facilitation) التفاوض. لهذا السبب ظل يوثانت يولي اهتمامًا كبيرًا لذلك النزاع ويحرص على أن تقوم الإدارة القانونية بتحليل أي بيان صادر من الطرفين بدقة شديدة من أجل الوصول إلى ما كان يسميه الأمين العام التعرف على الرسالة (Identifying the message) في ذلك البيان. كنت مع زميلي الفلبيني لا نجد رسالة في بيانات الباثيت لاو التي كانت تبدأ بلعنة الاستعمار الجديد، وتختم بحتمية فناء الرأسمالية (الشائخة). ولعلني كنت وأنا أقرأ وأعيد القراءة في تلك البيانات حبيبًا لبيانات إخوتنا اليساريين في السودان التي كانت تحفل بمثل هذا اللغو. في كثير من الأحيان كانت مذكرتنا التحليلية تعود إلينا من رئيسنا المباشر وعليها إشارات بالخط الأحمر على سطر أو سطرين تقول هذه هي الرسالة (This is the message). وفي إحدى المرات لم تكن الرسالة أكثر من القول (إننا موقنون بنهاية الاستعمار الجديد عبر نضالنا المستميت ضده ولكننا سنستمر بالحوار مع أعداء شعبنا ومَن هم وراءهم). ذلك درس تعلمت منه أنه حتى سقط الكلام في الرسائل الدبلوماسية قد يكون غطاء لرسالة يريد صاحبها أن يبلغها لخصمه.

لثقة الطرفين فيه استمر الأمين العام ثانت في القيام بذلك الدور، ولكن كاد دوره ينتهي عقب تصريح غاضب له أدان فيه القصف الذي كانت تقوم به القوات الأمريكية ضد الباثيت لاو، وألحق في كثير من الأحيان أذى بليغًا بالمواطنين بسبب براعة الباثيت لاو في التخفي. تصريح ثانت أرضى الاتحاد السوفييتي والدول الأفريقية والآسيوية، ولكنه اغضب الولايات المتحدة غضبًا حملها على إصدار بيان يشجب تعليق الأمين العام ويهدد بإيقاف دور الأمم المتحدة في تلك القضية رغم هامشيته، ولكن نتيجة لحرص أغلب الدول

الأعضاء، ومن بينها دول الشمال في أوروبا على استمرار الأمم المتحدة في الدور الذي كانت تقوم به لتسهيل التفاوض بين طرفي النزاع في لاوس؛ استمرت الأمم المتحدة تؤدي دورها لمساعدة طرفي النزاع عبر التفاوض حتى أسفر الحوار عن الاتفاقية الدولية حول حياد لاوس التي وقعت عليها في 23 يوليو 1962 كلٌّ من بورما، وكمبوديا، وكندا، والصين الشعبية، وجمهورية فيتنام، والاتحاد السوفيتي، وتايلاند، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة. تلك الاتفاقية أكدت حياد لاوس ولكن سرعان ما خرقت عند تحالف البائيت لاو مع فيتنام الديمقراطية لإنشاء ما عرف بممر هوشيه منه الذي يعبر كل لاوس. حروب لاوس لم تنتهِ إلا بعد الاتفاق الأمريكي الفيتنامي الذي وقعه في السابع والعشرين من يناير 1973 هنري كيسنجر عن الولايات المتحدة، ولو دوك تو عن جانب فيتنام الشمالية.

الفضاء الخارجي

ثمة موضوع جديد بدأ يشغل الدول وساستها؛ ولهذا أصبح محل اهتمام الإدارة القانونية ألا وهو قانون الفضاء الذي كان يشرف عليه بشكل مباشر مدير الدائرة أوسكار شاختر، واختارني إلى جانب القانونية الأمريكية ذات الأصل الصيني، المس شين من بين الفريق الذي كان يتابع الملف تحت قيادته. وحتى ذلك التاريخ كان القانونيون يطبقون نظرية رومانية تقول إن سيادة الدول لا تقف عند الأرض التي تحتلها، بل تمتد إلى كل ما فوقها حتى الفردوس وما تحتها حتى الجحيم (up to heaven and down to hell). ذلك المبدأ تبنته في عام 1648 اتفاقيات سلام ويستفاليا بين الإمبراطور الروماني المقدس من ناحية، وفرنسا وحلفائها، من ناحية أخرى. اعترف أيضًا بذلك المبدأ القانون العام الانجليزي وضمنه بلاكستون في تعليقاته حول قوانين انجلترا (Commentaries on the Laws of England). من ناحية أخرى، لم تعترض على ذلك العرف الدولي السائد أي دولة من الدول التي أقرت اتفاقية مونتفيديو 1933 حول سيادة

الدول؛ ولهذا يصح القول إن الدول الموقعة على اتفاقية مونتفيديو قد أقرت الأعراف السائدة (Customary Laws) آنذاك بدلًا من نقضها.

مبدأ السيادة المطلقة للدول على الفضاء الخارجي الذي يعلو أرضها تعرض لتطور مهم بعد نمو الطيران العابر للأقطار واقتضائه مراجعة القوانين الضابطة لاستخدام ذلك الفضاء. تلك المراجعة تمت في اتفاقية باريس 1919 حول تنظيم الملاحة الجوية واتفاقية شيكاغو حول الموضوع نفسه، حيث أقرت الاتفاقيتان حقوقًا فعلية (de facto) للدول التي تستخدم طائراتها سموات دول أخرى لأغراض الطيران دون أن يتبع ذلك منحها حقًّا قانونيًّا (de jure) في ملكيتها. ولكن ما إن أخذت الدول الكبرى تقتحم الفضاء الخارجي لاستكشاف ما فيه وما حوله أدرك العالم أن المفهوم الروماني للفضاء أصبح مفهومًا عفا عليه الزمن. هذا الإدراك قاد الدولتين الكبريين يومها (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) إلى الاتفاق في عام 1959 على إنشاء لجنة للأمم المتحدة تعنى بأمر الاستخدام السلمي للفضاء الخارجي (Committee on Peaceful Uses of Outer space)، خاصة بعد إطلاق الاتحاد السوفيتي للقمر المصنوع سبوتنيك (Sputnik) وهبوط الأمريكان في القمر.

من ذلك التاريخ صار موضوع الفضاء الخارجي واحدًا من أهم -إن لم يكن أهم- القضايا السياسية التي عنيت بها الأمم المتحدة، وبوجه خاص الإدارتان السياسية والقانونية في السكرتارية العامة للمنظمة. وحتى عقد الثمانينيات في القرن الماضي صدرت قرابة عشر اتفاقيات أو عهود دولية بعد جدل متطاول في اللجنتين الأولى (السياسية) والسادسة (القانونية) في الجمعية العامة كما في الجمعية نفسها. هذه الاتفاقيات شملت الاتفاقية حول تحريم تجريب الأسلحة النووية في الجو والفضاء الخارجي وتحت قاع البحار (1963)، واتفاقية الفضاء الخارجي (Outer Space Treaty,1967) التي وضعت القواعد والضوابط لاستخدام الدول للفضاء الخارجي، واتفاقية إنقاذ وحماية وإعادة ملاحي الفضاء الخارجي وسفنهم (1968)، واتفاقية المسؤولية والتعويض عن الخسائر الناجمة عن سقوط

الأجسام الطائرة، واتفاقية تسجيل الأجسام المطلقة في الفضاء الخارجي (1975)، وأخيرًا الاتفاقية حول الأنشطة التي تقوم بها الدول في القمر والأجرام السماوية (1979). تبعت هذه الاتفاقيات اتفاقيات أخرى صدرت نتيجة لضغوط دول العالم الثالث حتى تجني نصيبها من ثورة قوانين الفضاء، ومثال ذلك "إعلان التعاون الدولي حول استخدام الفضاء الخارجي بواسطة كل الدول مع مراعاة احتياجات الدول النامية".

خارج الإدارة القانونية

خارج الإدارة القانونية استفدت كثيرًا من وجودي في الأمم المتحدة، خاصة أن المنظمة في ذلك الزمان كانت محط أنظار العالم، للتعرف بصورة مباشرة أو غير مباشرة لبعض صناع القرار في العالم، كنت مثلًا، أسترق بعض الوقت أثناء اجتماعات الجمعية العامة أو مجلس الأمن لحضور جلساتها حتى أتعلم من رجال كانت معرفتي بهم سماعية مثل كريشنا مينون الهندي، وظفر الله خان الباكستاني، وأدلاي ستيفنسون الأمريكي. كما كان في بعثة السودان بالأمم المتحدة أحباء على رأسهم سر الختم السنوسي الذي كانت داره ناديًا للدبلوماسيين العرب، كبارهم وصغارهم. كان السنوسي يدعوني دومًا إما لصحبته إلى داره، أو الاجتماع مع صحبه في بهو الدبلوماسيين بالمنظمة. بفضل ذلك تعرفت على رجال ذوي شأن، أو أصبح لهم شأن في بلادهم: عمر لطفي ممثل مصر في المنظمة الذي اختاره يو ثانت فيما بعد نائبًا له للشئون السياسية، وحسان مريود من سوريا وقد صار عضوًا في مجلس رأس الدولة في وطنه، وعدنان الباجهجي العراقي الذي ارتحل إلى دولة الإمارات المتحدة بعد إنشائها وأصبح مستشارًا لرئيسها وأول وزير خارجية لها، عبد الحميد شرف الذي صار رئيسًا لوزراء الأردن وارتحل في ميعة شبابه، وممثل الأردن الشاعر عبد المنعم الرفاعي وهو أول مَن قرأ خطابًا منظومًا أمام الجمعية العامة؛ إذ آثر أن يكون خطابه في الاحتفاء باستقلال الجزائر في الجلسة الخاصة التي أفردت لتلك المناسبة قصيدة عصماء.

كم تمنيت من الله أن يعيش ابن العم سر الختم السنوسي ليقرأ هـذا الكتـاب، ففي صفحاته الكثير الذي رويت عنه. وعندما شاء الله أن يرحل عنا قبل أن يـرى الكتاب النور بعـث الـسنوسي إلى الخـال أمـير الـصاوي بقـصاصات منـه طالبًـا تقديمها لي. كان ذلك في حفل غذاء أقامه الخال لاستقبالي عندما عدت إلى الديار في عام 2005. ذلك الحفل ضم أحبابًا لي أخـذوا يغـادرون الفانيـة واحـدًا بعـد الآخر: صديق أحمد إسماعيل، ومحمد إبراهيم نقد، وخلـف الله الرشـيد، وأحمـد عبد العزيز. في القصاصات التي تركها لي السنوسي عزاء للنفس، كـما فيهـا أسـى على ما حاق بالوطن. لهذا تذكرت عند قراءتها مـا قالـه لي الحبيـب صـديق أحمـد إسماعيل عندما سألته حال وصولي البلاد عن حال الوطن الحبيـب. قـال لي وهـو يبتسم في سخرية: "**لما جو الجماعة دول قالوا إنهم سيعيدون صياغة الإنـسان وأنـا أول من أعادوا صياغة حياته**" ثم مضى للقول: "هل تعرف أنني أفيـق مـن النـوم عند الصباح ثم أذهب للمستشفى لأعود منه إلى الدار لأتغدى وأتمطى ثم أصحو من بعد لأذهب للعيادة ومتى ما فرغت منها عدت لـداري لأتعـشى ودون تمـشٍّ أتغطى من جديد. **الـصحاب تفرقـوا، وليـالي الأنـس اختفـت، ومجـالس الجـدل والنقاش باد أهلها**". قلت لنفسي: "تبًّا لها من بلد تكره عاشـقيها وتحمـل محبيهـا الذين ملؤوا الدنيا وشغلوا الناس على الانزواء".

لهذا عندما أعدت قراءة وريقات السنوسي قلت يا لهذا من عزاء للنفس. ففي واحدة من هذه الوريقات سجل السنوسي ما جادت به قريحة الـشاعر الأندلـسي أبـو إسـحاق بـن خفاجـة عنـد سـقوط بلنـسية في يـد القـشتاليين (Castillas) النصارى:

عَاثَـتْ بِـسَاحَتِك العِـدَا يَـا دَارُ ... وَمحَـا محاسـنَك الـبِلى والنَّـارُ

فَـإِذَا تَـرَدَّدَ في جَنَابِـكَ نَـاظِرٌ ... طَـال اعْتِبَـارٌ فِيْـك وَاسْـتِعْبَارُ

أَرْضٌ تَقَاذَفَـتِ الخطُـوْبُ بِأَهْلِهَـا ... وَتَمَخَّـضَتْ بِخَرابِهَـا الأقـدارُ

كَتَبَـتْ يَـدُ الحـدَثَانِ في عَرَصَـاتِهَا ... لَا أَنْـت أنْـت وَلَا الـدِّيَارُ دِيَـارُ

تلك كانت أنات محزون على وطن غابت معالمه عن ناظريه، ولم تبق منها غير أطلال تلوح "كباقي الوشم في ظاهر اليد". أما القصاصة الثانية فقد تضمنت أربع أبيات من قصيدة النابغة الجعدي وهو من شعراء فجر الإسلام، وكانت له في الرسول أماديح جياد. قال النابغة:

المرء يرغب في الحيا ة وطول عيش قد يضره

تفنى بشاشته ويبـ ـقى بعد حلو العيش مره

وتسوؤه الأيام حتى ما يرى شيئًا يسره

كم شامت بي أن هلكـ ـت وقائل لله دره

رحم الله السنوسي الذي عبر بها نقل من شعر عن محنة جيل كامل. أقول هذا وأنا لست من الشامتين على ابن العم، بل أنا على رأس من يقول "لله دره".

أحمد خير وخصائصه المزاجية

خلال وجودي بالأمم المتحدة أتيحت لي فرصة ذهبية للتعرف عن كثب على أحمد خير وزير الخارجية، من بعد أن خبرت وأعجبت بأحمد خير القانوني وأحمد خير المحلل السياسي. كثيرون يصفون أحمد خير بأنه رجل مَزاج والرجل المزاج هو غريب الأطوار، ومن التجارب التي مررت بها مع الأستاذ خير في نيويورك ما يؤكد ذلك. دعاني، مثلًا، أحمد خير لصحبته حيث يقيم لتناول العشاء، وكان خير يصر درمًا على النزول في دار السفير طوال إقامته في نيويورك حتى لا يكلف الخزينة العامة رهقًا، وما كان يعنيه أنه بذلك يكلف السفير بأكثر مما يطيق. صحبت أحمد خير إلى دار السفير، وأخذت أقرع جرس الباب دون استجابة من داخل الدار. وبكلتا يديه قرع الوزير على الباب، أيضًا دون استجابة من الداخل. فما كان من الوزير إلا إن ألقى بما يحمل من أوراق على الأرض وجلس عليها. أدهشني الموقف فقلت للأستاذ هنالك مطعم قريب على بعد "فركة كعب" من العمارة، فلماذا لا نذهب لتناول العشاء ريثما يعود السفير . فرد على بأن ننتظر حتى

"نشوف آخرتها". استيقنت لحظتئذٍ أن الأستاذ لم يكن معنيًّا بالعشاء الذي دعاني لتناوله، وإنما تملكته رغبة عارمة في إحراج السفير. الكثير من أصحاب خير يصفونه بالرجل غريب الأطوار (eccentric) ولكنني لم أظن أبدًا أن تلك الخلة قد تدفع بالرجل إلى أن يعاقب نفسه لكي يُحرج آخر.

التجربة الثانية كانت عند لقائي إياه في بهو الدبلوماسيين، وكان إلى جانبه دبلوماسي تبين لي أنه المستر جورج بول وكيل وزارة الخارجية الأمريكية والذي انتدب آنذاك لشغل منصب المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة، أدلاي ستيفستون الذي أصيب بذبحة صدرية خلال زيارته للندن. بعد تحية الأستاذ وضيفه استأذنتهما للابتعاد عنهما، إذ حسبت أن الرجلين كانا بصدد حديث مهم عن أمور الدولة إلا أن خيرًا قال لي آمرًا باللغة الانجليزية: "sit down" أي اجلس، فجلست. كانت الأمم المتحدة آنذاك مهمومة بقضية الأسلحة النووية السوفيتية التي نُصبت في كوبا، ولم أجد غرابة في أن يكون ذلك الحدث مكان نقاش بين الرجلين. وبعد حوار قصير حول الموقف وتبيان المستر بول لموقف حكومته قال الأستاذ: "لماذا تِشغلوننا عن الاهتمام بقضايانا في الأمم المتحدة، أليس في مقدوركم تفجير هذه القاعدة النووية؟" لم يدر بخلد خير بأنه لو حدث ذلك فربما لم أعش لأدون هذه الشذرات؛ لأن ذلك التفجير كان سيقود إلى قيام أول حرب نووية شاملة. أصيب بول بدهشة وقال لخير:"إن فعلنا هذا فماذا سيكون موقفكم؟" أجاب خير "سنلعنكم شر لعنة، وسأكون على رأس اللاعنين". سألت خيرًا فيما بعد: "أولا ترى تناقضًا في حديثك؟" قال: "أبدًا، كل زول بعمل البقدر عليه".

فترة قاتمة وواعدة أيضًا

في تلك الفترة الأولى التي قضيتها في الولايات المتحدة كانت تلك البلاد تعيش أكثر فترات تاريخها السياسية والاجتماعية المعاصرة قتامة، كما كانت من - جانب آخر - من أكثرها وعدًا بالتحولات. خرجت من السودان وعقلي

ووجداني مشحونان بثقافة استعلائية غُرست فيَّ منذ الصغر، حيث رُبيت على أني خيار من خيار، وعلى أنني من "أمة أصلها للعرب، دينها خير دين يحب". وكان ذلك التلقين يتم بأسلوب أوقع في روعي أن الذين لا ينتمون لهذا الأصل أو يرتبطون بذلك الدين هم طائفة أدنى من البشر حتى، وإن كان من بينهم مَن اكتشف البنسلين، أو اخترع الأنسولين، أو أماط اللثام عن النظرية النسبية في الفيزياء. لا غضاضة في أن يفخر المرء بعشيرته التي تؤويه، أو بأصوله التي انحدر منها، وذلك أمر ما فتئت أفعل. غير أن الأمر يصبح خَبَلًا وفساد عقل عندما يستبد الظن بأحد أن أصله أو دينه يلغيان أصولًا أو ديانات أخرى، أو يكسبان المرء تمايزًا على الآخر المغاير، كان الآخر شريكه في الأرض أو نسيبه في الإنسانية. لم يبدُ لي ما في التمييز بين الناس على أساس أعراقهم أو ألوانهم من رهافة عقل إلا من خلال معايشتي أو مشاهدتي لتجارب في أمريكا الستينيات يكاد يكون لكل واحد منها نظير في بلادي ظللنا نداريه بضروب من الحيل وأطياف من الأخفية. ذلك التمييز الخفي - أو بالحري الذي يجبن الناس عن إجهاره - كان يمارسه فيما بينهم أغلب أهلنا في الشمال (وما زال بعضهم) حتى بين بعضهم البعض، عربًا كانوا أم زنجًا أم نوبًا. وكان ذلك التمايز بين الأقوام يؤسس دومًا على رفعة موهومة في الأنساب، أو فضل مزعوم في الشمائل.

لفتت نظري في تجربتي الأمريكية الأولى ظاهرتان: الأولى هي العنصرية التي لا تستحي من نفسها، خاصة في الولايات الجنوبية بما فيها واشنطن العاصمة. أهل تلك المناطق بلغوا من الجلافة حدًّا جعلهم لا يميزون بين النابه والخامل بالعلم أو نبل الطباع، وإنما بالعِرق واللون، ومن معاني الجلافة الغلظة والجفاء. أما الثانية فهي ظاهرة شهدت في الجامعات الأمريكية التي اختلفت إليها، ولكن لم أعرف لها نظيرًا في بلادي: تنظيمات الطلاب والأساتذة البيض التي أوجبت على نفسها محاربة ذلك التمييز السخيف بين الناس بالكتابة والمحاضرات والمشاركة في مظاهرات مَن كانوا يسمونهم حتى ذلك الوقت بالزنوج (negros)، وواحدها الزنجي. ذلك وصف أطلقه علماء السلالات على جيل انحدر من القبائل

الأفريقية التي عرفت بسواد البشرة، وغلظة الشفاه، وجُعودة الشعر، وفطسة الأنف. أما في أمريكا فقد صار ذلك الوصف ملازمًا لكل من انحدر من تلك الأصول حتى بعد أن اختلطت دماء أجداده وآبائه بدماء آخرين من البيض والسمر غَيبت الصفات الجسمانية لمن وصفوا بالزنوج.

يذكرني هذا بنادرة تستحق أن تروى تتعلق بضابطين من جيشنا الوطني، شمالي هو سعود أحمد حسون وجنوبي هو جون قرنق. كان الضابطان يتلقيان الدراسة في إحدى الكليات العسكرية بالولايات المتحدة وعند انتهاء دورتهما التدريبية أقام قائد الكلية حفل وداع للمتخرجين. اصطف الخريجون أمام مقر الحفل ليدعوهم ضابط التشريفات حسب القارات التي جاؤوا منها حتى يتخذ كل واحد منهم المكان الذي حدد له. نادى ضابط التشريفات على الخريجين حسب القارات التي جاؤوا منها: نادى آسيا فهرع الآسيويون من الهند وباكستان والفلبين، ثم نادى على أمريكا الجنوبية فاندفع خريجو البرازيل وتشيلي، ثم نادى على أفريقيا فخف النيجيريون والغانيون. وعند استقرار الكل في مقاعدهم بقي ضابطان يقفان في حيرة هما سعود وجون؛ فبادر ضابط التشريفات بسؤال الضابط الأعلى منهما رتبة بالسؤال: من أين أنت؟ فرد: "أنا من السودان". ثم وجه السؤال نفسه إلى قرنق فرد بالرد نفسه. هنا صرخ ضابط التشريفات قائلًا "أولم تسمعاني أقول أفريقيا". بدلًا من الرد على ضابط التشريفات اتجه سعود إلى قرنق مؤنبًا. "يا ضابط ليه ما نبهتني". ذلك سؤال رد عليه قرنق بخبث بليغ: "أنا سمعت ولكن كنت في انتظار رد ضابطي الأعلى حتى أتبعه". تُرى ما الذي زرعناه في عقولنا حتى لم نعد نميز بين الناس إلا بالعرق، أو ندرك أن في العالم خمس قارات، لا ستًّا، إذ تملك بعضنا يقين أن في العالم قارة تُسَمَّى "القارة العربية".

ثمة حقيقتان تفضحان التناقض الكامل في عقول بعض أهلنا في الشمال وكلتاهما ذات صلة بالكوميديا التي كان حسون وقرنق بطليها. القصة الأولى تتعلق بزميل للعسكريين السودانيين هو النيجيري بيتر أدوم كاي، وقد أصبح

ذلك العسكري عضوًا في مجلس الثورة التي أطاحت بحكومة نيجيريا المدنية. **ظل** بيتر طوال الفترة المتبقية للمبعوثين يقول لزميليه السودانيين كلما أقبلا على الجلوس معهم في غرفة الطعام: **"آسف هذا المكان محجوز للأفارقة"**، وكان **يردد** هذا حتى وإن كان من بين الجالسين معه آسيويون ولاتينيون من جنوب أمريكا. ومن الواضح لم يرد بيتر بقوله ذلك غير السخرية. الحدث الثاني وقع عقب الزيارة التي قام بها المناضل الأمريكي – الأفريقي ملكوم إكس للمملكة العربية السعودية بعد مشاركته في أحد مؤتمرات القمة لمنظمة الوحدة الأفريقية في أديس أبابا. توجه مالكوم عقب زيارته لأديس إلى المملكة العربية السعودية فاحتفى به جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز وأحسن وفادته. في ذلك اللقاء طلب مالكوم إكس من جلالة الملك إيفاد عالم مسلم ليعلم الأمريكان "السود" أصول الدين الإسلامي فوقع اختيار الملك على عالم سوداني كان على صلة بجلالة الملك هو الشيخ أحمد حسون والد سعود. ويقيني أن جلالة الملك لم يختر الشيخ للونه وإنما لأنه عالم دين يجيد اللغة الانجليزية. انظر إلى المفارقات أيها القارئ الكريم.

نعت الأمريكان الأفارقة بالزنوج تحول من بعد إلى نعت لا يقل عن سابقه قبحًا: الأمريكان السود (Black Americans). ويعود قُبح النعت لما تضمنه من تمييز بين مواطني البلد الواحد على أساس اللون مهما كانت درجة دكنته. ولكن، بآخره، انتهى الأمر بالأمريكان إلى ما كان يجب أن يفطنوا له منذ البدء: نسبة المواطن إلى وطنه، لا لونه أو أصله: الأمريكان الأفارقة " (Afro – Americans). فالأفارقة الأمريكان في بداية الأمر ومنتهاه أمريكيون أولًا وإن كان لابد من تأصيلهم فعسى بالمؤصلين ردهم للقارة التي جاؤوا منها (أو جيء بهم منها) لا لعِرق بعينه في تلك القارة، تمامًا كما أخذوا يطلقون على المواطنين ذوي الجذور الإسبانية "الأمريكان الإسبانيون" (Hispanic Americans)، وعلى ذوي الأصول الأيرلندية "الأمريكان الأيرلنديون" (Irish Americans).

الغباء الكامن في التمييز العرقي واللوني

علني لتقريب الأمر للقارئ أشير لتجارب ثلاث عايشتها يومذاك تعبر عن

الغباء الكامن في التمييز بين البشر على أساس ألوانهم وأعـراقهم. التجربـة الأولى كانت مع الدبلوماسي صلاح أحمد محمد صالح عند وفوده إلى نيويـورك لحـضور اجتماع الجمعية العامة للأمـم المتحـدة ضـمن وفـد الـسودان. ففـي يـوم عطلتـه الأسبوعية قرر صلاح التجوال في الشارع الخـامس بنيويـورك (Fifth Avenue) وأراد له حظه العاثر أن يغشى بالمدينة متجرًا صغيرًا. سأل البائع صلاح مـن أيـن هو؟ فـرد بفخـر وزهو: "أنا من الـسودان". وهنـا قـال البـائع: "أيهـا المـسكين (Poor you) **لاشك في أنك من أولئك الذين يُذبِّحهم العرب. قلبي معكم**". ما درى ذلك الأحمق أن صلاحًا ذلك كان هو الناطق باسم هؤلاء العرب في الجمعية العامة للأمم المتحدة. قابل صلاح الأمر بسخرية، فهو -من بين مَن أعرف- مـن القلائل الذين لا يستنكفون الهُزء بأنفسهم؛ ولهذا لم يكـن يكـدره أبـدًا أن ينعـت بـ"الكتلة السوداء" (بـضم الكـاف لا فتحهـا). رغـم ذلـك لاشـك لـديّ في أن الدبلوماسي الساخر قد أدرك في تلك اللحظة أن كل قصائد أبيه المجيد عـن نجـد وتهامة، لم تفلح في أن تجعل منه عربيًّا بالمعنى الذي استكن في أذهـان الـبعض، أو بالصورة الفجة التي ترسبت في ذهن البائع المشفق على غير العربي الـسوداني مـن عرب السودان:

أما القصة الثانية، فتتعلق بسفير عظيم من سفرائنا الأوائل: الدكتور إبـراهيم أنيس، وكانت القصة حديث المجالس بـين القلـة مـن الـسودانيين الـذين كـانوا يعيشون آنذاك في الساحل الـشرقي مـن الولايـات المتحـدة. كـان أنـيس سـفيرًا للسودان في واشنطن في زمان كان فيه الميز العرقي مستشريًا في الولايات المتحـدة بما في ذلك واشنطن العاصمة. وذات مساء وفد السفير على واحد من أكبر فنـادق المدينة لحضور حفل إقامته إحدى السفارات وكانت سفارة السودان يومذاك مـن أولى - إن لم تكن أولى - السفارات الأفريقية في واشنطون. وما إن وصل الـسفير إلى مدخل الفندق حتى تصدى له أحـد الحـراس ليقـول: "دخولـك مـن البـاب الخلفي وليس من هنا"، والباب الخلفي هو باب الخدم. لم يفلح سـفيرُنا في إقنـاع الحارس بأنه سفير دولة مهمة "أصلها للعرب"، ولا بأنه مدعو للحفل الذي كان

السفراء يتقاطرون للدخول إليه، كما لم تفلح أيضًا سحناؤه -إذ كان أنيس بمعاييرنا اللونية خلاسي اللون- في إقناع ذلك الحارس الزنيم بأهمية ما قال السفير. الزنيم هو دعي النسب كما هو أيضًا اللئيم، والثانية نعني. بالطبع ترك أنيس الفندق وما إن أصبح الصبح إلا واتجه غاضبًا لوزارة الخارجية ليحتج على ما حدث. تلك الغضبة لم تزيلها إلا دعوة الرئيس أيزنهاور لسفير السودان للبيت الأبيض ليعتذر له. الحادثة الثالثة كان ضحيتها السكرتير الثالث بالسفارة السودانية يوم ذاك (عزت الديب) والذي لم يكن محظوظًا مثل سفيره. فعندما "تجاسر" عزت على الدخول في صالون حلاق أبيض في واشنطن قيل له هذا المكان ليس للسود فخرج غاضبًا، لا أدري إن كان غضبه لنسبته للسود فهو بالمعايير السودانية من بيض السودان، أم لحرمانه من تزيين شعره في صالون أنيق للبيض. ولكن ما إن وصل عزت إلى السفارة وبث شكواه لصلاح أحمد حتى نَفَس صلاح ذلك البالون بوخزة دبوس. سأل صلاح عزت "أنت في الخرطوم ما بتحلق شعرك عند دراج؟" قال عزت "نعم". قال صلاح: **"طيب، المسألة بسيطة: الخواجة قال ليك أمشي أحلق شعرك عند دراج بتاع واشنطن"**.

أين نحن في المعادلة؟

نعود للحديث عن جماعات الطلاب والأساتذة التي تهيأت في الولايات المتحدة للنضال ضد التمييز بين مواطني البلد الواحد على أساس لونهم أو منبتهم، وكيف أصبح ذلك النضال الإنساني السامي القوة الدافعة لحملات الرئيس جون كينيدي التي أوصلته لسدة الحكم، وكان من أوائل إنجازات كينيدي قيادته لأكبر حملة للقضاء على الميز العنصري في بلاده، ولعله دفع حياته ثمنًا لذلك. تراكُم هذا النضال ربما كان من أكبر الفواعل التي جاءت بواحد من أبناء أولئك "المنبوذين" - باراك أوباما - لسدة الحكم بعد ثلاثة قرون من عهد الرق. هذا الانحياز إلى جانب أحفاد الأرقاء صار إرثًا نضاليًا لأسرة كينيدي، إذ أبى روبرت كينيدي الشقيق الأصغر لجون كينيدي إلا أن يترك سرير مرضه - وكان مرضًا قاضيًا على الحياة - ليتوج أوباما مرشحًا للحزب الديمقراطي

للرئاسة، ثم يعود إلى سرير مرضه ليغادر الحياة بعد فترة قصيرة. أشير إلى تلك الأسرة لأقول إن مناهضة الميز العنصري لم تجئ فقط ممن عانوا من آثاره، وإنما أيضًا من الطليعة المتعلمة في الجامعات من الأساتذة والطلاب، ومن أسر ذات طول في قلب المؤسسة البيضاء.

هذه التجارب جعلتني أتئد في أمري متفكرًا في المواريث الثقيلة التي هدت كواهلنا حتى كَرَثتنا الكروب، بل أمعن في التفكير في لامبالاتنا أمام تلك الكروب. ذهب بي التفكير يومها لتساؤلات عديدة: لماذا لم يفكر أي حزب من أحزابنا على اختلاف توجهاتها في أن لأزمتنا السياسية أبعادًا ثقافية ونفسية ذات جذور تاريخية؟ لماذا لم نفكر في أن لتلك التجارب نظائر في تاريخ الأمم؟ لماذا لم نستبصر أن هذه الأمم ما كانت لتنجح في معالجة تلك الأزمات لولا الاعتراف بها ثم مجابهتها في وضوح وشفافية؟ لماذا لم يكن رأس الرمح في تلك المجابهة هو الطليعة المتعلمة أو النخب السياسية أو الأسرية كما كان الحال بلاد أخرى؟ لماذا لم يحتل هذا الموضوع أي موقع في برامج الأحزاب، أو في حوارات الأساتذة والطلاب، أو في المباحث الأكاديمية إلا القليل الذي بادر به أفراد لا مؤسسات؟ لماذا لم يصبح موضوع الرق في السودان موضوعًا يدرس في المدارس، أو يكون مدار بحوث في الجامعات؟ لماذا لم تقدم الصحافة الوطنية على التداول في موضوع الرق على صفحاتها باعتباره موضوعًا جديرًا بالتداول؟ ثم لماذا لم تقتطع النخب الطلابية اليسارية التي كانت تجوب الحضر والبادية لجمع التوقيعات على رسائل تبعث بها هلسنكي لإعلان نصرتها للسلام العالمي وقتًا من الزمان للتقصي عن الأسباب التي قادت لفقدان السلام الاجتماعي في بلادهم؟ ثم قلت لنفسي قد تكون الكبرياء هي التي حالت دون ذلك، ولكن حدثتني نفسي بأن الكبرياء تتحول إلى تجبر إن قادت إلى الترفع عن الحق. قلت أيضًا ربما كان حداة الركب يؤامرون أنفسهم في الأمر. ومؤامرة النفس هي تلجلج الإنسان في أمر من الأمور بين رأيين؛ ولكني استدركت وقلت: كيف يؤامر الإنسان نفسه حول موضوع ينكره أصلًا. في نهاية الأمر توصلت إلى أن الأزمة، في جوهرها، هي التهرب من

الاعتراف بأن هناك أزمة دون وعي منا بأن ذلك التهرب يبدو للآخر وكأنه فقدان للحساسية نحره.

التهرب من الواقع، خاصة عندما يكون الواقع واضحًا كوضوح الشمس، لا يقدم عليه إلا أحمق؛ كما أن السعي للتعفية على الواقع المنظور بهدف إزالته من الذاكرة الجمعية، هو والسعي لإخفاء عين الشمس بالأصبع سواء. ودون توغل من جانبي في موضوع ليس لي فيه كبير علم (علم النفس) أتساءل إن كنا، وما زلنا، نعاني من ذلك الداء الذي يسميه علماء النفس داء الشخصية المتعددة (multiple personality disorder) وهي حالة تعكس داءً عصابيًّا (neurotic). هذه أيضًا هي الحالة التي وصفها على مزروعي في محاضرة له شهيرة بالخرطوم بالهامشية المتعددة (multiple marginality). فمن الشخصيات المتعددة التي تكمن في عقل السوداني الشمالي تلك التي تكشف عن يقين ثابت، ولكنه موهوم، بأنه عربي الأرومة والمحتد وليس فقط عربي الثقافة على الرغم من أن في العالم تجارب جديرة بالاقتداء. ففي الولايات المتحدة البوتقة التي انصهرت فيها عدة لغات وثقافات بقيت الانجليزية لغة الاستعمار لغة قومية لكل أهلها على تنوعهم دون أن يدعى، حتى أهلها الذين وفد أسلافهم من انجلترا، أنهم انجليز لأنهم يتحدثون الانجليزية. ومن الطريف أن الناشرين الفرنسيين عندما يترجمون مؤلفًا لكاتب أمريكي لا يقولون عن الكتاب المترجم "تُرجم عن الانجليزية" بل يقولون "ترجم عن الأمريكية" (traduit de l'americain). تلك أيضًا هي الحال في البرازيل التي كان أغلب من استوطن أرضها من الغزاة الأوروبيين من البرتغال مما جعل من اللغة البرتغالية لغة البلاد. وعندما انضم لهؤلاء البرتغاليين الغزاة والسكان الأصليين من الهنود الأفارقة المسترقين أصبحت تلك اللغة تُسَمَّى اللغة البرازيلية، لا البرتغالية.

من العقد الموروثة عند عرب أو مستعربة السودان تلك التي تعكسها السمات الشكلية مثل سواد الأدمة وجعودة الشعر وهي سمات فسيولوجية تميز المستعرب عن غير المستعرب من أقوام السودان الأخرى، رغم أنها تؤكد الانتماء

الأفريقي لهذه الأقوام. وما دام التمييز بين الناس قائمًا على هذه الصفات استعصى على أبناء الوطن الواحد أن يجدوا ما يوحدهم كما توحدت شعوب العالم الأخرى عبر رابطة الانتماء لوطنٍ واحد. ليت الأمر وقف عند ذلك، فداء الشخصية المتعددة أفرز عقدًا أخرى مثل عقدتي النقص والاستعلاء معًا. ففي أعماق السوداني المستعرب تصطرع عقدة النقص، من ناحية، إزاء العربي القح الذي لا يشبهنا في الشكل وإن جمعت بيننا اللغة والثقافة. تلك العقدة تحمل مستعربة السودان على الزعم بأنهم عرب العرب: جدهم العباس ولسانهم أفصح ألسنة العرب. ومن ناحية أخرى، عقدة الاستعلاء على من هم ليسوا بعرب من أهل السودان بحسبانهم ما خلقوا إلا ليفش العربي ورمه فيهم ولنا في ذلك أمثال: أوليس من أمثالنا "غبينة العربية يفشوها في السرية"، والسراري هُنَّ الإماء المستعبدات. من الأمثال أيضًا "العاني (أي الرقيق المأمور) عاني لَمن يصير فاني"، ومنها "العبد مُسير مو مخير "، ومنه "عبد الما عندو عبد" وفي ذلك حث للأحرار المزعومين على أن يكون لهم عبيد، كما منها " الحش (الزراعة) مو شورة، شغلة العاني والعورة "، والعاني هو العبد، أما العورة فهو البليد. وللعرب مثل سائر هو "الأحصان العبد والعير" والعبد هو العبد المسترق والعير هو الحمار، وتقول العرب أرض حصاء أي جرداء لا خير فيها . أما معنى المثل هو أن العبد والحمار يماشيان ثمنيهما حتى يهرما فينقص ثمناهما. هذه هي أمثالنا السائرة، أيها القارئ، والأمثال ليست أحاجي تروى بل هي حافظة الوعي الجمعي.

الرق في نظر جهبذين

في هذا المقام تعود بي الذاكرة إلى الحوار الذي دار في مؤتمر جوبا (1947) بين رجلين من جهابذة السودان: محمد صالح الشنقيطي وإبراهيم بدري، والجهبذ هو العليم ببواطن الأمور. قدم لذلك المؤتمر منشور أصدره السكرتير الإداري جميز روبرتسون 6 ديسمبر 1946 يومئ فيه إلى التحول الجديد في سياسة الإدارة البريطانية نحو العلاقة بين شقي القطر. قال المنشور: "يجب أن نعمل على أساس أن سكان جنوب السودان وهم في الحقيقة أفريقيون وزنوج خُلص، ولكن

العوامل الاقتصادية والجغرافية مجتمعة، كما يتراءى في الوقت الحاضر، تجعل صلتهم بشمال السودان العربي الذي بدوره متصل بأقطار الشرق الأوسط وثيقة جدًّا. وعليه يجب التأكيد على أنه من الممكن عن طريق التقدم الثقافي والاجتماعي إعدادهم في المستقبل ليكونوا أندادًا متساوين مع الشماليين اجتماعيًا واقتصاديًا في سودان المستقبل". وعند انعقاد المؤتمر في 12 -13 يونيو 1947 أكد روبرتسون توجه الإدارة البريطانية الجديد نحو **توحيد شقي القطر**، مضيفًا أن المطلوب من المؤتمر التوصل إلى الطريقة المثلى التي يتم بها ذلك التوحيد في المرحلة الأولى ألا وهي مرحلة الانتقال الدستوري عبر قيام مجلس تشريعي ومجلس تنفيذي لإدارة كل السودان. ذلك الرأي عارضه الإداريون البريطانيون بقيادة مدير بحر الغزال المستر أوين الذي بلغت معارضته حدًّا يقارب الوقاحة حين وصف السير روبرتسون، السكرتير الإداري، بالرجل الذي خان ضميره. ضم ذلك الاجتماع من الجنوب مشايخ أو كبار القبائل الرئيسية في الجنوب: لوليك لأدو، وشير ريحان، وجيمز طمبرة، وفيلمون ماجوك إلى جانب قلة من الإداريين الجنوبيين المتعلمين وأشباه المتعلمين: بوث ديو، سيرسيو أيرو، حسن فرتاك، كلمنت مبروو، كما مثل الشمال محمد صالح الشنقيطي، إبراهيم بدري، حسن أحمد عثمان الكد، الدكتور حبيب عبد الله، الناظر سرور محمد رملي.

في ذلك الاجتماع أثار بعض الجنوبيين قضية الرق وأبانوا مخاوفهم من عودته إن ضُم الجنوب للشمال. ذلك موضوع لم يتركه لأهله المستر أوين مدير بحر الغزال، بل اندفع في حموقة بالغة للحديث عن استرقاق الشمال للجنوبيين في القرن الماضي. وباندفاع غاضب قال شنقيطي لأوين: "**الرق ظاهرة صنعها أجدادك فهم الذين رحلوا آلاف الأفريقيين إلى جزر الكاريبي والولايات المتحدة منهوكين مُصَفدين**". وما إن انتهى الشنقيطي من تفريغ شحنات غضبه المشروع على المستر أوين حتى تصدى له إبراهيم بدري قائلًا: "المشكلة ليست هي الرق في التاريخ، كما ليست هي ما صنع أجدادنا أو أجداد أوين، فكلاهما حقيقتان تاريخيتان لا يمكن إنكارهما. **الأمر الذي نحن بصدده هو أن هناك جماعة من**

المواطنين تولدت لديها انطباعات وترسبت في عقولها مخاوف، ومن واجبنا -أيًا كان مصدر تلك المخاوف- أن نعمل على إزالة دواعيها"... يالإبراهيم بدري من رجل بصير كان يعيش في بلد لا يتلقاك فيه من بين كل عشرة عميان غير بصير واحد.

على موقفه ذلك ثبت إبراهيم بدري عندما تلاقت الأحزاب الشمالية والجنوبية لوضع دستور لدولة السودان، وهو في طريقه إلى الحكم الذاتي. كتب إبراهيم بدري في (1951) للجنة دستور الحكم الذاتي (المنعوت بدستور ستانلي بيكر) مذكرة يبصر بها اللجنة بما تعنيه مشكلة الجنوب التي كان القوم يتلاحون في أمرها. قال: **"عندما أقول الجنوب فأنا لا اعني سكان المديريات الجنوبية وحدها ولكن أيضًا سكان جنوب الفونج بمديرية النيل الأزرق وبعض سكان دارفور وجبال النوبة بكردفان. كل هؤلاء لا يدينون بالإسلام ولا يتحدثون اللغة العربية أو أن لهم لغة مشتركة، كما لا توجد روابط من التراث والدين أو اللغة بينهم وبين الشماليين"**. أضاف بدري قائلًا: **" التعابير مثل إخواننا في جنوب الوادي التي تقال لإظهار حسن نوايانا نحو أناس كانوا إلى وقت قريب يتعرضون لغزوات أسلافنا لاسترقاقهم وبيعهم كالسوائم يمكن أن يقال عن بعض الأقطار الأوروبية التي كانت تمارس الأفعال نفسها عندئذٍ. ولكن مثل هذه التعابير لا تكفي لجعل الجنوبيين ينسون معاناتهم السابقة ويغيرون مشاعرهم نحونا"**. لقد رحل إبراهيم بدري دون أن يذكره ذاكر من بين الذين يسودون الصحائف بالأكاذيب ويسمون ذلك تاريخًا. لهذا آثرت أن أهدي كتابي "السودان: أهوال الحرب وطموحات السلام... قصة بلدين" إلى ذلك الرجل الهمام، وجاء في الإهداء: "إلى إبراهيم بدري الذي لم يصانع في النصيحة خداعًا للنفس، أو ارتكانًا إلى العنجهية. قال لأهله خذوا الذي لكم، وأعطوا الذي عليكم إن أردتم أن لا يفسد تدبيركم أو يختل اختياركم. عزفوا عن رأيه ونسبوا الرأي وصاحبه إلى الاستعمار ثم مضوا في خداع النفس، فأغراهم بالآمال العواطل الباطلات. واليوم إذ يعودون -أو يعود بعضهم- إلى ما قال دون استحياء لا يذكرون الرجل وهم التابعون".

المعضلة التي نتحدث عنها بدت واضحة لكل ذي عينين قبل خمس سنوات من الاستقلال، وقبل أربعة عشر عامًا من مفاوضات المائدة المستديرة التي توقع أهل السودان والعالم أن تنهي حرب الإخوة – الأعداء، وتُمكّن السودان للانطلاق نحو مكانه تحت الشمس. ولكن خاب الأمل واندلعت الحرب من جديد. حديث إبراهيم بدري أيضًا سبق اجتماعات لجنة الدستور في (1965) بعقد ونصف من الزمان، ولم يكن محور الجدل فيه بين الفرقاء تأكيد هوية السودان كوطن جامع لأقوام متعددي الثقافة والأديان، بل كان هدف النخبة السّياسية في الشمال، تأكيد هوية السودان – الإسلامية. وبعد اثنين وثلاثين عامًا أفاق كل هؤلاء من غفوتهم عندما برز جون قرنق بأفكاره حول التعدد الديني، والتنوع الثقافي والتهميش الاقتصادي، وهي الأفكار نفسها التي قدم لها إبراهيم بدري من قبل وتلكأت النخبة الشمالية في قبول أطروحاته بشأنها بدعوى أنها حيلة استعمارية لتمزيق السودان. هذه الحيلة الاستعمارية المزعومة قبلتها مفردًا وجمعًا، بعد ثلاثة عقود من الزمان، النخبة السياسية الشمالية في قرارات أسمرا المصيرية. أوليس هناك ما يوجب نقد ذلك التاريخ، بدلًا من التعفية على أخطائه؟ ذلك التلكؤ كان ليصبح مفهومًا لو أرفق دعاة الهوية السودانية العربية الإسلامية المطلقة أطروحة أخرى تقول: "نحن ثابتون على شعار أمة أصلها للعرب ودينها خير دين يحب وليذهب الجنوب إلى حيث أراد". لم يفعلوا هذا، لا لفرط إيمانهم بما يدعون، وإنما لأنهم لم يحسبوا أن الساسة الجنوبيين قوم وهبهم الله العقل الذي يميزون به بين الأشياء، فأرضهم في حساب سادة الشمال عَفاء وأهلها عِشار عُطِّلت.

من أين أتى بشعار "أمه أصلها للعرب دينها خير دين يحب"؟ أول الناطقين بهذا الشعار هو الأستاذ خضر حمد نوبي الأصل (دنقلاوي) الذي صاغ نشيد المؤتمر الأول. وفي مذكراته كشف الشاعر عمّا كان يعنيه بذلك الشعار. روى خضر في مذكراته يصف **الفجيعة** التي لحقت به وهو أمير للحج عندما اكتشف **أن** السعوديين لا يميزون بين السودانيين والتكارنة والتكارنة- ويسمون الفلاته

أيضًا- هم أهل المنطقة التي كان العرب يطلقون عليها "جبال تكرور". قال إن خلط السعوديين بين التكارنة والسودانيين هو "شغلي الشاغل، وكنت أحاول في كل مكان وكل حديث ومع كل صحفي أن أوضح الفرق بيننا وبين التكارنة وأشرح عروبتنا وكيف أن الاستعمار هو الذي كان يمنح التكارنة جوازات حج سودانية" (مذكرات خضر حمد، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي ص 219). مضى خضر ليروي كيف أنه أبلغ الوزير السعودي المشرف على الحج "نحن حريصون على أن يعرف إخواننا في المملكة العربية السعودية أن السودانيين شيء والتكارنة شيء آخر، فالسودانيون عرب أقحاح لا يتكلمون غير العربية ولا يدينون بغير الإسلام". لست أدري إن كان هؤلاء العرب الأقحاح يشملون أهل سلطنة ما يرنو في السودان أو من تمسلم من أهل الجنوب والغرب والنوبة الذين انحدر منهم الوزير المتحدث، رحمه الله وغفر له ما تقدم من ذنب وما تأخر. إن لم تحمل مثل هذه التجارب الإنسان إلى الافتطان إلى سخف بعض الممارسات -كانت في وطنه أو خارجه- مثل التباهي بالأعراق، وتقويم البشر بألوانهم، وتهجين أصولهم علانية كما كان الحال عليه في أمريكا في عهد الرق، أو دولة الأبرتايد في جنوب أفريقيا، أو خفية كما كان وما زال عند البعض في بلادنا، يصبح ذلك الإنسان ميئوسًا منه.

مسعاي بعد أن عدت إلى السودان لم يكن هو محاسبة التاريخ، أو الدخول في حالة كربلائية يجلد فيها الإنسان نفسه، أو تحميل الأجيال الراهنة المسؤولية عن خطايا أسلافهم، بل الحساسية الجهيرة بالآخر والانصراف إلى تطويق الظواهر التي تفتقد الحد الأدنى من نبل الطباع في تعاملنا معه. تلك الظواهر، لم تكن عنصرية فحسب، بل هي عنصرية جبانة؛ لأنها لا تجرؤ على الاعتراف بالخطأ وبالآثار الاجتماعية التي ترتبت عليه. كنت أيضًا -ومازلت- على يقين بأن الدعاوى الملتبسة لضمد الجراح التي خلفتها ممارساتنا في أعماق الآخر هي الأخرى مخادعة للنفس. فالمرء ليس بحاجة إلى جرّاح ماهر ليتعلم منه أن ضمد الجرح لا يكون قبل تطهيره، فالجرح الذي يُضمد على قيح لا يبرأ أبدًا. ومن عدم

الأمانة العلمية التغطية على جرائر الأسـلاف وبعـض المعـاصرين، بـل المطلـوب والواجب هو البوح بما سمّاه أدونيس "الحقائق المكبوتة". ففي واحدة من مقالاته بجريدة الحياة كتب الأديب الشاعر "في المجتمع العربي أكثر من ذاكرة ثقافيـة لأن فيها عددًا من الذاكرات الاثنية والسلالية. وقلما تتطابق ذاكرة سلالية خاصة مـع ذاكرة الثقافة العامة. ونعرف جميعًا (دون أن نعلن ذلك فهو من حقائقنا المكبوتة) أن هناك صراعًا حادًّا بين هذه الذاكرات غير أنه صامت ومعذب. ونعـرف طبقًـا لذلك أن في المجتمع شعورًا أليمًا بأن فيه أغلبية سائدة وفئات مغلوبة مسودة، وأن المواطنين إذا كانوا متساوين في الواجبات إزاء الدولة والـوطن، فـإنهم في الواقـع غير متساوين في الحقوق، لا على الصعيد القانوني النظري ولا على صعيد الممارسة العملية".

أنا أحلم

من أهم الأحداث ذات الصلة بما أوردنا كانت المسيرة الكـبرى التـي قادهـا مارتن لوثر كنج في 23 أغسطس 1963 وألقى فيها بين تمثالي توماس جفرسـون وأبراهام لنكولن خطبته التـي شـاع ذكرهـا في الآفـاق "أنـا أحلـم" (I have a dream). الصدف وحدها هي التي دفعت كنج الذي كـان وقتهـا يحمـل خطابًـا مكتوبًا ساهم في إعداده عدد مـن قيـادات الاتحـاد الـوطني للملـونين في أمريكـا (National Association of Colored People of America). رمـى كـنج الخطاب عندما همست المغنية ماهيلا جاكسون في أذنه قائلة: **"احلم يا مارتن"**. في تلك اللحظة بدأ كنج يتحدث لا كرجل "ملـون"، إن جـاز التعبـير فكـل البـشر ملونون، ولا كزنجي استعبده بيضان أمريكا، وإنما كمواطن في دولة أسست عـلى مبادئ الحرية والعدالة والتحرر من استعباد الآخر. وبقدرته الفائقـة كقـس عـلى مخاطبة مشاعر الناس استعاد كنج على الجموع الحاشدة إعلان لنكولن حول تحرير العبيد وأوراق لنكولن عن القيم المعيارية التي ينبغي أن تضبط الحكم في أمريكـا؛ مما دفع المؤرخ الأمريكي تيلور بـرانش لأن يـصف كـنج بأنـه واحـد مـن الآبـاء المؤسسين للولايات المتحدة بإعادته لإنتاجها. دفـع الخطـاب كاتبًـا آخـر (جـون

ميتشام) للقول عند الاحتفاء بالذكرى الخمسين لذلك الخطاب أن كنج هو "المهندس المعماري لأمريكا القرن الحادي والعشرين".

عندما وقف كنج لإلقاء خطبته لم يكن إلى جانبه المرموقون من النساء والرجال "السود" (أندرو يونج، والزعيم العمالي فيليب راندولف، والمغنية ماهيلا جاكسون، والممثلان سيدني بواتيه، وهاري بلافونتي) وإنما كانت بينهم أيضًا نخبة من كبار أهل الفن من البيض (جون بايز، وجوليان بوند، ومارلون براندو، وشارلستون هوستون). في الوقت نفسه كان الرئيس كينيدي وأركان حربه في البيت الأبيض ينصتون إلى الخطاب عبر التلفاز وهو في حالة توتر ظاهر مصدره الجدل الذي سبق بداية المسيرة بين الرئيس ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالية، وكان كبير العسس في أمريكا يوحي لكينيدي بأن وراء المسيرة مخططًا شيوعيًّا، وإنها لن تكون مسيرة سلمية بل ستتطور إلى شغب. ولطمأنة أجهزة الأمن أمر كينيدي قوات الجيش لتكون في حالة استعداد إن انفرط عقد الأمن، خاصة تلك كانت هي المرة الأولى في تاريخ العاصمة واشنطن التي يغزو فيها المدينة نصف مليون متظاهر من خارجها؛ وغزو العاصمة تعبير أطلقه مكتب التحقيقات الفيدرالية. الخطاب التاريخي لهذا المناضل العملاق لم يغير فقط وجه التاريخ في أمريكا بإصدار قانون الحقوق المدنية على يد الرئيس جونسون عقب رحيل كينيدي المفاجئ، بل أيضًا بوضع المؤسسة السياسية الأمريكية لكنج في قائمة الأبطال الوطنيين إذ تم تشييد تمثال له بارتفاع عشرة أمتار في واشنطن وضع بين تمثالي توماس جيفرسون وأبراهام لينكولن، كما اعتمد يوم عيد ميلاده عيدًا وطنيًّا. سؤال بسيط هل يستطيع واحد منا أن يجيب عليه: لماذا أغفل ساسة وإداريو السودان ومؤرخوه الذين يحددون من هو جدير بالتكريم جنوبيًّا أو نوباويًّا واحدًا لكي يطلقوا اسمه على شارع من شوارع العاصمة السودانية أو ميادينها؟ وسؤال ثانٍ أبسط هل هناك مَن يجيب عليه: "لماذا لم يصبح موضوع الرق جزءًا من منهج التاريخ في المدارس، وموضوعًا لأطروحات الدراسة العليا في الجامعات؟ من جانب آخر منحت الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للسلام في

عام (1964) لكنج، وكان بذلك أصغر الذين نالوا تلك الجائزة سنًّا حتى لحقت به مؤخرًا في عام 2014 الفتاة الباكستانية ملالا ذات الأربعة عشر ربيعًا. وكان مارتن لوثر ذا حسٍ بالتاريخ شفيف، فعند عبوره نقطة المراقبة (Charlie check point) بين برلين الشرقية وبرلين الغربية بعد السماح له بذلك استهل مارتن لوثر حديثه بالقول:"أنا فخور باختيار أبي لاسم ألماني عظيم ليطلقه عليّ: مارتن لوثر" وختمه بقوله:"تقسيم أهل الوطن الواحد أمر خاطئ".

الثورة التي أوقد نارها كنج كان لها أثر كبير في تمكين القادرين من الأمريكيين الأفارقة من احتلال مواقع لم يكونوا يحلمون باحتلالها مثل قيادة الجيش (كولن باول)، ووزارة الخارجية (كولين باول وكوندوليزا رايس) وعضوية المحكمة العليا. ومن آثارها أيضًا إنشاء الجامعات لمعاهد للدراسات حول الرق وتوابعه، وحول الثقافات الأفريقية وتأثيرها على الثقافة الأمريكية باعتبارها ثقافة تولدت من ثقافات مختلفة... هذه الكسوب في مجالات الثقافة والحقوق الدستورية واحترام التنوع لا تنقص منه رواسب الميز العرقي كما تجلى في مصرع الفتى مايكل براون في مدينة صغيرة (فيرجسون بولاية ميسوري). فخلال تظاهرة سلمية اعترض البوليس تلك المظاهرة وقام ضابط "أبيض" بإطلاق النار على الفتى وهو على بعد ثلاثين قدمًا منه. بيد أن ذلك الحدث استنهض لإدانته كبريات الصحف في الولايات المتحدة وأغلب منظمات حقوق الإنسان. تكرر الحادث ولما ينقض العام في جزيرة ستاتين في ولاية نيويورك عندما أطلق شرطي "أبيض" النار على أمريكي "أسود"، الحادثان يعبران، بلا شك، عن استهانة بعض "البيض" بـ"السود" بل استرخاص دمائهم. فمثلًا حيث يبلغ عدد السود في أمريكا 13٪ من السكان تبلغ نسبة عدد المنتظرين لتنفيذ أحكام الإعدام من السود 42٪ من مجموع السكان. استمرار هذا السلوك الإجرامي (إذ ليس له وصف غير هذا) من جانب أجهزة الشرطة في بعض الولايات حمل الرئيس أوباما للقول في خطاب للأمة: "إن عددًا كبيرًا من المواطنين يحسون بالظلم عندما تكون الفجوة فاغرة بين قيمنا المعلنة وبين أسلوب تطبيق القانون في الممارسات اليومية".

ولهذا وجه أوباما وزارة العدل الفيدرالية بالتحقيق في الأمر، وهو تحقيق جاءت نتائجه صاعقة للذين مازالوا لا يدركون مغزى حلم كنج.

رحيل كينيدي

رحيل كينيدي في نهاية نوفمبر 1963 كان حدثًا مأساويًّا، إذ رحل الرجل مغدورًا ولما يَمضِ على خطاب مارتن لوثر كنج إلا بضعة أشهر. ولعل من بين الأسباب التي حملت المؤسسة الأمنية والقوى المساندة لها على الظن بأن تشجيع كينيدي العلني لخطاب كنج أمام صِرح لنكولن في واشنطن كان يمثل تأييدًا صريحًا لمنظمات الأفارقة الأمريكيين التي كان حراس القديم يزعمون أنها جماعات إرهابية. من الأسباب أيضًا توهم مكتب التحقيقات الفيدرالية، ورغبته في إيهام كينيدي، أن كنج هو رأس الرمح في حركة شيوعية لا يجدر بالرئيس أن يضفي عليها أيَّة شرعية.

إلى جانب هذين الاعتبارين أثارت جماعات اليمين المتطرف في أمريكا مخاوف موهومة من مغازلة كينيدي لكاسترو في الوقت الذي كان فيه ذلك اليمين -إن صدقًا أو كذبًا- مرعوبًا من الخطر السوفييتي الذي يهددهم من جزيرة مجاوره في البحر الكاريبي. ففي الرابع والعشرين من أكتوبر 1963 أدلى كينيدي قبل مقتله بشهر واحد بأخطر حديث له حول الثورة الكوبية للصحفي الجزائري/ الفرنسي جان دانييل بن سعيد نشرته مجلة الإكسبريس الباريسية. قال كينيدي في ذلك الحديث: "لا أعرف بلدًا في العالم -بما في ذلك البلاد التي كانت واقعة تحت نير الاستعمار- تعرَض أكثر من كوبا للاستعمار الاقتصادي والاضطهاد والاستغلال. وقد أسهمت بلادي في هذا تحت حكم باتيستا". ثم ذهب كينيدي للقول "أنا أتفق مع إعلان كاسترو في سييرا مايسترا عندما دعا للعدالة وإنقاذ كوبا من الفساد، بل أمضي أبعد من هذا لأقول **إن باتيستا كان تجسيدًا لعدد من ذنوب الولايات المتحدة ندفع الآن ثمنها جميعًا**". ذلك الموقف من جانب الرئيس كينيدي أغفله الكثير من المعلقين لتوجه أنظارهم كلية إلى غزوة

كينيدي لخليج الخنازير في 17 أبريل (1961)، رغم أن تلك الواقعة كان من اللازم أن تفهم في إطار الاستراتيجيات الدولية. فمن الطبيعي أن يقود نقل الاتحاد السوفييتي لقاعدة من قواعده الذرية إلى البحر الكاريبي وتوجيهها إلى الشمال (أي إلى الولايات المتحدة) إلى رد فعل أمريكي مساوٍ في الحجم حتى يحمل الطرف الآخر على التراجع. وقد أثبت رد الفعل ذلك نجاعته إذ سرعان ما اضطرت القيادة السوفيتية إلى سحب تلك القواعد، بل سماها خورتشوف "انتصار صوت العقل"، خاصة بعد أن تعهدت الولايات المتحدة بعدم غزو كوبا. ولكن، ما عاش كينيدي ليثبت صحة ما قال لمجلة الإكسبريس، بل مات وفي قائمة اتهامات قائليه شيئان: التمهيد لإصدار قوانين الحريات التي تُعَدُّ ترجمة عملية لإعلان لنكولن في فيتسبيرج (بنسلفانيا)، والاعتراف ببيان كاسترو في سييرا مايسترا، وكلاهما في رأي اليمين الأمريكي المكارثي المتطرف كان يمثل انتصارًا متوهمًا للشيوعية.

عند بلوغي الجزائر المحطة الثانية لعملي بالأمم المتحدة غداة استقلالها، أثار اهتمامي تسمية واحد من أكبر ميادينها بميدان جون كينيدي. وكانت الجزائر القطر العربي الوحيد الذي خص كينيدي بالتكريم بعد رحيله. سألت مرافقي الجزائري: "لماذا تكرم الجزائر الرئيس الأمريكي الراحل؟" فجاءني الجواب: "لأنه عضو مجلس الشيوخ الأمريكي الذي تصدى هو والسيناتور فلبرايت للدفاع عن حق الجزائر في الاستقلال مما أغضب عليهما الجنرال ديقول". غضب الجنرال ديغول لمواقف السيناتور كينيدي لم يتناقص حتى بعد أن صار كينيدي رئيسًا للولايات المتحدة واستقلت الجزائر. ذلك أمر نمت عليه المقابلة الفاترة والساخرة التي استقبل بها الجنرال ديقول قرينة الرئيس الأمريكي، جاكلين في أول زيارة لها لباريس. ابتعاث كينيدي لزوجته ذات الأصل الفرنسي في زيارة رسمية لباريس كان أشبه بحملة من حملات العلاقات العامة. فعند أول لقاء لها مع الجنرال بادرت سيدة أمريكا الأولى تقربًا من الرئيس الفرنسي بالقول: "سيدي الجنرال... أنا أسلافي من فرنسا". رد عليها الجنرال ببرود: "سيدتي... وأنا أيضًا".

الفصل

العاشر

10

الكاتب بين ضفتي المتوسط

وما وراء الأطلسي

في بلد المليون شهيد

خلال فترة عملي بالأمم المتحدة في نيويورك تعرفت على ممثلي حركة التحرير الجزائرية الذين كانوا يعملون تحت مظلة الوفود العربية والأفريقية والآسيوية المناصرة لحركة التحرير. وقد تدهش لو عرفت أن تلك النخبة من المناضلين الشبان قد اقتحمت لُجة الدبلوماسية الدولية دون إعداد أكاديمي أو لغوي، إلا إنها في فترة قصيرة تمهرت في الدبلوماسية الدولية لغة وسلوكًا ووسائل تواصل، بل في الواقع صعد بعض العاملين فيها إلى أرقى المناصب الدولية مثل محمد سحنون، العياشي ياكر، الأخضر الإبراهيمي. علائقي مع دبلوماسي حركة التحرير توثقت في نيويورك خلال عملي بالمنظمة، وبخاصة مع اثنين منهم هما الراحلان محمد يزيد وتوفيق بوعتورة.

عقب استقلال الجزائر قررت الأمم المتحدة افتتاح مكتب لها وتعيين مندوب مقيم (Resident Representative) في الجزائر ليشرف على أنشطة مكتب المعونات الفنية للأمم المتحدة (UN Technical Assistance Bureau) واختصارها (TAB). ذلك المكتب تطور فيما بعد ليصبح "برنامج الأمم المتحدة

للتنمية" ((UN Development Programme (UNDP))، وهو البرنامج الـذي يقوم بتنسيق مجمل نشاطات الوكالات المتخصـصة في المنظومـة الدوليـة. لقيـادة العمل في المكتب الأممي بالجزائر وقع الاختيار على وزير الـنفط بفنـزويلا، بيريـز قريـرو (Perez Guerrero) ليكـون أول منـدوب مقـيم بـالجزائر. وبإيعـاز مـن الأخوة الجزائريين، ودعم من نائب مدير مكتب المعونـات الفنيـة الفرنـسي بـول مارك هنري، تقدمت بطلب للالتحاق بتلـك البعثـة كمـساعد لرئيـسها. وتعـود علاقتي بهنري إلى فترة دراستي الأولى بباريس حيث كـان يـشغل منـصب مـدير العون الفني بوزارة الخارجية الفرنسية وهي علاقة متنت منها الحفـلات الباذخـة التي كان يقيمها سفير السودان بشير البكري في داره العامرة ببلوفارد سوشـيه في باريس على مقربة من حديقة بولونيا ويدعو لها قلة من السودانيين كانوا ببـاريس. كان هنري من المداومين على المشاركة في تلك الحفلات مما مكننـي مـن التعـرف على الرجل عن كثـب وإدراك خبراتـه العميقـة، إذ كـان خبـيرًا ذا بـاع في قـضايا التنمية. ولخبرته وعلاقاته الممتدة في المجال التنموي كان هو أول مَن استعنت بـه في وضع خطة إعادة تأهيل الجنوب عقب اتفاق أديس أبابـا في سـبعينيات القـرن الماضي، ومن بعد في المؤتمرات المتعلقة بالتنمية التي كانت تعقدها وزارة الخارجية

عندما وليت مهمة قيادة الدبلوماسية السودانية. العلاقة مع هنري أدَّت دورًا كبيرًا في اختياري للمنصب الأممي في الجزائر إذ أبلغني مدير مكتب المعونات الفنية بعد التحاقي بإدارته أن أمامه أكثر من طلب من داخل المكتب للفوز بتلك الوظيفة، ولكن رجح من اختياره لي أمور ثلاثة: الأول هو تأييد نائبه (هنري) للترشيح، والثاني هو إلمامي بثلاث لغات مهمة للعمل بالجزائر: الانجليزية والعربية والفرنسية، أما الثالث - وهو الأهم - فهو تأكده من أن مديري في الإدارة القانونية لن يخلي سبيلي بسهولة. وحول السبب الأخير قال: "لو جاءت موافقة مديرك دون عناء لتيقنت بأنه كان سعيدًا لأن تُريه ظهرك".

مهمة العمل بالجزائر كانت ذات فوائد جمة على مستويات عدة منها المهني العملي والسياسي والعلاقات العامة. فمن الناحية المهنية / العملية كنت حظيًّا بالعمل مع واحد من أبرز موظفي الأمم المتحدة، ومن أكثر سياسيي أمريكا اللاتينية احترامًا في بلاده، بل على مستوى العالم. شغل قريرو منصب وزير النفط ثم وزير الخارجية في بلده (فنزويلا) ثم انتقل للعمل في الأمم المتحدة ممثلًا لها في الجزائر قبل أن يصبح مديرًا لمنظمة الانكتاد (UN Conference on Trade and Development) كخلف لأول مدير لها: الاقتصادي التشيلي الأشهر راول بريبيش، وهو واحد من آباء نظرية التبعية (dependency theory) في الاقتصاد. من قريرو تعلمت الكثير من قواعد الإدارة العامة، خاصة بحكم تفاعلي مع سكرتارية الأمم المتحدة، وسكرتاريات المنظمات الأخرى، إلى جانب إدارة المكتب التي عُهِد بها إليّ، كلفني قريرو أيضًا بمهمة الاتصال مع الأجهزة الجزائرية ذات الصلة بواجبات البعثة: وزارة الخارجية، وزارة المالية، الوزارات الفنية مثل الزراعة والتعليم والصحة. التواصل مع مسؤولي تلك الوزارات مكنني من التلاقي مع عدد من مسؤولي جبهة التحرير، وكانت الجبهة هي محطة توليد (Power – house) القرارات السياسية للحزب أو الموجهات لبرامج الدولة. من أولئك الرجال والنساء ما زال البعض حيًّا، ومنهم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، ووزير الخارجية آنذاك وشريف بلقاسم ووزير التربية في ذلك الوقت،

والسفراء الأخضر الإبراهيمي، ومحمد سحنون، والعياشي ياكر، كما غيب الثرى آخرين من أفاضل الناس أذكر منهم: محمد بن يحيى، وتوفيق بوعتورة، ومحمد يزيد.

الجزائر في تلك الفترة كانت قطب الرحى لحركات التحرر الأفريقي إذ ضمت في ذلك الزمان كل حركات التحرير الأفريقية: موزمبيق، أنقولا، الكونغو. اللقاء والتحاور مع ممثلي تلك الحركات حول قضايا أفريقيا جعلني أهتم بها لم يكن يحتل أدنى مقام في اهتماماتي في السودان، وكيف أن يكون له ذلك في الوقت الذي لم يكن فيه أي واحد من الأحزاب الوطنية الكبرى في السودان تولي اهتمامًا لهذه الحركات لا في برامجها أو عبر التواصل معها. فلو سألت أي واحد من رجالات تلك الأحزاب عن قيادات فريليمو في موزمبيق أو المؤتمر الأفريقي في جنوب أفريقيا أو يونيتا في أنجولا لما تعرف على واحد منها، رغم أن أغلبهم كان يحفظ عن ظهر قلب أسماء مناضلي حركة التحرير الفلسطينية. لهذا حق لي مساءلة النفس عن كيف أمكن للجزائريين والمغاربة أن يوفقوا ما بين عروبتهم وإسلامهم، من ناحية، وبين ارتباطهم مع أفريقيا ارتباطًا عضويًا، من ناحية أخرى. ساءلت النفس مرة أخري لماذا عجز آباء الاستقلال في السودان عن استغلال كل الميزات التفضيلية التي توافرت للسودان جغرافيًا بحكم إطلاله من قلب القارة على شرقها وغربها ووسطها وشمالها؛ وتاريخيًا بحكم أنه موطن أول حضارة في وادي النيل؛ وثقافيًا عبر اللغات المشتركة مع الدول الأفريقية: النيجيرية - الكنغولية - الكردفانية التي تأثرت بها لغات الغرب الأفريقي مثل الهوسا و الفولانية؛ والنيلية الصحراوية التي أخذت منها لغة الشاري في تشاد والولوف في السنغال؛ والنوبية – الكوشية التي امتدت من دنقلا وبلاد المحس إلى النوبة في مصر، وكان لها أثر على الأمهرية والتيقرية في هضاب الحبشة. هذه الهبات التي تعبر عن عبقرية المكان والزمان جعلت أفريقيا تتطلع إلى السودان، خاصة بعد استقلاله، بقدر كبير من الأمل وترجى منه خيرًا كثيرًا، ولا نورد كلمة الرجاء بمعناها القاموسي، أي رجاء أمر يستبعد حدوثه. فمثلًا، انتابني شعور

بالفخر في الجزائر حين رأيت في حفل تدشين استقلال الجزائر سودانيًّا يمثل الأمم المتحدة (مكي عباس بوصفه أول سكرتير تنفيذي للجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لأفريقيا)، وسودانيًّا آخر يمثل الجامعة العربية (الدرديري أحمد إسماعيل نائب الأمين العام للجامعة). كما زاد فخري عندما وقع الاختيار في مطالع استقلال الجزائر على دبلوماسي سوداني لرئاسة اللجنة الأفريقية للتوسط في حل أول نزاع بين الدولة الحديثة وجارتها المغرب، هو وكيل الخارجية السودانية محمد عثمان يس.

لاشك في أن أدعياء المعرفة الذين يرددون كلما جاء حديث عن دور السودان في أفريقيا أن السودان هو أول بلد أفريقي منح نيلسون مانديلا جواز سفر، أو استضاف حركة تحرير الكاميرون بقيادة فيليكس مومي، لا يدركون ما نريد ونقصد بالحديث. هؤلاء يجهلون شيئين مهمين: الأول هو أن السودان هو أول بلد أفريقي يستقل وأكبر بلاد القارة الأم مساحة إلى جانب تمتعه بقيمة مضافة لم تتوافر لدول أفريقيا الأخرى تكمن في شيئين: تنوعه الإثني والثقافي الذي جعل منه محورًا للتلاقي بين أفريقيا شمال الصحراء وجنوبها، وحسن النية التي أبدتها كل دول أفريقيا لإحلال السودان في موقف الريادة عند استقلاله. وشتان بين قول قائل إن السودان قد آوى هذا المناضل الأفريقي، أو منح جواز سفر لمناضل آخر وقول آخر إن أحزاب السودان لم تكن تولي القارة اهتمامًا في برامجها السياسية، ولعلني أستثني من الأحزاب السودانية، الحزب الشيوعي الذي كانت له علاقة مشهودة، إن لم يكن مع المؤتمر الوطني الأفريقي، فعلى الأقل مع جناح منه هو الحزب الشيوعي بقيادة جو سلافو الجنوب أفريقي الأبيض ذي الأصل اللثواني (رحل في عام 1995). الحزب الشيوعي بجنوب أفريقيا كان حزبًا فريدًا إذ قرر بمحض إرادته الانصهار في المؤتمر الأفريقي بحسبانه قائد حرب التحرير في جنوب أفريقيا، وعندما سئل سلافو إن كان هناك تناقض بين موقف جماعته الماركسية وبين الحزب الأفريقي الغالب قال: "المؤتمر الوطني يتكون من أعضاء من طبقات مختلفة إذ يضم العمال والطبقات الوسطى والرأسماليين، وهذا هو

مصدر قوته". وعندما سئل: "وماذا تفعلون كحزب ماركسي عندما يقع خلاف بينكم وبين مخالفيكم في العقيدة السياسية"، قال: "نحن ملزمون برأي الأغلبية". ومن الواضح أن الحزب الشيوعي الجنوب أفريقي، بموقفه ذلك، قد قدم الوطن على العقيدة، وهذا ما لم يفعله الحزب الشيوعي السوداني، وكان مصدرًا لأول انشقاق شهده الحزب الشيوعي بين جناحي عبد الخالق محجوب وعوض عبد الرزاق.

هذه الاعتبارات جعلتني أتساءل عن كيف ظل الجزائريون يعيشون مع أفريقيا مشاكلها، ويفتحون قلوبهم قبل بيوتهم لأهلها، ويذودون عن حماها، ويتفاعل ساستهم تفاعلًا مباشرًا مع سياسييها دون إحساس بالتناقض في كل هذه المواقف. فإن كانت نيويورك فاتحة عين لي على الآلام التي يولدها الميز العنصري في نفوس (psyches) مَن يتعرضون له، فقد كانت الجزائر هي المصباح الذي أنار لي الطريق نحو أفريقيا. كم تمنيت لو أن السودان بادر بإحلال السياسة الأفريقية مكانًا أعلى في سياسته الخارجية كما فعلت الدولة الجزائرية التي استقلت بعد عقد من الزمان من استقلال السودان، فبسياستها تلك أضحت الجزائر مثابة وأمنًا لكل قيادات حركة التحرير الأفريقي يتعلمون من تجربتها النضالية وينشدون عونها في نضالهم. تلك التجارب قادتني إلى لَمح باصر للأمور ومن ذلك مراجعة منظومة القيم، أو إن أردت الأوهام التي أكسبتني وعيًا زائفًا بالذات حملتني على إعادة تقويم نظرتي لنفسي وللآخر، ثم مقارنة أسلوب المجتمع الذي نشأتُ فيه في معالجة بعض الظواهر الشاذة عما خبرته في بلاد المهجر.

في فترة إقامتي في الجزائر كنت أتبادل الرسائل مع زميل دراستي حسن الترابي الذي كان يعد العدة لإكمال دراسته الحقوقية في باريس، وقد أكملها بنيله دكتوراه الدولة من كلية الحقوق بجامعة باريس رغم نفيه المزعوم لحصوله على تلك الإجازة العلمية. ولربما كان ذلك النفي إما سخرية من السائل، أو هزءًا بالدرجة العلمية، فعند الفقهاء "العلم في الرأس لا في الكراس". رسالتي الأخيرة للترابي كانت مواصلة لنقاش كان يدور بيننا في مطاعم باريس أو في منزل

محاسب سفارة السودان (عباس محمد الأمين) الذي كان يستضيفنا في سخاء دون أن يشغل نفسه بما كنا نتناقش (وفي بعض الأحيان نتجادل) فيه. في تلك الرسالة كتبت للترابي أروي له عن تجاربي في الجزائر، مضيفًا أنني بدأت أنعطف نحو اليسار وربما كان ذلك تأثرًا بتعبير شائع عند يساريي فرنسا الذين كانوا يطلقون على أنفسهم "مثقفي اليسار" واتخذوا لأنفسهم شعارًا: "اليساريون وحدهم هم المثقفون إذ لا مثقفين في الاتجاه الآخر" (les intellcutels de gauche parce que il n'ya pas intellectuels adroit). على تلك الرسالة رد الترابي وهو يعد العدة للرحيل إلى السودان برسالة بدأها بقوله: "أما أنا فقد اخترت طريق الميمنة"، ويا لها من قالة كان لها ما بعدها.

أيًا كان الأمر، من النتائج التي قادتني إلى مراجعة النفس اختيار النخبة السودانية الشمالية لنفسها، وبإرادتها هوية للسودان اعتبرتها هويته الوحيدة (الهوية العربية الإسلامية) ولا هوية له غيرها. بتلك الهوية المتفردة التي تلغي الآخر ظلت النخبة السودانية مفتونة مولهة، والوله هو الافتتان بالمحبوب لحد ذهاب العقل. ذلك الالتباس الكبير حول هوية السودان حمل تلك النخبة على التعامي عن الحقائق رغم أن الله قد خلق السودان، في ظني؛ ليكون أكبر مختبر بشري للتعايش السلمي بين الأقوام. ذلك وضع للسودان تأبته قيادته منذ أن قررت في مؤتمر الخريجين اختصار الهوية السودانية في جانب واحد منها هو عروبة الأصل. ويكذب من يدعي، ويخطئ من يظن، بأنني أنكر أصولي الثقافية العربية - الإسلامية أو أتنكر لها؛ ففيما أكتب، كما في الأسلوب الذي أكتب به، ما ينفي عني شنعة الإنكار. في الوقت نفسه أكون من الجاهلين الغافلين لو ظننت أن عُلقى الإنسان بأي ثقافة مهما كان من متانتها تتحول تلقائيًا إلى انتماء عرقي بأهل تلك الثقافة لأن في ذلك جهلًا فاضحًا بسيرورة البشر، وتلاقح الشعوب، والمثاقفة بين الجماعات الإنسانية. لهذا السبب ظللت أجيب بالنفي لمن يتساءل عندما يراني أتحدث بحماس كبير عن حقوق الجنوبيين: "هل أنت جنوبي؟". كنت أجيب بالنفي أيضًا عندما يسألني السائل نفسه: "هل أنت شمالي؟". وعندما يتكرر

السؤال: "أذن ما أنت؟"، أجيب:"أنا سوداني"، ودون توقف عند ذلك الرد أمضي للقول: "أنا إنسان لأن الإنسانية المحضة هي الرابطة الوحيدة التي تجمع بين بني البشر على اختلاف أشكالهم وأعراقهم، بل لا مستقبل لشعب لا يعترف بالمشترك الإنساني بين الشعوب، ولا يغترف منه لتمتين عرى الصداقة فيما بينها. فالهوية الوطنية في وطن متعدد الأقوام التي تقتصر على الأنويه (من أنا) بدلًا من أن تعبر عن نفسها بضمير الجمع "نحن" هي إما هوية مزعومة أو موهومة، وفي الحالتين هي هوية زائفة.

لذلك عندما نتحدث عن قبول المكونات الأفريقية للشخصية السودانية لا نعني بحال التظاهر السياسي أو الدبلوماسي بالانتماء الأفريقي، وإنما الاستبطان لماهية ذلك الانتماء. وهذا لا يكون، كما أوردنا من قبل، إلا بقبول، والتعايش مع، أفريقيا التي بداخلنا. التصالح مع النفس في ظل الواقع السوداني يحتم قبول الآخر واحترامه والتحاور معه على أساس من الندية الكاملة. ولو كان جيل آباء الاستقلال قد أصغى للنصائح التي جاءته من خارج السودان (المؤرخ توينبي) ومن داخله (إبراهيم بدري) لما أخذت الحروب الداخلية تترى في جنوب السودان أولًا، ثم من بعد في جنوبه الشرقي وغربه ووسطه (النيل الأزرق، جبال النوبة، دارفور). وتمامًا كما عجزنا عن تبيئة الديمقراطية في التربة الوطنية بسبب هيمنة مؤسسات غير ديمقراطية (الطوائف الدينية) على السياسة، عجزنا أيضًا عن إدارة التنوع الإثني والثقافي لأننا لم نعترف به أصلًا. ولا يقولن أحد إن دستور السودان وقوانينه (وكلها من مخلفات الاستعمار) لا تبيح التمايز بين المواطنين لأن العبرة ليست فقط في الدساتير حتى وإن صغناها بأنفسنا ولم يورثنا لها القاضي البريطاني ستانلي بيكر. وإنما في الثقافة العامة السائدة. الثقافة ليست جبلة فطرية ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم: 30]، بل هي خلة تغرسها في نفوس المواطنين النخبة السياسية المهيمنة، والصفوة الثقافية الرائدة، وليس أدل على ذلك من أن موضوع الهوية لم يحتل أي موقع في برامج الأحزاب الغالبة مثل الحزب الاتحادي وحزب الأمة، كان ذلك في تقصي جذور الصراعات

الأهلية (بين الجنوب والشمال مثلًا)، أو وضع سياسات لتطوير ثقافات السودان المتعددة، أو في تعميق المفاهيم العامة عن التعايش السلمي بين أقوام السودان. أما الأحزاب العقائدية الحديثة (الأمميون والقوميون والإسلاميون) فقد جعلوا مستقبل السودان كله منذورًا لرهان نظري لا يتجاوز تفسيرها الأيديولوجي للدنيا وما فيها، وستكون لنا عودة لهذا الموضوع.

زوار سودانيون للجزائر

لن أغادر الجزائر دون إشارة للآباء والصحاب من السودانيين الذين زاروني في الجزائر. أول هؤلاء هو الأستاذ أحمد مختار سفير السودان لمصر الذي وفد إلى الجزائر لتقديم أوراق اعتماده كأول سفير للسودان في أرض المليون شهيد. تلك كانت هي المرة الأولى التي يبلغ فيها الجزائر، بعد استقلالها، سفير سوداني، وكانت وراء وفوده قصة. فعند سفري إلى الخرطوم في إجازتي السنوية أبلغني الإخوة الجزائريون بحرصهم على وجود السودان بين زمرة الدبلوماسيين العرب وكانت الدول العربية الممثلة في الجزائر آنذاك هي فقط المغرب وتونس ومصر والمملكة الليبية. وعند وصولي الخرطوم توجهت على التو إلى الوزير أحمد خير لأبلغه بالأمر. قال لي الوزير **"الجزائر مهمة ولكن ما عندنا فلوس"**. قلت له: **"على الأقل في مقدور السودان أن يبعث بسفير غير مقيم مثل سفير السودان في القاهرة"**. سألني الوزير: **"وده حيكلفنا كم؟"**. قلت له: **"سيكلفكم كتابة أوراق اعتماد السفير وسفر وإقامة السفير ومن يصحبه من الدبلوماسيين لفترة قد لا تزيد على الأسبوع"**. وفي الحال أصدر الوزير توجيهًا للوكيل بما يلي: **"حضروا أوراق اعتماد زي البتعملوها بالخط المكعوج لأحمد مختار كسفير في الجزائر"**. لا ضرر ولا ضرار، ولكن أدهشني وصف الوزير بالخط المكعوج للخط الرائع الذي كان العم عبد الله وقيع الله يعد به تلك الوثائق"، والعم عبد الله هو والد الحروفي الماهر عثمان عبد الله. ولئن كانت زيارة أحمد مختار هي زيارة رسمية فإنها أتاحت لكلينا فرص لقاءات متعددة خلال الأسبوعين اللذين قضاهما في الجزائر، فأحمد مختار معلم يأنس المرء بمجلسه ويتعلم منه الكثير.

ثمة زائران سودانيان سعدت بزيارتهما لي في الجزائر: الصديق مزمل سلمان غندور، والأخت سعاد الفاتح البدوي. زيارة مزمل كانت تلبية لدعوة وجهتها له إبان عمله كملحق عسكري في لندن، وعندما أبلغت شريف بلقاسم وزير التربية والإعلام عن تلك الزيارة -وكان من أصدقائي المقربين- قرر أن يكون معي عند استقباله في المطار وفي ذلك تكريم ما بعده تكريم، خاصة وقد كان جمال (الاسم الحركي لشريف بلقاسم) من أبناء بومدين المقربين ولهذا عهد إليه بوزارتين مهمتين. قضى مزمل معي بضعة أيام كان فيها محل حفاوة عند الإخوة الجزائريين في جبهة التحرير وفي الجيش. أما سعاد فقد تعرفت عليها ونمت علاقاتي العامة بها طوال فترة الدراسة في جامعة الخرطوم، وهي علاقات لم تفتر رغم الخلاف الفكري بيننا. وقد حلت سعاد بيننا للمشاركة في ندوة نسوية، وكان من الواجب عليَّ الاحتفاء بها. وفي خلال الفترة القصيرة التي قضتها سعاد في الجزائر وقع حادث لن أنساه؛ فما كنت لأعيش حتى أسجل هذا الكتاب لو لا صيحة ندت من سعاد. خرجنا معًا وأنا أقود سيارتي في رحلة في الريف الجزائري حتى أتيح للزائرة الكريمة مشاهدة ذلك الريف المخضر أبدًا، وفجأة انطلقت من السيدة صيحة صحبتها كلمة تصدر من السيدات السودانيات عندما تدهمهنَّ داهية، في تلك اللحظة أدركت أنني أقود السيارة في الاتجاه الخطأ، وفي شارع كثيرًا ما تغشاه الشاحنات. تلك الصيحة أنقذت كلينا من موت محقق ولله الحمد .

الرحيل إلى باريس

أصبحت الجزائر بسبب ما لقيت فيها من حفاوة وود وطنًا ثانيًا لي، وذلك إحساس لم يفارقني أبدًا ولهذا ودعت الجزائر باكيًا حين أزف الرحيل. التفكير في الرحيل بدأ بعد انتقال بيريز قريرو إلى بلاده ليحتل موقعًا وزاريًا لم يلبث أن عاد منه إلى الأمم المتحدة كمدير للانكتاد كما سلفت الإشارة. وفي مكان قريرو حل كممثل لمكتب الأمم المتحدة للمعونة الفنية موظف إسباني كان ينسب نفسه للجمهوريين الذين خاضوا غمار حرب التحرير الإسبانية. قال عن ذلك الرجل واحد من نوابغ الاقتصاديين كان يعمل مستشارًا اقتصاديًا لبعثة الأمم المتحدة

بالجزائر (بروفيسور بالوغ من أكسفورد): "أنت في حاجة للقاء مثل هذا الرجل كيما تعرف لماذا خسر الجمهوريون حرب التحرير في إسبانيا". أراد الله خيرًا ببالوغ فسخر له هارولد ويلسون لكيما يستدعيه لبلاده عند توليه الحكم ليرشحه "اللوردية" ويعينه مستشارًا اقتصاديًّا له، أما صاحبكم فقد جاءه الغوث على يد خلدون الكناني مدير الإدارة العربية باليونسكو. ففي إحدى زياراته التفقدية للجزائر عرض عليَّ الكناني أن أكون مساعدًا له في درجة أعلى من الدرجة التي كنت أحتلها في الجزائر، ورغم إنها كانت من الدرجات الوسيطة في سلم الوظيفة قبلت العرض على الفور، فعلت ذلك ليس فقط للخلاص من "المناضل الإسباني"، بل أيضًا لأن العودة لباريس ستمكنني من إكمال دراستي. رغم ذلك ودعت الجزائر حزينًا باكيًا كما ودع ابن زريق البغدادي قمره بالكرخ، فقد كانت لي بالجزائر شموس وأقمار:

أستودع الله في بغداد لي قمرًا	بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني	صفو الحياة وإني لا أودعه

لم تكن تلك هي الإقامة الأولى لي في فرنسا، فقد أومأت من قبل إلى إقامتي الأولى فيها لتعلم اللغة أولًا في معهد الأليانس بباريس، ومن بعد في مدينة بزانسون (Besacon) عاصمة إقليم فرانش كومتي في شرق فرنسا، فقرينوبل (Grenbole)التي ترقد في سفح جبال الألب في إقليم الألب والرون؛ ولذلك نعتت بعاصمة الألب، وأخيرًا في مدينة تور (Tours) التاريخية والواقعة بين أورليانز وساحل الأطلسي. وفي الرحلة الأخيرة كان رفيقي في السكن والدراسة العالم المؤرخ عثمان سيد أحمد البيلي. فيما بعد رحلتي الجزائرية ارتحلت إلى مدينة النور (باريس) للعمل في منظمة دولية (اليونسكو) ثم الالتحاق بجامعة باريس للحصول على الدكتوراه. فما إن حللت بباريس حتى بدأت في تسجيل انتسابي إلى كلية الحقوق بجامعة باريس الأولى (Paris 1) في حي البانثيون، وكنت حظيًا بإيكال الإشراف على بحثي لواحد من أميز فقهاء القانون الدولي، البروفيسور

تشارل روسو. كان روسو عضوًا فاعلًا في اتحاد القانون الـدولي (International Law Association)، وممثلًا لفرنسا في القضايا التي كانـت تطـرح عـلى محكمـة العدل الدولية، كما ألف عشرات الكتـب في مجـال القـانون الـدولي منهـا مقدمـة المبادئ العامة في القانون الدولي العـام (1944)، ثبـت الـصراعات الدوليـة بـين (1939 - 1945)، القانون الدولي العام (1953)، والاتفاقيات الدولية في خمسة أجزاء (1983)، وقانون النزاعات المسلحة (1983). وقد درج الناس، خاصـة في السودان، على وصف كل مَن تخرج في جامعة باريس بخـريج الـسوربون دون وعي منهم بأن السوربون هي فقط كلية الآداب والإنـسانيات في تلـك الجامعـة. كلية الحقوق التي التحقت بها كانت جزءًا مما عرف بجامعـة بـاريس (1) وذلـك الترقيم لم يكن له معنى قبل تولي الجنرال ديجـول الحكم إذ كانت جامعة بـاريس هـي الأولى تاريخيًـا في تلـك المدينـة، ولكـن بعـد تـولي الجنـرال الحكـم وقـراره بالانسحاب من الناتو، وطردها مـن المبنـى الـذي كـان تحتلـه في بـورت دوفـين بباريس قرر الجنرال ديجول أن يصبح ذلك المبنـى مقـرًا لجامعـة ثانيـة في بـاريس أصبحت تعرف بباريس (2).

جامعة باريس الأولى التي التحقت فيها بكلية القانون تقع في الحي اللاتينـي في الحيين الخامس والسادس من باريس، وهو حي مضمخ بعطـر الحـضارات إذ يضم، إلى جانب الجامعة، أهم المعاهد الفرنسية العليا مثـل معهـد التربيـة العـالي (Ecole Normale Supérieure)، كما كان البانثيون مرقدًا للخالدين من رجـال فرنسا العظـماء الـذين أدّوا دورًا مهـمًا في تـاريخ وطـنهم في الفـن والأدب. لهـذا وضـعت في مـدخل البـانثيون لافتـة تقـول "لعظـماء الـوطن إقـرار بالجميـل" (Aux Grands Hommes de La Patrie Reconaissance). ويعـود إنـشاء البانثيون إلى عام (1791) حين حولته الثورة الفرنسية من كنيسة سـان جنفييـف (السيدة الراعية لفرنسا) إلى مرقد للعظماء. أول الخالدين الذين أودعت رفاتهم في البانثيون هو زعيم الثورة ميرابو (1791) وتلاه من سياسييها ومفكريها جان بول مارات (1794)، وجان جاك روسو (1794)، وفكتور هوجو (1885)، وإميل

زولا (1908)، أندريه مالرو (1996)، وإيمي سيزار (2011) وبما أن الأخير قد قُبِرَ في المارتنيك فإنه كُرِّم بوضع لوحة باسمه. وقد يفيد أن يلم القارئ بأن سيزار ذا الأصول الأفريقية كان شيوعيًّا قبل تخليه عن انتظامه الحزبي دون التخلي عن ماركسيته، مع ذلك كرمته فرنسا لإسهامه في إثراء الأدب الفرنسي دون اعتبار لعقيدته السياسية أو أصله العرقي.

ما زرت، أو حللت بمكان إلا وحرصت على التأمل في كل ما يحيط بي، وسعيت فيها بعد لاستيحائه فيها أروي وأكتب، فكيف الحال بمدينة لا تنقطع أعاجيبها، والأعجوبة وصف لكل ما يستهوي الإنسان ويسر به. أعجبني في باريس حدائقها الباسقة، ومقاهيها التي ترتادها كل يوم لترى أمامك، كما يقول الفرنجة، العالم وزوجته (the world and his wife) يسيران. كانت باريس أيضًا تحفل بمكتباتها التي تحتوي على ذخائر للمعرفة التي لا يرتوي منها قارئ حتى وإن أنفق الشهور في قراءتها. وكم كانت تنتابني غبطة غامرة عندما يفد إلى باريس في الصيف الدكتور التجاني الماحي إذ كنت في خلال زياراته للمدينة أوالي صحبته عصر كل يوم للحجيج إلى المكتبات، خاصة المكتبات التي تحتوي على المخطوطات القديمة. أدهشتني اهتمامات التجاني بالتاريخ والجغرافيا وإلمامه بالمواقع التي يمكن اللجوء إليها للعثور على ما يسعى ذلك العالم الموسوعي لحيازته. التجاني لم يكن طبيبًا نفسانيًّا فحسب، بل كان أيضًا بئرًا رشوحًا للمعرفة، كما كان جوادًا بالمعارف على مَن لا يعرف. لهذا من حقي أن أتساءل عن أين ذهبت هذه النفائس التي جمعها ذلك العالم الموسوعي. في إحدى الصحف الخرطومية أبلغني أحد أبنائه النجباء (الأستاذ أحمد الصافي) قصة فيها ما يسعد وفيها ما يشقى. لقد أودعت أسرة العالم الراحل 14.202 كتاب في الطب والموسيقى والرحلات وعلوم النبات والحيوان جمعها الدكتور التجاني خلال حياته العلمية الثرة لدى مكتبه جامعة الخرطوم. تلك المجموعة الأثرية من الكتب والخرائط وبعض المخطوطات التي لم تنشر تقلصت عند جرد المكتبة في عام 2001. إذ فقد منها ما يزيد على الألف أثر. هذه هي القصة التي تشقي. أما

ما يسر فهو أن إدارة المكتبة الجديدة قد تمكنت بعون إيطالي من إعادة تأسيس المكتبة بحيث أصبحت كما يجب أن تكون عليه المكتبات، ونسأل الله أن تبقى على ذلك النحو.

حول الحديث عن باريس، لن أستطيع، مهما أوتيت من براعة في التعبير، أن أوفيها حقها من الإشادة بأكثر مما قال عنها واحد من أرباب القلم عاش فيها ثلاث سنوات ينشد العلم ويُغذي الروح ويُسعد النفس. قال الدكتور محمد حسين هيكل عن باريس: "أعترف بأني أعتبر السنوات الثلاث التي أقمتها في صدر شبابي في باريس أسعد أيام حياتي وأعمقها أثرًا في تكوين نفسي واتجاه ثقافتي، وإني لذلك أحبَ باريس وأخلص الحب وأدين لها بولاء لا تجني عليه الأيام. فقد يختلف رأيي مع الفرنسيين في أمر من الأمور، وقد يبلغ هذا الخلاف من نفسي مبلغ الموجدة عليهم. فإذا عدت إلى باريس -بل إذا ذكرت باريس- نسيت أن يكون بيني وبين أهلها خلاف كما تأسف أنت إذا اختلفت مع أعز حبيب عليك، وأحب صديق إليك". حديث هيكل هذا جاء في زمان مخاض فكري في مصر تدافع فيه رجالاتها إلى أرض الفرنجة ليغذوا عقولهم بتجارب الآخرين..ذلك كان زمان محمد حسين هيكل وعبد الرازق السنهوري في القانون، وأحمد لطفي السيد رائد الليبرالية، وطه حسين عميد الأدب، والإمام المجدد محمد عبده. هؤلاء رجال مازالت مصر تحتفي بهم ولكن أو تدري أين أصبح موقع بعضهم في سوداننا المعاصر؟ اقرأ ما يسمى منهج الثقافة (نعم الثقافة) الإسلامية في كبري جامعاتنا (جامعة الخرطوم) لتعرف المكان الذي أولاه ذلك المنهج لبعض هؤلاء الفطاحلة، سماهم "أئمة العلمانية والكفر". ولئن يجعل عالم بزعمه من طه حسين وأحمد لطفي السيد إمامين للعلمانية والكفر، لا الاستنارة والفكر، فما ذلك العالم إلا ممن سماهم زياد ابن أبيه في خطبته البتراء "أهل الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء"، فما كِل علماني كافرًا، ولا كل كافر هو ضربة لازب علمانيًا.

موضوع البحث الجامعي

موضوع بحثي للدكتوراه كان هو النظام الدولي لمياه النيل (le Regime International des Eaus du Nil)، وقد جاء اختياره من جانب البروفيسور روسو إلا إنه لاقى قبولًا كبيرًا من جانبي لإعجابي بذلك النهر العظيم. فمنذ زمان ظللت أقرأ عن النيل من عيون الشعر المعاصر ما أنشده: البارودي، شوقي، وحافظ، والتجاني يوسف بشير، ومن الأدب القديم ما دونه البلدانيون (الجغرافيون) العرب مثل ابن حوقل "صورة الأرض"، والمسعودي "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، إلى جانب ما رواه عن النيل الكاتب النمسوي إميل لود فيج (Emil Ludwig)، ثم الجغرافيون المحدثون: محمد عوض محمد (النيل)، وعبد العزيز كامل. إضافة إلى هؤلاء قرأت ما سجله الباحثون مثل آلان مورهيد (النيل الأبيض والنيل الأزرق)، ومن هذين الكاتبين بالذات تعلمت الكثير عن أهم نهرين في السودان: النيل الأزرق بهديره وطموح موجه، والنيل الأبيض بصمت موجه وهدوء انسيابه، أو بتعبير أهلنا "بحر أبيض لا موج لا عِرِق".

لاهتمامه بالموضوع، ولأنني كنت أول سوداني يتلقى العلم على يديه، أبدى روسو عناية كثيرة بي زادت من ثقتي بنفسي وتولدت بيني وبينه علاقة دامت حتى رحيله في مطلع سبعينيات القرن الماضي. ولعل الذي شجعه أيضًا على الاهتمام بأمري أنني كنت آنذاك موظفًا باليونسكو. كان روسو موسوعي المعرفة ولهذا لم يقلقه في شيء استشهادي فيما كتبت بعلماء القانون الدولي الانجليز والأمريكان وإيرادي في البحث لما قرأت عنهم باللغة الأصلية التي جاءت بها كتاباتهم، إلا إن أستاذًا آخر كان من ضمن الفريق الثلاثي الذي كنت سأقف أمامه عند الامتحان الشفوي الأخير دعاني ذات يوم ليقول: "أولم تجد في اللغة الفرنسية كلمات تعبر بها عما تريد قوله بدلًا من هذه اللغة الهمجية" (cette langue barbare)، واللغة "الهمجية" التي عناها الأستاذ بول بالتا هي الانجليزية. امتثالًا لرأي الأستاذ المعتد بلغته قمت بنقل النصوص التي أوردتها بلغة "همجية" هي لغة شيكسبير

إلى لغة "متحضرة" هي لغة راسين وموليير. رغم ذلك هرعت إلى روسو لأبلغه بما حدث مع رفيقه جورج بالتا، وكيف أنني قلق من الوقوف أمام هذا الأستاذ "السخيف". تعبير السخيف أطلقه روسو على زميله مما بعث في نفسي شيئًا من الطمأنينة.

الشهادة التي كنت أسعى لنيلها هي ما يُسَمَّى دكتوراه الدولة في القانون (doctorat d'etat) ولتعريف القارئ بتلك الدرجة نقول إنها الأعلى من بين إجازات أخرى للدكتوراه مثل دكتوراه الجامعة (doctorat d'unversite) ودكتوراه المرحلة الثالثة (doctorat de troisiem cycle). ومن الذين سبق أن نالوا دكتوراه الدولة من السودانيين بشير البكري وحسن الترابي الذي وردت الإشارة إليه قبل قليل، ثم تتالى عددهم فيما بعد، خاصة في مجال القانون. وكان من بين الذين حضروا استعراضي لرسالتي السفير السوداني عبد الله الحسن ونائب السفير المصري عز الدين شرف وهو الشقيق الأكبر لسامي شرف مدير مكتب عبد الناصر، ومن الدبلوماسيين الذين كانوا يتدربون في باريس: فاروق عبد الرحمن وهاشم التني.

بعد مضي ثلاث سنوات من العمل باليونسكو ونيلي الشهادة التي كنت أتمنى نولها بدأت التفكير في الخطوة التالية: إما السعي لموقع آخر في اليونسكو مثل الإدارة القانونية للمنظمة، أو العودة إلى عملي في الإدارة القانونية في الأمم المتحدة، أو التوجه إلى التدريس. صحب ذلك التفكير اتصالات مع صحابي في المنظمات الدولية وأساتذتي وأصدقائي في الجامعات المختلفة في الولايات المتحدة. خلال التفكير والمشاورات وقع حدثان كان لهما أثر في تغيير مساري: الأول هو ترشيح المدير العام لي لأكون رئيسًا لأول مكتب إقليمي لليونسكو في أفريقيا، والثاني دعوة ثورة مايو لأن أنضم إلى ركبها. وقبيل ذلك جاءتني رسالة من جورج كودينق، أحد أساتذتي في جامعة بنسلفانيا، يدعوني فيها لزيارة الجامعة التي أصبح فيها رئيسًا لشعبة العلوم السياسية (جامعة كلورادو) للانضمام إلى

هيئة التدريس بها لمادة قانون المنظمات الدولية (Law of International Organizations) خلال النصف الأول من العام الدراسي.

ذات يوم دعاني المدير العام إلى مكتبه فهرعت إليه واجلًا، وما إن بلغت مكتب الرجل حتى بادرني بالحديث ليقول لي: "دعوتك لأمرين، الأول هو تهنئتك على الدرجة التي نلتها من واحدة من أعرق جامعاتنا، والثانية لإبلاغك بعزمي على إيفادك إلى أديس أبابا لافتتاح أول مكتب إقليمي لليونسكو في أفريقيا، على أن يكون ذلك في العام القادم". شكرت المدير العام على تهنئته لي وثقته بي متمنيًا أن أكون عند حسن ظنه، إلا أني أردفت بإبلاغه عن رغبتي في أخذ إجازة سبتية بدون مرتب لألتحق بجامعة كلورادو كأستاذ زائر في الفترة الأولى من العام الدراسي. قال ماهيو: "هذا عمل جليل لا أملك أن أحرمك منه، ولكني لن أخلي طرفك ما لم يوافق مديرك على هذا". وكان ماهيو يشير بذلك إلى المدير الإيطالي للقسم المستر تيرينزيو الذي أصبح فيما بعد أمينًا عامًّا للاتحاد الدولي للبرلمانات. وقد استجاب تيرينزيو بدون تردد بفك إساري، إن جاز التعبير.

في دنيا الخيل

في الحديث عن عبد الله بيه خليل أشرت إلى ولعه بالخيل وممارسته للنشاطات المتعلقة به عندما كان قادرًا على ذلك، فاهتمام عبد الله بيه بالخيل لم يقف على تربية الخيل واستيلادها ورعايتها بل شمل أيضًا رياضاتها: السباق والفروسية. لأجل ممارسة تلك الرياضات أنشئ أكبر نادٍ لسباق الخيل في السودان (الخرطوم) على قطعة أرض بلغت مساحتها 167 فدانًا باسم نادي سباق الخيل، ووقع على وثائق تسجيل تلك الأرض، نيابة عن النادي: عبد الله بك خليل بوصفه رئيسًا للنادي. ومكاوي سليمان أكرت كسكرتير له. وعبد القادر يوسف هاشم كأمين للصندوق. وما إن ألم الناس بمباريات سباق الخيل حتى أصبحت هي الرياضة الأولى التي يهتم بها الناس بعد مباريات كرة القدم. وأعترف بأن اهتمامي الأكبر لم يكن أبدًا بتنسيب الخيول والتمييز بينها، وإنما كان بالجانب الترفيهي من نشاطها.

الاهتمام بالجانب الترفيهي من تلك الرياضة هو السبب الذي يدفعني إلى العودة لموضوع الخيل وأنا في باريس إذ أحيت تلك المدينة في نفسي الحنين إلى مشاهدة سباق الخيل التي خلفتها وراء ظهري بعد مغادرتي السودان. كان ذلك عند لقائي في تلك المدينة مع صديق أرمني سوداني تطغى سودانيته على أرمنيته هو سورين فانيان الذي كان له ولأسرته اهتمام كبير بالخيل في الخرطوم. وعندما ضاق بتلك الأسرة العيش في السودان في سنوات الهوس الديني قرر سورين ثم أخوه قارو الرحيل إلى باريس، حيث أصبح واحدًا من أصحاب الخيل المشهورين على شطي المانش (بحر الشمال): ففي إنجلترا إذ كانت له خيول جياد في نيو ماركت، وفي فرنسا كانت له خيول متميزة في شانتيي. كان سورين أيضًا يتخير لحصينه في سباق الخيل أفضل الجوكية في زمانهم: لستر بيقوت الانجليزي، وييف سان مارتن الفرنسي، كما كان يدعوني دومًا لحضور مسابقات الخيل في أكبر ميادين السباق في باريس: لونقشا (Long champ) وخارج باريس في دوفيل (Dauville)، وقد سعدت كثيرًا عندما رأيت اسم صديقي قد احتل مكانًا عليًا في قائمة مربي الخيل في فرنسا بعد الطبقة الأولى من المربين: أغاخان وروتشيلد ومحمد بن راشد، وبعد الطبقة الثانية التي ضمت رجل الأعمال والدينشتاين وآخرين. وعندما تردى الحال بسورين استضافه الشيخ محمد بن راشد وبقى في دبي في ضيافة ذلك الرجل النبيل حتى رحل عن الدنيا.

المباريات التي كان يدعوني لها سورين كانت، وما انفكت، تقام في أغلب أيام الأسبوع، ولكن أهمها كانت في أيام الأحد والعطلات الكبرى. وقد ابتدع الفرنسيس في تلك المباريات بدعة مدمرة للبعض ومثرية لبعض آخر هي تخصيص جوائز ثمينة في مباريات الرهان الثلاثي (tierce)، وهو رهان على تحديد الأفراس الثلاثة الأولى في المسابقات الكبرى. وقد أخذت ومجموعة من الأصدقاء السودانيين بالسفارة والمصريين في اليونسكو نتجمع كل يوم أحد في مقهى بمومبارناس لممارسة تلك اللعبة المثرية للبعض، و المدمرة لبعض آخر، ثم نتفرق بعد الغذاء إلى لونقشا لمشاهدة سباق الخيل على حقيقته. ولعلني أذكر من بعض

مدمني تلك اللعبة، دون تحريض مني، السفير عبد الله الحسن والمستشار الثقافي هاشم عثمان والدبلوماسيين جلال عتباني، ويوسف مختار، وهاشم التني.

كولعي بأي شيء آخر، كان ولعي بالخيل يحملني على القراءة عنه للاستزادة من المعرفة بما أحب. وبما أن الخيل من الموضوعات التي احتلت مكانًا رفيعًا في الأدب العربي حرصت على تقصي أمرها فيما كتب العرب، ولاسيما أنه كانت للحصان العربي شهرة فائقة في العدو. ولكن قبل الحديث عن أوصاف العرب للخيل لابد من الرد على سؤال هو: "كيف وصلت الخيول إلى بيداء الرعاة في السودان". فيما روى الأخباريون، دخلت الخيل السودان بدخول القبائل العربية، خاصة في غرب السودان، وكان على رأس مقتنيها الرزيقات، بني هلبة، الهبانية، التعايشة. وإن كانت المعارك الحربية هي المجال الأهم للاستخدام النفعي للخيل عند هذه القبائل إلا إنه سرعان ما أصبحت تُستخدم في الرياضات مثل السباق ورقص الخيول مع ضربات النحاس، وكان أول مَن اخترع هذه الرياضة السلطان شمار الرشيد في كتم. أما في السودان الوسيط فقد بدأ استخدام الخيل في الحرب في زمان المهدية وكان من أكبر فوارسه يونس ود الدكيم، كما كان الخليفة عبد الله نفسه لا يستعرض جيوشه إلا ممتطيًا فرسًا له سمّاه "عصار".

على أنّ الاهتمام بالخيل توليدًا ورعاية ورياضة في السودان الحديث لم يبدأ إلا في العهد الاستعماري، ولا غرابة في ذلك إذ عرف الانجليز بالاهتمام بالخيل ليس فقط في الحرب والفروسية، بل أيضًا في مباريات السباق منذ زمن بعيد. فقد أنشئ نادي الجوكي ببريطانيا، مثلًا، في عام 1750 وأشرف على وضع القوانين لإدارة أهم ميادين سباق الخيل في بريطانيا: أسكوت، شيلتنهام، داربي. تلك القوانين أصبحت مثالًا يحتذي في بقية أنحاء العالم. أما في السودان فقد بدأ سباق الخيل بدون موانع (flat racing) في عام 1908 قبل إنشاء نادي سباق الخيل بالخرطوم في عام 1919. بقي النادي بذلك الاسم حتى عام 1956 حين تقرر إضافة ألعاب الفروسية إلى نشاطاته فأصبح اسمه الهيئة العليا للفروسية ثم الاتحاد العام للفروسية في عام 1977. وفي السنوات الأولى التي أعقبت إنشاء ذلك النادي

أهدى الشريف بن علي في عام 1923 حصانًا عربيًّا لزوجة الحاكم العام السير لي ستاك فأهدته، بدورها، إلى احد رعاة سباق الخيل من السودانيين. وفي واقع الأمر لم تقتصر مساهمة البريطانيين في مجال رياضة الخيول على اقتنائها بل كان منهم أيضًا سُيّاس (Jockeys) مهرة منهم كبير الأطباء في مستشفى الخرطوم، الدكتور همفري، كما ظهرت في تلك الفترة جماعة من الجوكية السودانيين شاع ذكرهم بين الناس مثل: الجوكي زغبير. والجوكي إلياس الزبير باشا، والأمير مزمل على دينار.

منذ إنشائها، كانت رياضة سباق الخيل والفروسية عملًا أهليًّا يدعمه المهتمون بأمره، وكان أغلب رعاة الخيل في ذلك الزمان من رجالات الأعمال وكبار الموظفين. على رأس هؤلاء كانت دائرة المهدي، السادة كونتو ميخالوس، السادة أبو العلا، الشيخ محمد أحمد البرير، جورج ليكوس (صاحب سينما كوليزيوم الشهيرة)، السادة بيطار، الشيخ سرور رملي شيخ خط السافل، والسادة عثمان صالح. أما رئاسة النادي فقد تداولها جورج ليكوس، وعبد الحليم محمد، يحيى عمران، وعميد طبيب حمدنا الله الأمين، ومحمد الباقر أحمد، وعثمان صالح سوار الذهب، ومكاوي اكرت، ويوسف علي جمعة، وميرغني سليمان، وصلاح عبد الرحمن علي طه، وعثمان حسن أحمد (شيخ الجزارين)، ومحمد الخير عمر أزرق، وسعد الروبي، ومأمون أحمد مكي، الفاتح عابدون. جميع هؤلاء كانوا إما من ملاك الخيل أو هواة السباق. وفي عام 1958 عندما تكونت لجنة عليا للإشراف على رعاية ورياضة الخيل أصبح إسماعيل الأزهري رئيسًا شرفيًّا لها وعبد الله خليل نائبًا له. ولعل هذا السرد يُعَدُّ منقوصًا إن لم يشر الكاتب إلى أكثر الرجال إسهامًا في تطوير ألعاب الفروسية ألا وهو فؤاد أحمد مكي عبده: ففي عام 2007 أصدر رئيس الاتحاد العربي للفروسية الشيخ مشعل بن حمد بن خليفة آل ثاني القرار التالي: "منح السيد فؤاد أحمد مكي عبده عضو مجلس إدارة الاتحاد العربي للفروسية وأحد مؤسسي الاتحادين العربي والسوداني للفروسية لقب (عميد مؤسسي وأعضاء الاتحاد العربي للفروسية) وذلك تقديرًا لما قدمه من

خدمات جليلة للاتحاد العربي للفروسية ووطنــه الجمهورية السودانية (الشقيقة) لأكثر من ربع قرن من الزمان".

أما اهتمام العرب بالخيول فهو اهتمام قديم. وكـان الـشعراء يطلقـون عليهـا أسماءً تعبر إما عن قوة الأفراس، أو جمال سمتها، أو سرعـة عـدوها. وعـلى هـذا النحو تطرق للخيل ابن عبد ربه (العقد الفريد)، والأصـمعي (كتـاب الخيـول)، وابن قيم الجوزية في كتابه (الفروسية) وابن الكلبي في (أنساب الخيل في الجاهليـة والإسلام وأخبارها) الذي روى فيه سيرة مائة وسبعين فرسًا سوابق اشتهرت في الجاهلية والإسلام إلى جانب خيول الرسول ﷺ، والرسول هو القائـل: "الخيـل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة". في الأدب العربي أيضًا محاورة بين فرس وبغل عبر عنها أبو العلاء المعري في "رسالة الصاهل والشاحج"، والصاهل هـو الحصان والشاحج هو البغل. تلك الرسالة صنعها أبـو العـلاء بتوجيـه مـن والي حلب الملقب بعزيز الدين، وكان روميًا. ورغم ورود الإشارة إلى ذلك الكتاب في الفهارس والمراجع، ظل ضائعًا حتى عثرت عليه الباحثة السبّاقة بنت الشاطئ في الخزانة الملكية بالرباط. لهذا حملها الوفاء لأهـل المغـرب الحفظـة عـلى الـتراث أن تهدي الكتاب كما يلي:"إلى العلماء المغاربة الذين رابطوا في المواقع الفكرية بالجبهـة الغربية ساهرين على حماية العربية والإسلام وتأصيل علومهما".

في صحبة المدير العام إلى السودان

خلال عملي في اليونسكو أتيح لي الدنو من مديرها العام رينيه مـاهيو الـذي كان الكثيرون يهابون لقياه لا لغلظته وإنما لأنه من أكثر من عرفت مـن الرؤسـاء تعذيبًا لنفسه. فقد كان، مثلًا، من أول الذين يفدون إلى المنظمة في الصباح البـاكر وآخر من يغادرونها في المساء. كان أيضًا شـديد الحـرص عـلى الإلمـام بالتفاصيل والتجويد اللغوي فيما يكتب موظفوه مـن تقـارير ممـا فـرض عـلى الـذين كـانوا يعملون تحت إمرته الجد في الأمرين. وما كانت الفرصة تتاح لي للدنو مـن المـدير العام لولا أن زياراته لمناطق العالم المختلفة كانت تستلزم أن يصحبه أحد مـوظفي مكتب العلاقات مع الدول للمناطق التي يزورها. بتلك الـصفة صـحبت المـدير

العام في زياراته إلى الأردن التي شملت زيارة آثار البتراء، كما إلى دول الخليج قبل استقلالها وشملت الزيارة قطر، أبو ظبي، البحرين. بيد أن الزيارة التي كانت أكثر أهمية وطرافة هي زيارة المدير العام للسودان، وكانت تلك أول زيارة يقوم بها مدير المنظمة لبلادنا. من بين ما أذكر خلال مرافقتي للمدير العام للسودان أحداث بعضها لغرابته على الضيف الكبير، وبعضها لدهشته من الطريقة التي يصنع بها القرار السياسي في السودان. فعند لقاء رئيس الدولة، إسماعيل الأزهري بالمدير العام كان في الأجندة بضع موضوعات حول التعليم إلى جانب مشروعات أخرى ذات أهمية لإدارات اليونسكو الأخرى مثل حماية الآثار، التي كانت موضع اهتمام من جانب الإدارة الثقافية، وصيانة المياه الجوفية في الصحراء النوبية وهو موضوع كانت تعني به إدارة العلوم. المشروع الأخير بطبيعته يستلزم التعاون بين دول ثلاث: مصر، ليبيا، السودان. وعندما جاء الحديث إلى هذا الموضوع عبر الرئيس أزهري عن تقديره لاهتمام اليونسكو بصيانة المياه الجوفية في السودان وليبيا، فذكره المدير العام بأن المشروع يشمل السودان وليبيا ومصر. إلا إن الأزهري استمر في القول: "نعم بين السودان وليبيا". طرأ على بالي ساعتئذٍ أنه كان للرئيس الأزهري وقتها ما يأخذه على مصر؛ ولهذا لم يكن راغبًا في التعاون معها حتى في مشروع دولي. بالطبع استغرب المدير العام من عزوف رئيس أكبر حزب اتحادي في السودان عن ذكر مصر، فأومأت للمدير العام بالكف عن ذكرها. وعند الخروج قلت له دعك عن غرابة الأطوار الرئاسية، فالموضوع محل عناية عند أجهزة الدولة المعنية بهيدرولوجية الأودية وحماية المياه الجوفية ودراسة الطبقات المائية الصخرية (aquifers)، كان ذلك في وزارة الري أو جامعة الخرطوم، وهؤلاء هم مَن ستتعامل معهم اليونسكو.

أما الموضوع الآخر الذي أدهشني، وقال عنه المدير العام"c'est bizzare"، أي "هذا شيء غريب" فقد وقع في منزل مدير الجامعة النذير دفع الله. أقام النذير حفل عشاء لمدير اليونسكو الزائر، وشرف ذلك الحفل رئيس الدولة إسماعيل الأزهري. وبعد انتهاء العشاء وأداء السلام الجمهوري تحرك الرئيس نحو سيارته

وتبعه المدير العام ليستقل سيارته هو الآخر. وفجأة عاد الرئيس أدراجه؛ فاضطر الجميع للرجوع بمن فيهم الضيف الزائر وكان متجهًا نحو سيارته بعد وداع الرئيس. وعندما سأل النذير الرئيس قائلًا: "إن شاء الله خير يا ريس؟" أجاب الأزهري بتلقائية غريبة "ما في حاجه يا بروفسير، السواقين والحرس لسع ما كملوا عشاهم". التواضع أمر محمود، ولكن لبروتوكول الدول قواعد. تبادرت إلى ذهني قصة رواها لي فيما بعد الأستاذ علي النصري حمزة قال فيها إن الزعيم الأزهري – لا مدير مكتبه ولا كبير ياوريه – بعث برسالة إلى مدير مكتبة الجامعة عبد الرحمن النصري يطلب فيها إمداده بكتب حول البروتوكول. وبهمته المعروفة انتقى عبد الرحمن النصري الكتب اللازمة وأرفقها بخطاب وجهه إلى سيادة رئيس مجلس السيادة ومهرها بتوقيعه عبد الرحمن النصري – مدير مكتبة جامعة الخرطوم. وسرعان ما عاد حامل الرسالة بتلك الرسالة لمرسلها. وعندما فض الظرف عبد الرحمن النصري جوبه برسالته إلى الأزهري، وقد تضمنت حذفًا وإضافة: استبدل الأزهري كلمات سيادة رئيس مجلس السيادة بـ"إلى الوالد الكريم الأستاذ إسماعيل الأزهري" كما استبدل تعبير عبد الرحمن النصري – مدير مكتبة جامعة الخرطوم بـ"ابنكم المطيع عبد الرحمن النصري". فنحن إذن كنا أمام جيل تحكمه قيم ومعايير لا تقف أمامها قواعد البروتوكول.

إنقاذ آثار النوبة

إن كان هناك من مهمة أفخر بأدائها نحو بلادي خلال عملي في اليونسكو، لكانت هي المشاركة في إنقاذ آثار النوبة. فعقب اتفاق مصر والسودان على اقتسام مياه النيل كان واضحًا أن إنشاء السد العالي سيغمر أهم آثار النوبة في السودان. وفي دورته الخامسة والخمسين قرر المجلس التنفيذي للمنظمة القيام بحملة دولية لمساعدة حكومتي مصر والسودان للحفاظ على "أبو سمبل" وتحديد المواقع الأثرية في النوبة السودانية لحمايتها. وما إن بدأ العمل في الخزان في يناير (1960) حتى وجه المدير العام نداءً لكل دول العالم لإنقاذ هذه الآثار واستجاب أغلبها للنداء. فقد تم، مثلًا، نقل بقايا معبد عكشة بدعم من فرنسا، ومعابد بوهين بدعم

من بريطانيا والولايات المتحدة، ومعبد سمنة شرق بدعم من هولندا، وسمنه غرب بدعم من بلجيكا. في الوقت نفسه قرر المانحون وعلى رأسهم الأمير جوستاف، أمير السويد، والأمير صدر الدين أغا خان، تدبير المال اللازم لإنشاء صندوق ائتماني (Fund in Trust) تتولى اليونسكو الإنفاق منه على نقل آثار النوبة بالسودان وإنشاء متحف لها فيه. ذلك هو المتحف القائم الآن الذي تم افتتاحه في أوائل سبعينيات القرن الماضي على يد وزير التربية محيي الدين صابر، وهو نوبي من أبناء المنطقة رغم نشيده المؤتمري "صرخة روت دمي" الذي قال فيه:

نحن أبناء جنود فاتحين ... جئت الدنيا على محرابهم

عزة العُرب ومجد المسلمين ... في دمانا نحن في أعقابهم

وكأن ليس في عروق ذلك الشاعر نوبي الأصل دم آخر يسري.

عند التحاقي باليونسكو في منتصف الستينيات كانت تلك المشروعات تسير قدمًا، بل كان من أهم إنجازاتها اكتشاف صورة عذراء فرس التي رد لها الحياة خبير بولوني ابتعثه المتحف البولوني في وارسو. وعندما استنفدت اليونسكو كل الأموال المخصصة في صندوق إنقاذ آثار النوبة طلبت من السويد هبة إضافية، إلا إن دولة السويد أبلغت المنظمة بأن الطلب لابد أن يجيء من حكومة السودان. وبحكم عملي في إدارة العلاقات مع البلاد العربية وكسوداني، كلفت بمتابعة تلك المهمة، وهي مهمة كادت أن تجعل عيشي ضنكًا، ولا يورث الله الضنك في العيش إلا من أعرض عن ذكره وحاشاي أن أفعل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: 124].

أول بدءٍ كتبت رسالة خاصة للقائم بالأعمال السويدي بالخرطوم أنبئه بأن رسالة ستجيئه من حكومة السودان لتجديد دعم الصندوق سائلًا إياه أن يولي الأمر اهتمامه وتأييده. وما كنت لأفعل ذلك إلا لأن الدبلوماسي السويدي كان زميلًا لي في سكرتارية الأمم المتحدة بنيويورك. كنت موقنًا بأن الخرطوم إن لم تكن

ترى في إنقاذ آثار النوبة السودانية أمرًا جديرًا بأن تحفل به، فليس هناك من سبب يحملها على ألّا تدعم عملًا انصرف العالم كله للاهتمام به، رغم أن في تجاربي ما يشي بغير ذلك. فقبل رحلتي إلى الخرطوم بعثت برسالة إلى رئيس الوزراء الصادق المهدي انتظرت بضعة أسابيع لاستلام رد عليها إلا إن رئيس الوزراء، فيما يبدو، كان مشغولًا آنذاك بجلائل الأعمال. تذكرت أن معلمي عبد الرحيم الأمين قد أضحى يومذاك أمينًا لمجلس الوزراء؛ فبعثت له بالرسالة لتقديمها لرئيس الوزراء. وقد فعل فجاءتني رسالة بالبريد الدبلوماسي من رئيس الوزراء تقول في سطرين شيئًا يقارب ما يلي: "الأخ منصور، شكرًا على رسالتك والرسالة المرفقة بها. هذا وسنولي الأمر اهتمامًا". الأمر الذي سيوليه رئيس الوزراء الاهتمام هو الطلب من وزير الخارجية ليكلف مدير الإدارة الأوروبية لينقل إلى القائم بالأعمال السويدي في الخرطوم رغبة حكومة السودان في استمرار دعم بلاده للصندوق الذي أنشأته خصيصًا لإنقاذ آثار النوبة السودانية، أي آثار أول حضارة في وادي النيل، التي هي حضارة سودانية بامتياز. أدهشني ذلك الموقف فتحينت الفرص للقاء أستاذي عبد الرحيم الأمين لأستعلم منه ما كان يحول بين رئيس الوزراء وأداء تلك المهمة اليسيرة. قال المعلم: "لقد شغلته يا بني عظائم الأمور فخلال شهرين ظل يلاحقنا طالبًا منا إعداد مذكرة حول البغاء في الخرطوم تمهيدًا لإغلاق منازل الرذيلة إزاء ضغوط الإخوان المسلمين". مضى المعلم يقول: "ما ظننت أن هذا من أولويات الحكم، ولكن إزاء إلحاح رئيس الوزراء قلت له إن المذكرة جاهزة، ولكنا بصدد إعداد مذكرة أخرى حتى تكتمل الصورة". وعندما سألني السيد عن فحوى تلك المذكرة التي لا تكتمل الصورة إلا بها قلت "موضوعها هو اللواط" أي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، وهو داء مستشرٍ يرمي مجترحه من حالق. ألم أقل لكم أن المعلم عبد الرحيم الأمين كان رجلًا لا يمضغ الكلماتِ!

انتابني حرج كبير بسبب عجزي عن استصدار قرار من حكومة بلادي يُمكن المنظمة التي أعمل فيها من العناية بأمر شغل العالم، وكان من اللازم أن يشغل حكومة السودان قبل غيرها لما لها من مصلحة مباشرة فيه. لهذا سعيت

لإعداد خطاب من المدير العام لرئيس الوزراء الذي أعقب الصادق (محمد أحمد محجوب). حملت ذلك الخطاب وأنا موقن بأن رئيس الوزراء الجديد سيولي الأمر اهتمامًا، فتوجهت إلى مكتبه تو وصولي الخرطوم. استقبلني المحجوب بحفاوة وكرم عرفتهما عنه من قبل. ولكن بدلًا من تناول الخطاب الذي كنت أحمل ليقرأه أخذ يسألني عن باريس وشارع الشانزليزيه، وينشد من شعره أبياتًا رواصن حولها. ولو لم أكن قد جئته لأمر أحسبه جللًا لاستملحت مجلسه، ولكن لا مكان للمماحلة برفث الكلام في أوان الجد. قلت للمحجوب: "ليس لي في الخرطوم غير يومين، فهلا قرأت الخطاب أو وجهتني لمن أحمله إليه". فرد عليّ بالقول:"موضوعات اليونسكو من اختصاص وزير التربية، وسأتصل به في الحال" وأنجز ما وعد.

تحركت إلى وزارة التربية لا يعرجني شيء عن المسار إليها حتى بلغت مكتب الوزير. كان الوزير هو يحيى الفضلي وهو رجل يُنزل ضيوفه في الرحب والسعة هاشًّا باشًّا حتى وإن كان لا يعرفهم من آدم. حزنت كثيرًا، رغم ترحاب الوزير بي؛ لأنني لم أجد فيه الرجل الذي كان يهز المنابر لما رأيت من الوهن الذي أصابه. فعندما ناولته الخطاب قال لي "هل يمكن أن تقرأه على فقد فقدت بعض بصري". وما أن بدأت أقرأ الخطاب حتى قال: "أرجو أن تجلس عليَّ الجانب الأيسر لأن أذني اليمنى لا تسمع جيدًا". لا ضير في أن يكون الوزير أعمى، فقد كان طه حسين من أميز وزراء المعارف بمصر رغم فقدانه للبصر، كما عرفت في زمان لاحق أن واحدًا من أنجح وزراء التعليم في بريطانيا (ديفيد بلانكت) الذي تولى وزارتي التعليم ثم الداخلية في حكومة بلير كان، هو الآخر، أعمى يقوده كلبه. ولكن، بعد تلك التجربة أيقنت أن الأمر الذي كنتما فيه تستفتيان قد قضي عليه (أي باء بالفشل)، خاصة بعد أن لم تحرك قراءتي للخطاب على الوزير المكلف بحماية الآثار ساكنًا حول ما أنجز لإنقاذ آثار النوبة، وما الذي بقي لإنجازه، وما الذي يمكن للدولة صاحبة المصلحة المباشرة في المشروع أن تفعل. ولذلك حملت خطابي معي عندما وعدني الوزير بأنه سيولي الأمر اهتمامه.

كان في انتظاري عند مدخل الوزارة صديقي الحميم المحامي أحمد فضل الذي كان يتولى ترحيلي من مكان إلى مكان أثناء زياراتي للخرطوم. وعندما شهد فضل أنني في غُمة من أمري، سألني عما بي؛ فأبلغته بما حدث مع رئيس الوزراء ووزير التربية. وبأسلوبه الساخر قال فضل **"دي مصيبة إيه دي؟"**. ثم أضاف: **"سأحملك إلى الرجل الذي يفصل في الأمور"**. ظننته يتحدث عن الرئيس الأزهري بحكم قرباه له ولكنه أردف: **"خلينا نروح على الشريف حسين "**، وكان الشريف وزيرًا للمالية. قلت له: "وما شأن وزير المالية بالموضوع؟" قال لي "يا أخي ده حاوي". توجهت مع فضل إلى مكتبه ليتصل بالشريف، ففعل، وكان الرد:**"خلي منصور يحضر إلى حالًا في البرلمان في مكتب إبراهيم حمد"** بالبرلمان. توجهت في الحال إلى البرلمان تعتريني خشية، ولكن سعدت كثيرًا عندما وجدت الشريف في انتظاري في المكان الذي حدده. وبعد التحية سألني أين هو الخطاب فمددته إليه، فقال هيا بنا إلى وزارة الخارجية، وقالها بصوت عالٍ كأنه أراد أن تسمعه كل الجموع التي كانت مكتظة خارج مكتب إبراهيم حمد في انتظار الشريف. وما إن استقللت معه سيارته حتى توجهت بنا السيارة إلى وزارة الخارجية وعند بلوغها باب الوزارة طلب الشريف من سائق السيارة التوقف قليلًا ليقول لحارس الباب "أنا عندي اجتماع هنا قد يطول". وعندما انطلقت السيارة من عند مدخل الوزارة على شاطئ النيل وجه الشريف سائقها للخروج من الباب الجنوبي. دفعني ذلك لسؤال الشريف: "لقد قلت إن لك اجتماعًا سيطول". رد بالقول: **"شفت الجيش الجرار الكان واقف قدام البرلمان، ديل كلهم عايزين يروا لي حكايات. أنا ما كضبت عليهم"**. سارت بنا سيارة الوزير إلى منزل في حي الامتداد فترجل الوزير من السيارة، ولحقت به إلى داخل المنزل الذي علمت من بعد أنه استراحة لمشروع الجزيرة. في ذلك المنزل وجدت موظفًا وأمامه آلة طابعة فتوجه إليّ الشريف بالقول: **"اكتب الرد العاوزه على خطاب مديرك وسلمه لصاحب الآلة الطابعة"**. وعند اطلاع الشريف على الرد المطبوع طلب مني أن أضيف إليه أنه يكتب بوصفه الوزير المسؤول عن المعونات الخارجية، ففعلت. لم يستغرق ذلك الأمر أكثر من نصف ساعة حملت بعدها الخطاب.

هذه القصة الطويلة تروي أمرين: الأول هو كيف كانت تُدار الأمور في بلادي، وما هي أولويات حاكميها، والثاني هو المأزق الذي يعيشه السودان. ففي كل بلاد العالم تدار الأمور وفق نظام يحدد المسؤوليات لصناع القرار من أعلى المستويات لأدناها، ويبين قنوات الاتصال بين كل هذه المستويات، ولاسيما إن كان ذلك الاتصال متعلقًا بموضوع جوهري، وكان الطرف الآخر فيه منظمة دولية. ولكن من الواضح أن النظام الذي كان سائدًا في السودان هو نظام اللانظام. مع ذلك شكري للشريف لا يحد لأنه مكنني عبر نظام اللانظام من تحقيق غايتي والتي هي، في واقع الأمر، غاية وطنية لا كسب لي فيها ولا منفعة. أما المأزق السوداني فهو مأزق صنعته نخبته الشمالية الحاكمة. فماذا تقول عن ذهول تلك النخبة ذهولًا كاملًا عن مرحلة من تاريخها القديم هي الأكثر نضارة، بل هي مرحلة ما فتئ العالم كله يسعى للحفاظ على ما تبقى من آثارها، فقد نهضت لإنقاذ آثار النوبة: اليونسكو، والولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، ومتحف بروكلين، وأمير السويد جوستاف، والأمير صدر الدين أغا خان، ومتحف وارسو، وجامعة كامبردج، ومتحف اللوفر بباريس، ومتحف أونتاريو الملكي بكندا، والمتحف البريطاني. أو كان ذلك الإغفال لمواريث السودان النوبية لظن تلك النخبة أن تلك الحضارة كانت وثنية؛ ولهذا ينبغي للمسلم القانت أن يفر منها فرار السليم من الأجرب؟ إن كان الأمر كذلك فما بال تلك النخبة التي جعل أغلبها من مصر قبلة ثانية تتجاهل أو تجهل أن الشعراء والقصاص في دولة مصر ما انفكوا يحتفلون بآثار مصر الفرعونية والرومانية والقبطية ويتغنون بها في شعرهم ونثرهم؟ فقد نظم شوقي، مثلًا، بعضًا من قصائده الجياد في الإشادة بآثار الفراعنة، وببعض مَن اكتشفها وأجلى سرها للعالمين. من ذلك قصيدتاه في توت عنخ آمون:

دَرَجَت عَلى الكَنزِ القُرون وَأَتَت عَلى الدَنِّ السُنون

أو

قِفـي يـا أُخـتَ يوشَـعَ خَبِّرينـا   أَحاديـثَ القُـرون العابِرينـا

وفي قصر أنس الوجود:

أَيُّهـا المُنتَحـي بِأَسـوانَ دارًا   كَالثُرَيّـا تُريـدُ أَن تَنقَـضّا

وفي أبي الهول:

أبـا الهَـولِ طـالَ عَلَيـكَ العُـصُر   وَبُلِّغتَ في الأَرضِ أَقصى العُمُـر

كما حيّا شوقي الفرنسي كارنا فون الذي فك طلاسم حجر رشيد:

في المَـوتِ مـا أَعيـا وَفي أَسـبابِهِ   كُـلُّ اِمـرِئٍ رَهـنٌ بِطَـيِّ كِتابِـهِ

ورغم تغنيه بآثار الفراعين، ظل شوقي أميرًا للشعر العربي، بل رائدًا للمديح النبوي، أوليس هو الشادي بروائع المديح:

ريمٌ عَـلى القـاعِ بَـينَ البـانِ وَالعَلَـمِ   أَحَلَّ سَفكَ دَمـي في الأَشـهُرِ الحُـرُمِ

أو القائل:

وُلِـدَ الهُـدى فَالكائِنـاتُ ضِـياءُ   وَفَـمُ الزَمـانِ تَبَـسُّمٌ وَثَنـاءُ

ثم أوليس أول ما اتجه إليه في الرواية شيخ حكائي مصر نجيب محفوظ هو كفاح طيبة التي روت قصة انتصار الفرعون أحمس على الهكسوس التي ضمنتها جريدة لوموندو الإسبانية في عام (1999) بين أهم الروايات التي صدرت في القرن العشرين، ولاهتمامه بتلك القصة أوصى سيد قطب بضمها لمناهج الدراسة في المدارس حتى يلقن التلاميذ دروسًا عن طرد المحتلين للبلاد. أو قصة رادوبيس التي تناولت العلاقة بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية في عهد الفراعين، أو قصة "عبث الأقدار" التي أرخت للدولة القديمة (دولة الفرعون خوفو باني الهرم الأكبر). في شرحه لأهدافه من الحكي والرواية عن العهد الفرعوني قال

محفوظ في خطابه عند منحه جائزة نوبل إنه كان يسعى للكشف عن جينات الأصالة التراثية في مصر من العهد الفرعوني إلى العهد الإسلامي.

إن كان الأمر غفوة عن تاريخ الحضارة النوبية السودانية أو تغافلًا عنها من جانب النخبة السياسية، فإن تلك الغفوة أو ذلك التغافل لم تحو لا دون اهتمام عصبة من الفنيين السودانيين وغير السودانيين بذلك الميراث. فأول هيئة للآثار النوبية أنشئت عام (1902) كما أنشئ أول متحف لتلك الآثار في عام (1904) وألحق بكلية غردون التذكارية. تطور المتحف فيما بعد على يد الآثاريين البريطانيين آركيل وبيتر شيني وتعاور إدارة المتحف على التوالي فيما بعد: الفرنسي جان فير كوتير، وثابت حسن ثابت، ونجم الدين محمد شريف، وأسامة عبد الرحمن النور، أحمد محمد علي حاكم، حسين إدريس، عبد الرحمن علي محمد. وحتى عندما بلغ الهوس ببعض المتأسلمين من أهل السودان حدًا جعلهم يظنون أن أي تمثال صنعه نحات معاصر هو صنم يعبد كان من بينهم من يميز بين الحق والباطل. من هؤلاء أذكر الشيخ جعفر ميرغني الذي أوجب على نفسه الحفاظ على آثار السودان القديمة حتى لا يصيب قومًا بجهالة. هؤلاء وجنود آخرون، هم الأبطال الذين لا يذكرهم قادتهم لأنهم غير معنيين بحضارة بلادهم، بل كادوا أن يكونوا عازمين على محوها من التاريخ، ولا يفعل ذلك إلا غلاة جاهلون مثل طالبان الذين أعملوا فؤوسهم لهدم التماثيل البوذية في بلادهم. رعاة الحضارة الإنسانية وحماتها عبر العالم هم وحدهم الذين يحمدون لهؤلاء الرجال جليل صنائعهم من أجل الحفاظ على معالم أقدم الحضارات الإنسانية.

في صحبة البعثيين والناصريين

لم تنقضِ سعادتي في باريس باجتياز مرحلة البحث الأكاديمي، بل تضاعفت بصحبة رجال ونساء في المدينة من الأدباء والصحفيين وأهل الرأي بصفة عامة. من أولئك جاك بيرك وماكسيم رودانسون عالما الإسلاميات اللذان وردت الإشارة إليهما، وإيريك رولو صحفي اللوموند الذي أحب بلادنا وأحبه عارفو

قدره من أهلها، والاقتصادي اليساري المعروف سمير أمين الذي كان مني محل احترام فائق لعلمه رغم تباين رؤانا، والعالم المغربي محمد الفاسي الذي شغل منصب رئيس المجلس التنفيذي لليونسكو ردحًا من الزمن، والسفير السوري سامي الجندي ووزير خارجية بلاده إبراهيم ماخوس. الأخيران حملتهما صراعات البعثيين على الهروب من وطنهما الذي وهبا حياتيهما لرفعته، فرحل الأول إلى تركيا ليمارس مهنته الأولى كطبيب أسنان، والثاني إلى الجزائر حيث احتضنته الثورة الجزائرية وانصرف لمهنته كطبيب. هذان بعثيان لم يتركا أمرهما فرطا بل استماتا في سبيل قضيتهما، وكنت كثير الجدل معهما حول شعار حزبهما "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة". ظللت أقول لهما إنه ليس للعرب عبر التاريخ أي رسالة -خالدة كانت أم غير خالدة- فرسالتهم الوحيدة التي عمت الآفاق هي الحضارة الإسلامية. فبالرغم مما خلفه العرب من آثار في الشعر والنثر والخطابة إلا إن تلك الآثار لم تكن ترقي لأن تكون رسالة للعالمين. رسالة العرب بدأت بترجمة آثار يونان في الفلسفة والعلوم والتاريخ والموسيقى إلى العربية وتطوير هذه المعارف ثم إثرائها بحكمة الهند وفارس. تلك هي البيئة التي تولدت فيها حضارة عالمية ذات رسالة خالدة. مع ذلك الخلاف الفكري تمتنت صداقتي مع كليهما إذ أورد جانبًا منها سامي الجندي في كتابه "صديقي إلياس". ومع اختلاف الرأي دام الود بيني وبين عدد من البعثيين ليس فقط في الشام، بل أيضًا في العراق-كما سنبين- لما آنست فيهم من حب لبلادنا. ونتيجة للعلاقة مع ماخوس قمت بزيارات عديدة لدمشق ما ذكرتها، وأرجعت البصر كرتين إلا تفطر قلبي مما يدور في موئل بني عبد شمس "وإن لم تبق تيجان".

من تلك الزيارات أستذكر واحدة شاركني فيها السفير مصطفى مدني سفير السودان في سوريا ولبنان. في تلك الزيارة شاءت الصدف أن يستنجد بي ابن عمي الأثير الرشيد عثمان خالد لتجاوز عقبة كأداء اعترضته مع حكومة البعث أثناء وجودي في دمشق، وكان الرشيد في ذلك الوقت يزور دمشق مع وفد من صندوق النقد الدولي. ذلك الوفد بقي في المدينة أسبوعًا كاملًا دون أن يُفلِح في

لقاء أي مسؤول في وزارة المالية أو البنك المركزي حتى كاد أن يغادر دمشق خالي الوفاض لولا إصرار الصندوق على أن يبقى الوفد في دمشق حتى يكمل مهمته. وطبيعي أن يحسب الرشيد أن وجود صديقه ابن عمومته في المدينة هبة سماوية، فلحق بي حيث أقيم وأبلغني بمحنته، خاصة إزاء إصرار إدارة الصندوق على بقاء الوفد في دمشق ليحاول ما وسعته الحيلة الحصول على المعلومات المطلوبة. وعندما نقل إليّ الرشيد الأمر أبلغت ماخوس بأن نائب رئيس الوفد ليس هو فقط سودانيًّا بل ابن عمومتي وأود أن أصحبه معي لدعوة غداء أقامه لي ماخوس في أحد مطاعم دمشق. عند الغداء أبلغ رشيد وزير الخارجية بالحرج الذي وقع فيه باعتباره المواطن العربي الوحيد في ذلك الوفد، ولكن ماخوس لم يمهله ليكمل حديثه بل قال له: "صندوق النقد مؤسسة تجسس وما جاءت بهذا الوفد إلى سوريا رغبة في دراسة موضوعيه لأوضاعنا المالية، وإنما للاستخبار عما نفعله في ميادين تعنينا ولا ينبغي أن تعني صندوق النقد". قلت لماخوس: "قد يكون هذا صحيحًا ولكن أليس من الأليق أن تلتقي أجهزتكم المالية بالوفد لتنقل إليه وجهة نظركم، أو إن شئت اتهاماتكم". وعد ماخوس بمراجعة القرار مع المعنيين بالأمر. وفي اليوم التالي اتصلت وزارة المالية بالوفد لتخطره بموعد تحدد له لا لمقابلة وزير المالية بل مقابلة الرئيس زعين. ويبدو لي أن ذلك اللقاء كان ساخنًا إذ قال لي الرشيد عند عودته: "الرئيس سلخني بدون سبب". قلت: "كيف كان ذلك؟". أجاب بأن الوفد قضى ساعة من زمان يتلقى دروسًا من الرئيس حول المهام التجسسية التي يقوم بها صندوق النقد لمصلحة الولايات المتحدة، وكلما تدخل الرشيد لتوضيح الجوانب المهنية التي يُعنى الوفد بها انتهره زعين بالعربية قائلًا: "**أنت غير معني بهذا الكلام، الكلام موجه للجواسيس اللي معاك**". ولكن في النهاية كلف زعين وزير ماليته بإمداد الوفد بالمعلومات التي يطلبها دون إهدار لمقتضيات الأمن القومي.

إلى جانب صديقي البعثيين توثقت علاقتي بالكاتبين أحمد بهاء الدين ولطفي الخولي، وهي علاقة بدأت خلال تلاقينا في الجزائر. كلا الرجلين كانا زائرين

دائمين لليونسكو وضيفين مواظبين على حفلات السفير عبد الله الحسن. وعند تولّي وزارة الشباب - كما سنورد لاحقًا- اعتمدت كثيرًا على لطفي في الإعداد لندوة الفكر العربي في الخرطوم، وكان لبهاء الدين وصف ساخر لتلك الندوة. توثقت العلاقة أيضًا بيني وبين الدكتور مؤنس طه حسين، مدير الإدارة الثقافية باليونسكو. في تلك العلاقة أفجعني كثيرًا أن ابن عميد الأدب العربي وزوج ابنة علي شوقي حفيدة أمير شعراء العربية كان يفضل دومًا الحديث باللغة الفرنسية التي يجيدها وليس باللغة العربية التي ورثها، أو ينبغي أن يكون قد ورثها، عن واحد من جهابذتها. ولعل صحبة مؤنس لأمه سوزان كانت أكثر من صحبته لوالده طه، خاصة عندما نعرف أنه كان لطه حسين إلى جانب مؤنس ابنة هي أمينة تجيد العربية. وتزوجت، كما سلف الذكر، من الدبلوماسي المصري محمد حسن الزيات شقيق صاحب "الرسالة" أحمد حسن الزيات، الكاتب الذي بارى أنداده في علم اللغة وغلب أكثرهم فيه. وعلى كل ذلك لم يمنعني من الانشغال بأصدقائي من العرب من الحرص علي لقاء زوار باريس من السودانيين والاحتفاء بهم رغم الرعاية والكرم الفياض الذي كان يضفيه سفراء السودان (بشير البكري، رحمة الله عبد الله، وعبد الله الحسن) علي أولئك الزوار الفضلاء الذين شملوا وزير الخارجية محمد أحمد محجوب ووزير التجارة الشيخ محمد أحمد المرضي في حفل غداء أقمته على شرفهما في اليونسكو وكانا في طريقهما إلى مؤتمر القمة العربية في الدار البيضاء، وصديق العمر الدكتور فاروق فضل الذي كان أول من زارني في باريس عند استقراري بها والعم ميرغني حمزة والأستاذ مكي عباس ونقيب المحامين عابدين إسماعيل عند دعوتي لهم في ملهي الليدو والذي لا تكتمل زيارة باريس بدون الإطلال عليه.

صفوة القول أن فرنسا والجزائر كانتا بوتقة للتلاقح الفكري أتيح لي فيهما للمرة الأولى اللقاء بشعراء أفريقيا، وسينمائييها، وموسيقييها، ومفكريها. الوعي بهؤلاء لم يكن متاحًا لنا لا في مناهج الدرس، أو مقالات الصحف، أو حوارات المثقفين السودانيين في ذلك الزمان باستثناء القليل الذي نفذ إلى وعينا مما نشره عن

القارة الأم شيخي الوعيّ الحافظ جمال محمد أحمد. ولكي لا أكون ظالمًا لأقدار الرجال لابد من إيمائي إلى مَن صحبت في باريس من السودانيين إبان عملي باليونسكو: السفير المعلم رحمة الله عبد الله، السفير عبد الله الحسن، ناشئة السلك الدبلوماسي الذين كانوا يتدربون في باريس فانتفعوا بما كسبوه من علم ودُربة ونفعوا غيرهم بما كسبوا: فاروق عبد الرحمن، ويوسف مختار، ومحمد المكي إبراهيم، وجلال عتباني، وهاشم التني، وطه أبو القاسم. هذه العصبة من الشباب أصبحوا عدتي وعديدي عندما صرت وزيرًا للخارجية.

تهيأ لي في باريس أيضًا اكتساب معارف لم أكن على دراية بها، والتفطن إلى أساليب في العمل كان لها أثر في مناهج عملي فيما بعد. من ذلك الطرائق المستحدثة في الإدارة التي لم تُرضِ البيروقراطية السودانية محاولاتي إدخالها في مناهج العمل التي درب عليها العاملون في الخدمة العامة لا لعيب جوهري فيها، وإنما لعدم الألفة بها، والناس دومًا أعداء لما جهلوا. وتحضرني في هذه المناسبة نادرة من نوادر علي الملك الذي كان كثير التردد عليَّ في وزارة الخارجية، ولكنه في كل زيارة لي كان يتجول في الوزارة للقاء صحاب له؛ مما جعل دبلوماسيًّا إداريًّا يقول لي: "**صاحبك بيشغل الدبلوماسيين عن عملهم**". قلت له: "دعه ودعهم ففي الحديث مع علي الملك تثقيف لهم". وفي إحدى المرات جاءني علي الملك بعد زيارته لمن أراد زيارته ليقول لي: "حلوة الاوقيانوس دي من وين جبتها؟". وكنت عند إعادة تنظيم الإدارات السياسية في الوزارة جغرافيًا تكشف لي أنها لا تعبر عن واقع الحال. فاقتصار تلك الإدارات على العربية، والأفريقية، والأمريكتين، وشرق أوروبا، وغرب أوروبا يلغي منطقة مهمة على حافة الباسفيك هي استراليا ونيوزيلندا والجزر التي بينهما أو متاخمة لها. ذلك الإقليم سمّته اليونسكو (آسيا والأوقيانوس) وعنها نقلت الاسم. أبلغت على من أين جئت بالاسم ولكنني أضفت سؤالًا لعلي "أولا تعرف يا صديقي أن البلدانيين (الجغرافيين العرب) كانوا يسمون البحر الذي يقع جنوب الصين "الأوقيانوس العظيم؟".

أمنيتي في التمهر في قانون المياه لم تتحقق لا في المجال القانوني (سكرتارية الأمم المتحدة، وبرامج اليونسكو المائية)، أو في التدريس. فالعمل الذي أرادت لي اليونسكو القيام به في أديس أبابا كان أقرب للعمل الدبلوماسي في حين فرضت عليّ جامعة كلورادو تدريس مادة قانون المنظمات الدولية. رغم ذلك لم يقل اهتمامي بموضوع قوانين واتفاقيات المياه إبان انشغالي بالدبلوماسية السودانية، وأيضًا خلال الفترة التي عملت فيها مستشارًا لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) التي تتضمن برامجها الإشراف على إنفاذ عشر اتفاقيات مائية، منها اتفاقية البحر الأحمر (جدة)، اتفاقية البحر الأبيض المتوسط، اتفاقية نيروبي حول الساحل الشرق أفريقي. من جانب آخر ما فتئت أوالي الاهتمام بموضوع النيل من الناحية الأكاديمية في العديد من المنتديات بالرغم من أن التطور في قوانين البحار والأنهار أضحى وليمة متنقلة، ليس فقط بسبب اكتشافات جغرافية أو بيئية جديدة، بل أيضًا بتزايد استخدامات المياه لحد الطمع والإسراف في بعض الأحيان. وكما قال غاندي: "في العالم ما يسد حاجة كل الناس، ولكن ليس فيه ما يحقق جميع أطماعهم". ولعلني أشير هنا للاهتمام الذي كانت تبديه جامعة الخرطوم (معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية) تحت إشراف الراحل محمد عمر بشير بموضوع النيل. وقد أتيح لي المشاركة في واحد من تلك المؤتمرات في (أبريل 1982) شارك فيه من خبراء المياه جون ووتر بيري (جامعة برنستون) والخبير السوداني المائي عبد الله محمد إبراهيم إلى جانب خبراء في الموضوع من جامعات برمنجهام، ودار السلام، وريدنق. وقد تشرفت بافتتاح ذلك المؤتمر بخطاب هو في جوهره رسالة لدول حوض النيل. جاء ذلك الخطاب تحت عنوان "وادي النيل: اقتراب تكاملي" (The Nile Vally: An Integrative Approach). وقد تضمنته إصدارة لمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية (الإصدارة 12) قدم لها الأستاذان محمد عمر بشير وسيد حريز.

ارتحلت إلى العمل في جامعة كلورادو في عام 1968 وهي جامعة ولائية (أي غير خاصة) أنشئت عند انضمام ولاية كلورادو إلى الاتحاد في عام 1876. تلك

المرحلة كانت مرحلة مثيرة في حياتي ومبهجة في آنٍ، إذ كانت هي أول عهد لي بالتدريس في أي مستوى من المستويات التعليمية. تلك التجربة علمتني أن المعلم يتلقى من الطالب دروسًا بقدر ما يتلقى الطالب عن أستاذه. فالطالب يحفز معلمه على المزيد من القراءة، وعلى إعادة النظر في بعض المسلمات، وعلى تقصي الأمور حتى يكون له على كل سؤال جواب مقنع. هذا بالطبع ما يحدث في الجامعات التي تأخذ نفسها مأخذ جد، ويكون فيها الطلاب بحق طلاب علم. تقع تلك الجامعة في مدينة بولدر الراقدة عند سفح جبال الروكي، وهنَّ جبال قواهر. كما أن بولدر، من بين كل مدن منطقة الجبال (The Rockies) في وسط الولايات المتحدة، هي أجمل المدن التي زرت في الولايات المتحدة. ومثل جميع المدن الجامعية كانت بولدر مدينة غير آهلة بالسكان، إذ لم يكن مجموع قاطنيها يتجاوز ربع المليون نسمة. وقد نأى بها هذا الوضع البيئي المعافى عن التلوث الهوائي والسمعي والبصري الذي تعاني منه المدن الكبرى. أول ما استرعى نظري في تلك المدينة الصغيرة اكتظاظها بالدراجات، إذ كانت الدراجة هي وسيلة التنقل الوحيدة داخلها للطلاب والأساتذة على السواء. وإن علمت بأن أغلب طلاب تلك الجامعة كانوا من أبناء الأثرياء الذين يحرصون على ابتعاث أبنائهم وبناتهم للدراسات الجامعية قبل مرحلة التعليم المتخصص إلى جامعات في مدن نظيفة بعيدة عن كبريات العواصم، وعلي مقربة من وسائل الترفيه مثل التزحلق فوق الجليد، ينتابك شعور بالعجب من استخدام أبناء الأثرياء في الولايات المتحدة للدراجات من وإلى الجامعة. ففي زماننا في جامعة الخرطوم لم يكن الطلاب يستخدمون حتى هذه الوسيلة للترحال إذ أغنتهم عنها وسائل النقل العام المتواضعة، ولكن جاء على الناس في السودان زمان أخذ فيه بعض أبناء الأكابر يستقلون دون حرج سيارات داخل الجامعة لا يملكها معلموهم، بل إن بعضها أكبر من بيوت آبائهم التي ترعرعوا فيها. وعلى أيٍّ فمن منافع تلك الإجازة السبتية تمكيني من استكشاف الغرب الأمريكي ومناطق أخرى لا يحملك على زيارتها حج أو حاجة مثل صحاري وشبه صحاري أريزونا ونيفادا.

أما رياضة التزحلق على الجليد، أو التزلج كما يقول أهل لبنان، فلم تكن تستهويني أبدًا، ربما لهلعي منها. لهذا لم أكن أُجبل (أرتاد الجبال) إلا في الصيف للتجول عند سفوحها. وفي خلال إقامتي في كلورادو لم أحظ، كما حظيت في الجزائر وفرنسا، بزيارة من أصحابي السودانيين باستثناء واحد، كانت له أثرة في نفسي هو الدكتور مأمون داؤود الخليفة الذي كان في الوقت نفسه يواصل بحوثه في إحدى جامعات البحيرات الكبرى.

حدث جلجال

بنهاية فترة عملي بتلك الجامعة عزمت على العودة إلى باريس للالتحاق بوظيفتي الجديدة في أديس أبابا. بيد أن حدثًا جلجالًا وقع وكان حريًّا مني بالاهتمام. الحدث الجلجال الذي منعني من العودة إلى باريس. هو وقوع حرب حزيران التي لم تدم إلا بضعة أيام، وكان له وقع الصاعقة على الدول العربية جمعاء وعلى أصدقائها عبر العالم. ولكن قبل التعرض لتداعيات تلك الحرب في الولايات المتحدة وفي الوطن العربي لابد من الإشارة إلى حدث آخر وقع في الجامعة وكان صغيرًا في حد ذاته، غير أنه كان كبيرًا في معناه. ففي نهاية شهر مايو حين كنت أعد العدة لامتحان نهاية الفترة بالنسبة لطلابي جاءتني طالبة أمريكية اختبرت فيها النجابة تخطرني بعدم رغبتها في المشاركة في الامتحان وتستأذنني لتأجيل امتحانها لنصف السنة التالي (next semester). ظننت أن دوافعها شخصية مثل المَرض، أو عارض أسري، فسألتها مشفقًا عما تعانيه. أجابت بأنها مستدعاة لمهمة في إسرائيل. قلت لها: "أنت أمريكية فما الذي يحملك على الذهاب إلى إسرائيل في هذا الجو المتوتر؟". قالت: "نعم أنا أمريكية، ولكني أيضًا يهودية صهيونية، وقد استدعيت لمهمة". دفعني الفضول لأن أسألها عن طبيعة المهمة التي استدعيت لها متمنيًا ألّا تكون مهمة عسكرية رغم معرفتي بأن قوانين الولايات المتحدة لا تبيح لمواطنيها نظريًّا الانخراط في جيش أجنبي، وأقول نظريًا

لأن أي يهودي حتى وإن كان أمريكيًا يصبح بموجب حق العودة المزعوم إسرائيليًا متى ما حط رحاله فيما يُسَمَّى "أرض الميعاد". ردت الفتاة: "مهمتي ليست عسكرية ولكن بما أني أجيد اللغتين العبرية والفرنسية استدعيت للمعونة على استمرار تعليم اللغة العبرية لليهود الوافدين من شمال أفريقيا، إذ إن جميع الإسرائيليين الذين يقومون بهذه المهمة ذهبوا للحرب، المجند منهم ومَن هو في الاحتياطي". قلت لها سأحيل أمرك إلى عميد المدرسة، فالقرار بيده.

استذكرت تلك القصة بعد النهاية المفجعة للحرب، وقلت لنفسي إن الجماعة التي تدير الحرب بالصورة التي تعني فيها بأن لا يضار أهل البلد الذي تحكمه - ولو غلابًا- في أي مجال، بما في ذلك استمرار الخدمات التعليمية، ينبغي أن لا تثير عجبًا إن انتصرت في حربها سُراعًا. وعلى أي ارتأيت إزاء ذلك الحدث المفجع الذي آثر صناعه نعته بـا "النكسة" أن أعرج في طريق عودتي إلى باريس على نيويورك لقضاء بعض الوقت في الأمم المتحدة لمتابعة اجتماع مجلس الأمن، ثم الاجتماع الطارئ المقترح للجمعية العامة لمناقشة ما سُمِّي قضية الشرق الأوسط، بجانب حب الاستطلاع والرغبة في التعرف عن كثب على ما كان يدور وراء كواليس المنظمة. وقد شجعني على الانتقال إلى نيويورك وجود صديقين في الوفود العربية كان بودي أن أعرف تقييمهما لما حدث: عبد العزيز بوتفليقة، وزير خارجية الجزائر، وإبراهيم ماخوس وزير خارجية سوريا. مآلات تلك القضية العادلة بدأت أتشوفها عند زيارتي لنيويورك لحضور اجتماعات الجمعية العامة، وهي مآلات لا تسر مما جعل بعض المعلقين يصف قضية فلسطين بأنها "أعدل قضية في أيدي أفشل محامين".

قضية الشرق الأوسط: تمويه للحق أو خلط له بالباطل

مقر الأمم المتحدة في نيويورك كان عند وصولي إليه خلية نحل تعج بالدبلوماسيين والصحفيين ومراسلي القنوات التليفزيونية. كل هؤلاء جاءوا، من بين ما جاؤوا إليه، لسماع الخطب الرنانة التي كان يلقيها وزير الخارجية الإسرائيلي (أبا أيبان) على أعضاء مجلس الأمن، والإفادات التي كان يقدمها وزير خارجية

مصر (محمود فوزي) بقدر كبير من التهوين للأمر، وكان يطلق على أسلوبه ذلك "العناد المفكر". في الوقت نفسه كانت مواقف بعض الوفود العربية تعاني ضبابًا في الرؤية. كانت هناك، مثلًا، مجموعة من الدبلوماسيين تحرص على تسمية الأشياء بأسمائها ومن هؤلاء الدبلوماسي السوداني مهدي مصطفى الهادي الذي كان يشتد غضبه عند نعت الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية "بقضية الشرق الأوسط" بدلًا من تسميتها "قضية الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي للأراضي العربية". في تلك الفترة كانت المناورات تدور داخل أروقة المنظمة لإيجاد حل مُرضٍ للطرفين بين دعاة "العناد المفكر" وأنصار "العناد المستميت" حتى وإن قاد إلى حرب جديدة. وحين كان مجلس الأمن يناقش مشروع القرار 242 الذي أعده المندوب البريطاني اللورد كارادون ويحظى بتأييد خفي من المندوب الأمريكي آرثر قولدبيرج الذي عرف بمناصرته لإسرائيل (صار فيما بعد عضوًا في المحكمة العليا)، كانت دول أمريكا اللاتينية تحاور مندوبي الدول العربية لقبول مشروع قرار ينص على الاعتراف بدولة إسرائيل في حدودها التي كانت قائمة قبل حرب حزيران وانسحابها من كل الأراضي التي احتلتها في تلك الحرب بما في ذلك القدس الشرقية، ثم التفاوض حول سلام دائم يليه اعتراف عربي بإسرائيل. ولكن في ظل الهزيمة المؤسية التي كانت توصف بـ"النكسة"، والرغبة في رد الاعتبار رفضت الدول العربية الاقتراح اللاتيني، الذي كان من الممكن إجازته بأغلبية ساحقة في الجمعية العامة وفق "قرار الاتحاد من أجل السلام" (Uniting for Peace Resolution). ذلك القرار الذي كان يطلق عليه أيضًا خطة أتشيسون (إشارة لوزير الخارجية الأمريكي دين أتشيسون) لمبادرته بطرح الموضوع على الجمعية العامة لاتخاذ قرار بشأنه إزاء عجز مجلس الأمن عن القيام بمسئوليته في الحفاظ على الأمن الدولي. وكان ذلك إبان الحرب الكورية حين عرقل الاتحاد السوفيتي (العضو الدائم بمجلس الأمن) صدور أي قرار يعتبر الحرب الكورية مهددًا للسلام الدولي. بالموافقة على اقتراح اتشيسون صوتت اثنان وخمسون دولة في الجمعية العامة في حين عارضته خمس هي الاتحاد السوفيتي، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء.

الموقف العربي الرافض للمشروع اللاتيني أصبح أساسًا لقرار اللاءات الثلاثة الذي أجازته القمة العربية في الخرطوم: لا تفاوض، لا سلام، لا اعتراف بإسرائيل. ودون شك أعاد قرار اللاءات الثلاثة ثقة العرب بأنفسهم وبقيادتهم إذ لم يكن استقبال عبد الناصر في الخرطوم استقبال قائد مهزوم، وإنما كان أقرب للاحتفاء بقائد مكلل بتيجان النصر. ذلك الاجتماع أيضًا أنهى صراعات التهبت واستعرت بين الدول العربية وكان لسعيرها دور كبير في الهزيمة. ولكن بعد مُضي ما ينيف على الأربع عقود من الزمان يتمنى المرء لو أعاد المؤرخون العرب تقويم تلك الفترة من التاريخ تفاديًا للانزلاق في هزائم أشد إيلامًا من هزيمة حزيران. كان من الضروري، مثلًا، التقصي عن الأسباب التي أوقعت الشقاق بين الدول العربية؟ مَن الذي مهد له؟ ومَن هم الذين كانوا ينادون بأن الطريق إلى القدس يمر عبر مكة؟ أي لابد من غزو مكة للوصول إلى بيت المقدس. ومَن هو الذي كان يطلق على ملك الأردن: الحسين بن زين؟ ثم مَن هو المسؤول عن رفض قرار تقسيم فلسطين الصادر بتاريخ 29 نوفمبر(1947) ؟ ذلك القرار أيدته (33) دوله وصوتت ضده (13) دوله تضم الدول العربية الأعضاء بالأمم المتحدة يومذاك: مصر، واليمن، وسوريا، والعراق، ولبنان، والمملكة العربية السعودية في حين امتنعت عن التصويت (10) دول. ومما يجدر ذكره أن التأييد الوحيد لقرار التقسيم الذي أبقى للعرب (55٪) من أرض فلسطين جاء من الأحزاب الشيوعية العربية. موقف تلك الأحزاب كان مرتبطًا بأمرين: الأول هو تأييد الاتحاد السوفيتي للقرار والثاني هو اليقين الثابت لدي الشيوعيين بأن الأممية تعلو على القومية، وأن قضايا الشعوب لا تحل إلا باتحاد عمال العالم عربًا كانوا أم إسرائيليين لخوض معركة الكادحين ضد البرجوارية. ذلك الموقف تجلى أيضًا في تردد الحزب الشيوعي الجزائري والذي كان جزءًا لا يتجزأ من الحزب الشيوعي الفرنسي في مناصرة الثورة الجزائرية باعتبار الأزمة الجزائرية هي جزء من أزمة أكبر تناضل لعلاجها الطبقة العاملة في الجزئين من فرنسا (الجزائر في ذلك الوقت كان جزءًا من فرنسا)؛ أما نضال الجزائريين لاسترداد هويتهم الثقافية، فلم يكن له مكان في تحليل الحزب الشيوعي الفرنسي.

أيًا كان الحال، نص القرار على تقسيم فلسطين بعد إنهاء الانتداب البريطاني إلى ثلاثة كيانات:

(أ) دولة عربية تقع على الجليل الغربي، وتشمل مدينة عكا، كل الضفة الغربية، الساحل الجنوبي الممتد من شمال أسدود، وجنوبًا حتى رفح مع جزء من الصحراء على طول الشريط الحدودي مع مصر.

(ب) دولة يهودية على السهل الساحلي من حيفا وحتى جنوب تل أبيب، والجليل الشرقي بما في ذلك بحيرة طبريا، والنقب وإيلات.

(ج) وضع القدس وبيت لحم والأراضي المجاورة لهما تحت وصاية دولية كجسم منفصل (corpus separatum).

كان من الضروري أيضًا تقصي المؤرخين العرب عن الأسباب التي حدت بالدول العربية لرفض مشروع قرار دول أمريكا اللاتينية الذي كان سيُبقي على كل الضفة الغربية والقدس الشرقية للفلسطينيين، وهذا هدف ظلت الدول العربية تلهث لتحقيقه. تحقيق ذلك الموقف بحسب موازين القوى الإقليمية والدولية الراهنة، وتفكك الروابط التي كانت تجمع بين الدول العربية، واهتراء بعض الدول العربية الكبرى، وغياب القيادات العربية الكارزمية، لم يعد هناك ما يرجحه عند أي قراءة عقلانية للموقف. نضيف لذلك سؤالًا عن موضوع أكثر غرابة من الموقفين السابقين للدول العربية: الموقف الغاضب الذي اتخذته الدول العربية ضد ما أعلنه الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة في الثالث من مارس عام (1965) بمدينة أريحا. في ذلك الخطاب دعا بورقيبة للصلح مع إسرائيل، وهي دعوة اعتبرتها مجموعة الدول العربية خيانة للقضية. ولما تمضِ أعوام حتى قبل العرب بمقررات أوسلو بحسبانها نصرًا مؤزرًا، رغم أنها اقتصرت الدولة الفلسطينية كلها على مدينة أريحا التي انطلق منها تصريح بورقيبة. في ذلك الخطاب قال بورقيبة: "نصيحتي التي أقدمها لكم ولكل العرب أن تضعوا في الميزان، لا العاطفة والحماس، بل جميع معطيات القضية حتى نصل إلى الهدف حتى

لا نبقى سبع عشرة أو عشرين سنة أخرى نردد (**الوطن السليب، الوطن السليب**) دون جدوى". خطاب بورقيبة لم تجرؤ على نشره صحيفة عربية واحدة باستثناء جريدة العمل التونسية مما يؤكد وَلَه العرب بالشعارات. ولعل ذلك الوله هو السبب الذي حمل الكاتب السعودي عبد الله القصيمي على أن يقول: **"العرب ظاهرة صوتية"**.

وبعد ما ينيف على نصف قرن من مقترح بورقيبة الذي وُصف بالخيانة للقضية، بل على هزيمة العرب التي وُصفت بالنكسة كشفت إسرائيل عن وثائق حرب حزيران في يونيو 1967. تلك الوثائق أماطت اللثام عن الهزيمة التي سماها العرب النكسة بدلًا من نعتها بوصفها الحقيقي (الهزيمة). تسميتها نكسة أو هزيمة كانت تبريرها من جانب صانعيها مصدرًا للتندر بدلًا من التحليل الموضوعي. قال العسكريون المصريون، مثلًا، "انتظرناهم من الشرق فجاؤونا من الغرب" علمًا بأن أول ما يلقنه العسكري في الحروب "إن الحرب خدعة"؛ أما سوريا البعثية فقد استهانت بسقوط هضبة الجولان في يد الإسرائيليين فقال قادتها: "ما دام الحزب (حزب البعث) مهيمنًا على دمشق الفيحاء، فنحن لم ننهزم ونتيجة لهزيمة الأنظمة العلمانية في الحكم خُيل للإسلاميين بأن الهزيمة لا تعود الا لتخلي العرب عن دينهم، فبرزت حماس التي جاهرت بانتمائها إلى الإخوان المسلمين، وتضمن ميثاقها الأول (1988) أكثر من ثلاثين آية من القرآن تأكيدًا لموقفها الأيديولوجي ومرجعيتها الفكرية دون أن يخطر ببالها أن فلسطين هي وطن يحتضن مواطنين متعددي الأديان منهم من هم في الصف الأول من مناضلي فلسطين مثل المسيحية حنان عشراوي ونبيل شعث وأهل فلسطين من الدروز. وبعد ثلاثين عامًا من بروزها السياسي خرجت حماس على الناس ببيان كادت أن تغير فيه من دعاواها الدينية، وتعلن التزامها بالقيم الإنسانية الجامعة مثل التعاون مع دول العالم وشعوبه لدعم قيم التعاون والعدالة والحرية واحترام إرادة الشعوب، وهذا تطور محمود. وعلى كلٍّ فالهرب من المسؤولية عن الأخطاء التي قادت للهزيمة العربية بما فيها تزيين الهزيمة ووصفها بالنكسة قابلة أيضًا تزييف

الإسرائيليين لعوامل انتصارهم إذ حسب هؤلاء، وأعلنوا، بأن انتصار إسرائيل كان معجزة سماوية، بل أعظم من كل انتصار لليهود في تاريخهم كله.

الانحدار السحيق من لاءات الخرطوم الثلاثة، تبعه قبول الدول العربية جمعاء إلغاء واحد من أهم قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة حول (القضية)، ألا وهو اعتبار الصهيونية صنوًا للتمييز العنصري. كما أن الأسئلة التي أثارها بورقيبة ظلت تطارد مدمني الشعارات لثمانٍ وأربعين وليس فقط عشرين عامًا كما تنبأ الرئيس التونسي السابق. لست أدري إن كنا قد تعلمنا من كل تلك التجارب أن أي سياسة تقوم على الشعارات، ولا تأخذ في الاعتبار المُعطيات الموضوعية على الأرض، كان ذلك على الصعيد المحلي أو الإقليمي أو الدولي، ستكون سياسة تقوم على هيكل عظمي هش.

رغم ذلك فإن في تحميل الفلسطينيين المسؤولية الكاملة عمّا سمّاها المؤرخ المحقق قسطنطين زريق "معنى النكبة" في عام (1948) ثم "معنى النكبة مجددًا" في (حزيران 1964) ظلم لذلك الشعب إلا إن أردنا محاسبته على ارتهان قضيته للآخرين. وقد أحسن المحلل الفلسطيني عمر كيلاني عندما اعترف في مقال له أخير بأن مع ارتهان القضية للآخرين "لم يعش الفلسطينيون بعد حالة أو صيرورة استقلال وطني لا ماضيًا ولا حاضرًا " (الحياة 7 يونيو 2014). ففي حقيقة الأمر كان كل حاضن عربي للقضية العربية يساوم بها من أجل هدف يخصه. لا أدري ما الذي أحسه الفلسطينيون عندما ضاق بهم الحال في المشرق العربي، خاصة بعد حصار إسرائيل لهم حتى خارج وطنهم السليب، وأصبح ملجأهم الوحيد هو، تونس بورقيبة. وما الذي يقول المفاخرون بلاءات الخرطوم الثلاثة إن أدركوا أن مشروع القرار الذي قُدم لمجلس الأمن في نهاية عام 2014 كان تفريغًا للحن سياسي قديم اسمه "مشروع الدول اللاتينية لإنهاء الحرب في الشرق الأوسط" وخلاصته: تفاوض، صلح، اعتراف... "وليس لا تفاوض، لا صلح، لا اعتراف".

الفصل

الحادي عشر

11

بيت منصور

"بيت منصور"... وصف لم يطلقه على الدار صاحبه، بل أطلقه عليه السفير الألماني بالخرطوم عندما استأجره من صاحبه بعد مغادرته للسودان، وكان في كل دعواته في المناسبات الخاصة والعامة يطلق على المنزل الذي كان يؤويه "بيت منصور". ذلك البيت أثار لغطًا بين نوعين من الناس: نوع أثاره العجب من اختلاف شكل البيت عما تعارفوا عليه من بيوت، ومن العجب استطراف الشيء أو إنكاره لعدم الاعتياد عليه. النوع الثاني هو الذي يتحول عجبه إلى غيرة، ثم تتحول الغيرة إلى حسد. الغيرة هي فوران نفس إنسان لما وهب الله غيره وهي حالة قد تدفع المرء للتنافس وذلك أمر لا ضير فيه. أما الحسد فهو تمني آخر أن يسلبك الله ما منحك من نعمائه حتى وإن لم يحول تلك النعمى إليه، وفي ذلك ضير كبير. وقد روي عن عبد الله الطيب، والعهدة على الراوي، قوله أن بين العرب اثنتي عشرة قبيلة اشتهرت بالحسد سبعًا منهنَّ ارتحلن إلى السودان. ومن المؤسي أن يكون أكثر من عرف بهذه الخصلة الذميمة من أهل السودان هم صفوته مما يعني أنه ليس لأولئك شية من صفاء، وعلي تلك الصفوة يصدق وصف أطلقه الأستاذ أحمد مختار. ففي ذات مرة دعاني الأستاذ الكبير لتناول قدح من الشاي معه في مقهى فندق سان جيمز الذي كان يطلق على جزء منه في ذلك الزمان

(Elite Corner). سألني الأستاذ عن ترجمة ذلك الاسم للعربية، وكأنه أراد امتحان معرفتي بها فتبادر إلى ذهني تعبير (ركن الصفوة). في تلك اللحظة جال أحمد مختار ببصره فيمن كانوا في ذلك الركن ثم قال ضاحكًا: **"لو ديل الصفوة بتاعتنا العُكارة تكون كيف؟!"**. كلمة عُكارة تشير إلى السائل الذي يختفي صفوه عندما تعلق به مواد دقيقة لا يرى المرء بالعين المجردة جزيئاتها. ومنذ ذلك اليوم أصبحت كلما كتبت كلمة صفوة تبادر إلى ذهني من وصفهم أحمد مختار بالعُكارة.

صفوة كانوا أم عُكارة لماذا تفشت ظاهرة الحسد أو الغيرة المفرطة بين هذه الفئة وبصورة لا تمت للعقلانية بسبب؟

نَصِف الظاهرة باللاعقلانية؛ لأنها شملت حسد الفقير المدقع لذى مال أربى ماله بالكد والاجتهاد لا باستغلال الآخرين، أو حسد أي أكاديمي "نص كم" لآخر نبغ في مجاله بتفرغه للبحث والدراسة، أو حسد رسام أو نحات لا يجيد صنعته لآخر ذاعت سيرته في الآفاق واكتسب شهرته لتجويده الرسم والنحت، أو حسد مغن يصدق عليه القول ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لآخر فتن الناس بغنائه لما منحه الله من صوت رخيم. جميع هؤلاء الحسدة ما ذكر اسم الله حتى قالوا لا إله إلا هو، وما ذكرت اسم النبي محمد حتى ذَكَّروك بأن تصلي عليه

وتسلم، ولكنهم لا يذكرون أبدًا قوله ﷺ: **(لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا)**، أو قول الرسول : **(لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا)**، كما لا يذكرون من كتاب الله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء، 54] أو قوله: ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس، 107].

رغم ما نُسب للدكتور عبد الله الطيب عن الحسد بين بعض القبائل العربية فإن الحسد بينها لم يرد في الأدب العربي إلا في معرض الذم. مثال ذلك قول ابن المعتز:

ما عابني إلا الحسود ... وتلك من خير المعايب

وإذا فقدت الحاسدين ... فقدت في الدنيا مطالب

وقول الوراق:

أعطيت كل النّاس من نفسي ... إلا الحسود فإنّه أعياني

يطوي على حنق حشاه إذا رأى ... عندي كمال غنى وفضل بيان

أو قول الطغرائي

احذَر حَسودَك ما استطعتَ فإنه ... منه، أضرُّ من العدوّ الحاقِدِ

إنَّ الحسودَ وإن أَراكَ تَوَدُّدًا ... إنْ نِمتَ عنه فليس عنك براقِدِ

ولربما رَضي العدوُّ إذا رأى ... منكَ الجميلَ فصار غيرَ معانِدِ

ورِضا الحَسودِ زوالُ نعمتكَ التي ... أُوتيتَها من طارفٍ أو تالدِ

هذا اللون من الحسد يتسم باللؤم الذي لم أجد وصفًا له أبرع مما جاء به عباس العقاد حين قال: "ليس الحاسد هو الذي يطمع أن يساويك حتى يرقى إليك، بل هو مَنْ يريد أن تساويه بنزولك إليه".

ما الذي يحملنا على الكتابة عن "بيت منصور"؟

وراء ما نروي عن ذلك البيت ثلاثة أسباب: الأول هو إسداء شكر غير ممنون لبعض الآباء الذين رعوني في الحياة العامة، والأصدقاء الذين ما كان ذلك "البيت" ليقوم على الوجه الذي قام به لولاهم؛ والثاني هو إفادة الحريصين على الإلمام بالحقائق حول الموضوع حتى وإن كان في ذلك الحرص انشغال للمرء بما لا يعنيه. أما الثالث فهو أن نقذف في وجوه ذوي الحقد البين والمكتتم بحقائق يصبح معها حقدهم تغيظ وزفير. فإبان عملي بالأمم المتحدة (بنيويورك وباريس والجزائر) كنت أحرص دومًا على قضاء العطلات السنوية في السودان وأقيم بمنزل الأسرة بأم درمان. وفي إحدى هذه العطلات شرفني في دار الأسرة بأم درمان للتحية بالقدوم داؤود عبد اللطيف ومحمد توفيق، وعند وداعهما لي وهما خارجان من الدار قال لي داؤود: **"أنت لإمتى عاوز تسكن جنب الجامع مش أحسن يكون عندك بيت في الخرطوم"**. خرطوم ذلك الزمان كان فيها ما يبهج ويسر أكثر مما ظن الطامعون الذين غاروا عليها بحسبانها **"محل الرئيس بنوم والطيارة بتقوم"**. وفي اليوم التالي زرت داؤود في مكتبه في شركة شاشينا لرد الزيارة وما إن فرغنا من حديث حول القضايا العامة حتى انتقل لموضوع سُكناي بالخرطوم رغم أن الأمر لم يكن من همومي الشاغلة. كان أول ما قال لي داؤود أن دائرة المهدي بدأت في التخلص من عقاراتها، وكان ذلك إبان حكم عبود، ناصحًا لي بالحصول على واحد من تلك العقارات. قلت له: **"من أين لي بالمال الذي أشتري به عقارًا"**. قال: **"ما يهمكش لقد تحدثت مع إبراهيم عثمان إسحاق وإبراهيم أحمد عن الموضوع ووعدا بترتيب الأمر"**. وحتى تلك اللحظة لم يكن لي علم بدور الإبراهيمين في ذلك الأمر.

العقار الذي راق لي موقعه كان منزلًا متهالكًا في الخرطوم شرق يستأجره دكتور الفاتح أبوبكر، وكان يستخدمه كمركز للفحوص، ولربما كان هو المركز الخاص الوحيد آنذاك لتلك الفحوص. وعندما طلب مني داؤود اصطحابه إلى

البنك التجاري في مقره القديم بعمارة أبو العلا، والذي كان إبراهيم عثمان مديرًا له، وإبراهيم أحمد رئيسًا لمجلس إدارته، أدركت من أين سيجيء التمويل. اصطحبني داوؤد معه إلى مكتب إبراهيم عثمان في البنك التجاري، وفيما يبدو أن ثمة حديثًا كان قد دار بين الرجلين حول موضوع العقار تناولا فيه موضوع المبلغ المطلوب من جانب البائع (دائرة المهدي)، وعائد الإيجار الشهري من العقار، ثم قدرتي على الإسهام بدفع أقساط شهرية من راتبي لسداد الدين على أن يبقى المنزل مرهونًا للبنك التجاري. وبعد الفراغ من تلك الأمور الإدارية والمالية اصطحبني إبراهيم عثمان إسحاق لمقابلة رئيس مجلس إدارة البنك إبراهيم أحمد. لقيني الأستاذ بكثير من الحفاوة ثم قال: "نحن نريد من كل أبنائنا المغتربين العودة إلى بلادهم، وأي شيء يحبب لهم، أو يحثهم على العودة للوطن هو أمر نشجعه". أضاف: "أنا موافق على كل شيء تتفق عليه مع إبراهيم، وصحبتك السلامة، إذ علمت أنك ستعود لمقر عملك بعد يومين". نسأل الله الرحمة على الإبراهيمين، فقد كان كل واحد منهما أمة.

لم يعد يشغلني أمر ذلك العقار فيما بعد إلا بقدر حرصي على سداد قيمة رهن المنزل حتى عدت إلى السودان في (يوليو 1969) للالتحاق بنظام مايو. تلك هي المرحلة التي بدأت فيها التفكير في تشييد منزل لي بالخرطوم في قطعة الأرض التي أصبحت مالكًا لها ملك عين. وفي واحدة من زياراته لي في المنزل الحكومي الذي كنت أقيم فيه قال لي عمر الحاج موسى "أوصيك بثلاثة". قلت "وما هنَّ؟" قال: "عرفت أنك ستشيد منزلًا في الخرطوم، ونصيحتي لك أن لا تؤجره بل تسكن فيه. فمنازل الحكومة لا تدوم لأحد". قلت له هذا ما أنتويه ولهذا أريده أن يكون بيتًا زجاجيًّا لا يجرؤ غيري من بني وطني على السكنى فيه". قلت لعمر: "وما الثانية؟" قال: "أن تتملك سيارة خاصة بك، ولا تركن أبدًا لسيارة الميري فهي أيضًا لن تدوم لك". قلت: "هذه نصيحة جيدة سأتبعها فما الثالثة ؟" قال: "لا تنس أبدًا أن يكون لك صندوق بريد خاص" وقبل ظهور البريد الإلكتروني كان

لصندوق البريد أهمية قصوى عند مَن هـم في حاجـة للتواصـل مـع الخـارج. مـا أحكم الرجل الذي ظل طول عمره لا يرتهن حياته لأحد. نصيحة عمر توافقـت مع هواي، إذ إني كنت أنتوي بناء منزل لأقطن فيه على النحـو الـذي يتوافـق مـع احتياجاتي ووفق ما راق لي من منازل شهدت، أو عشت فيها، خارج السودان.

لم يتجه فكري عند العزم على تشييد المنزل في ذلك العقار لأسكن فيه إلى أحد غير صديقي المعماري عبد المنعم مصطفى، وكان أول ما قاله لي عبد المنعم: "المنزل يصممه ساكنه في خياله، فـما الـذي تريـد؟". سـؤال عبـد المـنعم ذكـرني بقـول للمعـماري المـشهور نورمـان فوسـتر "المبنـى انعكـاس لـصورة صـاحبه"، "a building is only as good as its client". وبما أن الناس في ذلك الزمـان كانوا يقضون جل وقتهم في حديقة المنزل ويسهرون مع رفاقهم في تلـك الحديقـة بل يهجعون في الليل على أسرتهم في الحوش لندرة المكيفات الهوائية آنذاك، قلـت للمعماري الفذ: مطلبي الأول هو العيش في منـزل يتـداخل فيـه المجـال الحيـوي الداخلي (internal living space) مع الفضاء الخارجي الطبيعي (land scape) بحيث تصبح الحديقة وحـوض الـسباحة جـزءًا لا يتجـزأ مـن المنـزل. وسـألني المهندس: "ثم ماذا؟"، قلت له "ألا يكون المنزل رتيبًا لأن الرتابة تورث الـسقم". قال عبد المنعم: "لتحقيق هذه الغايات لابد من استخدام حيطـان زجاجيـة ينفـذ فيها الساكن ببصره من الداخل للخارج ومن الخارج للداخل؛ مما يتيح انداياح كل فضاء في الآخر". أمـا الرتابـة "فلـن يحميـك منهـا غـير أن تكـون غـرف المنـزل والحدائق المحيطة به في مستويات مختلفة (split levels) علوية وسفلية".

عبد المنعم مصطفى معماري متفرد بين نظرائه، ولاسيما أنه قـد تـأثر كثـيرًا في فنه بالمعماريين المحدثين: الفرنسي/ السويسري لوكوربـوزيير (Le Corbusier)، والأمريكي فرانك لويد رايت منشئ متحف قوقنهايم بنيويورك، والسويـسري – الألماني مـيس فـان ديـر روو (Mies van der rhoe) صـاحب المقولـة الرائعـة: "اليسير أزيد" (small is more). المعمار عند هؤلاء جميعًـا فـن يراعـي جوانـب

أربعة: الاسطيقي أي الجمالي (ethetical)، والمنفعي (utilitatarian)، والوظيفي (functional)، إلى جانب المتانة (durability). ذلك النوع من العمارة يعتمد اعتمادًا شبه كلي على المواد المحلية: القرانيت، والطوب، والخشب المحلي (مثل المهوقني في السودان، إلا ما يضطر إليه البناء من العناصر غير المحلية. ولحرص المعماري على الاعتماد على المواد المحلية في كل شيء اقترح عليّ عبد المنعم استخدام الرخام المحلي كأرضيات بالرغم من أن صناعة ذلك الرخام كانت في مرحلة التجريب على يد إسكندر عياد. فعل ذلك عبد المنعم ومازلت سعيدًا بما فعل إذ ظل ذلك الرخام القديم على متانته وجماله، وإن لم يكن له بريق الرخام الإيطالي أو الإسباني المستورد. رغم كل ذلك ذهب ذات يوم واحد ممن هم دون "العُكارة" إلى نميري؛ ليقول له إن وزير خارجيته قد استورد كل شيء لمنزله من الخارج حتى لمبات الكهرباء ولكن نميري ألقم ذلك السخيف حجرًا عندما قال له: **"أنت كهارب بيتكم مصنوعة في المنطقة الصناعية بالخرطوم"**. أشرف عبد المنعم على العمل من ألفه إلى يائه كما قام المهندس محمود كليب بالأعمال الخرسانية، والمقاول الإغريقي السوداني بيتريدس بالبناء، وناب عني في الإشراف المباشر على البناء الخال المهندس مصطفى الصاوي. وقد حرص مصطفى الصاوي، سقى الله قبره بقطر لا ينقطع، على الاحتفاظ بكل تفاصيل ما أنفقت على المنزل. ولما سألته عن سبب اهتمامه بالأمر أجاب: **"أنت ما بتعرف البلد دي"**. صدق قول الخال بأني "ما بعرف البلد دي". ولكني عرفته فيما بعد بلدًا ما بين كل ثلاثة من الرجال إلا رجل واحد سوي يتمنى الخير لغيره والآخران حاسدان: واحد منهم يتمنى أن تتحول إليه نعمة الله عليك، والثاني يدعو لأن يسلبك الله ما أنعم عليك حتى وإن لم تلحق تلك النعمة به.

علاقتي بعبد المنعم، وبراعته في إكمال المنزل الذي عهدت به إليه، وحواري المستمر معه حول المعمار، لم يحبب إلى نفسي فن المعمار فحسب، بل كل الفنون التشكيلية والنحوت رغم ما بين الفنين من فرقان، فالمعماري يأخذ في الاعتبار

دومًا جوانب بيئية نفعية فيما ينجز من عمل فني. أما الفنان التشكيلي فقلما يأبه لاعتبار كهذا؛ لأنه لا ينشئ في فنه صورة كما ترسم الفوتوغرافيا الصورة الضوئية، بل يرسم صورة تعبر عن رؤاه الداخلية للمشهد. لقد أمدني المعماري الفذ عبد المنعم بالكثير من الكتب التي أطللت عبرها إلى الكثير مما كتبه المعماريون عن فنهم، بل ازدادت قراءتي لما كتب عن هذه الفنون عاشقوها من الأدباء. من أولئك العاشقين الفيلسوف الألماني فريدريك فون شيلنق (Friedrich Von Schelling) الذي وصف فن المعمار بالموسيقى المجمدة (Frozen Music)، ومنهم الكاتب الألماني أيضًا إيرنست ديمنيت (Ernest Dimnet) الذي قال إن "المعمار من بين كل الفنون هو الفن الذي يتفاعل مع الإنسان ببطء حتى يبلغ أعماق نفسه". على أن أبلغ ما قرأت في هذا الصدد هما مقال وكتاب: المقال للروائي الأمريكي وليام فولكنر، والكتاب هو مصابيح المعمار السبعة (The Seven Lamps of Architecture) لجون رسكن. مقال فولكنر نشرته الباريس ريفيو (Paris Review) وجاء فيه أن "هدف كل فنان هو إيقاف الحركة، وهي الحياة بوسائل اصطناعية والإبقاء عليها بحيث إن قيض لشخص بعد مائة سنة أن ينظر إلى العمل الفني يبدأ ذلك العمل في الحركة من جديد لأن العمل الفني ليس هو فقط الحياة ذاتها، هو أيضًا حوار بين الفنان والرائي". ما أروعهم الفنانون الذين يوقفون الحياة بأزميلهم أو فرشاتهم ثم يجعلونها تتحرك عند النظر إليها. أما كتاب رسكن، فقد جاء في فترة أخذ فيها المعماريون في تدمير الآثار القوطية، ففي رأيه أن المباني، هي مستودع (repository) الذكريات؛ لأنها تعبر عن لحظة معينة في تاريخ الأمة: فإن أزيلت أو شوهت فقد المرء جزءًا من ذاكرته. ففي مقدور الإنسان أن يجد مكانًا آخر يسكن أو يتعبد فيه ولكن لن يبقى ما يذكره بماضيه.

ابتدع المعماريون أيضًا شيئًا سموه أخلاقيات المعمار (ethics of architecture) وكان ذلك في سنوات الهيجان الاشتراكي، خاصة في العهد الستاليني. فقد بدأ ستالين، مثلًا، في تحطيم الكنائس القديمة لتُبنى مكانها مساكن

للعمال، وكأنه ليس في الاتحاد السوفيتي، القطر الأكبر مساحة في العالم، أرضًا كافية لتشييد المساكن "الاشتراكية" وأسميها الاشتراكية لأن كل شيء في تلك المساكن كان مشاعًا: المطابخ، صالات الطعام، المسابح، الحدائق إلا غرف النوم التي وفرت فيها لكل أسرة من أسر المناضلين خلية (cell) للنوم فيها. هذه الظاهرة سبق إليها الشيوعيون في روسيا بعض رجالات الثورة الفرنسية الذين قرروا إعادة تشكيل الآثار القوطية وفق نظرتهم الطوباوية. قول رسكن بقي في الحافظة، واستذكرته عندما عدت للسودان بعد غيبة طويلة لأشهد ما لا خطر على قلب بشر مثل تشويه المباني العامة الأثرية في الخرطوم التي ظلت قائمة منذ العهدين التركي والثنائي والقضاء المبرم على الساحات العامة التي أقيمت على عهد عبود في حي الثورة بأم درمان والامتداد (العمارات) في الخرطوم؛ لتكون رئة تتنفس بها المدينة. وفي حديث للرأي العام سميت تسليع الأرض، وما عليها دون تقدير للأهمية التاريخية لها بالشغب المعماري الذي أقدم عليه صانعوه دون أن يلجؤوا إلى مؤرخ يهدي السبيل، أو خبير معماري يبين المعنى وراء المبنى.

الشغب هو إثارة الفتن والحيدة عن الطريق القويم، ولكن ما نراه اليوم في مجال المعمار تجاوز ذلك المفهوم إلى التدمير المعماري الذي لا يبالي بقوانين البناء ولا بالجانب الاسطيقي في المعمار. فحين كانت قوانين تخطيط المدن في الماضي تقضي بتقسيم الأرض في المدن إلى درجات (درجة أولى ودرجة ثانية ودرجة ثالثة) لم تكن تفعل ذلك لتخلق بين السكان تمايزًا طبقيًا بل لتحمي المجتمع من الاستفزاز الطبقي. فالأرض كانت توزع بمساحات محددة تخصص لكل فئة من السكان حسب قدراتهم المالية، وكان البناء يتم وفق توصيف لنوع المواد التي تستخدم في البناء وارتفاع المباني. ولكن أيّ تجول في العاصمة الكبرى في هذا الزمان يبين أن هذه القواعد لم تعد تلقى أدنى اهتمام من المسؤولين عن البناء في البلديات. هذا لم يَقُد فقط إلى تشويه المدينة، بل أيضًا إلى استيلاد حقد طبقي ناجم عن تقارب المباني الشاهقات مع المنازل المتواضعة زرية الشكل.هذا النمط من المعمار هو، في

واقع الأمر، طفح معماري والطفح عند الأطباء مرض جلدي يصيب طبقات الجلد الغائرة بسبب الذباب أو اليرقانات وعساي أشير هنا إلى تجربة محتشدة بالمعاني مررت بها في صباي؛ ففي زيارة لمنزل الوزير المهندس ميرغني حمزة لتناول القهوة مع ابنه حمزة في أحد أيام الجمع -وذلك أمر كنت أفعله كل جمعة بعد تناول الغذاء مع أسرتي بأم درمان- فوجئت وحمزة بدخول والده الوزير المهندس علينا. وبعد بضع دقائق سألني: "هل أراك حمزة التعديلات التي قمنا بها في الدار". وكان العم ميرغني بعد تخليه عن السياسة قد انكب على إعادة بناء الأرض الفسيحة التي كان يملكها وتقسيمها وبنائها لأبنائه وبناته. استجبت شاكرًا للدعوة وبعد جولة في المبنى الجديد سرني ما رأيت ولكن أضفت إلى التعبير عن السرور: "الشيء الوحيد الذي لم يرُق لي رؤيته هو الحوائط الخارجية للدار". سألني ميرغني "ما بها؟"، فقلت له إنها مازالت على ما كانت عليه منذ زمان: "جالوص وزبالة". رد على العم ميرغني بالقول: "يا ابني من حقنا أن نفعل ما نشاء داخل منزلنا ولكنا يجب **ألّا نستفز الجيران"**. هذا قول لا يصدر إلا من رجل عميق الحس بمشاعر الآخرين.

من تلك الآثار كلية غردون، والقصر الجمهوري القديم، ووزارة المالية، والبوستة. بعض هذه المعالم مازالت قائمة ولكنها لا تلقى العناية المطلوبة من المشرفين عليها، خاصة فيما يتعلق بالجانب الاسطيقي في المعمار. فمثلًا، استبدلت جميع النوافذ والأبواب التركية القديمة المصممة من الخشب على النمط الفينيسي (Venetian blinds)، أي النمط المتعارف عليه في مدينة البندقية؛ لتستبدل بنوافذ من الألمونيوم بالرغم من وجود نجارين مهرة في السودان مازال في مقدروهم صنع تلك النوافذ. وفي هذا المجال علني أتحدث عن واقعتين، الأولى عن تجربة مررت بها والثانية عن موقف لعالم أثري جليل. التجربة التي مررت بها تبدو عند البعض أمرًا ضئيلًا وهي عندي كبيرة. الفوضى المعمارية قد تحدث في أي زمان ولكنها تستشري إن لم تقمع. فذات مرة عدت بعد رحلة قصيرة خارج البلاد

لأرى مدخل القصر الجمهوري حيث كنت أعمل مضاءً بمصابيح من النيون "أحمر أخضر أصفر فاتن يا سمارة"، دون أن يكون في هذه الأضواء مجتمعة أو فرادى ما يسر الناظرين. وعندما سألت عمن فعل ذلك قيل لي إنه ضابط عسكري كبير كان من بين مهامه الإشراف الإداري على القصر. استدعيت الرجل لأسأله لماذا فعل هذا ومَن استشار. كان الضابط، فيما استبان لي، يتوقع مني ثناء على عمله العظيم باستجلاب أدوات الزينة هذه من جده، ولهذا ذهل عندما قلت له: "أليس في القصر مهندس؟ أجاب نعم في القصر مهندس، ولكنا لم نحتَج لصيانة للبناء". قلت له "سألت عن المهندس لأن واجب المهندس ليس هو الإشراف على صيانة البناء فقط، بل أيضًا لتقدير إن كانت تلك الصيانة في حاجة للاستعانة بخبير معماري من وزارة الأشغال ليدله على إن كانت "كهارب" الضابط الهمام هي الإضاءة المناسبة لذلك المبنى التاريخي". وإمعانًا في الزراية بالضابط قلت له هنالك فرق في الشكل والمحتوى بين المقر الرئيسي للحاكم العام وبين مطاعم الخرطوم.

أما الحدث الذي صادف الأثري الجليل جعفر ميرغني، فكان عند صعود الإنقاذ على الحكم. فمنذ عهد نميري تقرر إغلاق كنيسة كل القديسين التي كانت قائمة في قصر الحاكم العام منذ عام 1899 وعوض نميري رعاة الكنيسة بأرض أخرى في الخرطوم أقاموا عليها كنيستهم. وعندما فكر بعض إداريي القصر استخدام المبنى كمكاتب للإدارة، قلت لنميري أحرى بنا أن نحولها إلى متحف للقصر تقديرًا لحرمة المبنى عند أهل تلك الملة، وذلك رأى وافق عليه نميري بلا تردد. وفي عهد الإنقاذ بدأ ذلك النظام في "قطع رأس" الكنيسة لوجود الصليب فيه، فنهاهم جعفر عن ذلك ولكنهم لم ينصاعوا له. فقال لهم سيجيء مَن سيوقف ما تفعلون، وبالفعل أثار هدم الكنيسة ثائرة المنظمات الكنسية في بريطانيا ضد هدم كنيسة كل القديسين؛ فاكتفوا بقطع رئاس الكنيسة وإزالة الصليب. لا أدري إن كان أولئك المسلمون الجدد قد قرؤوا أخبار مكة. ففي عام 250 هجرية أخرج

الإمام أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي أقدم كتاب عن تاريخ مكة. وفي فصل عنوانه "ما جاء في ذكرى بناء قريش والكعبة في الجاهلية" روى المؤلف في الفقرة 181 عن شيبة حاجب الكعبة أن النبي ﷺ قال "يا شيبة.. أُمْحُ كل صورة فيه إلا ما تحت يدي". قال فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه". وإذا أدركنا أن الله لم يذكر اسم امرأة في القرآن إلا مريم ليس في موقع واحد بل في 34 موقعًا، وإذا أدركنا أن اسمها ورد في القرآن مقرونًا باسم ابنها عيسى صراحة في 16 مرة لا تصبح إزالة مثل هذا الأثر إلا غلوًا، والإسلام يقول: "لا تغلوا في دينكم". ومن الماضي للحاضر نتحدث أيضًا عن تعرض أثرين آخرين للإزالة بالرغم من قيمتهما التاريخية باعتبارهما أكبر موقعين سُجل فيهما تاريخ السودان الحديث: نادي الخريجين بأم درمان وسراي الإمام عبد الرحمن المهدي في الخرطوم. ولا شك في أن نميري كان أرق حسًا بالتاريخ عندما قرر تحويل سراي الإمام بالخرطوم عند مصادرتها إلى دار للوثائق السودانية. ولكن عندما تصبح السراي عظمة نزاع بين الوارثين، أو يصبح نادي الخريجين عظمة نزاع بين السياسيين وغير السياسيين من ورثة الدار يحق لنا القول أنه لم يعُد في السودان كاتب أو شهيد.

أعود في خاتمة هذا الفصل إلى "بيت منصور" لأورد تعليقين: الأول، ما أروعه، كان لرجل الأعمال الصديق حسن إبراهيم مالك عندما قال لضيوف من الأصدقاء والزملاء الذين دعوتهم للاحتفال بانتقالي إلى داري الجديدة وبهرهم ما رأوا. قال حسن وهو يشير لحضور الحفل: **"ما يميز هذا المنزل هو القيمة المضافة التي أضفاها عليه صاحبه من خبراته وما رأى في الخارج. فإن كان منصور دكتورًا فبشير عبادي أيضًا دكتور، وإن كان وزيرًا فعون الشريف قاسم وزير، وإن كان حسن بليل صاحب فلوس، فأنا أغنى منه ومنكم جميعًا"**. التعليق الثاني كان لشيخنا القانوني بابكر عوض الله، وكان بابكر من أوائل مَن زارني للتهنئة بالارتحال إلى منزلي الجديد، وسره ما رأى. وعند مغادرته المنزل قال مولانا مبتسمًا: "هل المهندس العمل البيت ده ما زال حيًّا". ولمعرفتي بإلمام مولانا

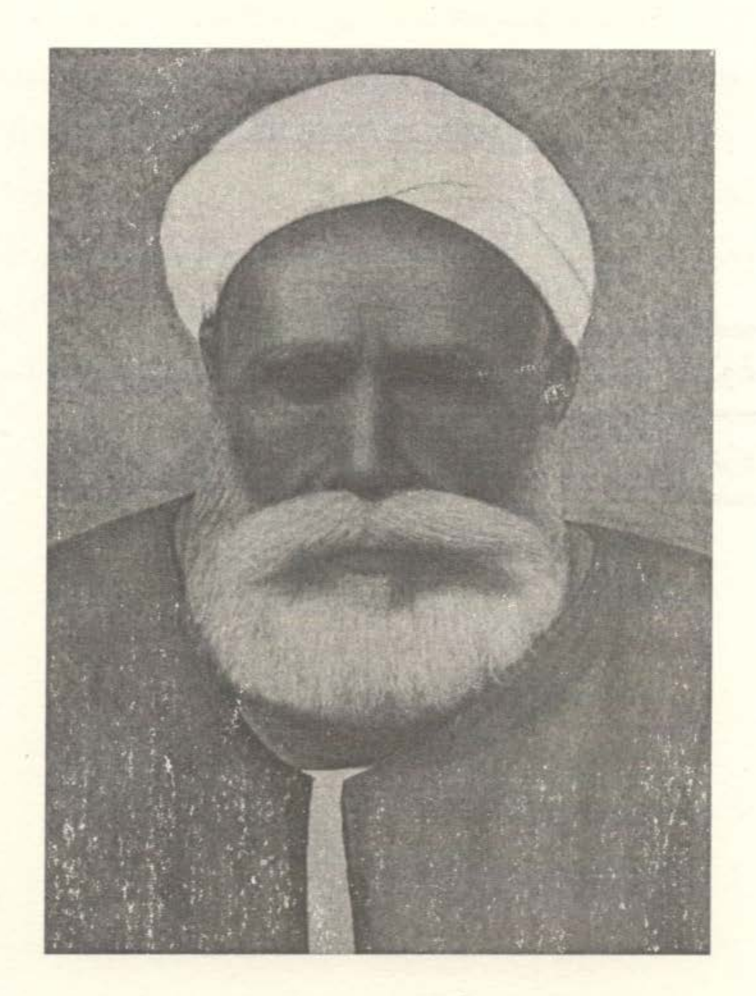
بالأدب والتاريخ فطنت إلى ما وراء قوله فقلت له: "لن يكون جزائي لصديقي المعماري مثل جزاء سنمار". سنمار هو المعماري اليهودي الذي أشاد قصر النعمان ابن المنذر الذي أطلق عليه اسم "الخورنق والسدير". ولما فتن النعمان بالقصر وشهد افتتان الناس به أمر بدق عنق المعماري حتى لا يبني قصرًا مثله لأحد. وقانا الله شر الناقمين الذين لا يحسنون صنع أي شيء، ولهذا يحسدون غيرهم حتى على المسكن والملبس وربما المأكل. وبما إني تعلمت في الأسرة أن علاج الحسد قد يكون بالقرآن وضعت على الباب الداخلي للدار آيات ثلاث: الأولى ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 137]. والثانية ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: 64] أما الثالثة فهي ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: 24]. الآية الأخيرة تعبير عن يقيني بأن كل شيء في الحياة زائل كزوال الشمس في كبد السماء. مع كل ذلك أقول إن بيتي هو قلوب أصدقائي عند الشدة، فعند الرخاء الكل صديق.

ملحق الصور الفوتوغرافية

للجزء الأول



أئمة مسجد وشيوخ خلوة الشيخ محمد عبد الماجد بعد وفاته



الشيخ أحمد الصاوي عبد الماجد



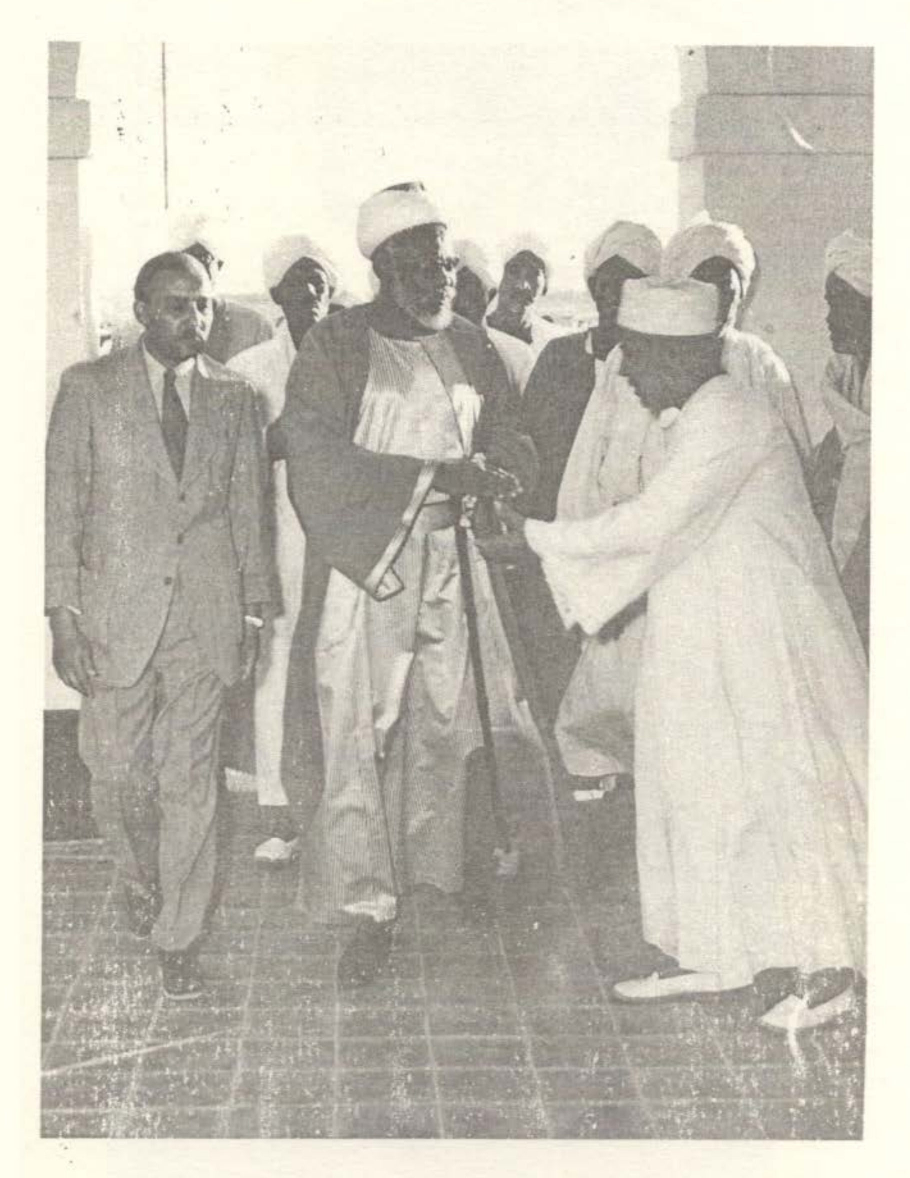
الشيخ عبد العزيز الدباغ محمد عبد الماجد



الشيخ سليمان محمد عبد الماجد



الشيخ خليل محمد عبد الماجد

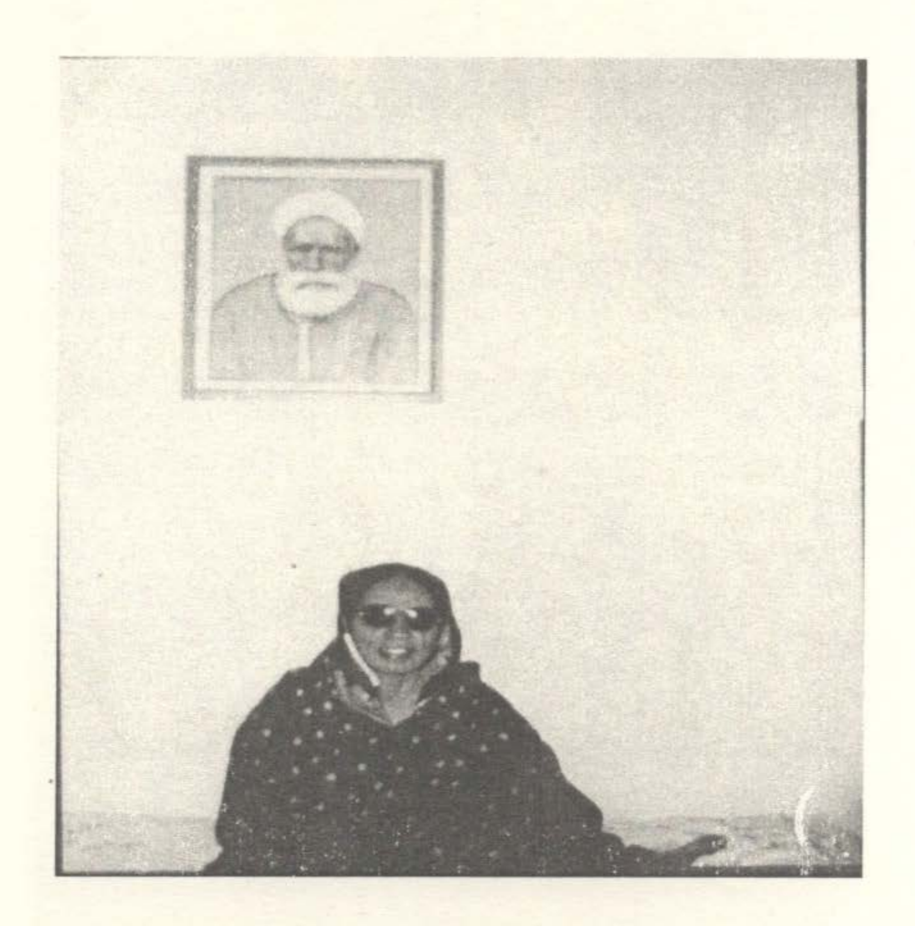


السيد عبد الرحمن المهدي وعلى يساره الشيخ سليمان محمد عبد الماجد
وعلى يمينه الأستاذ يوسف بدري



عميد الأسرة أمير الصاوي مع الزعيم الأزهري رئيس الوزراء ووزير الداخلية خلال استقباله للزعيم في القضارف حين كان يعمل مفتشًا للمنطقة

صور من الأسرة الصغيرة



الوالدة سارة الصاوي وفوق رأسها ورأسنا جميعًا والدها وجد الكاتب الشيخ الصاوي عبد الماجد



الوالدة سارة الصاوي بصحبة شقيقها وداعة ومصطفى الصاوي وثلاثة من شقيقات المؤلف



هدية البراءة التي مَنَ بها الأستاذ أحمد حسن فضل السيد خلال إشرافه على داخلية كتشنر

بوادي سيدنا على تلميذه منصور خالد

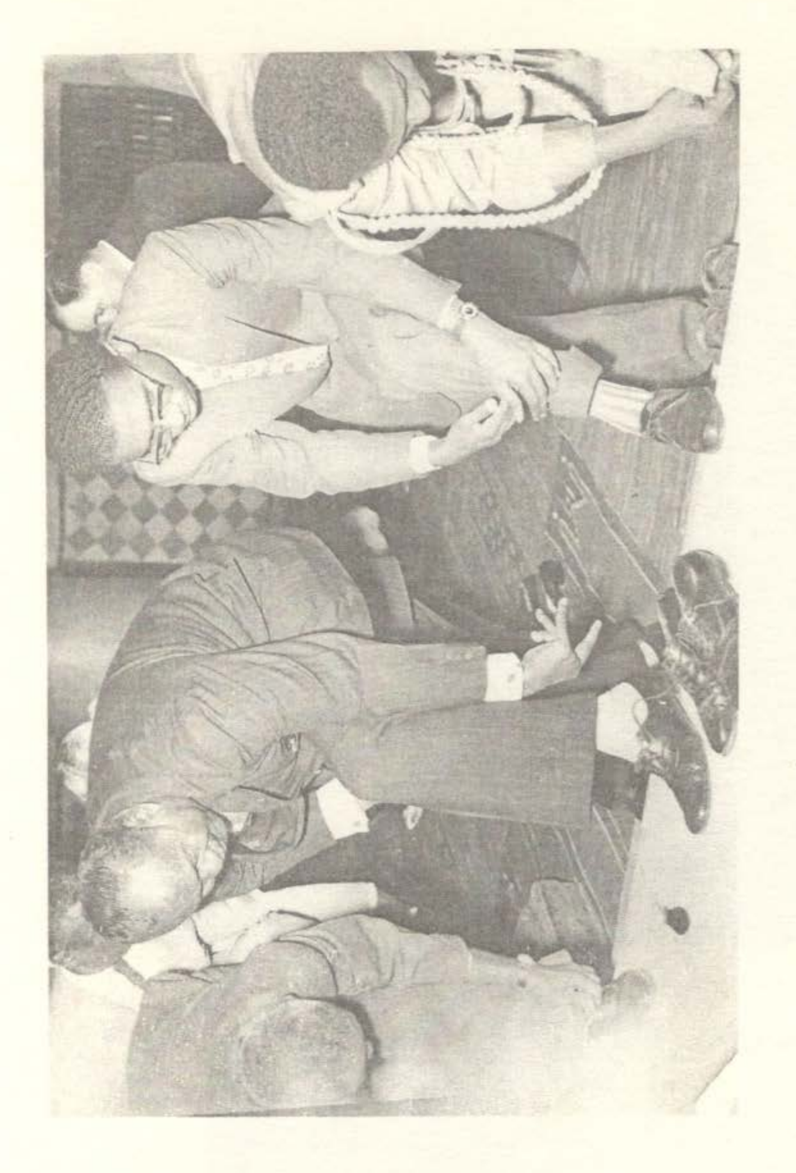
في رفقة عبد الله بيه خليل



الملك حسين وعبد الله خليل وعن يمينهما الأستاذ أحمد يوسف هاشم والمؤلف وعن يسارهما الأستاذ محمد أحمد محجوب وزير الخارجية، وجمال محمد أحمد سفير السودان في لبنان والمشرق، محجوب مكاوي سفير السودان بالمملكة العربية السعودية، وعمر محمد الطيب المرافق العسكري لرئيس الوزراء

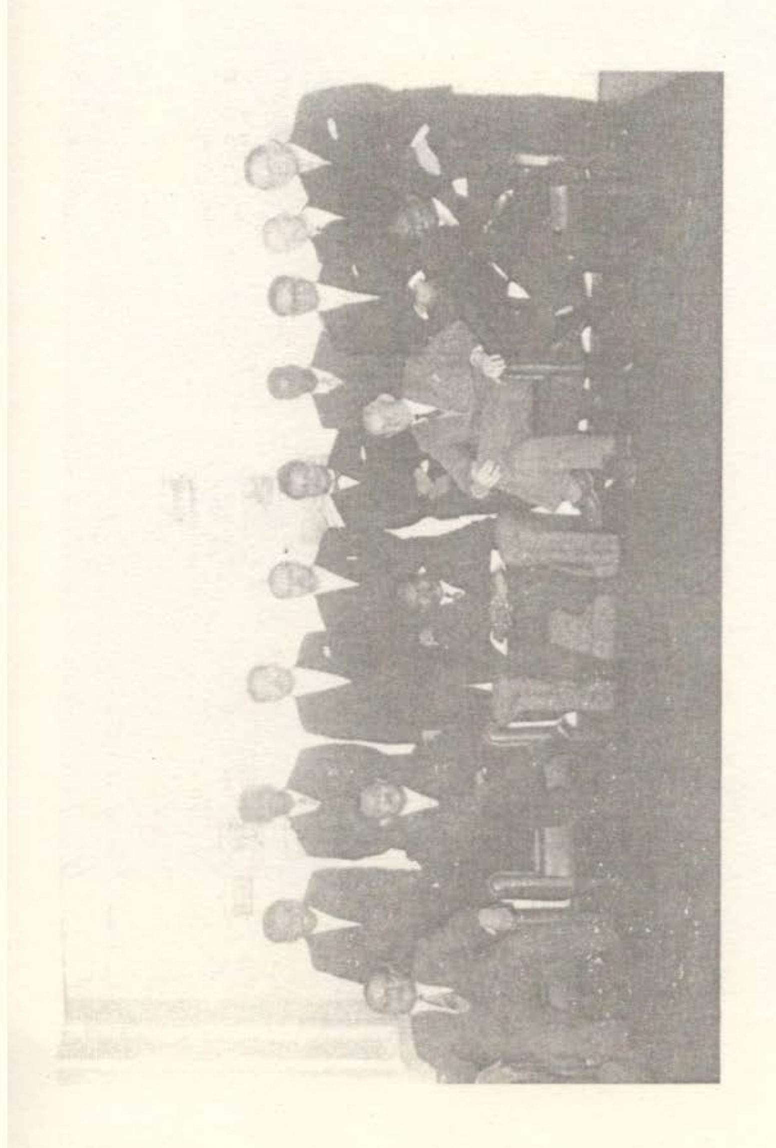


الرئيس السوري شكري القوتلي يستقبل رئيس الوزراء السوداني عبد الله خليل في قصر الرئاسة بدمشق وإلى يمينه المؤلف وشيخ الصحفيين السودانيين أحمد يوسف هاشم

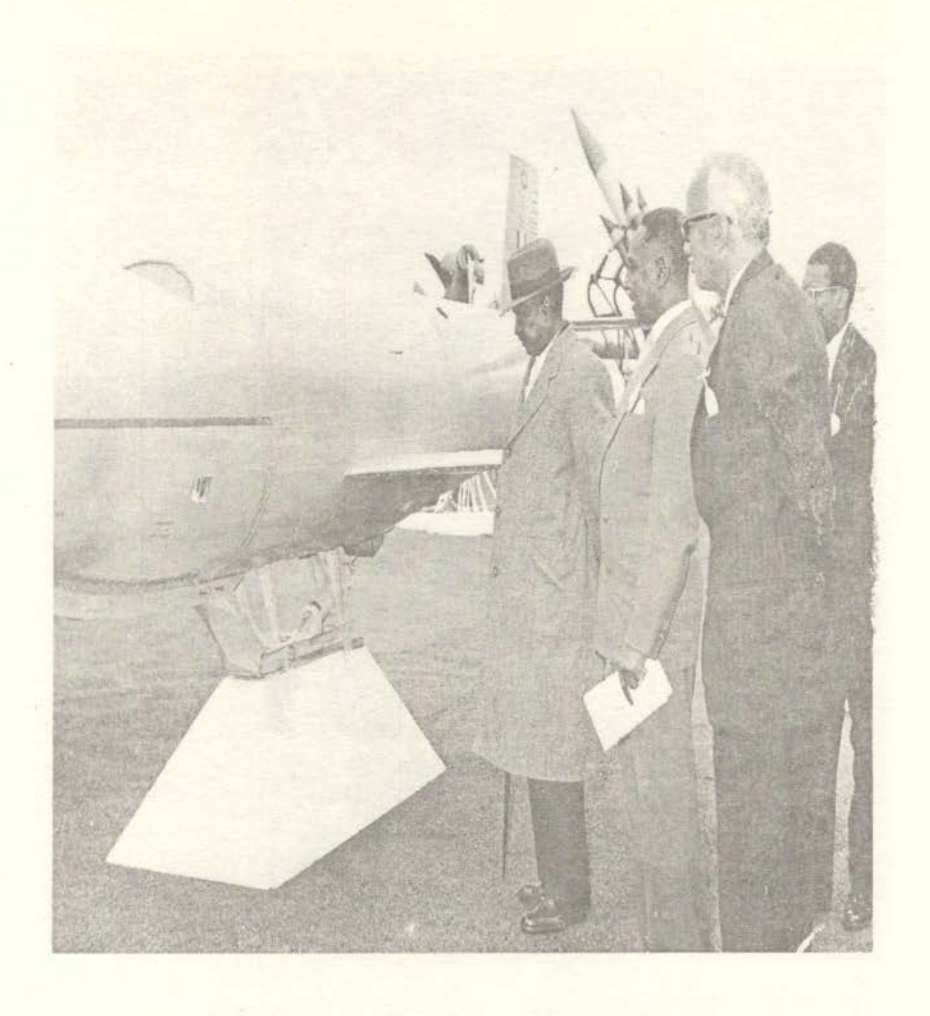


المؤلف برفقة رئيس وزراء السودان عبد الله خليل عند الخروج من مسجد أبي حنيفة ببغداد بعد صلاة الجمعة

في صحبة البيه خلال زيارته الرسمية إلى لندن



عبدالله بيه خليل خلال زيارته للندن وعلى يمينه زعيم المعارضة مبارك زروق وعلى يساره المستر كارمايكل السكرتير المالي السابق



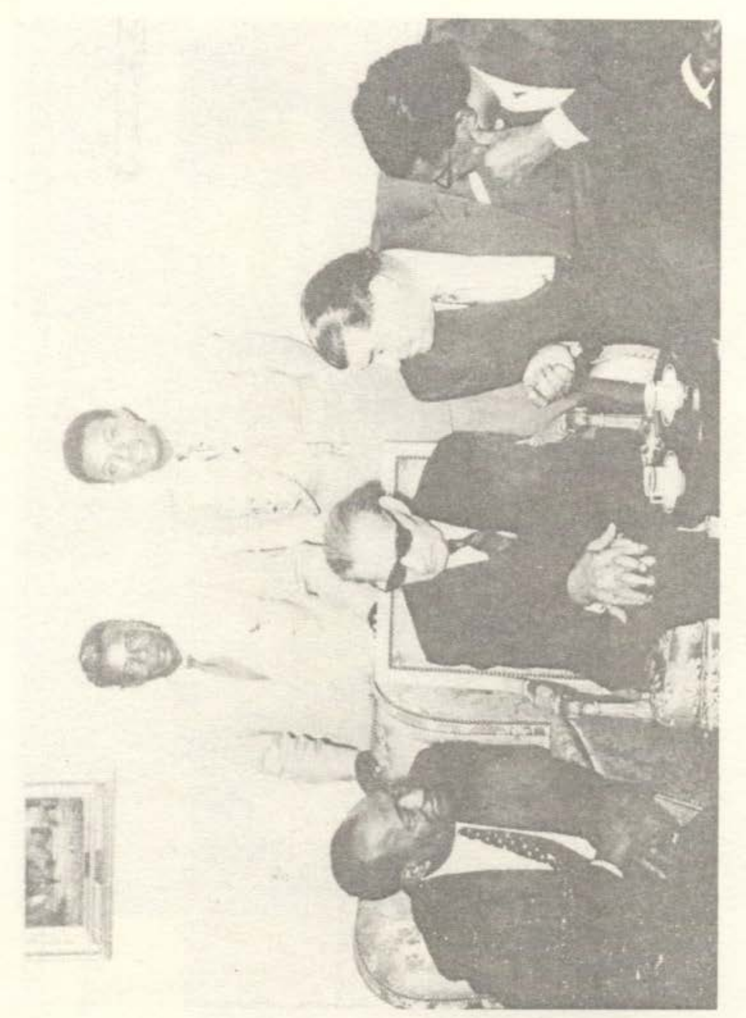
المؤلف في معرض الطيران بفانبورا خلف رئيس الوزراء عبد الله خليل ، وإلى يساره
السفير عوض ساتي ، والقاضي أحمد بدري



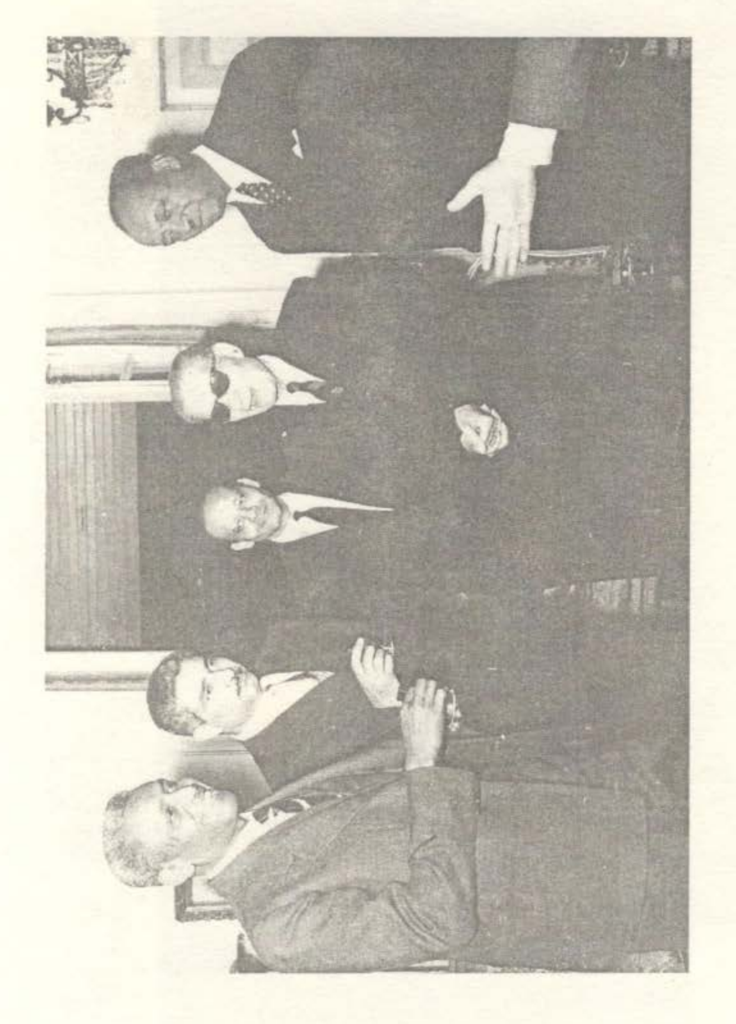
المؤلف برفقة وزير مالية السودان إبراهيم أحمد في لقاء مع الرئيس جمال عبد الناصر بمكتبه أثناء زيارة عبد الله خليل للقاهرة



حفل عشاء أقامه رجل الأعمال أميل البستاني في بيروت على شرف رئيس الوزراء عبدالله خليل وأمامهما وزير الخارجية محمد أحمد محجوب وعلى يسارهما رئيس البروتوكول السوداني أحمد حسن مطر ثم المؤلف



الدكتور طه حسين يتوسط الصورة وعن يمينه محمد أحمد محجوب وزير خارجية السودان والمؤلف على أقصى يساره وخلفهم ياور رئيس الوزراء عمر محمد الطيب وطه صالح سكرتير مجلس الوزراء

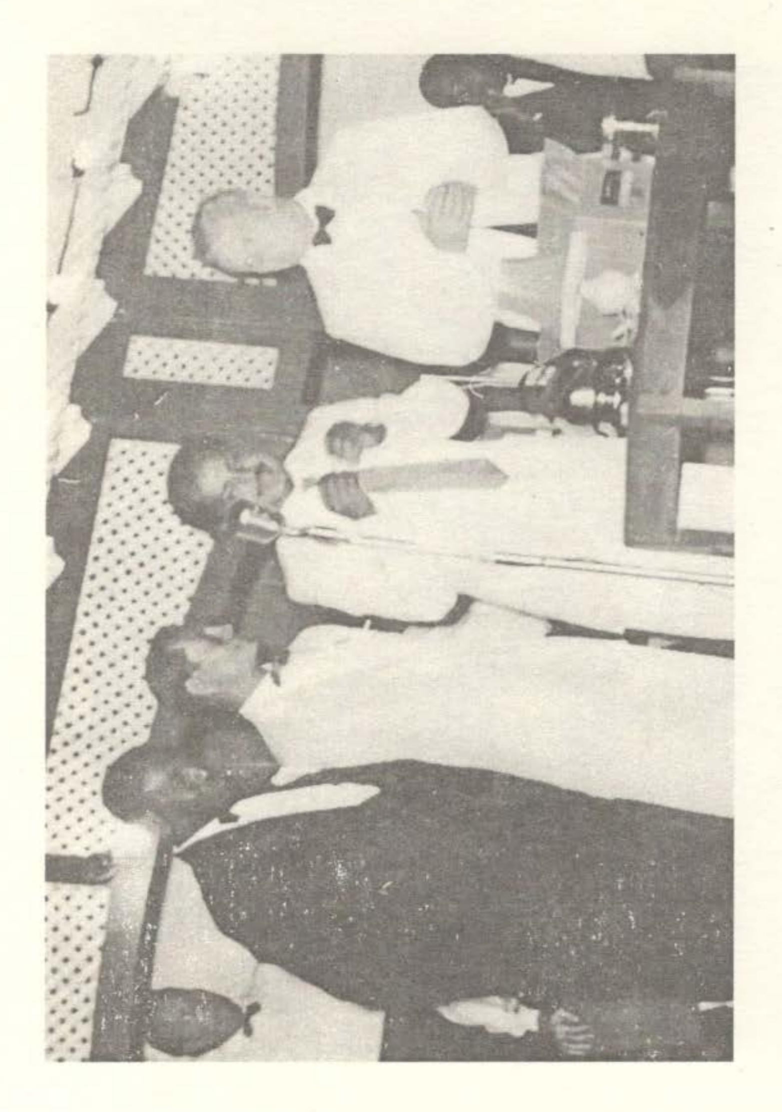


الدكتور طه حسين إلى يساره وزير خارجية السودان محمد أحمد محجوب وفي أقصى اليمين سفير السودان بمصر
يوسف مصطفى التني عن اليمين



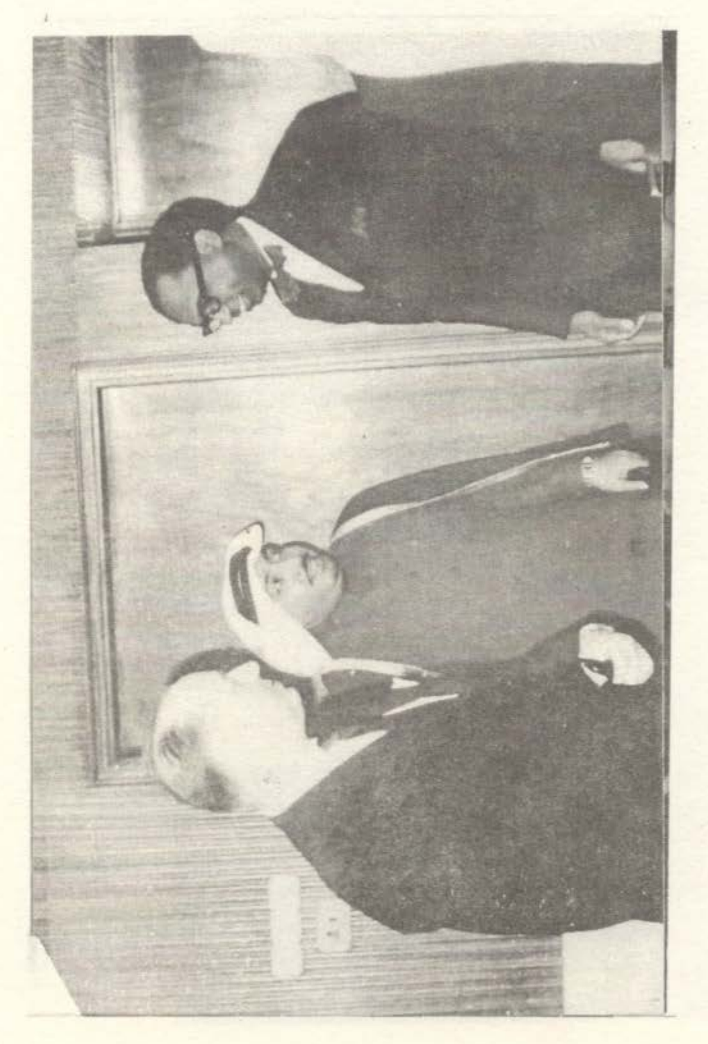
المؤلف مع القاضي عبد الرحمن النور ويتوسط الصورة دونالد هولي السفير بوزارة الخارجية البريطانية آنذاك
والمسجل العام السابق للقضاء السوداني

في دار الثقافة

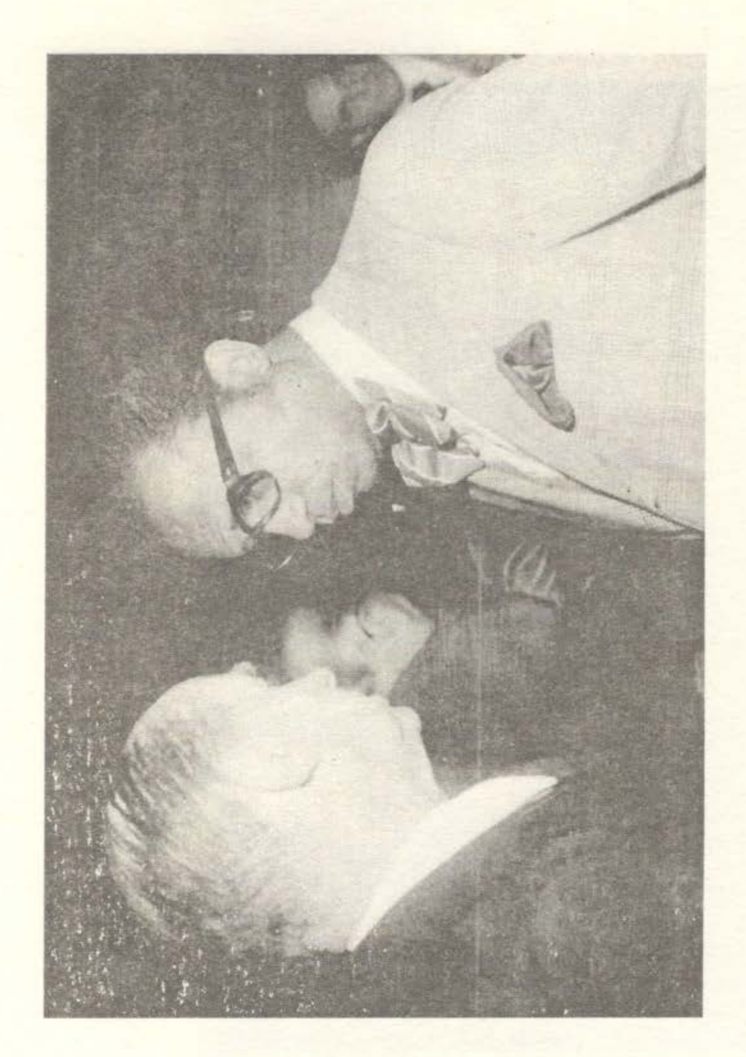


الحاكم العام روبرت هاو في حفل لوداعه بدار الثقافة بالخرطوم وعلى يمينه محمد المكاوي مصطفى منظم الحفل، وسكرتير الدار محمد توفيق أحمد، ومدير المعارف عوض ساتي

في رحلات مدير عام اليونسكو



المؤلف مع رينيه ماهيو مدير عام اليونسكو عند استقبال الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني وزير المعارف القطريه بالدوحة 14/2/1967



المؤلف مع مدير عام اليونسكو رينيه ماهيو



وزير المعارف القطري بالدوحة في استقبال مدير عام اليونسكو وفي صحبته دكتور خلدون الكناني رئيس مكتب العلاقات مع الدول العربية والمؤلف بحسبانه مساعداً للدكتور الكناني

باء الأسرة النوبية

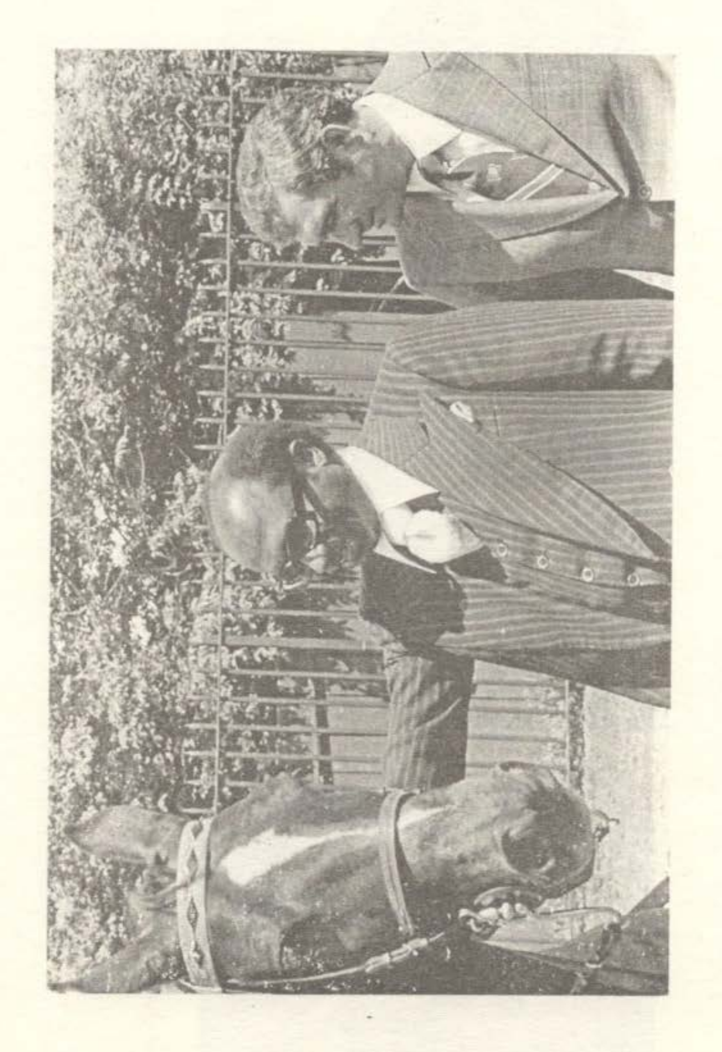


الاستاذ محمد توفيق احمد

السيد داؤود عبد اللطيف



الأستاذ جمال محمد احمد



في دنيا الخيل: المؤلف في لونقشا اكبر ميادين سباق الخيل بباريس

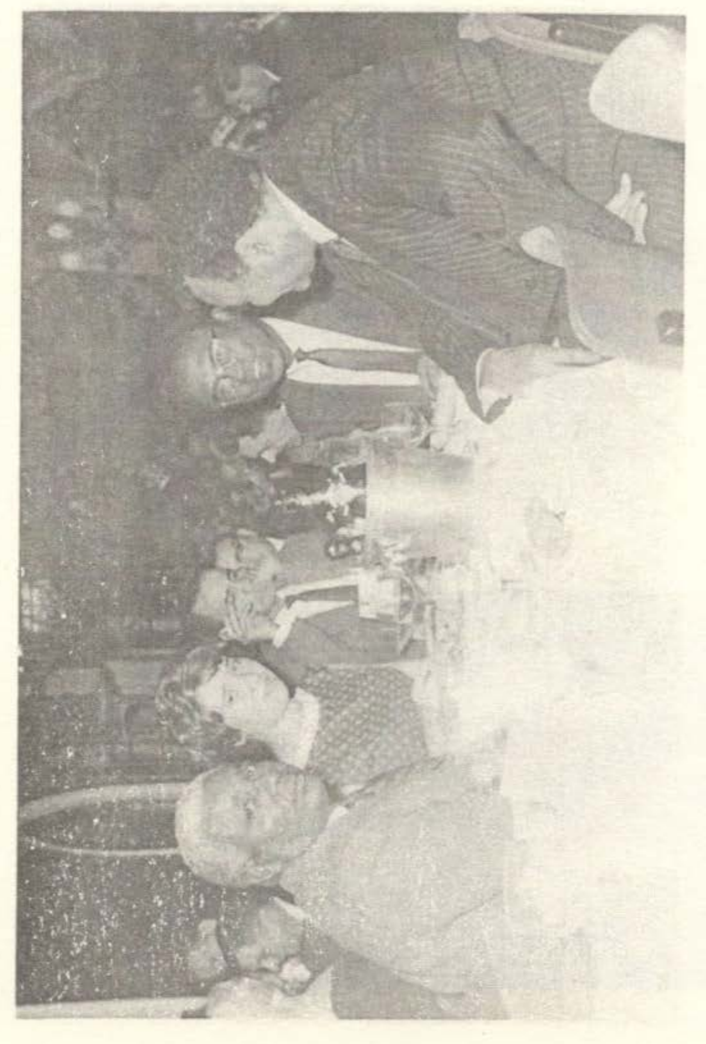
أسد وشبله





المهندس ميرغني حمزة نائب رئيس الوزراء وابنه السيد حمزة ميرغني وكيل وزارة المالية

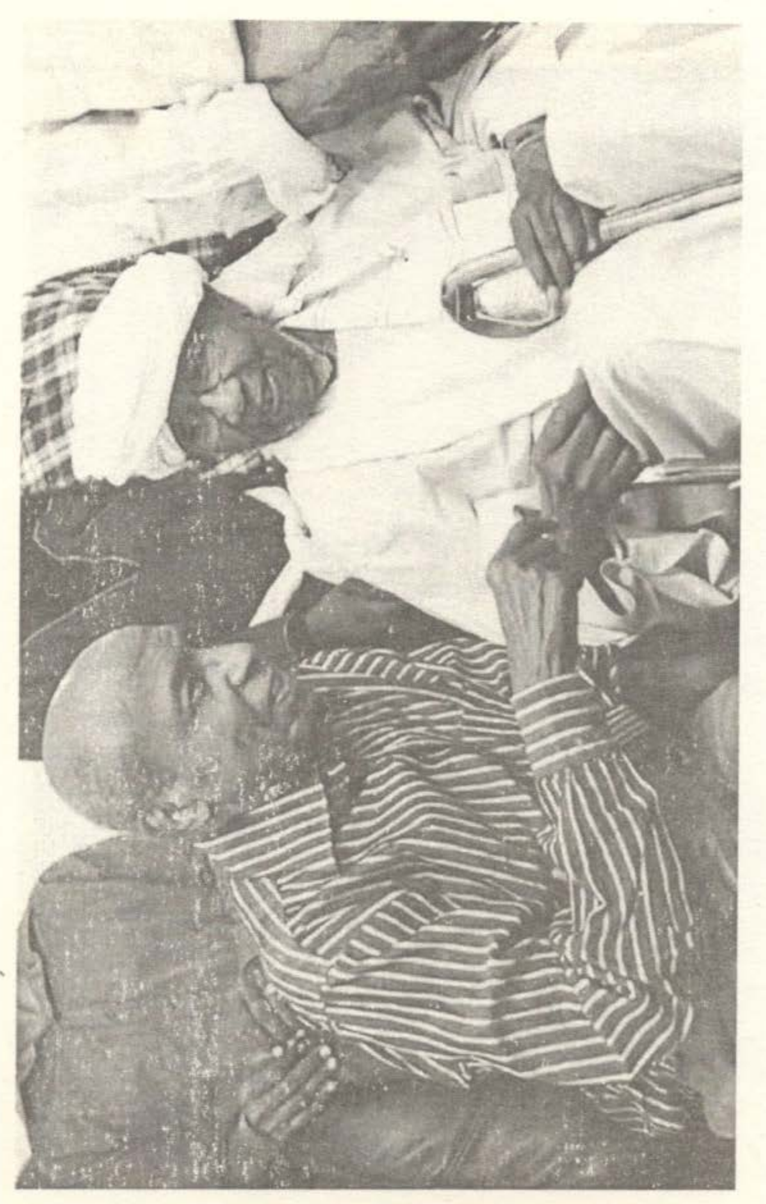
زوار باريس



في حفل عشاء أقامه المؤلف في نفس الملهى على شرف السيد مكي عباس ونقيب المحامين السودانيين عابدين إسماعيل
خلال زيارتهما لباريس



في حفل عشاء على شرف السيد ميرغني حمزة أقامه المؤلف خلال عمله باليونسكو في مقهى اللدو شارك فيه بعض موظفي شركة سوقربا للري التي كانت تتولى يومذاك الإشراف على إنشاءات الري بالسودان



المؤلف مع الفنان المبدع إبراهيم الصلحي: من ميعة الصبا إلى خريف العمر



الغلاف: عصام عبدالحفيظ

شذرات من، وهوامش على، سيرة ذاتية

الجزء
الأول

منصور خالد

